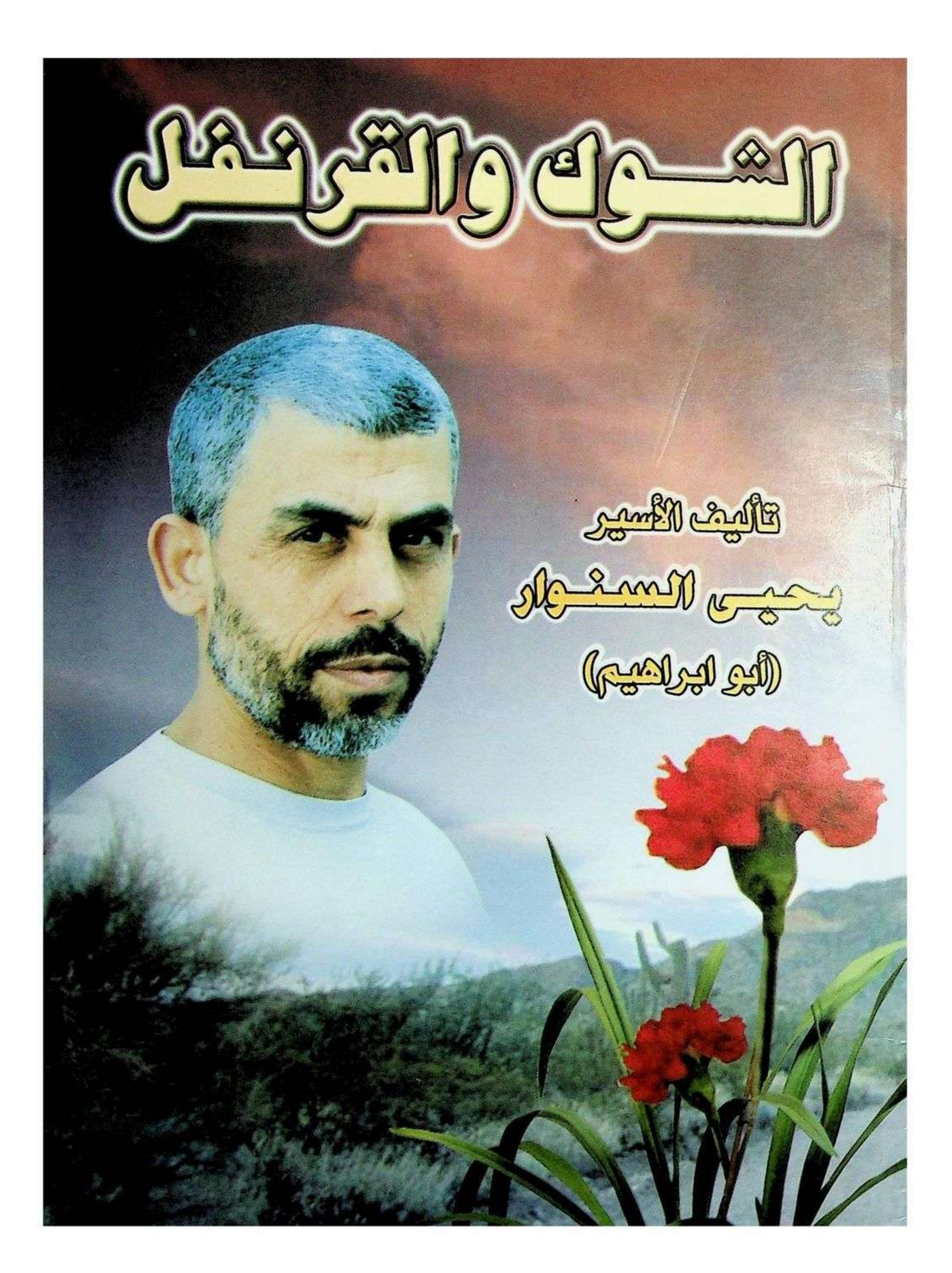


الشوك والقرنفل
تأليف الأسير
يحيى السنوار
(أبو ابراهيم)


MOHAMED KHATAB

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتــاب والكــاتــب

الكتاب : شوك القرنفل

الكاتب : يحيى إبراهيم السنوار

فلسطيني من عائلة هجرت من مدينة عسقلان عام ألف وثمانية و اربعين إلى قطاع غزة .

- ولد عام ١٩٦٢ في مخيم خان يونس .
- حاز على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الإسلامية في غزة ، وكان من أوائل من رفعوا لواء المقاومة الإسلامية في فلسطين .
- سجن مطلع عام ١٩٨٨ ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولا يزال من ذلك التاريخ أسيراً في سجون الاحتلال .
- كتب هذه الرواية (أشواك القرنفل) صاهراً منها ذكرياته ، وقصة شعبه ، من الآلام والآمال وجعلها قصة كل فلسطيني ، وقصة كل الفلسطينيين ، في عمل درامي أحداثه حقيقية وشخصياته في غالبيتها خيالية ، وبعضها حقيقي .
- تعرض فيها لمعظم المحطات الأساسية في تاريخ الشعب الفلسطيني منذ نكسة عام ١٩٦٧ وحتى بدايات تفجر انتفاضة الأقصى المباركة .
- هذه الرواية كتبت في ظلمة الأسر في سجون الاحتلال في فلسطين ، دأب العشرات لنسخها ومحاولة إخفائها عن عيون الجلادين وأيديهم الملوثة ، وبذلوا جهداً جباراً في ذلك ، عمل كعمل النمل لإخراجها على النور ، لتكون في متناول القراء ولعلها تصور على الشاشات أمام المشاهد في صورة حقيقية للواقع في أرض الإسراء .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكاتب

هذه ليست قصتي الشخصية وليست قصة شخص بعينه رغم أن كل أحداثها حقيقية ، كل حدث منها أو كل مجموعة أحداث تخص هذا الفلسطيني أو ذاك ، الخيال في هذا العمل فقط في تحويله إلى رواية تدور حول أشخاص محددين ليتحقق لها شكل العمل الروائي وشروطه ، وكل ما سوى ذلك حقيقي ، عشته وكثير منه سمعته من أفواه من عاشوه هم وأهلوهم وجيرانهم على مدار عشرات السنوات على أرض فلسطين الحبيبة .

اهديه إلى من تعلقت أفئدتهم بأرض الإسراء والمعراج من المحيط إلى الخليج ، بل من المحيط إلى المحيط .

يحيى إبراهيم السنوار

سجن بئر السبع ٢٠٠٤

الفصل الأول

شتاء عام ١٩٦٧ كان ثقيلاً يرفض الرحيل ويزاحم الربيع الذي يحاول الإطلال بشمسه المشرقة الدافئة، فيدافعه الشتاء بغيوم تتلبد بالسماء، وإذا بالمطر ينهمر غزيراً من السماء فيغرق تلك البيوت البسيطة في مخيم الشاطئ للاجئين بمدينة غزة وتجري السيول في أزقة المخيم فتقتحم البيوت وتزاحم ساكنيها في غرفهم الصغيرة ذات الأرضيات المنخفضة عن مستوى الشارع القريب.

مراراً وتكراراً تدفقت مياه سيول الشتاء إلى ساحة دارنا الصغيرة ثم تدفقت إلى داخل هذه الدار التي تسكنها عائلتنا منذ بدأ الحال يستقر بها بعد أن هاجرت من بلدة الفلوجة في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وفي كل مرة يدب الفزع بي وبإخواني الثلاثة وأختيّ وخمستهم كانوا يكبرونني سناً فيهب أبي وأمي إلينا ليرفعونا عن الأرض، ولترفع أمي الفراش قبل أن تبلله المياه التي اقتحمت علينا بيتنا البسيط، ولأنني كنت الأصغر كنت أتعلق في رقبة أمي إلى جوار أختي الرضيعة التي كانت في العادة على ذراعيها في مثل هذه الحالات.

مرات عديدة استيقظت ليلاً على أيدي أمي تزيحني جانباً وتضع على فراشها إلى جواري تماماً (طنجرة) الألمنيوم أو صحن الفخار الكبير لتسقط فيه قطرات الماء التي تتسرب من التشقق في سقف القرميد الذي يغطي تلك الغرفة الصغيرة، طنجرة هنا وصحن من الفخار هناك وإناء ثالث في مكان آخر. أحاول في كل مرة النوم فأفلح أحياناً ثم أستيقظ على صوت قطرات الماء وهي ترتطم بما تجمع من مياه في ذلك الإناء بصورة منتظمة، وعندما يمتلئ الوعاء أو يشارف على الامتلاء يصبح رذاذ الماء يتراشق عليه مع كل قطرة، فتهب أمي لتضع وعاءً جديداً مكان الذي أمتلأ وتخرج لتسكبه خارج الغرفة.

كنت في الخامسة من عمري وفي صبيحة يوم من أيام الشتاء تحاول شمس الربيع أن تحتل مكانها الطبيعي لتزيل آثار هجوم الشتاء الليلي الكالح على المخيم، فيأخذ أخي محمد ابن السابعة بيدي ونسير في طرقات المخيم إلى أطرافه حيث يرابط معسكر للجيش المصري.

كان الجنود المصريون في ذلك المعسكر يحبوننا كثيراً، أحدهم تعرف علينا وعرفنا بالأسماء، فإذا ما أطللنا نادى علينا...محمد أحمد...تعالا هنا... فنذهب إليه ونقف إلى جواره نتذلل ونحني رؤوسنا في انتظار ما سيعطينا كالعادة فيمد يده إلى جيب بنطاله العسكري ويخرج لكل واحد منا قطعة من حلوى الفستقية يلتقط كل واحد منا قطعته ويبدأ بقضمها بنهم شديد، يُربّت ذلك الجندي على أكتافنا ويمسح على رؤوسنا ويأمرنا بالرجوع إلى البيت فنبدأ بجرجرة أرجلنا عائدين في طرقات المخيم.

رحل الشتاء بعد طول مكث وشدة وبدأ الجو يصبح دافئاً ورائعاً ولم يعد المطر يداهمنا بويلاته ظننت أن وقتاً طويلاً قد مرّ على انتظار الشتاء وأنه لن يعود قريباً ولكني أرى حالة من القلق والإرباك من حولي، فالأهل كلهم في وضع أسوأ بكثير من أوضاع تلك الليلة الماطرة، لم أكن قادراً على إدراك ما يجري حولي ولكن الأمر لم يكن طبيعياً ولا حتى في ليالي الشتاء والدتي تملأ كل ما لديها من أوعية بالماء، وتضع تلك الأوعية في ساحة الدار، وأبي استعار (الطورية) الفأس من الجيران وبدأ بإعداد حفرة كبيرة طويلة في الساحة التي كانت أمام البيت وأخي محمود يساعده بعض الشيء فقد كان عمره حينها (١٢سنة).

بعد أن جهزا الحفرة بدأ أبي بوضع قطع من الخشب عليها ثم بدأ بتغطيتها بألواح الصاج (الزينكو) التي كانت تغطي جزءاً من ساحة الدار كعريش. أدركت أن والدي في مأزق حيث بدأ يلتفت باحثاً عن شيء ثم رأيته قد بدأ بخلع باب المطبخ ودفنه فوق تلك الحفرة، ولكني رأيت أمي وأخي محمود ينزلان إلى تلك الحفرة من فتحة لا زالت لم تغلق، حينها أدركت أن العمل قد انتهى. تجرأت على الاقتراب من تلك الفتحة لأطل في تلك الحفرة فوجدت ما يشبه الغرفة المظلمة تحت الأرض، ولم أفهم شيئاً ولكن كان واضحاً أننا ننتظر شيئاً صعباً وغير عادي، ويبدو أنه أقسى بكثير من تلك الليالي الممطرة العاصفة.

لم يعد أحد يأخذ بيدي من جديد ليأخذني إلى معسكر الجيش المصري القريب لنأخذ قسطاً من (الفستقية) بل رفض أخي مراراً فعل ذلك، وهو التغيير الكبير بالنسبة لي ولمحمد، ولم أكن قادراً على فهمه؛ كذلك حسن لم يكن يعرف سرنا هذا، ولعله كان يعرف ولكنه لم يكن شريكنا فيه، ولم أكن أعرف لماذا لم يشاركنا الأمس؟ ولكن ابن عمي إبراهيم الذي كان في سن قريبة من سني، والذي كان يسكن في البيت المجاور لنا كان على علم بالأمر.

لما رفض محمد الذهاب واصطحابي ذهبت إلى دار عمي لأكون برفقة إبـراهيم، دفعت الباب ودخلت في الغرفة كان يجلس عمي الذي لم أستطع يوماً تذكر ملامح وجهه، وبيده بندقية وهو يقوم بإصلاحها وقلت في نفسي لعلي أعمل شيئاً مشـابهاً بهـا، شـدت البندقية انتباهي، حيث كان نظري يتركز عليها طيلة الوقت.

ناداني عمي وأجلسني إلى جواره، ووضع البندقية على يديّ، وبدأ يتحـدث معـي عنها بحديث لم أكن قادراً على فهمه، ثم مسح على رأسـي وأخرجنـي مـن الغرفـة، واصطحبت إبراهيم وخرجنا من البيت متوجهين إلى أطراف المخيم، لنذهب إلى معسكر الجيش المصري القريب.

حين وصلنا كانت الأمور قد تغيرت تماماً، ذلك الجندي لم ينتظرنا كالعـادة ولـم يرحب بنا، الوضع لم يكن طبيعياً والجنود المصريون اعتادوا علـى اسـتقبالنا بحفـاوة وترحاب، صرخوا علينا أن نبتعد وأن نرجع إلى أمهاتنا فقفلنا راجعين نجر أذيال الخيبة، إذ لم نحصل على نصيبنا من الفستقية، ولم أكن قادراً على فهم ما حدث من تغيرات، في اليوم التالي أخذت أمي بعض الفراش من البيت وفرشته في تلك الحفرة، ونقلت إبريقين أو ثلاثة من الماء وبعض الطعام وأخذتنا جميعاً إلى تلك الحفرة وأجلستنا فيها، ثم انضـمت إلينا زوجة عمي وأبناؤها حسن وإبراهيم، كنت متضايقاً من ذلك المكان الضـيق الـذي حشرنا فيه دون سبب أعرفه، وقد تركنا الدار وغرفها وساحتها وشوارع أو أزقة الحـارة ووضعنا هنا رغماً عنا، وكلما حاولت الخروج أو الاندفاع نحو الفتحـة سـحبتني أمـي وأجلستني مكاني في الداخل، بين الحين والآخر كانت تعطي أنا كسرة من الخبز وبضـع زيتونات.

بدأت الشمس بالغياب وضوء النهار يتلاشى والظلام يزداد في الحفرة التي أوينـا إليها وبدأ الخوف يتسرب إلى نفوسنا نحن الصغار فبدأنا نتصايح ونتدافع للخروج، وأمي وزوجة عمي تمنعاننا ثم نحاول الخروج فتصرخان يا أولاد الدنيا حرب ألا تعرفون معنى الحرب، حينها لم أكن أعرف معنى الحرب ولكنني عرفت أنها شيء مخيف غير عادي، ومظلم وخانق.

تكرر تدافعنا وتكرر منعنا من الخروج فبدأت أصوات بكائنا تعلو تـدريجياً، وهمـا تحاولان تهدئتنا دون جدوى، حينها قال محمود هل أحضر السراج يا أمي لنشعله (يامـا أجيب الضو نولعه) فأجابت نعم يا محمود، اندفع محمود يخرج من الخندق فسبقت إليه يد أمي لتمسك به وتمنعه من الخروج وهي تقول لا تخرج يا محمود (تطلعش ياما).

أجلسته وخرجت هي لتعود وبيدها سراج الكيروسين، أشعلته فأضاء المكان، فسرى هدوء وطمأنينة غلبني النوم كما غلب إخوتي وأبناء عمي وظلت أمـي وزوجـة عمـي تغالبان النوم ويغلبهما، في اليوم التالي لم يكن هناك شيء مميز فقد بقينا طيلة اليوم تقريباً في الخندق.

جارتنا المعلمة عائشة كانت لا تفارق جهاز الراديو وتحرص على البقاء قريباً من فتحة الخندق كي يظل الراديو قادراً على التقاط أمواج البث لتستمع إلى آخـر الأخبـار، وكلما استمعت إلى نشرة أخبار أخرى حدثت والدتي وزوجة عمي بالأخبار فيزداد الجـو اكتئاباً وحزناً ويعمّ الوجوم الذي انعكس تلقائياً على استعدادية أمي وزوجة عمي لسماعنا وتلبية رغباتنا حيث أصبح كف كل منها أثقل علينا وهما تطلبان منا الصمت، التصريحات النارية التي كان يطلقها "أحمد سعيد" المعلّق في صوت العرب من القاهرة عن إلقـاء اليهود في البحر وعن التهديدات والتوعدات لدولة الكيان بدأت تضعف وتتلاشى وبالمقابل فقد بدأت أحلام أهلنا بالعودة إلى ديارنا التي هجرنا منها تنهار كقصور الرمل التي اعتدنا كصغار على بنائها أثناء لعبنا في الحارة وغاية المنى أن نرجع إلى المنطقة التي كنا فيها، أن يرجع عمي الذي كان مجنداً في الجيش، جيش تحرير فلسطين سالماً إلى عائلته، وأن يرجع أبي الذي خرج ضمن المقاومة الشعبية إلينا سالماً، ومع كل نشرة أخبار جديدة تستمع إليها (الست) عائشة تزداد الكآبة والتوتر واللجوء إلى الدعاء ورفع الأكـف إلـى السماء طلباً للسلامة وعودة والدتي وعمي وصوت الانفجارات يزداد ويقتـرب ويصـبح أكثر شدة، كانت أمي تخرج بين الحين والآخر من الخندق وتغيب دقائق في داخل البيـت ثم تعود وقد أحضرت لنا شيئاً نأكله أو نتغطى به، أو تعود لتطمئن زوجة عمـي علـى مصير جدي الذي أصر على البقاء في غرفته في البيت رافضاً النزول معنا إلـى ذلـك الخندق.

في البداية كان أمله في العودة إلى الدار والبيادر في الفلوجة قريباً وأنه لا أخطـار تحدق بنا، فالخطر سيكون على اليهود الذين ستدوسهم جيوش العـرب، ولكـن بعـد أن اتضحت له معادلة المعركة الجديدة بأنها لغير صالحنا كعرب، فقد رفض النزول إذ لم يعد هناك طعمٌ أو قيمة للحياة، وقد تساءل إلى متى سنظل نختبئ ونهرب من قدرنا (لـوقتيش رح نشرد من قدرنا) فالموت والحياة أصبحا سيّين.

حل الظلام مرة أخرى وغرقنا في نوم، قطعه عدة مرات أصوات انفجارات مدّويـة أكثر وأكثر، وفي صبيحة اليوم التالي ازدادت الانفجارات دوياً، وفي هذا اليوم لـم يكـن هناك شيء مميز، سوى حادثة واحدة فقد تدافع عدد كبير من الناس تتصـايح جاسـوس جاسوس.

وكان واضحاً أنهم يطاردون ذلك الجاسوس هو معه شيء مثل السيارة له عجلات أو ما شابه، وأن الناس كانوا يطاردونها، وقد فهمت من حديث أمي وزوجة عمي و(الست عائشة) أن لهذا الجاسوس علاقة ما باليهود.

ازدادت الانفجارات كثافة وقوّة واقتربت كثيراً وبات واضحاً أنها بدأت تطال البيوت الغربيّة، ومع كل انفجار جديد تزداد ذعراً وصراخاً وعويلاً رغم محاولات التهدئة وبين الحين والآخر تقترب عائشة من فتحة الخندق تستمع الأخبار وتخبر أمي وزوجة عمي بالأخبار الجديدة، وبعد عدة أيام من تلك الحالة لم تعد أمي قادرة على الخروج إلى الدار كما فعلت في اليومين الأولين.

استمعت عائشة لنشرة الأخبار وأثناء سماعها للأخبار بدأت بالبكاء والعويل ولم تعد قدماها قادرتين على حملها فانهارت وهي تغمغم اليهود احتلوا البلاد، عمت لحظات من الصمت... قطعه صوت أختي الصغيرة مريم وهي تصرخ بألم لما يدور، ثم ننفجر بالبكاء لبكاء أمهاتنا.

توقف صوت القصف والانفجارات ولم نعد نسمع سوى أصوات خفيفة لإطلاق النار بين الحين والآخر، ومع اقتراب ساعات المساء لم نعد نسمع شيئاً من ذلك وساد الصمت.عند المساء بدأت أصوات الجيران ترتفع حيث بدأوا بالخروج من الخنادق التي كانوا يختفون فيها أو من بيوتهم التي لزموها طيلة الوقت، خرجت عائشة لتتفحص الأمر ثم عادت بعد قليل قائلة: انتهت الحرب... اخرجوا...، خرجت أمي وزوجة عمي أولاً ثم نادتا علينا للخروج.

لأول مرة منذ أيام نستنشق الهواء الطبيعي ولكنه هواء معبق برائحة البارود وغبار البيوت التي تهدمت من حولنا، تمكنت من النظر حولي قبل أن تجرني أمي إلى البيت لأرى آثار الخراب من حولنا في جميع الاتجاهات وقد طال القصف الكثيرَ من بيوت الجيران، بيتنا كان بخير لم يصبه أي أذى، دخلنا البيت فتلقفنا جدي بين ذراعيه، يقبلنا واحداً تلو الآخر وهو يتمتم حمداً لله على سلامتنا، ويدعو بالسلامة لآبائنا وبعودتهما قريباً.

نامت زوجة عمي وولداها معنا تلك الليلة. لم يعد أبي و عمي تلك الليلة ويبدو أنه سيمر وقت طويل قبل أن يعودا، ومع الصباح بدأت الحركة تدب في أزقة المخيم، وكل واحد من الجيران يبحث عن أبنائه وأقاربه وجيرانه، ليطمئن عليهم ويحمد الله على سلامتهم، ولمعرفة مصير أصحاب تلك البيوت التي أصابتها القذائف ودمرتها أو دمرت أجزاء منها.

كانت هناك حالات محدودة من الموت في الحارة، حيث إن غالبية أهالي الحارة تركوها هاربين إلى شاطئ البحر أو إلى البيارات والساحات القريبة، أو لجأوا إلى الخنادق التي كانوا قد حفروها من قبل.

كانت قوات الاحتلال قد واجهت مقاومة عنيفة في إحدى المناطق فانسحبت وبعد وقت قليل أطلت مجموعة من الدبابات وسيارات الجيب العسكري ترفرف عليها الأعلام المصرية فاستبشر المقاومون خيراً بقدوم العون والسند فخرجوا من مكانهم وخنادقهم يطلقون النار في الهواء احتفالاً بالمقاومين، وتجمعوا للاستقبال، وحين اقترب الركب فتحت منه نيران كثيفة على المقاومين أردتهم قتلى، ثم رفع العلم الإسرائيلي على تلك الدبابات والآليات بدل من الأعلام المصرية.

كان الناس قد انهالوا على المدارس القريبة التي كانت معسكراً للجيش المصري قبيل الحرب حيث استولى كل واحد منهم على شيء مما تبقى منها، هذا يحمل كرسياً وذاك طاولة وثالث يحمل كيساً من الحبوب ورابع يحمل أدوات مطبخ، وهكذا بدلاً من أن يستولي عليها جنود الاحتلال وجد الناس أنفسهم أحق لوراثتها من الجيش المصري الذي ذاب من المكان، لم يكن البعض انساق مع الموجة ووجد الأجواء ساخنة لخلع أبواب بعض المحلات التجارية القريبة والاستيلاء على بعض ما فيها من مواد وبضائع، البعض اهتموا بالأسلحة والذخائر مما تُرِك في المعسكرات، سادت حالة الفوضى تلك عدة أيام كلٌ فيها في همه واهتماماته.

وقبيل ظهر أحد الأيام جاءت من بعيد أصوات مكبرات الصوت باللغة العربية المكسرة تنادي بإعلان حظر التجول وأن على الجميع التزام البيوت وأن من يخرج من بيته يُعرض نفسه لخطر الموت. فبدأ الناس يلتزمون بيوتهم وقد دارت سيارات الجيب العسكري التي تحمل مكبرات الصوت تعلن ذلك ثم دارت تطلب من كل الرجال فوق سن (١٨) سنة بالخروج والتجمع في المدرسة القريبة، وأن من يخالف الأمر ولا يخرج يعرض نفسه لخطر الموت.

أبي وعمي لم يعودا وأخي محمود الأكبر بيننا كان أصغر من ذلك، وجدي حين خرج متوجهاً للمدرسة صرخ عليه أحد الجنود طالباً منه الرجوع للبيت، لما رأى كبر سنه وعجزه فغادر يضرب الأخماس والأسداس، بعد وقت قصير بدأت أعداد كبيرة من جنود الاحتلال على شكل مجموعات شاهرين بنادقهم، يقتحمون البيوت بيتاً بيتاً بحثاً عن رجال لم يخرجوا للمدرسة وحين وجدوا بعضهم أطلقوا عليهم الرصاص دون تردد.

تجمع رجال الحي في المدرسة القريبة حيث أجلسهم الجنود في فناء المدرسة علـى الأرض على شكل صفوف متراصة، والجنود يحيطون بهم من كل جانب وقـد شـهروا بنادقهم، وصوبوها إليهم.

بعد أن اكتملت مهمة جمع الرجال، جاءت إلى المدرسة سيارة جيب عسكرية مغطاة، ترجل منها رجل يلبس الزي المدني ولكنه من قوات الاحتلال حيث إن جميع الجنود كانوا يطيعونه بصورة ملفتة للنظر وهو يصدر لهم الأوامر وهم ينتظمون حسب مـا يـأمر، حيث بدأوا بتوجيه الرجال في السير على الأرض بالقيام واحداً واحدا، والمشـي بحيـث يمرون من أمام سيارة الجيب التي جاءت أخيراً، وبدأ الرجال يقومـون ويمـرون وفقـاً لإشارة أحد الجنود بين الحين والآخر يدوي بوق الإنذار (الزامور) حين يكون واحدٌ مـن رجال الحي قد مر فيندفع الجنود نحوه ويتلقفونه بشكل عنيف، ويبـدأون سـحبه وبقـوة وإذلال إلى إحدى الساحات الخلفية حيث الحراسة هناك مشددة، بصورة مضاعفة كما هي عليه في ساحة المدرسة الرئيسية.

وقد بات واضحاً أن من يدوي البوق عند مروره فقد وقعت واقعته، فقد تم تشخيصه أنه رجل خطر، وهكذا استمرت الأمور حتى قيام آخر الرجال، وبين الحين والآخر كـان يدوي البوق فيلقون من مرّ أمام السيارة ومن لا يدوي البوق عند مروره يجلس في طرف الساحة نفسها من الجانب الآخر.

حين انتهت المهمة ووقف ذلك الضابط (بالزي المدني) وبدأ يتحدث للجلوس باللغـة العربية بلغة ثقيلة ولكنها مفهومة جيداً لهم، حيث عرف عن نفسه أنه "أبو الديب" ضـابط المخابرات الإسرائيلية والمسؤول عن المنطقة، ثم ألقى محاضرة طويلة عن الواقع الجديد، بعد هزيمة العرب، وأنه يريد الهدوء والانضباط ولا يريد مشاكل في المنطقـة وأن مـن تسول له نفسه العبث بالأمن فسيعرض نفسه للإعدام والسجن وأن مكتبه مفتوح لمن يريد أي خدمات من أمن جيش الدفاع الإسرائيلي، وحـين انتهـى، طلـب مـن الحاضـرين الانصراف واحداً واحداً وبهدوء وبدون فوضى، فبدأ الرجـال بالقيـام والانسـلال مـن المدرسة إلى بيوتهم وكل من يخرج يشعر أنه نجا من الموت المحتوم. كانوا قد فـرزوا حوالي مائة رجل من رجال الحي.

انتقل ذلك الضابط بسيارة الجيب التي جاء بها من قبل إلى الساحة التي جمع فيهـا أولئك الرجال وطلب منهم القيام واحداً واحدا، والمرور من جديد من أمام الجيب، وكلمـا دوّى البوق اختُطِف المار من جديد وتم إيقافه إلى جوار الحائط القريب، ووجهـه متجـه للحائط، أما الآخرون فجلسوا في طرف الساحة.

تم انتقاء خمسة عشر رجلاً من تلك المجموعة حيث أوقفوا إلى جوار الحائط، أصدر ذلك الضابط أوامره إلى عدد من الجنود قبالتهم وأشهروا بنادقهم وجلسوا على ركبهم، ثم صوبوا إليهم أطلقوا النار عليهم ليخروا صراعا، أما الآخرون الذين كان يتصبب عرقهم فقد تم تقييد أيديهم خلف ظهورهم وعصب أعينهم، وحملوا في إحـدى الحـافلات التـي انطلقت بهم على الحدود المصرية، وقد أمرهم الجنود الذين رافقوهم بعبور الحدود إلـى مصر وان من لا يتقدم أو يلتفت سيتم إطلاق النار عليه حتى الموت.

الفصل الثاني

مرت الأيام وأبى وعمي لم يعودا ولم نسمع عنهما أي خبر، جدي وأمي وزوجة عمي لم يتركوا واحداً أو واحدة يمكنهم أن يتوجهوا إليهم بالسؤال عنهمـا إلا وسـألوهما دون جدوى، وهمنا كان مثل هم الكثير من الجيران فالمفقودون من جنود جيش تحريـر فلسطين أو من رجال المقاومة الشعبية كانوا كثراً. والحي ككل المنـاطق فـي الضـفة والقطاع كان في حالة من اليأس والإحباط والفوضى والناس لا يدرون ما يفعل بهم.

مع كل صباح كان جدي يتناول عصاه (عكازه) ويخرج باحثاً عن ولديه سـائلاً من يعرف ومن لا يعرف عنهما حتى ينهكه الإرهاق والتعب، وأمي وزوجة عمي التي لم تغادر دارنا منذ انتهاء الحرب إلى بيتهم، تجلسان في جوار الباب في انتظار عودته بخبر جديد، وهما تحترقان من الخوف والقلق من المصـير المجهـول لزوجيهمـا، وأخـوتي وأخواتي وأبناء عمي كانوا يدركون ما يحدث جيداً، لكني كنت لا أزال أصـغر مـن أن أعي حقيقة ما يجري حولي بالضبط. أمي وزوجة عمي شغلهما همهما من الاهتمام بنـا فقامت أختي الكبيرة (فاطمة) بشيء من ذلك بتوفير شيء من الطعام لنـا بـين الحـين والآخر، وبشيء من النظافة الضرورية التي لا بد منها.

مع غروب شمس أحد تلك الأيام موعد عودة الجد من رحلات بحثه عن ولديـه، فتحت أمي الباب ترقب قدومه من أول الشارع، وبعد قليل ظهر الجد يتكئ على عصـاه ولا تكاد تحمله وهو يجر قدميه جراً يوحي بأن الخبر الذي يحمله قد نـاء بـه كاهلـه، صرخت والدتي على أخي الأكبر محمود بالجري لاستقبال جده ومساعدته فجرى محمود وبدأ ينظر إلى وجه الجد الذي غمرته الدموع، ورغم محاولات محمود سحب أي كلمة من فم الجد لم يفلح حتى وصلا باب البيت، فارتكز الجد على الجدار، ولم تعد قدماه قادرتـان على حمله فبدأ يهوي بعد أن دخل الخطوة الأولى للبيت، فالتقفته أمـي وزوجـة عمـي تنهضان وتسألانه ما الخبر؟ ماذا عرف؟ ماذا هناك؟ وقد بدأتا ترتجفان خوفاً وهلعاً عمـا يحمل من الأخبار، ولم يكن الجد قادراً على النطق مجرد النطق، ولا حتى على الحركة، فشارك كل من قدر على سحبه إلى داخل الغرفة وأجلسوه على فراشه، وجميع مـن فـي البيت يلتفون حوله ينتظرون كل حرف يخرج من بين شفتيه.

أمي تناوله إبريق الفخار فيمسكه ولا يقوى على رفعه، فتساعده في رفعه فيرشف بضع قطرات من الماء.

نظرات الجد تتجه أكثر نحو زوجة عمي، مما يوحي أن الخبر الذي لديه يخص عمي أكثر مما يخص أبي، فتزداد لهفة زوجة عمي وتسأل بتوسل ماذا حصل يا أبو إبراهيم؟ ما هي الأخبار؟ خير إن شاء الله فتنفجر دموع الجد وقد حاول لملمة نفسه وضبط عواطفه، فانفجرت زوجة العم بالبكاء وقد فهمت ما لم يستطع الجد قوله، وصرخت هل مات محمود؟ فهز الجد رأسه مؤكداً ذلك، فارتفع عويلها وصراخها، وبدأت بشد شعرها، أمي بدأت هي الأخرى بالبكاء ولكنها أربط جأشاً تحاول أن تخفف عن زوجة عمي التي ظلت تردد مات محمود مات محمود.

لم يمت يا أم حسن بل استشهد، أبناء عمي يبكيان، وإخوتي وأخواتي، الكل يبكون وأنا متسمر في مكاني ولا أدري ما يحدث, صوت طرقات على الباب، أخي محمود يخرج ليرى من الطارق، فإذا مجموعة من الجارات سمعن الصراخ والعويل فجئن يعرفن الخبر ويشاركن الأسى. امتلأت الغرفة بالواقفات تهت بين الأقدام والزحام، وارتفع العويل والصراخ.

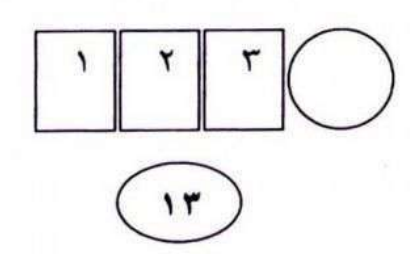
مرت الأيام وما من خبر عن مصير أبي، آخر من رأوه أكدوا أنه على قيد الحياة حين احتل اليهود المدينة، هو ومجموعة من رجال المقاومة الشعبية وأنهم انسحبوا نحو الجنوب هذا كل ما هناك، ولا شيء جديد، كان الجد بعد أيام العزاء بعمي -رحمه الله- قد بدأ رحلته من جديد في البحث عن أخبار مصير أبي وهذا كل ما حصل عليه. ومع مرور الأيام وصل إلى قناعة أنه عليه الانتظار، فقد يئس من الحصول على أي أخبار جديدة وقرر الانتظار، قد تأتي الأخبار وحدها، وكان على الجميع الانتظار حتى مجيء خبر منه، فهو يعرف مكاننا ونحن لا نعرف مكانه، مع مرور الأيام كان على الحياة أن تأخذ مجراها الاعتيادي، وكان على الجميع أن يتكيفوا مع الواقع الجديد بمعطياته.

فتحت المدارس أبوابها من جديد، وبدأ إخوتي وأخواتي وابن عمي الكبير بالذهاب إلى المدرسة، في الصباح تنهض والدتي وزوجة عمي لتجهيزهم إلى المدارس، فينطلقون معاً، وأبقى أنا وأختي الرضيعة وابن عمي إبراهيم، ومع تقدم ساعات النهار يخرج جدي من البيت ليغيب ويعود أحياناً وبيده قليلٌ من الخضراوات، شيءٌ من الطماطم أو (ضمة) من السبانخ أو قليلٌ من البطاطس أو الباذنجان، لتقوم أمي أو زوجة عمي بطهيها، لتكون جاهزة مع عودة الطلاب من مدارسهم.

مع كل صباح يوم تحمل أمي أو زوجة عمي جرار الماء الفخارية و(سخان) الماء الحديدي وتخرجان بهما لتضعاها في طابور الأدوات المشابهة أمام (حنفية) صنبور الماء الذي كانت وكالة الغوث قد وضعته في ساحة الحارة، حيث يأتي الماء ساعتين أو ثلاثاً في اليوم ومن يدركه الدور ملأ أوعيته، ومن لا يدركه اضطر للانتظار لليوم التالي، ويستلف بعض الماء من الجيران، ولطالما حاولت إحدى الجارات التي غفلت عن القيام مبكرة لتضع آنيتها في أول الطابور أن تسرق دور جاراتها، بأن تضع آنيتها قبل أوانيهن، فيكشف ذلك فتبدأ (طوشة) مشاجرة تبدأ بالكلمات (دوري دورك) ثم تتطور إلى التدافع بالأيدي وشد الشعور والكلمات النابية، وأحياناً تصل إلى تكسير الجرار الفخارية.

هناك عند الحنفية كانت تغطي الأرض طبقة من الفخار، حين يعود إخوتي وأبناء الجيران من المدارس، وبعد أن يتناولوا غداءهم يخرجون للعب لعبة (السبع شقف) حيث يحضرون قطعاً من الفخار من منطقة الحنفية، ويعدون منه سبع قطع دائرية الشكل، كل واحدة أكبر من أختها يضعونها واحدة فوق الأخرى، الكبرى تحت فالأصغر فالأصغر، ثم يحضرون طابة من القماش، أعدوها من أحد الجوارب البالية التي كنا نحصل عليها من (صرر) الملابس التي تخرج لنا مرتين في السنة، من التموين من وكالة الغوث، ويحشونها بالقماش، ثم يربطونها ويخيطونها على شكل طابة تملأ اليد، ينقسمون فريقين يقف لاعب من أحد الفريقين على بعد أمتار من كومة قطع الفخار ويرمي الطابة عليها محاولاً إيقاعها فإن لم ينجح خلفه لاعب من الفريق الآخر، وإن نجح هرب هو وأعضاء الفريق خلف عضو من الفريق الذي أسقط القطع، ويبدأ اللاعب الواقف عند القطع بتوجيه الطابة نحو أعضاء الفريق الآخر محاولاً إصابته، فإذا أصابه أخذ لفريقه الدور للعب لإسقاط القطع، وإن لم يصب انتظر حتى يعيد أعضاء فريقه له الطابة وهنا يهجم أعضاء الفريق الأول محاولين إعادة ترتيب القطع فإن نجحوا أعادوا اللعب، وإن لم ينجحوا، وعندما يرون الطابة في طريق عودتها لمركز اللعب حاولوا الفرار من جديد تلافياً أن تصيبهم الطابة وهكذا.

أما الفتيات فكن يلعبن لعبة الحجلة حيث يحضرن قطعة من البلاط أو الحجر التي يجب أن تكون ناعمة من إحدى جهتيها ويرسمان على الأرض ثلاثة مربعات متتالية، كل واحد حوالي متر طول ومتر عرض ثم يرسمن دائرة على رأس المربع الثالث.



تلقي اللاعبة قطعة الحجر في المربع الأول وتقفز فيه، بحيث تظل واقفة على إحدى رجليها وتضرب الحجر بطرف رجلها إلى المربع الثاني، وتقفز إليه وهي لا تزال على إحدى رجليها تضرب الحجر إلى المربع الثالث، تحجل إليه وتضربه إلى الدائرة، وتقفز إليها حيث يمكنها الوقوف على رجليها الاثنتين، ثم تضرب الحجر إلى المربع الثالث، وتحجل إليه على رجل واحدة، وهكذا فإن وقعت أو جاءت رجلها على أحد الخطوط، فقد رسبت وجاء دور زميلتها ومنافستها، وأحياناً تعلب الفتيات نط الحبل.

أحياناً يلعب الأولاد (عرب ويهود)، حيث ينقسمون إلى فريقين: فريق العرب وفريق اليهود وكل فريق يحمل قطعاً من الخشب أو الحطب على شكل بنادق يطلقون منها النار على بعضهم البعض وهم يصرخون (طاخ أنا طخيتك)، فيصرخ الآخر لا أنا طخيتك قبل، وفي كثير من الأحيان تتحول إلى مشاجرة خلافاً على الذي(طخ) الثاني قبل صاحبه، ولكن الأغلب أن فريق العرب كان يجب أن ينتصر على فريق اليهود، حيث أن الكبار أو الاقوياء من الأولاد هم الذين يحددون أعضاء كل فريق ويكونون في فريق العرب.

كان جدي يخرج مرة في الشهر إلى مركز التموين حيث يأخذ معه (كرت)بطاقتي التأمين، بطاقتنا وبطاقة عائلة عمي، يغيب حتى بعد الظهر ثم يعود هو وآخرون من رجال أو نساء الحي وأمامهم عربة كارة يجرها حمار، وقد حُملت بأكياس الدقيق (الطحين) وجالونات السمن أو الزيت زيت القلي وبضع سلال (سلات) فيها أكياس صغيرة فيها أصناف بقوليات من حمص وعدس. حين تصل العربة تقف أمام بيتنا فيتقافز الأولاد ليركبوا عليها، يصرخ العربجي عليهم زاجراً ملوحاً بعصاه فيبعدون، يحمل أغراضنا بعد أن يشير جدي إليها وينزلها إلى داخل البيت، فيناوله جدي بضعة قروش من كيس من القماش يخرجه من داخل جيبته، فيقبلها العربجي ويضعها في كيسه وهو يقول: الله يخلف عليكم، ويسحب حماره ذاهباً، والأولاد يجرون خلف العربة والكبار يحاولون طردهم وينهونهم.

كانت أمي تأخذ أختي الرضيعة (مريم) بين الحين والآخر إلى عيادة الوكالة (الصحية..السويدي) في طرف المخيم، هناك يتم فحصها ووزنها في قسم رعاية الطفولة والأمومة في العيادة، حيث تجتمع أعداد كبيرة من النسوة، ومعهن أطفالهن لإجراء الفحص تجلس النسوة في القاعة على تلك الكراسي الخشبية الطويلة (بنوك) المطلية باللون الأبيض وبعضهن يجلسن على الأرض ويبدأن بالحديث.

كل واحدة تحدث الأخريات عن مشاكلها وهمومها وتبث شكواها لأخريات عن مشاكلها وهمومها، وتبث شكواها للأخريات، فتسرّي الواحدة عن الأخرى وتجد أن هموم الأخريات ليست أقل منها، وقد أخذتني أمي مراراً معها في زيارتها تلك للسويدي، هناك على باب السويدي يقف بعض الباعة المتجولون يبيعون أنواعاً من الحلويات التي صنعوها ليكسبوا رزق عيالهم فأبدأ أسحب ثوب أمي نحو البائع طالباً منها أن تشتري لي قطعة من (النمورة) وأمام إصراري تضطر أن تشتري لي ما أريد رغم غياب أبي الذي طال، وعدم قدرة جدي على العمل لكسب الرزق لصعوبة فرص العمل في تلك الفترة للشباب والأقوياء، إلا أن وضعنا المالي كان لا بأس به مقارنة بباقي الجيران، فقد كنت أرى مع جدي أو مع أمي بعض النقود لا أدري من أين جاءت بالضبط، ولكني كنت من قبل الحرب أرى بعض الأساور الذهبية على يدي أمي أحياناً لكني لم أرها منذ الحرب، ولم أرها أبداً من بعد، ثم إن خالي صالح كان يزورنا بين الحين والآخر، وكان يعطي أمي بعض النقود، ويعطي من يتواجد منا أو من أبناء عمي بعض القروش فنخرج جرياً لشراء بعض الحلوى من دكان "أبو جابر" القريب.

خالي صالح كان ذا حظ وافر فقد كان له مصنع للنسيج فيه بضع آلات نسيج كهربائية كان قد أحضرها من مصر قبل احتلال القطاع، وظل هذا المصنع مستمراً في العمل بعد الاحتلال، كان ينتج كميات جيدة من القماش حيث يبيعها لتجار القماش في القطاع، وبعد حرب (١٩٦٧) بوقت بدأت الحركة تدب تدريجياً بين الضفة الغربية والقطاع فبدأ بيع بعض إنتاجه في جنوب الضفة الغربية من منطقة الخليل، ولأن وضعه المادي كان جيداً كان يحرص على أن يعطي والدتي نصيباً من المال كل فترة. كانت أمي تحاول الرفض فيحلف عليها ويبدي الزعل منها ويقول: إذا لم أساعدك أنا فمن سيفعل ذلك وكيف سيعيش أولادك فتأخذ ذلك منه وقد طأطأت رأسها وجرت دموعها على خديها فيعتب عليها قائلاً: كل مرة تبكين!!

زوجة عمي وأبناؤها عاشوا معنا تقريباً بصورة كاملة وقاسمونا كسرة الخبز وشربة الماء وقد طلب جدي من أخي محمود ومن ابن عمي حسن أن يهدما جزءاً من الحائط الذي كان يفصل بين دارنا ودار عمي، فأصبحت الداران داراً واحدة مع بعض الخصوصية.أهل زوجة عمي كانوا في حالة صعبة ولم يكونوا قادرين على إعانتها بشيء رغم استشهاد زوجها وفقدانها لمعيلها، ومع الوقت بدأوا يضغطون عليها للزواج فما دام زوجها قد توفي فما المبرر من بقائها عزباء، وهي ترفض خشية ضياع أولادها، وهم يحاولون إقناعهم بأن جدهم وعائلة عمهم سيقومون بذلك، وهم سيحاولون المساعدة على ذلك، ولكنها يجب أن تتزوج فهي لا تزال صبية والمستقبل أمامها ويجب عليها عدم ترك

الوقت والسنوات لتأكل شبابها فيفوت عليها القطار.هكذا جرت بنا الأيام والشهور والسنون.

في إحدى المرات زارنا خالي وحين أخرج يده من جيبه ليناول أمي ما اعتاد أن يعطيها من النقود رفضت رفضاً قاطعاً أخذه منه، ورغم كل المحاولات لم ينجح في إقناعها بأخذه، فلم يجد إلا الحيلة حيث أقنعها أنه لا يريد أن يشغل عاملاً جديداً معه في المصنع ليقوم بمهمة النظافة والترتيب في المصنع، وأن محموداً وحسناً قد كبرا وأصبحا شابين لذلك فهو يريد أن يشغلهما عنده في المصنع يومياً بعد عودتهما من المدرسة ليقوما بالعمل، وهما أولى بالأجرة من عامل غريب، وأن هذه الدفعة سلفة على حساب أجرتهما الشهرية.

حينها وافقت فقط على أخذ المبلغ مشترطة أن يبدأا بمزاولة عملهما في اليوم التالي وبالفعل فقد بدأ محمود وحسن تولي مسئولية إعالة الأسرة، يعودان من المدرسة عند الظهر يضعان حقيبتيهما المصنوعتين من القماش، تضع لهما أمي الغداء مع باقي إخوتي وأخواتي وابني عمي ثم تبدأ المحاضرة طويلة وهي توجههما كيف يسيران في الطريق، وكيف يشتغلان بإخلاص، وكيف ينظفان المكان وكيف وكيف...ثم تربت على كتفيها وتودعهما بخطوات إضافية خارج الباب، وقبيل غروب الشمس تستقبلهما استقبال الفرسان الفاتحين، وهكذا جرت الأمور بدفع خالي لوالدتي ما كان يدفع لها من قبل، وكأنه أجرة عمل محمود وحسن اللذين لم يكونا يفعلان شيئاً يذكر، عند ذهابهما يومياً إلى مصنع خالهما.

كثيراً ما استيقظت مع بزوغ الفجر على صوت جدي وهو يدعو بدعواته المعتادة أثناء وضوئه كنت أستمتع بذلك الصوت وبتلك الدعوات العذبة ثم أتمتع بصوته وهو يقرأ الفاتحة ثم شيئاً من القرآن الكريم في ركعتي فرض الفجر بصوت مسموع، ثم بدعاء القنوت، وبدأت مع تكرار الأيام أكاد احفظ ما يردده الجد ﴿اللهم اهدني فيمن هديت... ﴾ولم يكن بإمكان الجد أن يؤدي صلاة الفجر في المسجد، ففي هذا الوقت يكون منع التجول لا يزال سارياً ومن يخرج يعرض نفسه للموت من دوريات الاحتلال التي تجوب شوارع المخيم أو تكون كامنة هنا أو هناك. منع التجول كان يومياً الساعة السابعة مساءً ويستمر حتى الخامسة صباحاً. أما باقي الصلوات الأخرى فقد كان جدي يؤديها عادة في المسجد إلا إذا منعه من ذلك أمر طارئ مثل ذهابه لإحضار التموين أو يوم منع التجول.

مسجد المخيم كان أشبه بغرفة كبيرة مسقوفة بألواح الصاج له بضعة شبابيك وله مئذنة صغيرة يصعد إليها المؤذن بدرجات حجرية، فيعلن الأذان بصوته المرتفع، وعند باب المسجد يوجد مرحاض واحد وبضعة أباريق فخارية للوضوء والشراب، أرضية المسجد مغطاة ببعض الحصائر أو البسط القديمة وشبه البالية، في مقدمة المسجد يوجد منبر صغير من عدة درجات خشبية.

كثيراً ما كان جدي يصطحبني معه للمسجد قبيل موعد أذان الظهر يمسك بيدي التي تغرق في يدِه الكبيرة، ورغم حرصه الشديد على المشي البطيء، ورغم كِبر سنه وقد تجاوز (٧٠) عاماً، إلا أنني أضطر للجري خلفه، فهو يكاد يجرني معه جراً. كنا نصلي في المسجد قبل الأذان أقف إلى جوار جدي أفعل مثلما يفعل ما استطعت، أجلس إلى جواره متربعاً أضع رأسي بين يديه مثل الأولاد المؤدبين، يأتي الشيخ حامد يخرج ساعته من جيب في جيبه عند صدره ينظر إليها وحين يقترب الأذان يصعد إلى المئذنة ويصدح صوته بالأذان فأبدأ أتلفت فرحة لسماع ذلك الصوت العذب.

ينهي الشيخ حامد أذانه وينزل عن المئذنة ويصلون السنة، وأنا أقف بجوار جدي أقلده ما استطعت فيأتي عدد قليل من شيوخ المخيم ليؤدي الجميع صلاة الظهر جماعة، عددهم لا يتجاوز العشرة بكثير، وكلهم شيوخ اللهم إلا أنا وطفلاً أو طفلين آخرين أحضرهما جداهما.

يبدو أن جدي وأمي سلما بالأمر الواقع فيما يخص مصير أبي المجهول فإن حديثهما عنه قد بدأ يقل وأصبح نادراً أو أدركا أن عليهما الانتظار حيث ليس لديهما سواه (ما باليد حيلة).

الجديد الوحيد الذي طرأ على بيتنا هو أن أهل زوجة عمي قد أجبروها على الزواج من جديد الأمر الذي لم يكن سهلاً وكان يبيت عندها في الليل، وأمي كانت تقوم بالواجب تجاههما مثل كل واحد من إخوتي تماماً، لكن ما من شك في أن ذلك لا يعوض فقدان الأب والأم ولكنه يخفف بعض الشيء. وهكذا توالت الأيام، أُصبِح على صوت جدي وهو يتوضأ ويصلي الفجر ثم تستيقظ أمي لتوقظ إخوتي وأخواتي وابني عمي، وتجهزهم للمدرسة فينطلقون إليها.

جدي يذهب للسوق، أمي تبدأ بترتيب البيت، وأنا أجلس إلى جوار أختي مريم الرضيعة خشية أن تستيقظ وتبدأ بالبكاء وأمي مشغولة عنها بترتيب البيت، يعود جدي وحده ويعود إخوتي وأبناء عمي من المدرسة فتضع لنا أمي طعام الغداء أو نتناوله سوية.

ثم تبدأ أمي بوصاياها المعتادة لإخوتي محمود وحسن وتودعهما حتى باب الدار، في طريقهما للعمل في مصنع خالي نخرج لنلعب (عرب ويهود) أو (السبع شقفات)، والبنات يلعبن (الحجلة)، حتى يقترب المساء فيعود محمود وحسن من المصنع، وهكذا تجري الحياة الروتينية دون أي جديد.

مساء أحد الأيام لم يعد محمود وحسن من المصنع تأخرا ولم يجيئا وحدهما بل جاء معهما خالي صالح، كالعادة التقينا حوله وكالعادة سلم على كل واحد منا وقبّله بحرارة، وأعطى كل واحد منا نصيبه من القروش، ثم بدأ الحديث مع أمي عن خالتي فتحية، فقد جاءها خطّاب يريدون يدها، وهم جماعة يعرفهم خالي جيداً من الضفة الغربية بلدة صغيرة في قضاء الخليل ممن يتاجرون بالأقمشة ويأتون ليشتروا القماش الذي يصنعه خالي، وقد عرفهم خالي جيداً وهو يريد رأي أمي في ذلك. أمي أوضحت أن الرأي رأيه وما دامت فتحية موافقة وراضية وأنت موافق وراضٍ وتعرف الجماعة فعلى بركة الله، أثناء ذلك قامت أمي وتركتنا مع خالي يسأل عن أخبارنا، أخبار كل واحد وكل واحدة في المدرسة وغير ذلك.

وعادت بعد قليل وقد جهزت إبريقاً من الشاي، شرب خالي معنا الشاي ثم قام ليغادر حاولت أمي أن تقنعه بالمبيت عندنا فاعتذر قائلاً: أنت تعرفين أنني لا أستطيع المبيت خارج المنزل فليس عندي سوى بنات، فدعت له والدتي: الله يعوض عليك يا صالح عوض الخير، خرج خالي وهو يقول سأخبر الجماعة بالموافقة وعندما يخبرونني عن موعد قدومهم للخطبة سوف أخبرك لتحضري أنت والحج أبو إبراهيم والأولاد.

وفي اليوم التالي منذ ساعات الصباح الباكر وبعد أن أنهى جدي صلاته بقليل أخذ يستمع إلى مكبرات الصوت التي تحملها سيارات الجيب العسكري وهي تعلن باللغة العربية المكَسرة عن فرض منع التجول إلى إشعار آخر (ألو ألو..ممنوع التجول حتى إشعاراً آخر واللي يخالف يعرض نفسه لخطر الموت) وهكذا ظل الصوت بتكرر مرات عديدة. أمي قالت للجميع اليوم ليس هناك مدارس يا أولاد، وممنوع أي واحد منكم يخرج من البيت ، وخرجت إلى الغرفة الأخرى لتتأكد من علم جدي وابني عمي حسن وإبراهيم بالأمر، بقينا في البيت لم نخرج منه وظل الباب علينا مغلقاً طيلة النهار، وكلما اقترب واحد منا من باب الدار صرخت عليه أمي بعدم فتح الباب وإلا أوسعته ضرباً.

سمعنا مرة بعد مرة ممنوع التجول.. اضطر إخوتي وأخواتي إلى اللعب داخل الدار وقد جهزت لنا أمي في هذا اليوم (البيصارة) للغداء وهي طبيخ من الفول المجروش مع الملوخية الجافة، وجلس إخوتي وأخواتي وابنا عمي يدرسون في كتبهم المدرسية، وأنا أجلس وأنظر إليهم أتفرج في كتبهم، عند المساء سمعنا صوت مكبرات الصوت مرة أخرى تؤكد منع التجول وأن من يخالف سيعرض نفسه للخطر.

عند الصباح وبعد صوت جدي في صلواته ودعواته بوقت ليس طويلاً جاء صوت مكبرات الصوت يعلن عن انتهاء منع التجول من الساعة الخامسة، أمي أيقظت الجميع وجهزتهم للمدارس وجرت الأمور كالعادة.

الشيء الجديد الذي كان في هذا اليوم هو أننا عرفنا سبب منع التجول الذي كان بالأمس، فقد ألقى شخص قنبلة يدوية على دورية من دوريات الاحتلال وانفجرت وأصابت الجنود الذين كانوا في سيارة الجيب والذين بدأوا بإطلاق النار العشوائي على الناس فأصابوا العديدين.

الفصل الثالث

يوم الجمعة ألبستنا أمي أفضل ما عندنا من الملابس التي أعادت خياطتها مما حصلنا عليه من (حصة) التموين استعداداً لزيارة دار خالي لرؤية خالتي والمباركة لها على الخطوبة التي ستتم قريباً. ثم أخذتنا معها نحن السبعة وسارت بنا ساعات طويلة، حيث تجاوزنا حدود المخيم وسرنا على إحدى الطرق الرئيسية حيث كانت تتحرك عليه بين الحين والآخر سيارات الجيب العسكرية والمدنية وهي تحمل جنوداً يشهرون بنادقهم ويوجهونها إلى المارة، وسياراتهم تسير ببطء شديد، سرنا طويلاً حتى وصلنا إلى بيت خالي صالح ، بيت خالي كان أفضل بكثير من بيتنا فهو ليس مسقوفاً بالقرميد مثل بيتنا بل بالباطون وأرضه مرصوفة بالبلاط وفيه كهرباء.

جاء أخي محمود ودق الباب فتحت لنا ابنة خالي "وردة" التي صرخت على الفور هذه عمتي وأولادها وسلمت علينا ودخلنا البيت حيث خالي وخالتي وزوجة خالي وابنته الثانية "سعاد" قد خرجوا إلى الممر ليسلموا علينا ويرحبوا بنا.

خالتي سلمت علينا وقبلتنا واحداً واحداً، أمي وإخوتي وأخواتي باركوا لها بالخطوبة التي ستكون قريبة وجلسوا يتحدثون ونحن انشغلنا باللعب والجري أحدنا وراء الآخر، وقبل حلول المساء عدنا إلى البيت، بعد عدة أيام حين عاد محمود وحسن من العمل في مصنع خالي أخبرا أمي أن خالي قال لهما أن يخبراها أن الجماعة سيأتون لعقد قِران خالتي فتحية يوم الجمعة القادم، مرة أخرى جهزتنا أمي كما كان في الجمعة الماضية ذهبنا إلى بيت خالي بعد الظهر جاءت ثلاث سيارات تحمل بعض الرجال والنساء، نزلوا ودخلوا بيت خالي، الجميع من الصغار كانوا يتهامسون ويشيرون على شاب يافع قمحي البشرة بشارب خفيف هذا هو العريس، جلس الرجال في صالة البيت والشيخ يتوسطهم بطربوشه الأحمر.

وجلست النساء في إحدى الغرف ونحن لم نعرف للراحة طعماً، نجري هنا وهناك بين الغرف وخارج البيت ونتعلق بالسيارات، نحن في شغلنا باللعب والرجال في شغلهم مع الشيخ الذي يعقد القِران والنسوة في شغلهن مع العروس خالتي فتحية، ومما لا ينسى أننا أكلنا يومها الكثير من البقلاوة وبدون حساب حتى خافت أمي علينا أن يصيبنا المرض، وقد اتفقوا على أخذ العروس.

بعد حوالي شهر في ظلمة الليل الحالكة والسكوت والسكون يخـيم علـى بيـوت المخيم البائسة الفقيرة، فلا تسمع الأصوات إلا من نباح كلب يأتي من بعيد أو مواء قطـة تبحث عن ولدها الذي التقطه أحد الصبية ليربيه في بيتهم، عساه حين يكبر يأكل الفئـران التي تقض مضجع العائلة، في أزقة المخيم الصغيرة المتشابكة ورغم نظام حظر التجـول السائد والخطر الذي قد يحدث، كان "أبو حاتم" يتسلل تسلل القطة منساباً في تلك الأزقـة بخفة ورشاقة وهدوء، وكلما لزمه تجاوز زاوية جديدة توقف مترقباً باحثـاً عـن عـدو متحرك أو كامن، وحين يتأكد من خلو المنطقة يواصل مسيره وانسيابه.

و"أبو حاتم" رجل طويل القامة، رشيق، قوي البنية، يغطي رأسه بتلـك الكوفيـة ويلفها حول وجهه فلا تبدو منه سوى عينيه، كان شاويشاً في قوات جيش تحرير فلسطين أيام الحكم المصري في قطاع غزة، قاتل في حرب ٦٧ ببسالة فائقة، ولكن ما عساه يفعل هو وقلائل من البواسل في معركة خاسرة بإجمالها. انساب أبو حاتم في شوارع وأزقـة المخيم، فقد كان يعرف طريقه، توقف قليلاً يتفحص المكان من حوله ثم انطلق نحو شباك أحد البيوت وطرق على أطراف الشباك بخفية ثلاث طرقات ثم طرقة ثم طرقتين..نعم هذا حقيقي وقف "أبو يوسف" بجوار الشباك وقرّب رأسه منه وهمس بصوت لا يكاد يسمعه: من الطارق؟ فجاوب صوت "أبي حاتم" هامساً أبو حاتم.. فتمتم "أبو يوسف" ليس معقولاً (مش معقول) جاء الصوت: معقول يا أبو يوسف معقول. فتمتم سأفتح لك الباب.انسل "أبو حاتم" إلى الداخل فأغلق "أبو يوسف" الباب وألقى كل واحد منهما نفسـه بـين ذراعـي صاحبه، و"أبو يوسف" يتمتم (مش معقول الحمد لله أنك بخير يا أبو حاتم).

أم يوسف كانت قد استيقظت وغطت رأسها وخرجت من الغرفة، اقتربـت هـي الأخرى وهي تهمس: الحمد لله على سلامتك يا "أبو حاتم"، تفضل يا أخويه تفضل ادخل، دخل أبو يوسف وأبو حاتم الغرفة وتوجهت أم يوسف ذاهبة إلى المطبخ قال أبو حاتم لأم يوسف لا تجهزي طعاماً ولا شاياً ولا تشعلي المواقد، التفتت أم يوسف باستغراب قائلـة: (خير يا أبو حاتم أنت جاي عند مقاطيع!!) فتبسم أبو حاتم وهمس ألـف سـلامة علـيكم وعلى خيركم ولكني لست جائعاً ولا أريد أن يُسمع إشعال الموقد[1] (ألف سـلامة عليكـو وعلى خيركم).

---

[1] الموقد: البابور

استدارت أم يوسف هامسة حسناً سآتيكم ببعض الخبز والزيتون. تبسم أبو حاتم هامساً (ماشي أنا عارف أنك مش راح تخليني أطلع من غير ما آكل عندكم ماشي يا أم يوسف) -أبو يوسف يبتسم طيلة الوقت- بدأ أبو حاتم وأبو يوسف يتهامسان، أبو يوسف يسأله: أين كنت؟ والله ظننت أنك استشهدت أو رحلت إلى مصر؟ أبو حاتم يخبره أنه قد أصيب في الاشتباكات في منطقة المعسكرات الوسطى وزحف إلى إحدى السيارات حيث عثرت عليه عائلة بدوية هناك وأخذوه وداووا جراحه وأطعموه وأخفوه حتى تعافى.

دخلت أم يوسف وهي تلقي عليهم السلام همساً فردوا عليها، ووضعت طبق القش وعليه بضعة أرغفة وصحن فيه زيتونٌ وإلى جواره إبريق ماء فخاري، ثم غادرت الغرفة لتجلس في غرفة الأولاد على ضوء سراج الكيروسين، يتأرجحَ طرباً ويُضيء تلك الغرفة الصغيرة المسقوفة بالقرميد السكني، وأبو حاتم وأبو يوسف يضع كل منهما فمه إلى جوار أذن الآخر، ثم يتبادلان هذه الوضعية، أبو يوسف يسأله: هل هناك أحد من الشباب لا يزال حياً؟ يجيب أبو حاتم نعم كثيرون أنا وأبو ماهر في خانيونس، وأبو صقر في رفح، وأبو جهاد في المعسكرات الوسطى، هؤلاء رأيتهم شخصياً واتفقت معهم على استئناف المقاومة من جديد.

يقرّب أبو يوسف فمه من أذن أبي حاتم سائلاً (إيش مع المختار) أبو حاتم يقرب ويهمس: سمعت أنه لا يزال حياً وأنه يتحرك في البيارات الشرقية شرق الشجاعية والزيتون وأحاول البحث عنه، وقد أعثر عليه خلال أيام، المهم أننا يجب أن نبدأ في تنظيم العمل لتبدأ المقاومة في كل مناطق القطاع مرة واحدة، البلد بخير يا أبا يوسف. البلد بخير والشباب جاهزون ومستعدون، فقط هم يريدون من يرتب الأمور ويطلق الشرارة، ونحن يجب أن نلتقي جميعاً ونرتب الأمور يوم الجمعة القادم صباحاً.

"صالح المحمود" سوف يزوج أخته وسوف يأخذها عريسها إلى الخليل ودارهم في الليل تكون خالية، اتفقت معه أن يترك لنا المفتاح تحت عتبة الباب، سوف تأتي مجموعة الشباب لتجتمع هناك ونرتب الأمور ونبدأ العمل في أقرب وقت إن شاء الله، أنت تعرف دار صالح، يوم الجمعة بعد العشاء نلتقي هناك، من يضطر للتأخير حين يصل يطرق على الشباك نفس الطرقات (كان أبو حاتم أثناء ذلك قد تناول بعض لقمات ومع كل لقمة حبة من الزيتون) ويصر على امتصاص نواة الزيتون بشكل مميز، يبين مدى حبه لصاحب هذا البيت، واشتياقه لطعام أم يوسف زوجة صديقه.

يوم الجمعة تجهزنا منذ الصباح حيث لبسنا أفضل ما لدينا وانطلقنا إلى بيت خالي صالح ورغم وصولنا المبكر إلا أننا وجدنا دار خالي مليئة بالناس والحركة والتجهيـزات للزفاف. انشغلنا نحن باللعب وانشغلت أخواتي في الطبل والغناء والرقص هـن وبنـات خالي وفتيات أخريات. محمود وحسن انشغلا ببعض الأمور مثل ترتيب الكراسـي ورش الماء على أرض الساحة أمام بيت خالي كي لا يعلو الغبار، أمي وزوجة خـالي ونسـوة أخريات انشغلن بتجهيز العروس، وترتيب حقيبة ملابسها، وخالي كان يجري من مكـان لآخر مشغولاً بألف شيء وشيء في نفس الوقت مع في ذلك اليوم كثر الناس وبدأ صوت الطلبة يصبح أكثر انتظاماً ودقة، حيث تولت المهمة فتاة كبيـرة مـن جـارات خـالتي وصديقاتها.

وبعد قليل جاءت عدة سيارات وحافلة تحمل عدداً من أهـل العـريس، توقفـت السيارات ونزل من فيها وعلى رأسهم عريس خالتي "عبد الفتاح" وبدأ الطبـل والغنـاء المشهور ولكن بلهجة ضفاوية وتقدموا نحو البيت حيث خرج خالي ومجموعة من الرجال لاستقبالهم، وسلم الرجال على الرجال وعانقوهم، وسلمت النسوة على النسوة وهن يُقبـل بعضهن بعضاً، دخلت النسوة إلى داخل الصالة وجلس الرجال في ساحة البيت، وزعـت البقلاوة في صحون وكان أخي محمود الأنشط من بين الموزعين، ووزع الشراب الأحمر على الحاضرين وصوت الطبلة وغناء النسوة يصدح طيلة الوقت، استمر الحـال هكـذا حوالي ساعة وكان خالي طيلة الوقت يتحدث مع العريس ووالده، ومعه بعـض الرجـال ممن لا أعرف. ثم دخل خالي البيت واستعد الجميع حيث وقف العريس ووالده عند الباب، ومع الطبل والغناء خرج خالي وهو يمسك بذراع خالتي فتحية التي كانت تلـبس البدلـة البيضاء وعلى رأسها طرحة بيضاء زادتها جمالاً على جمالها،فعادت كالبدر في تمامـه تسير الهوينى حتى الباب إلى أن تسلمها العريس من ذراعها وعلت زغاريد النسوة.

وسار العروسان نحو إحدى السيارات، والجميع يتحرك خلفها، أمي كانت طيلـة الوقت قريبة جداً من خالي وزوجة خالي إلى جوارها، ركب العروسان السيارة التي كانت مزينة، وبدأ الرجال والنسوة يركبون السيارات والحافلة، التفتت أمي تبحث عن محمـود صارخة عليه أرجع إخوتك وارجع أنت وهم مع جدك إلى الدار، سـآخذ معـي إخوتـك وسأعود غداً إليهم إن شاء الله كل شيء جاهز في الدار، يا حبيبي لن يلزمكم شيء حتـى عودتي، انتبه لجدك ولأبناء عمك أغلق الباب قبل منع التجول ولا تفتحوا البـاب مهمـا حدث حتى طلوع الشمس، محمود يهز رأسه مؤكداً فهمه لدوره كالعادة، فقد كـان يفهـم التعليمات الصادرة من أمي دوماً وينفذها بسرعة متناهية، فاطمة كانت تحمل مريم علـى ذراعيها، ركبت أمي وزوجة خالي وأخواتي وبنات خالي إحدى السيارات وقام محمـود بدوره بجمعنا إلى جوار جدي الذي كان يقف متكئاً على عصاه.

بعد أن ركب الجميع السيارات وخالي ووالد العريس ينظمان الأمـور، اسـتأذن خالي بالعودة لإغلاق البيت طالباً منهم الانتظار قليلاً، عاد مسرعاً إلى البيت وقد تنـاول كيساً من المطبخ ووضعه في غرفة الضيوف ثم أغلق الباب الخارجي، وأسقط مـن يـده شيئاً وانحنى ليتناوله مخفياً مفتاح الدار تحت العتبة، ثم انطلق حيث ركب السيارة وانطلق المركب ولا يزال صوت الطبلة وغناء النسوة يصدح حتى غابوا، فانطلقنـا مـع جـدي عائدين إلى البيت. وصلنا قبيل الغروب وقد أنهكنا التعب من هذا اليوم الحافـل باللعـب والأكل والسرور، أغلق محمود الباب بإحكام وغرقنا في نوم عميق.

الليل يسدل على غزة أستاره السوداء ويغرقها في بحر مظلم لا يكاد المرء يـرى منه إصبعه، ودوريات جيش الاحتلال تجوب الشوارع الرئيسية في المدينـة ومكبـرات الصوت تعلن دخول وقت منع التجول، ثم يسود صـوت عميـق لا يقطعـه إلا صـوت سيارات الدوريات بين الحين والآخر بصورة تؤكد وجودها وحفاظها على الأمن. وبهدوء ورباطة جأش تسلل سبعة من الرجال إلى دار خالي بعد أن تناولوا المفتـاح مـن تحـت العتبة، لم يشعلوا الضوء حتى دخلوا جميعاً وأسدلوا الستائر ووضعوا البطانيـات علـى الشبابيك فوق الستائر للتأكد من عدم تسرب أي شعاع من الضوء. بعدها أشعلوا الضـوء فوجدوا الكيس الذي وضعه خالي، فتحه أبو حاتم فوجده مليئاً بأصناف الطعام والحلويات فتمتم:أصيل يا صالح أصيل حتى وهو خارج البيت كريم.

جلس الرجال في حلقة صغيرة متراصة وبدأوا يتهامسون ساعات طويلـة حتـى جوف الليل ثم غرقوا في النوم يتبادلون السهر والحراسة، حتى اقترب الفجر، حيث بدأوا يتسللون من الدار واحداً تلو الآخر، آخرهم كان أبو حاتم الذي أغلق الباب بعد خروجـه ووضع المفتاح مكانه تحت عتبة الدار، وانطلقوا على بركة الله وهم يرددون: ﴿**وجعلنـا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾[1].

صحوت على صوت جدي وهو يصلي الفجر، وصحا محمود مبكراً ليقوم بـدور الأم وأيقظ أخويّ حسناً ومحمداً وابنَي عمي حسناً وإبراهيم وقدم لهم الإفطـار وانطلقـوا خمستهم إلى مدارسهم، وبقينا أنا وجدي في البيت وحدنا.

---

[1] سورة يس آية (٩)

في ذلك اليوم لم يذهب جدي إلى السوق، وأخذني عندما علت الشمس لنجلس تحت شعاعها الدافئ وبعد برهة أخذ يحدثني عن أيام الشباب والبلاد التي ضاعت ثم أخرج كيسه الصغير وتناول منه قرشاً وقال لي اذهب اشترِ لك حاجة وعد سريعاً، انطلقت إلى دكان "أبو خليل" واشتريت بضع حبات من الحامض حلو، ورجعت إلى جدي وقد وضعت إحداها في فمي، سألني جدي وهو يجلسني إلى جواره: ماذا اشتريت؟ فأريته ما بيدي ومددت إحداها نحو فمه فضحك طويلاً وقال: لا هذه لك يا حبيبي.

جلست إلى جواره أتمتع بأشعة الشمس ومص تلك الحبات من الحلوى، كان وقت الظهر قد اقترب، نهض جدي وهو يتكئ على عصاه قائلاً: هيا يا أحمد نذهب للجامع لصلاة الظهر(يلا يا أحمد نروح للجامع نصلي الظهر) أمسك بيدي وانطلقنا، وهناك جلس جدي يتوضأ وأنا أقلده وهو ينظر إلي مبتسماً، جاء الشيخ حامد ونظر مبتسماً قائلاً لجدي: إن شاء الله سيكون هذا الولد متديناً، فتمتم جدي (إن شاء الله.. إن شاء الله).

مرت الأيام متشابهة ولكني أصبحت أكثر قدرة على إدراك ما يدور حولي، الشيء الجديد الذي بدا واضحاً هو انطلاقة المقاومة، ففي كل يوم هناك عمليات إطلاق نار على دوريات الاحتلال أو إلقاء قنابل يدوية، أو تفجير عبوات، وفي كل مرة يرد جنود الاحتلال بمنتهى القوة والعنف ضد الأهالي المدنيين العزل، حيث يطلقون النار على الناس بشكل عشوائي فيقتلون ويصيبون، ثم تأتي التعزيزات وتفرض منع التجول على المنطقة وتنادي الرجال للخروج إلى المدرسة، وهناك يقوم الجنود بضرب الرجال وإذلالهم ويعتقلون البعض منهم، نفس الصور والأصوات والحركات تتكرر عدة أيام...

المقاومة تزيد ويشتد عودها وتصبح أكثر جرأة وإقداماً، حتى أننا أصبحنا نرى بعض الرجال الملثمين بالكوفيات يحملون أسلحتهم من البنادق الإنجليزية أو بنادق الكارلوستاف، أو يحملون القنابل اليدوية ويتجولون بها في أزقة المخيم خاصة قريباً من فترة المساء. أصبح مألوفاً علينا حتى أننا بدأنا ندرك أن حظر التجول الليلي هو مجرد أكذوبة لا تنطلي علينا نحن الصغار وعلى أمهاتنا وعلى الجزء البسيط من الناس المساكين. أما رجال المقاومة فكانوا يحتلون المخيم ليلاً ودوريات الاحتلال لا تتمكن من دخول أزقته وتظل على الشوارع العامة الرئيسية ومع طلوع النهار يختفي رجال المقاومة.

جاءت العطلة الصيفية وسجلتني أمي في المدرسة وبدأت أتجهز للذهاب إليها بعد أيام قليلة، فاشترت لي أمي حذاءً جديداً بالنسبة لي، ولكنه مستخدمٌ، حيث يباع على البسطات للأحذية المستخدمة في سوق المخيم ولكنه بشيء من الدهان بدا وكأنه خارج من المصنع للتو..لونه الأحمر كان يعجبني كثيراً وقد أعجب جدي كثيراً كذلك، وقد أعدت لي أمي حقيبة صغيرة من قماش ثياب لم تعد صالحة للبس، وكل شيء أصبح عندي للمدرسة، خاصة ما كان إخوتي وإخواتي وأبناء عمي يحدثوني به عن المدرسة، عن طابور الصباح، عن الصفوف، وعن المدرس، وعن الفسحة (الفرصة) بين الدروس.

قبل انتهاء العطلة الصيفية كمن أحد رجال المقاومة لدورية جيش الاحتلال في أحد الأزقة التي تطل على الشارع الرئيسي الذي تسير عليه الدوريات في العادة، وحين اقتربت ألقى القنبلة عليها فانفجرت وأصابت عدداً من الجنود الذين كانوا في سيارة الجيب، توقف الجيب بعد أن ارتطم بجدار قريب، وعلا عويل الجنود وصراخهم، وبعد أن أفاق من كان فيه حياة، بدأوا بإطلاق النار على كل شيء في الشارع، وعلى الفور جاءت تعزيزات كبيرة وبدأت مكبرات الصوت تعلن منع التجول والمخالف يعاقب، فبدأ الناس يدخلون بيوتهم، ثم بدأ الجنود يندفعون بالعشرات إلى البيوت في أطراف المخيم، ويعتدون على النساء والرجال والأطفال بالضرب المبرح بالهراوات.

نادت مكبرات الصوت على الرجال من سن ١٨ سنة حتى ٦٠ بالخروج إلى المدرسة كالعادة، وما إن هدأت المكبرات فإذا بأصوات البعض تعلو صارخةً تدعو الجميع بعدم الخروج موضحة أنهم لا يستطيعون دخول المخيم فرجال المقاومة يملأونه وهم مستعدون، وبالفعل فلم يخرج للمدرسة إلا الرجال من البيوت في أطراف الحي الذي لا يتطلب من قوات الاحتلال الكثير من المخاطرة للوصول إليها، وحين يقوم الجنود بمحاولة الدخول إلى المخيم كانت في كل محاولة تنفتح عليهم نيران البنادق والرشاشات من زوايا الأزقة الصغيرة والمتعرجة فيضطرون للتراجع وهم يتراكضون ويصرخون.

الذين خرجوا للمدرسة أخذوا قسطاً مضاعفاً من الضرب والإهانات، ثم سمح لهم بالعودة إلى المخيم واستمر فرض حظر التجول أسبوعاً كاملاً عشنا فيه على (البيصارة والعدس والفول والزيتون) ورغم أنها كانت ممزوجة بالخوف، إلا أنها كانت من ألذ ما أكلنا من طعام منذ بدء الاحتلال، فقد شعر الجميع بالعزة تحت حماية بنادق المقاومة.

وبعد مرور اليومين الأولين من منع التجول بدأ الناس يتجرأون على الخروج من بيوتهم والجلوس عند أبواب منازلهم في الأزقة الضيقة في أعماق المخيم حيث لن تستطيع قوات الاحتلال الوصول إليه بسهولة قبل أن يصدها رجال المقاومة الذين يتربصون لهـا في زوايا المخيم، رأيت الكثير من رجال المقاومة ولم أستطع معرفة أحد منهم فقد كـانوا يتلثمون بالكوفيات ويحملون أسلحتهم ويرابطون في مواقعم وراء هذا الجدار أو ركن تلك الزاوية.

ورأيت عدداً من جيران الحي من جيراننا يجلسون عند إحدى الزوايا ويشـربون الشاي وبعضهم يلف السجائر ويدخنها، ويتحدثون من مشاعرهم وتخوفـاتهم، يشـعرون بالعزة والكرامة التي أهانها الاحتلال من الجاثم على صدورنا، ويتخوفـون مـن الآتـي المجهول فهل يبقى الوضع على حاله هكذا؟ ولن يقتحموا المخيم بقوات كبيـرة؟ أو لـن يقصفوه بالمدافع أو يحرقوه على رؤوس من فيه!! الآراء كانت متباينة ولكن الرأي القائل بضرورة الصمود كان هو الغالب والقاعدة التي ترددت ماذا لدينا لنخسره!! فليس لدينا إلا القيد ودار الوكالة، فعلام الخوف؟ هكذا كانت تنتهي كل الأحاديث (يا راجل أي والله حياة دقيقة بعزة وكرامة ولا ألف سنة زي الزفت تحت بساطير جنود الاحتلال).

هذا لم يكن فقط في مخيمنا بل كان في كافة المخيمات في قطاع غزة، وفي كـل شوارع المدن والقرى أو في الكثير منها، في الضفة الغربية وغزة بدأت المقاومة تتـأجج في أنحاء الوطن بعضها منتظم والكثير منها فردي، ومبادرات محلية من أحرار الـوطن ورجاله وقد بدأنا نسمع أخباراً خاصة عن عمل المقاومة المتميز في مخيم جباليا القريـب من مخيمنا، فهناك كان أبو حاتم يقود المقاومة التي التحق بها العشرات من شباب ورجال المخيم والمناطق القريبة وأصبح الجميع يسمونه مخيم جباليا (مخيم الثورة).

الأخبار كانت تسري في المخيم سريان النار في الهشيم، فتزيد الناس سعادة وترفع المعنويات، ونحن كأطفال انعكس ذلك حتى على لعبنا (عرب ويهود)، فقد صرنا نلعبهـا يومياً وأصبحت القاعدة السائدة أن العرب سيغلبون ويقتلون أعداءهم.

الفصل الرابع

طيلة الليل وأنا إما أتجهز للمدرسة أو أتحدث عنها وأسأل إخـوتي عـن بعـض أمورها، أو أحلم، فغداً يومي الأول فيها، قبيل النوم كنت قد ذهبت إلى (النمليـة) خزانـة الملابس الصغيرة التي في غرفتنا، وأخرجت ملابس وبدأت ألبسها وألبس حذائي الجديد. لما رأتني أمي صرخت عليّ (ايش بتسوي يا أحمد) أجبت بصـوت مـنخفض أتجهـز للمدرسة (باحضر للمدرسة) فضحكت وقالت: (لقد بقي وقت طويل للمدرسة حتى الصباح ياما).

في الصباح الباكر استيقظت على دعوات جدي وصلواته ولم أنم بعدها، ومـا أن أفاقت أمي من نومها حتى قفزت من فراشي لأتجهز للمدرسة. بعد وقت أيقظـت أمـي إخوتي وأرسلت أخي محموداً ليوقظ ابنَي عمي في الغرفة الأخرى حيث ينامان مع جدي، لبس أبناء عمي وألبستني أمي ملابسي وجهزتني أحسن تجهيز، وكأنني ذاهب إلى حفـل زفافي، وأوصتني بالكثير من الوصايا وهي تمدحني بأني (شاطر) وكبيـر وراجـل ثـم أعطت كل واحد منا (شلناً) وهو عبارة عن خمس أغـورات مـن الليـرة الإسـرائيلية ووضعت لكل واحد منا قطعة من الخبز في حقيبته التي كانت فارغة تماماً من أي شيء.

أوصت أمي أخي محموداً كثيراً عليّ، فقد كان محمد مترفعاً للصف الثالث وهـو الثالث الابتدائي وهو معي في نفس المدرسة (ذكور اللاجئين الابتدائية أ.) أختي مها كانت في الصف الخامس في مدرسة (إناث اللاجئين الابتدائية ب) وأخي حسن كان في الصف الأول الإعدادي في مدرسة (ذكور اللاجئين الإعدادية أ.) أختي فاطمة كانت في الصـف الثالث الإعدادي في مدرسة (إناث اللاجئين الإعدادية أ.) أخي محمود كان فـي الصـف الثاني الثانوي في مدرسة الكرمل.. أما إبراهيم ابن عمي فقد كان فـي الصـف الثـاني الابتدائي في مدرستي، وابن عمي حسن كان في الصـف الأول الثـانوي فـي مدرسـة الكرمل.

خرجنا جميعاً دفعة واحدة من البيت. وأخي محمد يمسك بإحدى يديّ وابن عمـي إبراهيم يمسك بيدي الأخرى، بينما علقت حقيبتي القماشية في عنقي وانطلقنا للمـدارس. بعد مشوار قطعناه بدأنا ننفصل كل مجموعة في اتجاه مختلف وبقي ثلاثتنا معاً.

كانت الشوارع مزدحمة بالأولاد والبنات مثلنا كل الأجيال في طريقهم إلى المدارس الأولاد يلبسون ملابس مختلطة اللون والشكل، أما البنات فكن يلبسن زياً موحداً اسمه (المريول) وهو قماش مخطط باللونين الأبيض والأزرق كل لون له نصف سنتيمتر، وقد ربطن شعورهن بالشبرات البيضاء وما كان يميزنا نحن الأولاد هو شعورنا المحلوقة على درجة صفر أو قريباً منها، وصلنا للمدرسة حيث كان هناك الباعة المتجولون من الرجال والنساء بعضهم يحمل بضاعته على عربات صغيرة وبعضهم يضعها على بسطات صغيرة.

دخلنا المدرسة فإذا فيها ساحة كبيرة جداً فيها أشجار عالية، وحول الساحة عدد كبير من الغرف، وفي المدخل حديقة صغيرة من الورود والنباتات وفيها بركة (حوض ماء) بدأ أخي محمد يعرفني على المدرسة هذا صف أول (أ) وهذا صف أول (ب)، وهذا صف أول (ج)، هذه صفوف الثاني هذه صفوف الثالث..وهذه غرفة المدرسين، وهذه غرفة الناظر (مدير المدرسة) وهذا المقصف (الكانتين)، هذه دورات المياه، وهذه حنفيات الشرب. قرع الجرس الصباحي وجاء المدرسون ليرتبوا صفوف التلاميذ. القدامى ترتبوا بسرعة، أما نحن التلاميذ الجدد في الصف الأول فقد جمعنا المدرسون وبدأوا ينادون أسماءنا وكل من ينادونه يقف على جهة حتى قسمونا إلى ثلاث مجموعات، وكل واحد من المدرسين أخذ مجموعته، أستاذنا كان شيخاً يلبس الجبة وعلى رأسه (طربوش) أي أنه كان شيخاً أزهرياً.

دخلنا إلى الصف الأول الابتدائي (أ) هناك بدأ يرتبنا حسب الطول، الأقصر أولاً حيث قسمنا إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة ثلاثة أشخاص وكل ثلاثة كانوا يجلسون على مقعد (بنك) خشبي نجلس على لوح خشبي طوله يزيد عن المتر وعرضه حوالي خمسة وعشرين سنتيمتراً، وأمامنا لوح نفس الطول وعرضه حوالي ٤٠ سم نضع عليه الدفاتر والكتب التي نقرأ فيها، وتحتنا لوحٌ آخر نضع عليه حقائبنا، وكل هذه مثبتة معاً بعراضات خشبية تجعلها كلها وحدة واحدة اسمها (البنك).

وفي الفصل الواحد ثلاثة صفوف من هذه البنوك،كل صف حوالي سبعة بنوك، وفي كل بنك ثلاثة صفوف من هذه البنوك، كل صف حوالي سبعة بنوك وفي كل بنك ثلاثة طلاب وبين كل صف والصف الثاني مساحة حوالي متر ونصف، وفي وسط الغرفة أمام هذه البنوك توجد طاولة المدرس وكرسي، وعلى الجدار سبورة سوداء نسميها اللوح.

جلس كل واحد منا في وسط المقعد (البنك) الذي حدده له المدرس الـذي عرّفنـا على نفسه: أنه "الشيخ حسن"، وبدأ يتعرف علينا واحداً واحداً، وكل واحد يقـول اسـمه. كان "الشيخ حسن" يسأله عن أبيه وأعمامه وجده، حتى تأكدنا أنه يعرف جميع أهلنا، حتى أنني حين عرفت على نفسي أنني (أحمد إبراهيم الصالح) دعا الشيخ بصوت مرتفع، وقد رفع يديه إلى السماء (الله يرجعلكم أبوك بالسلامة) فعرفت أنه يعرف أن أبي غائـب ولا نعرف مكانه.

وبعد وقت ليس طويلاً أحضروا إلى فصلنا كميات من الكتب والدفاتر والأقـلام والمحّايات، وبدأ الشيخ يوزع علينا تلك الأغراض، كل واحد منا أخذ كتاب قراءة مليئـاً بالصور الملونة الجميلة، وتحتها كتابة لا نعرف قراءتها بعد، وكتاب حساب، وجزء عـمّ من القرآن وأعطى كل واحد منا خمسة دفاتر و (٥) أقلام ومحاية، غلاف الدفتر كـان ذا لون أخضر وأحمر مرسوم عليه إشارة وكالة الأمم المتحدة –قسم التعليم– اليونسكو، وبدأ الشيخ يعرفنا على الأغراض التي أعطانا إياها، هذا كتاب القراءة، وهذا كتاب الحسـاب، هذه الدفاتر خبئوا ثلاثة منها عند أمهاتكم وسنخصص دفتراً للقراءة ودفتراً للحساب، كـل يوم أحضروا الكتابين وجزء عمّ ودفترين، وقلماً، والممحاة، ثم بدأ يكتب لكل واحد منـا اسمه على أغراضه بخط جميل، وبقلم حبر أسود في غاية الروعة والجمال.

انتهى اليوم الدراسي وأخذني محمد وابن عمي إبراهيم من يدي وانطلقنا عائـدين إلى البيت، وقد حمل كل واحد منا حقيبته القماشية وقد ملئت بالقرطاسية. مـرت الأيـام تترى وقد بدأت أتعلم القراءة والكتابة والحساب،وبدأت أحفظ بعض قصار السـور مثـل باقي التلاميذ في الفصل. نذهب سوية للمدرسة ونخرج للفسـحة حيـث نلعـب ونأكـل السندويشات التي أعدتها لنا أمي المحشوة بالدقة أو بالفلفل المخروط، ونادراً مـا تكـون محشوة بالمربى، أحياناً كنا نشتري بنصف قطعة الخبز التي معنا من إحدى النسوة اللاتي يجلسن عند باب المدرسة شيئاً من اللبنة فننطلق ونحن نقضمها وليس هناك شيء ألذ من طعمها الحامض.

نرجع للبيت نتغدى ثم يخرج محمود وحسن إلى مصنع خالي صـالح، نقضـي الوقت بين اللعب في الحارة وبين القراءة في كتب المدرسة والقيام بالواجبات التي طلـب منا الأستاذ "الشيخ حسن" أداءها، أحياناً في الليل نجتمع حول طشت (طست) الغسيل بعـد أن نقلبه ونضع السراج وسطه، ويضع كل منا كتابه أو دفتره عليه وينحني وهو يجلـس على الأرض ليكمل دراسته وأمي والباقون ممن لا يدرسـون يجلسـون إلـى جوارنـا يتحدثون.

ولا يمر أسبوع إلا ونسمع صوت مكبرات الصوت تعلن منع التجول فنفهم أن أحد الفدائيين قد نفذ عملية ضد قوات الاحتلال بإلقاء قنبلة يدوية أو إطلاق النار على إحدى الدوريات. مرة أخرى تحاول قوات الاحتلال اقتحام المخيم فيتصدى لها الفدائيون فترجع خائبة الشيء الجديد الذي حدث هذا العام هو استشهاد "أبي يوسف" (جارنا) فقد خرج أبو يوسف برفقة شابين آخرين لينفذوا إحدى عملياتهم الفدائية ضد دوريات الاحتلال. كانت الخطة أن يلقي أحد الشبان قنبلة على الدورية التي تمر يومياً من الشارع العام في نفس الساعة، وينسحب بحيث يجعلهم يرونه وهو ينسحب. وفي طريق انسحابه يكمن أبو يوسف والفدائي الآخر ببنادق الكارلوستوف والقنابل اليدوية، في انتظار التعزيزات التي تأتي لملاحقته، وبالفعل فقد تقدم ذلك الشاب ليقوم بمهمته، وبينما هو في انتظار الدورية هاجمه الجنود من الخلف، وهاجموا أبا يوسف وزميله إبراهيم فجأة، وأطلقوا عليهم النار فاستشهدوا على الفور.

هذه المرة لم تفرض قوات الاحتلال حظر التجول على المخيم، خرج المخيم عن بكرة أبيه، رجاله ونسائه، كباره وصغاره، من بيوتهم وغالبيتهم كانوا يبكون على استشهاد أبي يوسف، وجرت للشهداء جنازة مهيبة شارك فيها كل سكان المخيم وهم يهتفون: بالروح بالدم نفديك يا شهيد...بالروح بالدم نفديك يا فلسطين، وطافت الجماهير بالنعوش أنحاء المخيم عدة مرات، ثم أخذوهم ليدفنوهم في المقبرة القريبة. عصر ذلك اليوم أخذني جدي معه إلى زاوية الدار حيث يجتمع عدد من رجال وشيوخ الحارة يتحدثون ويتسلون ويناقشون أحداث الساعة وآخر التطورات، طبعاً كان حديث اليوم استشهاد أبي يوسف ورفيقيه، والجميع كانوا مندهشين مما حدث، أحد الرجال قال: الجماعة أُخذوا على حين غفلة (الجماعة انخدعوا) وتساءل آخر كيف كان ذلك؟ فأجابه صاحبه: إطلاق النار كان من خلف ظهورهم يعني من عكس الجهة التي كانوا ينتظرون العدو منها، فتساءل ثالث: ماذا تقول يا رجل! فأجابه (زي ما سمعت) فتساءل جدي هل يعني هذا أنه غدر وخيانة؟ فقال الرجل (أنا عارف! ايش عرفني هذا اللي صار) فردد أحدهم (والله اشي بطير العقل) الله يرحمك يا أبا يوسف ويعوضنا فيك عوض الخير.

بعد عدة أيام وقد قاربت الشمس على الغروب واقترب موعد فرض نظام منع التجول كالعادة، وبينما كنا نلعب في الحارة، وإذ بعدد من الفدائيين الملثمين المسلحين يملأون المكان وكل واحد منهم يأخذ موقعه على رأس الأزقة، ثم جاء "أبو حاتم" وهو يجر أحد رجال المخيم من أذنه وهو في أذل شكل وأخزى صورة، كانت بيد أبي حاتم عصا خيزران وبندقية معلقة في كتفه، توقفنا جميعاً عن اللعب، وبدأ أهل الحي يتجمعون ويطلون من بيوتهم، وقف أبو حاتم والعصا بيده وذلك الرجل يحاول إخفاء وجهه بين يديه ويثني جسده ليلصقه قدر المستطاع.

ساد صمت مطبق قطعه صوت أبي حاتم الجهوري قائلاً: (يا ناس كلكم بتعرفوا أبو يوسف قائد قوات التحرير الشعبية في المخيم وبتعرفوا وسمعتوا عن بطولاته وعملياته اللي رفعت روسنا كلنا، واللي أدبت المحتلين، وكلكم بتعرفوا هذا الخسيس اللي اكتشفنا إنه جاسوس مع اليهود وأنه هو اللي كان براقب أبو يوسف وبلغ عنه جيش اليهود).

بدأ جميع أهل المخيم يهمهمون بكلام غير واضح وغير مسموع، وغير مفهوم، رفع أبو حاتم عصاه في الهواء صارخاً سائلاً ذلك الرجل: (وَله يا ندل إحكي قدام الناس إيش اللي صار) غمغم الرجل بكلمات غير واضحة فهوت عليه عصا أبي حاتم بعدة ضربات متتالية، فجلس القرفصاء ويداه حول رأسه فصرخ عليه أبو حاتم آمراً _ فنهض على عجل وصرخ عليه أبو حاتم: (اسمع الناس ايش اللي صار) فبدأ الرجل يعترف أنه هو الذي أبلغ (وز) عن أبي يوسف وزميليه مقابل مبلغ بسيط من المال، وأنه لم يكن يعرف أنهم سيقتلون..) فتتالت عليه عصا أبي حاتم بالضرب وارتفع صوت الناس (الله يخزيك يا حقير الله يخزيك يا خاين يا جاسوس).

رفع أبو حاتم عصاه مشيراً للناس بالصمت، فساد السكون، فقال أبو حاتم (يا ناس هذول اليهود احتلوا أرضنا وطردونا من بلادنا، وقتلوا رجالنا، وهتكوا أعراضنا، وفينا ناس مستعدين يتعاونوا معهم ضد الفدائيين اللي حملوا أرواحهم على أيديهم، إيش جزاة الخاين اللي بشتغل مع اليهود يا ناس؟) فارتفع صوت الناس الموت...الموت... .

فتناول أبو حاتم بندقيته من كتفه، ووجهها نحو رأس ذلك الجاسوس، وضعت أمي يدها على عيني فحاولت إزاحتها لأرى ما يحدث، ولكن سمعت صوت طلقات وهتف الناس الموت للخائنين، الموت للعميل.

في اليوم التالي كمن الفدائيون لإحدى دوريات الاحتلال بعد أن أقسموا بدم الشهداء أن ينتقموا لدم "أبو يوسف" وحين وصلت سيارة الجيب ألقوا عليها عدة قنابل يدوية، وأمطروها بعدة زخات من الرصاص فقتلوا عدداً من أفرادها، وأصابوا آخرين، لم يتمكن الجنود من رفع أسلحتهم للرد أو لإطلاق النار على المارة من الناس على الفور.

جاءت تعزيزات كبيرة من قوات الاحتلال حاصرت المنطقة، وبدأت بإخراج الناس من البيوت القريبة تحت الضرب والركل والإذلال، وإطلاق النار في الهواء، جعلوا الرجال يصطفون على الجدار وجوههم إليه والبنادق موجهة إلى رؤوسهم، والضرب والركل مستمران.

جاء ضابط المخابرات المسئول عن المنطقة وبدأ يستعرض الرجال واحداً واحداً، ثم يناديهم واحداً واحداً وهو يجلس في سيارته وبابها مفتوح، ليقف الواحد منهم عنده والبنادق مصوبة إليه فيبدأ بالأسئلة عشرات بل مئات الأسئلة، علّه يحصل على أدنى معلومة تفيده في تشخيص الفدائيين.

بعد أيام رفع منع التجول وذهبنا للمدرسة كالعادة، أثناء الفسحة بعد ثلاث الحصص الأولى خرجت إلى دورات المياه، هناك وجدت الأولاد يتسلقون جداراً ليس عالياً وينظرون من فوقه ويتحدثون مع أولاد آخرين، فقدمت نحو الجدار وتسلقت مثل الآخرين ونظرت فوجدت أننا نُطلُ على المدرسة الإعدادية التي يدرس فيها أخي حسن، الأولاد الذين يدرسون في المدرسة يبدون كباراً، فهم أكبر مني وأطول مني بكثير.

في هذا اليوم ونحن في طريق عودتنا من المدرسة للبيت أنا وأخي محمود وابن عمي إبراهيم ومن بين مئات الطلبة الذين كانوا يملأون الشارع شاهدت ابن عمي حسناً على بعد عشرات الأمتار مني، وبيني وبينه عدد كبير من الطلاب والطالبات، كأني رأيت حسناً يرفع يده نحو فمه ويضع شيئاً في فمه، هل هو سيجارة؟ ثم رأيته ينزل يده وينفث من فمه الدخان، شددت يديّ محمد وإبراهيم اللذين كانا يمسكان بيدي كالعادة، وهما ينظران إلي بدهشة أشرت لهما بعيني نحو حسن، لم يفهماني وتساءلا بتعجب واستغراب ماذا حصل (إيش مالك) فقلت حسن!! تساءلا: ما باله؟ (ماله) كان حسن قد انتبه أننا خلفه فألقى عقب السيجارة التي كان يدخنها ولم ير محمد وإبراهيم شيئاً، وكنا قد وصلنا فآثرت الصمت خشية أن تنالني إحدى ركلاته.

حين عدنا للبيت وجدت أمي وحدها بعد أن سنحت الفرصة فتقدمت منها هامساً في أذنها (ياما شفت حسن ابن عمي بدخن!) التفتت إليّ أمي بنظرة حادة وقالت (أكيد أنت غلطان ومتوهم، ما تقولش ها الحكي لحد، ماشي) هززت رأسي موافقاً وانطلقت ولكن لم يفتني في ذلك اليوم أن أمي قد اختلت بحسن ابن عمي وكانت تتحدث معه وتسأله وهو مُطأطئ الرأس دون أن أسمع حديثهما، بعد أيام بعد أن عدنا من المدرسة سمعت أخي محموداً يتحدث مع أمي أن ابن عمي حسن لم يذهب في هذا اليوم للمدرسة، قد تسرب منها رأيت الحيرة في وجه أمي فما عساها أن تفعل لعلاج هذه المشكلة.

رأيتها تتحدث مع جدي وقد ناديا حسناً وتحدثا معه حديثاً عنيفاً، وقد حاول أن يدافع عن نفسه دون جدوى،وقد أسمعاه تهديداً بأنهما سيجعلان محموداً وحسناً يمسكانه ويربطانه بالحبل في عمود عريشة الدار،ويوجعانه ضرباً إذا عاد وتسرب من المدرسة. بعد أيام ضبطت والدتي في جيب بنطاله عدة سجائر وربع ليرة، أخذتها وخرجت بها لجدي الذي كان يجلس في ساحة الدار قائلة: انظر ماذا وجدت في جيب حفيدك، نظر الجد بدهشة إلى ما في يد أمي وتساءل: من أين أتى هذا الولد بالفلوس؟ وحينها صرخت أمي على محمود وحسن أن يحضرا حسناً ابن عمي فوراً، خرجا وغابا قليلاً ثم عادا وحسن برفقتهما.

جدي كان قد هده العمى والهم، فلم يكن قادراً على فعل شيء، وهنا تولت أمي مسئولية التحقيق مع ابن عمي حسن سائلة: (من أين حصلت على الفلوس) تساءل حسن أي مصاري؟ أجابت وقد أبرزت له ربع الليرة والسجائر، صمت حسن فقد أسقطه في يده، وكأنه يقول هذه مصيبة، حاول أن يراوغ صرخت أمي على محمود وحسن: أمسكاه، وصرخت على فاطمة أحضري الحبل يا فاطمة، أسرع الجميع لتنفيذ مهماتهم، أنا وأخي محمد وابن عمي إبراهيم كنا ننظر من وراء ظهر جدي إلى ما يجري، ونحن في غاية الخوف والدهشة مما يحدث.

أمسك محمود وحسن ابن عمي حسناً وشداه إلى العامود وأحضرت فاطمة الحبل وبدأت أمي تحاول ربطه إلى العامود وهي تحقق معه. فحين وجد أن الأمور جدية، صرخ قائلاً: لقد سقطت من جدي نصف ليرة وأخذتها. دهش جدي من ذلك فكيف يمكن أن تسقط منه نصف ليّرة، وكم نصف ليرة معه أصلاً؟!! واصلت أمي التحقيق مع حسن أين وقعت؟ وحينها بدأ حسن يتلعثم بصورة تؤكد كذبه، فصرخت أمي على محمود وحسن: شدوه للعمود ولوحت بالحبل فقال لقد أخذتها من كيس جدي من حين علقه على العلاقة وكان نائماً.

صرخت أمي أخذتها وتسمي هذا أخذاً، قل سرقت من كيس جدي، والتفتت نحو جدي قائلة: ما رأيك يا "أبو ابراهيم"؟ ماذا نفعل به؟ جدي كان يضرب كفاً بكف بعد أن أخرج كيس نقوده وتفحص ما فيه فوجد فيه نصف ليرة فقط، وقد أخذ حسن النصف الآخر، بمعنى أنه أخذ نصف مصروف العائلة، قال جدي بصوت ضعيف اربطيه على العامود..اربطيه، نظرت أمي للجد وكأنها تسأله هل هو جادّ في ذلك؟ فأشار هازاً رأسه بالإيجاب وهو يحرك عينيه نحونا، وكأنه يقول لها يجب أن يرى الأولاد أنه يعاقب على ذلك، وإلا فكيف سيؤثر ذلك عليهم؟

ربطت أمي حسناً إلى العامود وهي تنوح وتندب حظها، وحظ حسن، يا حسرتي عليك يا ابن الشهيد، أبوك شهيد يا حسن..عارف معنى شهيد، أبوك شهيد وأنت تسـرق نصف ما في كيس جدك!! نصف مصروف العائلة يا حسن!! عيب عليك يا حسـن، ثـم صرخت علينا جميعاً ادخلوا جميعاً إلى الغرفة، فقمنا جميعاً دون تردد.

في هذه الليلة فرض علينا حظر التجول ليس فقط في الدار من قوات الاحتلال بل في الغرفة من أمي حيث منعتنا من الخروج من الغرفة طيلة الليـل، إلا فـي الحـالات الطارئة جداً، وأرغمتنا على النوم مبكرين.

الفصل الخامس

جاءت خالتي فتحية وزوجها لزيارتنا، استقبلت أمي خالتي بالقبلات والاشـتياق، وخالتي بدأت تقبلنا واحداً تلو الآخر، أمي دخلت لتعد الفراش للضيوف، وهي تنادي على جدي (يا عمي أبو ابراهيم قوم أجونا ضيوف) خرج جدي من غرفته وأقبل يسـلم علـى زوج خالتي التي كانت تحمل معها سلة من القش فيها عدة أكياس وَرَقية ناولتها لأمي.

فاطمة أعدت الشاي، شربوا الشاي ثم استأذن زوج خالتي للمغـادرة إلـى بيـت خالي، وأن خالتي ستظل عندنا هذا اليوم والليلة وسيأتي غداً لمرافقتها للعودة، جدي حاول أن يثنيه وأن يجعله هو الآخر يبيت عندنا، فاعتذر بشدة لأنه يريد أن ينهي بعض الأمور، ودعه جدي وأمي وخالتي حتى الباب، ثم عاد جدي لغرفته، وعادت أمي وخالتي لغرفتنا وتحلقنا حولها.

أحضرت أمي السلة وبدأت بإخراج ما فيها، كان في أحد الأكياس تفـاح أحمـر كبير، لم نر مثله من قبل، وبالطبع لم نذق مثله فقد كنا أكلنا التفاح مرتين أو ثلاثـاً فقـط طيلة أيام عمري وليس من هذا النوع، في كيس آخر يوجد فاكهة أخرى لم نعرف حينهـا اسمها، عرفت اسمها حين كبرت وهي (الخوخ) وفي الثالث كانت قطع من اللبن المجفف، نظرت أمي لخالتي وقالت: (غلبتي حالك يا فتحية)، دمعت عيون خالتي فتحية وهي تقول: (يا ليتني أقدر أن أساعدك كما يجب يا أختي الحبيبة) ثم قالت إن وضع زوجها المالي جيد والحمد لله. أخذت أمي الفواكه وخرجت بها ثم عادت بعد قليل وقد غسلتها، ثـم ناولـت محموداً ما يقارب نصف التفاح والخوخ طالبة منه أن يأخذها لغرفة جدي وابنَي عمـي، وظلت أمي وخالتي تتحدثان حتى وقت متأخر من الليل، ونحن حولهما في فـرح كبيـر بقدوم خالتنا الحبيبة.

زوج خالتي عبد الفتاح ذهب إلى بيت خالي، حيث سهر الليل برفقته، يحدثه عن الأوضاع في منطقة الخليل، في المدينة وفي البلدات والقرى حولها.

عبد الفتاح كان قد أنهى دراسته الثانوية قبيل سنوات وبدأ يساعد والده في أعماله في الزراعة وفي تربية الأغنام، ويفكر في الخروج للدراسة في إحدى الجامعات العربيـة في الأردن أوفي السعودية، خالي كان يسأله عن أوضاع المقاومة والفدائيين، ومسـتوى حياة الناس واستعداداتهم وروحهم المعنوية خـلال السـنوات الثلاثـة منـذ الاحـتلال الإسرائيلي.

منذ احتلال مدينة الخليل، وبعد أيام معدودة بدأت أفواج كبيرة من السياح تأتي إلى الخليل بزيارة الحرم الإبراهيمي، حيث إن اليهود يعتقدون أن لهم حقاً تاريخياً في المكان، الأمر الذي فتح مجالاً للإنعاش الاقتصادي في المدينة، حيث استغل الكثيرون من تجار المدينة ذلك ففتحوا متاجرهم وبدأوا يعرضون بضاعتهم للسائحين، ويبيعون لهم كل ما يمكن بيعه بأعلى الأسعار حتى أنهم باعوا لهم (البلوط) وقد كان الأجانب يعتقدون أن البلوط مقدس من بلد أبينا إبراهيم عليه السلام ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن اليهود كانوا يأتون للخليل لشراء مستلزماتهم من شتى الأمور من المحادد والمتاجر ومن الأسواق الأمر الذي أدى إلى حدوث انتعاش حقيقي في المدينة ومستوى الحياة الاقتصادية فيها.

وقد لوحظ أن جنود الاحتلال يراعون عدم الاختلاط الزائد بالناس ويبدو أن ذلك قد جاء بناءً على طلب رئيس البلدية "الشيخ الجعبري" من كبار القادة الإسرائيليين الذين اجتمعوا معه بعد احتلال المدينة حيث طلب منهم أن يحرصوا على ألا يعتدي جنودهم على أعراض الناس وأموالهم، وكان أولئك القادة وعلى رأسهم "موشيه ديان" قد أدركوا أهمية ذلك فحرصوا على تنفيذ النصيحة، فكان احتكاك الجنود بالناس قليلاً.

لم يكن الناس قد أفاقوا من صدمة النكسة والهزيمة، وحالة من الرعب تسيطر على غالبية الناس من الاحتلال واليهود بحيث يتجول اليهودي في المدينة وحده، ولا يجد من يعترض طريقه، أو يفكر في الاعتداء عليه ولو علم الناس أن هناك من يفكر في ذلك سيمنعونه خوفاً وحرصاً.

لكن هناك بعض المقاومة بين الحين والآخر، وفي فترات متباعدة تنفذ عملية إطلاق نار وقنص أو إلقاء قنبلة يدوية على دوريات الاحتلال في أطراف المدينة أو في إحدى القرى والبلدات المحيطة بها، رغم أن هناك العديد من القرى والمناطق التي لم تدخلها قوات الاحتلال طيلة الوقت، هناك بعض المجاهدين ممن يعيشون في الجبال في المغارات التي تقوم تحت الجبال لمسافات طويلة جداً، يخرجون بين الحين والآخر يهاجمون دوريات الاحتلال فيوقعون بينها الإصابات، وأحياناً نادرة قتلى، ثم يلجأون إلى الجبال مرة أخرى حيث لا تستطيع قوات الاحتلال ولا تجرؤ على التوغل في تلك المناطق الوعرة التي لا يعرفونها، وأشهر هؤلاء المقاومين رجل يسمى "أبو شرار" وهو مجاهد أطار النوم من جنود المحتلين في تلك المنطقة.

حركة فتح تحاول أن تنظم بدء المقاومة في المدينة وحولها، ولكن النجاحات في المنطقة محدودة للغاية حيث يقوم المحتلون باعتقال مجموعات تحاول البدء بالمقاومة، أو تكون قد بدأت فعلاً بداياتها الأولى، ولما تنجح في الوقوف على قدميها بعد، ولعل انشغال الناس بأمور حياتهم والإنتاج الاقتصادي وآفاق النجاح تحول دون نجاح المقاومة في المنطقة وتحولها إلى مظاهر بارزة وسائدة فيها.

ولكن بدأت في المدينة حركة احتجاجات سياسية ينظمها أعضاء مؤيدون لحركة فتح خاصة في الأوساط الطلابية، كما أن هناك محاولات لبدء العمل من قبل الجبهة الشعبية، ونظراً لعدم النجاح الواضح في مجال المقاومة فإن النشاط تركّز على العمل السياسي والشعبي، وبعض الأنشطة الاجتماعية. كان خالي يستمع باهتمام لزوج خالتي "عبد الفتاح" وهو يصف الوضع في المنطقة بصورة تفصيلية، ويطرح عليه بعض الأسئلة الاستيضاحية بين الحين والآخر، ليعرف كل صغيرة وكبيرة محاولاً فهم الفوارق بين الوضع في الضفة الغربية وبين قطاع غزة.

ففي قطاع غزة كانت قوات التحرير الشعبية التي جاءت لتجمع ضباطاً ومقاتلين من جيش تحرير فلسطين الذي تفكك في حرب ١٩٦٧، وكانت قوات التحرير هي التجمع المقاوم الأكبر، وفي نفس الوقت بدأت المقاومة بمجموعات لفتح وللجبهة الشعبية، ومستوى المقاومة في قطاع غزة بصورة عامة جيد، رغم النجاحات التي يحققها الاحتلال في اغتيال بعض القيادات وفي مزيد من التغلغل في المنطقة ومعرفة المزيد من أسرارها.

بعد أيام من مغادرة خالتي سرى في الحارة خبر أن هناك عميلة مقتولة وجثتها ملقاة غربي منطقة المشتى، بدأنا نتدافع للذهاب لرؤية الجثة هناك كالعادة حينما يسري خبر كذلك وقد كانت الجثة ملقاة هناك، لم يعرف أحدُ بالضبط من الذي قتل تلك الصبية، فقد سرت إشاعة أنها عميلة وقتلت على تلك الخلفية. لم يجرؤ أحدُ على رفع صوته معترضاً على ذلك أو متسائلاً عن التفاصيل، ولكن الهمهمة والهمس في الحارة سادت، حيث تردد أنها ليست عميلة، وأن بعض من تقمصوا صورة الفدائيين استغلوا حصانتهم وخدعوها، ثم هتكوا عرضها، وخشية أن ينفضحوا قتلوها واتهموها بأنها عميلة، فمخابرات الاحتلال كثفت عملها للتغلغل في أوساط الشعب مستغلة نقاط الضعف والحاجة والفقر، وعملت على تجنيد العملاء الذين ينقلون لها المعلومات عن المقاومين وتحركاتهم ومن يؤونهم ويساعدونهم في كل مناسبة وفي غير مناسبات.

تقوم قوات الاحتلال باعتقالات كبيرة من الرجال والشبان حيث ينقلون إلى مبنى السرايا حيث مقر المخابرات، هناك تستقبلهم أعداد كبيرة من الجنود بالضرب والصفع والركل يعصبون عيونهم ثم يوقفونهم ووجوههم نحو الحائط، وأيديهم مقيدة نحو الخلف، ساعات طويلة تحت المطر وفي البرد الشديد يرتجفون برداً وتحسباً أو خوفاً، والجنود يقفون خلفهم يتبادلون الدوريات، يركلون ويضربون كل من يرتكز على الجدار أو يتحرك يمنة أو يسرة، وفي غرفة قريبة يجلس عدد من ضباط المخابرات الشين بيت (اسمها حين ذاك) في الغرفة المضيئة المكيفة يستدعون الرجال واحداً واحداً، يجلسونه على الكراسي أمامهم ويرفعون العصابة عن عينيه، ويبدءون يمطرونه بآلاف الأسئلة عن نفس عمله، بلدته، أهله، إخوانه وكل واحد منهم جيرانه، وعن رجال المقاومة، ويوجهون له مئات الشتائم واللعنات، ومن أبذأ وأقذر ما قد يلفظه الآدميون بلغتهم الخاصة التي تكسر اللغة العربية التي ينطقونها، ويضربون أحياناً، يمازحون أحياناً أخرى، وينادون بين الترهيب والترغيب بحثاً عن أي معلومات لدى الرجال أو عن استعداد عند أحدهم للتعاون معهم أو عن نقطة ضعف لدى آخر، للضغط عليه لإجباره على التعاون معهم ضد أهله و ربعه.

البعض من الرجال يتحرقون غيظاً وقهراً أمام هذا الإذلال، ولكن ماذا بإمكانهم أن يفعلوا، وإن فعلوا شيئاً فليس أمامهم إلا مزيد من الإذلال والقهر، بعضهم ينفجر مزمجراً يريد أن يهاجم تلك الحثالة فيجد يديه مربوطتين وراء الظهر ولا يجد إلا المزيد من الحقارة، والبعض يحاول اجتياز هذه الأزمة بالتي هي أحسن فهو يريد أن يعيش بهدوء لا معهم ولا ضدهم، ولا مع المقاومة ولا ضدها، يريد أن يعيش ويطعم أولاده وأهله وكفى، وقلائل من يبيعون نفوسهم ودمهم رخيصة للمحتلين فيبدأون يقدمون لهم كل ما يعرفونه من معلومات عن المقاومة ورجالها ويوافقون على التعامل معهم.

وضع المقاومة في قطاع غزة كان أقوى بشكل ملحوظ عنه في الضفة الغربية، ويبدو أن السبب الرئيسي لذلك هو وجود تلك الكتيبة من المقاتلين التي سموها جيش تحرير فلسطين والتي أنشئت كقوة عسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي دفعت الأنظمة العربية حينها لإنشائها لتخفف عن كاهلها عبء المسؤولية تجاه فلسطين، ومع حرب ١٩٦٧ تفكك هذا الجيش بعضه استشهد وآخرون وهم الغالبية غادروا القطاع إلى مصر أو رُحلوا إليها، والبعض بقوا في غزة وأنشأوا قوات التحرير الشعبية التي بدأت المقاومة، ثم بدأت بعض المجموعات والخلايا لحركة فتح والجبهة الشعبية بالعمل في القطاع وبدأت تزداد تواجداً خاصة في مناطق المخيمات.

في أحد الأيام وبينما نحن في طابور الصباح في المدرسة، حدثت جلبة كبيرة ثم سمعنا هتافات عالية بالروح بالدم نفديك يا فلسطين..بالروح بالدم نفديك يا فلسطين، وخرجت المدارس والتقت مع المدارس الأخرى في حشد يردد الهتافات والصرخات، وكان الجميع في فرح كبير وسعادة غامرة وقد جاء ذلك اليوم بيوم الكرامة حيث نجح الفدائيون الفلسطينيون في الأردن في صد الهجوم الإسرائيلي على الجبهة الأردنية. طافت المظاهرات شوارع المخيم وهي تردد الهتافات وترفع الأعلام ثم انفصلت حيث عدنا إلى بيوتنا. شعور الجميع كان في قمة العزة والشموخ، فبعد نكسة ١٩٦٧، كما اعتاد الناس تسميتها وفقاً لتسمية النظام العربي الرسمي لها كان هذا أول نصر على جيش الاحتلال الإسرائيلي. ومن مجموعات الفدائيين التي كانت تعسكر على الضفة الشرقية نهر الأردن في منطقة الكرامة وكانت قد بدأت في تشهد بعض العمليات الفدائية عبر الحدود.

بعد عصر ذلك اليوم جلست كالعادة مع جدي في الساحة القريبة من زاوية البيت، حيث يجتمع رجال الحي يتحادثون، كانوا جميعاً في غاية النشوة وبدأت تتردد كلمة الثورة الفلسطينية واسم حركة التحرير الوطني (فتح) وقد بدا واضحاً أن (فتح) قد بدأت تتقدم لتتبوأ موقع الصدارة في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية للاحتلال، يومها سمعت بعض الرجال يقولون (يا عمي هاي الكلام المزبوط ما بيحرث الأرض غير عجولها، كنا نعتمد على الجيوش العربية كنا ننهزم، وفي أول مرة بنحارب إحنا بننتصر، رغم قلة حيلتنا وضعف سلاحنا) والرجال جميعاً يهزون رؤوسهم موافقين مؤيدين.

خلال الأيام التالية تزايدت وتيرة العمليات الفدائية في داخل الأرض المحتلة في الضفة الغربية وغزة، وكما كانت أمي دوماً تقول(نفس الرجال بحيي رجال) فكأنما أحيا نصر معركة الكرامة نفوس الكثيرين بالأمل والاستعداد، ويبدو أن مخابرات الاحتلال قد جمعت معلومات مفادها أن كثيراً من العمليات التي تحدث في غزة منبعها من مخيم الشاطئ، فقد فرضت على مخيمنا منع التجول. في هذه المرة طال منع التجول كثيراً، تجاوز ثلاثة الأسابيع حتى أنه تجاوز الشهر وأوضاعنا في المخيم ازدادت سوءاً وقسوة، المخيم كان تحت نظام حظر التجول منذ شهر.

الحياة تجري على طبيعتها على بعد عشرات الأمتار في المدينة، ارتفع أذان الظهر من مآذن المساجد في غزة مسجد العباس يقع على الشارع الرئيسي في المدينة شارع عمر المختار وعدد من الرجال والشبان يتوافدون على المسجد ليؤدوا الصلاة.

بعد أن أنهوا الصلاة وقف أمامهم شاب في مقتبل العشرين من عمره واثقاً مما يريد حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم بدأ يخاطب القوم ويستثير فيهم القوة والشهامة نحو إخوانهم في مخيم الشاطئ الذي يُفرض عليه منع التجول منذ شهر، فيتساءل الشيخ وماذا بإمكاننا أن نفعل يا ابني؟ فيجيب الشاب ليس أقل من أن نخرج في مظاهرة تضامن، تدافع المتواجدون في المسجد خارجاً يهللون ويكبرون وقد حمل بعضهم ذلك الشاب على أكتافهم، وهو يهتف بالروح بالدم نفديك يا فلسطين..كلنا فلسطين مهاجرين ومواطنين.

وبدأ الناس ينضمون للمظاهرة الحاشدة وكانت شوارع المدينة قريبة من المخيم وسيارات جنود الاحتلال تراقب الوضع من بعيد تحسباً للطوارئ دون التدخل، انفضت المظاهرة وقد شعر الجميع أنهم أدوا شيئاً مما تمليه عليه ضمائرهم، ومع صباح اليوم التالي ارتفع صوت مكبرات الصوت يعلن انتهاء نظام منع التجول عن المخيم لتعود الحياة فيه إلى طبيعتها.

في الصباح كنا نصطف في الطابور المدرسي، وبعد بعض التمرينات الرياضية المحدودة وكلمة الصباح التي يلقيها أحد التلاميذ من فوق ذلك الدرج الحجري أمام الطابور، يبدأ بالتوجه صفاً تلو الآخر إلى كشك الحليب وهو عبارة عن ساحة مغلقة من ثلاث جهات بالحجارة المبنية مسقوفة بألواح (الزينكو) وفي سطحها مصطبة من الإسمنت يكون عليها عدد من المناضد الكبيرة خلفها يقف أربعة رجال يلبسون (الابرهولات) الزرقاء ويضعون على رؤوسهم الطاقيات البيضاء، ندخل الكشك على شكل طابور، ومدرسونا يشرفون على ذلك، فيبدأ أولئك الرجال بمناولتنا واحداً تلو الآخر أكواباً حديدية يملؤونها بالحليب بعد أن يعطوا كل واحد منا حبة زيت السمك، ويطلبون منا ابتلاعها ثم شرب الحليب الساخن عليها.

نشرب الحليب، ونلقي الكؤوس في قِدر كبير فيه ماء مغلي، ونخرج من طابورنا إلى صفوفنا (غرف دراستنا) كل المدرسة أيَ كل الطلاب في كل مدارس الوكالة على مدار أيام يشربون الحليب و زيت السمك، كنا نكره زيت السمك كراهة عمياء، المدرسون كانوا يراقبوننا كي لا نلقي تلك الحبات الصغيرة، ويجبروننا على تناولها وهم يستعجلوننا لشرب الحليب والذهاب إلى الصفوف.

زيت السمك مفيد جداً، ولكن الحليب الساخن معقول وأحسن ما فيه هو دفء الكأس فحين تمسكه بيديك الصغيرتين واللتين تكادان تتجمدان في ذلك البرد القارس، تشعر عادة بأن يديك أصبحتا جزءاً من جسدك بعد أن كانتا سقطتا منه.

في أحد تلك الأيام كان الجو شديد البرودة وعاصفاً وقد تبلل غالبيتنا من مياه المطر في طريق ذهابنا للمدرسة. بعد أن تناولنا الحليب دخلنا فصلنا وجلسنا على مقاعدنا نرتجف. دخل الأستاذ الشيخ علينا وكأنه أدرك أننا لسنا بحالة تسمح لنا بالدراسة أو القراءة أو الفهم فأراد أن يضحكنا، فقال: يا أولاد تخيلوا أن السماء تمطر الآن رزاً ولحماً!! حدثت ضوضاء في الصف وقد نسينا البرد والبلل ونحن نسمع ذكر الرز واللحم، وبدأنا نتحدث دون نظام، أنا لن آكل سوى اللحم..أنا أحب الرز...أنا...أنا.

تركنا الشيخ نلهو نلعب ونعيش أحلام الرز واللحم بضع دقائق ثم صرخ علينا: (اسكتوا أنت واياه الله يجعلها تمطر جراداً تعضكم جميعاً مرة واحدة) فقال أخرجوا كتاب القراءة، افتحوا على الدرس العشرين، اقرأ يا أحمد، فتحت كتابي الذي كان مبتلاً بالماء، وبدأت القراءة وأنا ارتجف من شدة البرد، وشفاه الشيخ تتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله..إنّا لله وإنّا إليه راجعون يجب أن تتعلموا حتى تصبحوا (بنأدمين).

الفصل السادس

تسكن خالتي فتحية في قرية صوريف قضاء الخليل، وهي قرية فلسطينية مثل كل قرى الوطن وقعت تحت الاحتلال عام ١٩٦٧، ونالها نصيبها من التغريب والتدمير عقاباً على دورها في المقاومة قبيل الاحتلال، وفي المعارك التي سبقت عـام ١٩٤٨، كونهـا قرية حدودية تقع على الخط الأخضر الفاصل بين الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨ وبين الأراضي التي ظلت تحت الحكم الأردني، حتى احتلت عام ١٩٦٧.

وبعد الاحتلال بقليل اقتربت دوريات الاحتلال من القرية ودخلتها لتجوبها مثلهـا مثل معظم القرى الفلسطينية في ربوع الضفة الغربية. يعيش الناس فيها في بيوت حجرية صغيرة متواضعة وجميلة، بين أشجار الزيتون والتين والعنـب واللوزيـات، ويربـون المواشي والدواجن ويكتسبون رزقهم، ويحمدون الله على خيراته ونعمه التي لا تحصى.

رجال القرية معروفون بالشهامة والرجولة ويلبسون الزي القـروي الفلسـطيني التقليدي، ترى الواحد منهم يتبختر بعصاه وهو يراقب أغنامه ترعى على سطح الجبـل، ونساؤها المتحشمات يظهَرن بخلقهن وثيابهن وأغطية رؤوسهن.

خالتي لم تشعر باختلاف كثير إثر انتقالها من غزة إلى صوريف، فقط الاختلاف في الأجواء القروية والزراعية، أما أطباع الناس وعاداتهم وأصالة نفوسهم فهي واحـدة، ربما اللهجة المحلية مختلفة قليلاً لكنه ليس خلافاً شاسعاً، وسرعان ما اعتادت على الحياة هناك، زوجها عبد الفتاح أنهى دراسته الثانوية، في مدرسة طارق بن زياد فـي مدينـة الخليل، ففي صوريف لا توجد مدرسة ثانوية، مثلها مثل كل القرى المحيطـة بالمدينـة، ومن أراد إكمال دراسته الثانوية فإنه يضطر للدراسة في الخليل، ودراسة زوج خالتي في الخليل جعلته عارفاً بالمدينة وما يجري فيها، وله أصدقاء كثر من المدينة وأبناء القـرى الأخرى الذين درس معهم في تلك المدرسة.

وقد رزقت خالتي بولد أسمته "عبد الرحيم". أمي لا تستطيع السفر إلـى الخليـل لتبارك لخالتي بمولودها الجديد واكتفت بالذهاب إلى بيت خالي لتبارك له، وتطلب منه أن يبارك لفتحية عندما يذهب إليها باسمها، ويعتذر عنها فهي تعـرف أوضـاعنا الماديـة وتعرف أوضاع العائلة.

زوج خالتي عبد الفتاح كان يستعد للسفر للدراسة في الجامعة الأردنية/ كلية الشريعة ولكن مرض والده الشديد دفعه لتأجيل ذلك، ثم إن وفاة الوالد جعلته يتخلى عن فكرة الدراسة في الجامعة. قرر أن يتولى عمل والده في متابعة تجارته في الأقمشة، بالإضافة إلى متابعة الأرض التي يمتلكونها وعزى نفسه عن إكمال الدراسة بأن يُيسر ذلك الأمر لأخيه عبد الرحمن الذي كان في السنة الثانوية الثانية، في مدرسة طارق بن زياد في الخليل، كثيراً ما وقف عبد الفتاح على سقف منزلهم وهو يشير لخالتي غرب البلدة إلى خربة (علين) حيث كان يعسكر رجال الجهاد المقدس قبل احتلال عام ١٩٦٧، وأن السكان كانوا يقدمون لهم كل ما يلزمهم من احتياجات، وأن أحد سكان صوريف واسمه "محمد عبد الوهاب القاضي" كان يرعى غنمه في أحد الأيام في منطقة قريبة تدعى (صناحين) فشاهد قافلة من اليهود قادمة من جهة (بيت شيمش) إلى عتصيون فأبلغ المجاهدين الذين سارعوا فنصبوا لهم كميناً في منطقة تسمى (ظهر الحجة) وحين وصلوها هاجموهم وقتلوهم جميعاً وكان عددهم (٣٥) من الضباط والجنود والأطباء فامتلأت قلوب اليهود حقداً على بلدة صوريف، وحين حدث الاحتلال عام ٦٧ قام اليهود بقصف بلدة صوريف بالمدفعية ودمروا العديد من المنازل، فقط بدافع الانتقام لما كان في ذلك الحادث.

من خلال عمل زوج خالتي وعلاقاته بمدينة الخليل تطورت له شبكة علاقات كبيرة مع تجارها ومشغليها، وفي جلساته ولقاءاته معهم كانت تدور بينهم أحاديث طويلة وحوارات مفصلة حول كل شيء، يجلسون في أحد تلك المتاجر، يلتفون حول المدفأة والجمر فيها متوهج ويرتشفون الشاي ويتداولون الحديث عن المقاومة وعن الاحتلال. كل تلك الحوادث كانت تعكس دوماً عدم إيمان تلك الشرائح من السكان بجدوى المقاومة وإمكانية تحقيق أية فائدة عملية من ورائها، وأنها قد تضر أكثر مما تنفع، وأن الاهتمام الأكبر لديهم هو رفع مستوى الحياة والارتقاء بها والكسب الاقتصادي وتنمية الثروات، والعلة كانت دوماً أن الجيوش العربية كلها بقضها وقضيضها لم تفلح في الوقوف في وجه الجيش الإسرائيلي، فكيف يمكن أن يقف في وجهها مجموعات من الفدائيين بأسلحتهم البسيطة وإمكاناتهم المحدودة.

زوج خالتي لم يكن يجرؤ على مخالفتهم صراحة في آرائهم هذه، ولكنه كان يستمع لهم ويحاول أن يناقشهم بصورة موضوعية منطقية محضة، وفي النهاية ينفض القوم بعد أن يكونوا قد جلسوا ساعة أو بضع ساعة يرتشفون الشاي، وقد ينهي أحدهم الجلسة قائلاً: (ما لنا ولهذا الأمر دع الخلق للخالق والله يجيب اللي فيه الخير) بتلك اللهجة الخاصة التي يتميز بها أهل الخليل عن غيرهم حيث يمدون حروفاً أكثر من غيرها أثناء نطقها.

في هذه الجلسات والحلقات والعلاقات تعرف زوج خالتي على "أبو علي" الذي بدا أنه أكثر إيماناً بضرورة عمل شيء تجاه القضية، وأن المقاومة إن لم تكن مجدية على مستوى تحرير الوطن ودحر الاحتلال، فهي دونما شك قيام بالواجب الوطني على أقل تعديل.

كثيراً ما مشى زوج خالتي هو وأبو علي في شوارع الخليل أثناء زيارات زوج خالتي للخليل أو صوريف حين يأتي أبو علي لزيارة زوج خالتي فيتجاذبان أطراف الحديث حول الاحتلال، ووجوب مقاومته، وضرورة عدم التسليم بالأمر الواقع، أو الانشغال فقط بكسب المال وتنمية الثروات وبناء المنازل؛ ولأن أفكارهم متشابهة، فقد توطدت صداقتهما كثيراً، في أحد الأيام صارح أبو علي زوج خالتي قائلاً: إنني لن أظل مكتوف اليدين هكذا دون القيام بالحد الأدنى من واجبي، فسأله زوج خالتي: وماذا عساك أن تفعل؟ هل ستبحث لك عن قطعة سلاح وتهاجم بها دورية للاحتلال، ثم تهرب لتعيش مع أولئك المطلوبين مثل "أبو شرار" وغيره من فدائيي المجاهدين، أجاب أبو علي: لا فليس هذا ما أطمح إليه، ولكني أرغب في أن ننظم المقاومة لنحولها إلى ظاهرة إلى تيار إلى تنظيم، فسأله زوج خالتي: وكيف؟ أجاب: سأسافر إلى الأردن وأعرض فكرتي على فتح هناك وأنت تعرف أن "فتحاً" بعد الكرامة قد أخذت وضعها ولا بد أنهم سيسعدون بفكرتي ويقدمون لي كل العون في ذلك. أ

ثنى زوج خالتي على الفكرة وأكد على "أبو علي" أن يأخذ قمة احتياطاته وأكد له أنه يمكنه اعتباره شريكاً كاملاً له في كل خطواته، واتفقا على أن يسافر أبو علي وحده، وأن يدبر لسفره غطاءً تجارياً كيلا يلفت إليه الأنظار.

الأردن كانت في هذه الفترة بعد انتصار الكرامة كلها طوع بنان المقاومة، ومخيمات اللاجئين فيها امتلأت باحتفالات النصر، الجميع بدأ يهتف بحياة الفدائيين، ويلهج بالغناء والدعاء لحركة التحرير الوطني الفلسطيني الاسم الذي كان وراء ذلك النصر.ولم يكن صعباً على شخص مثل "أبو علي" أن يستدل على الفور على قيادة العمل الفدائي هناك وأن يتفق معهم على البدء بتنظيم خلايا عسكرية لفتح في كل مناطق الضفة الغربية، وأنه سيتم تزويده بالمال والسلاح لإتمام ذلك وإنشاء تلك الخلايا والبدء بتدريبها وتسليحها لبدء المقاومة المسلحة.

بعد زيارته لبعض الأقارب تجول في الأردن لإجراء بعض المعاملات التجارية ليتسنى له التغطية على مهمته الرسمية، يعود أبو علي إلى الضفة الغربية حيث يبدأ اتصالاته بالعديد من معارفه خاصة من الشباب في مختلف مدن الضفة الغربية.

ينظمهم لصفوف حركة فتح ويطلب من كل واحد منهم أن ينظم معه شخصين أو ثلاثة من أصدقائه الموثوقين المستعدين للعمل المسلح ضد الاحتلال،في كل مدينة من أقصى شمال الضفة الغربية وحتى الخليل وحتى بعض القرى أو البلدات وكلما وجد له شخصاً يعرفه ويثق به عرض عليه الأمر، فلاقى القبول والموافقة. طلب منه تشكيل خلية واتفق معه على الاتصال في وقت قريب.

مهمة جمع السلاح أوكلت لزوج خالتي عبد الفتاح الذي كانت حركته وتجارته خير غطاء للتمويه على ذلك، وهكذا خلال فترة قصيرة، بدأت تتشكل الخلايا والمجموعات بتنفيذ بعض العمليات الفدائية البسيطة مثل عمليات إلقاء القنابل اليدوية على سيارات الدوريات العسكرية، وإطلاق النار عليها أو محاولات عمليات قنص عن بعد لبعض هذه الأهداف. وكما هي العادة في مثل عمل المقاومة كل مقاومة، تقع إحدى الخلايا في خلل عملي ما، فيتم اعتقال أفرادها ويخضعون للتحقيقات المريرة فيبدأ البعض بالاعتراف ويعتقل آخرون وهكذا حتى تصل الأمور إلى "أبو علي" فيعتقل ويخضع لتحقيق عنيف جداً، في أقبية التحقيق في سجن الخليل ويثبت أبو علي على درجة عالية من الرجولة والثبات فيرفض الاعتراف حتى على أبسط الأمور مما اعترف عليها بعض الشباب الذين خدعوا في عملية التحقيق.

تعتقل المخابرات الإسرائيلية زوج خالتي بعد أن أجرت بحثاً حول علاقات "أبو علي" وصداقاته وتجري في بيته تفتيشاً دقيقاً بمرافقة الكثير من التخريب والدمار لكل ما يقف في وجههم من أثاث وأدوات الضرب والتعذيب ينالان من خالتي وابنها الصغير عبد الرحيم اللذين ينالهما قسطٌ منه، ويأخذون زوج خالتي إلى سجن الخليل ويخضعونه لتحقيق وتعذيب جهنمي وهم يسألونه عن "أبو علي" وعلاقته به ويوهمونه أن أبا علي قد اعترف عليه وأقر بكل شيء وأنه لا داعي للإنكار والعذاب، فيواصل أبو عبد الرحيم زوج خالتي الإنكار، وأمام ذلك يحكمون عليه بالسجن ستة أشهر سجناً إدارياً بدون أي تهمة، ويحكمون على أبي علي بالسجن لمدة خمس سنوات نظراً للاعترافات التي تراكمت عليه من بعض الشباب الذين لم يكن عودهم صلباً بصورة كافية كي يجتازوا محنة التحقيق.

ومن هنا بدأت رحلة خالتي إلى عالم جديد، عالم السجون حيث بدأت تزور زوجها مرّة كل شهر تستيقظ خالتي مبكرة يوم موعد الزيارة وتجهز طفلها وتنطلق وهي تحمله بين ذراعيها حتى تصل مركز القرية.

من هنا تستقل سيارة من السيارات القليلة التي تمر بالقرية إلى مدينة الخليل، وهنا تسير مسافة طويلة لتصل إلى العمارة (مقر سجن الخليل ومقر الحاكمية العسكرية في المدينة) فتجد المئات من الأهالي الذين حضروا لزيارة أبنائهم وذويهم من السجناء، تقف بين النسوة في الطابور وهي تحمل بطاقة هويتها الشخصية، قد يصلها الدور في هذا الفوج من الزوار وقد يعلن السجان أن الفوج قد اكتمل فتنتظر حتى بدء الفوج الثاني.

حين تصل إلى تلك الفتحة في جدار تمد يدها ببطاقتها الشخصية لتناولها للسجان القابع وراء الجدار ليجري عملية الفحص والتأكد والتسجيل ثم يفتح الباب المجاور فتدخل إلى قسم النساء حيث تقوم إحدى النساء بالتفتيش بصورة استفزازية، وخالتي تكظم غيظها فهي لا تريد أن تفقد الزيارة فأبو عبد الرحيم في انتظارها الآن ولا شك أنه في شوق إليها وإلى ولدها عبد الرحيم، وليس هناك مبرر لإضاعة الزيارة بالانفعال من هذه المجندة الحقيرة، وبعد التفتيش يتم تجميع الزوار في غرفة ثم يتم اصطحابهم عبر ممرات طويلة ودهاليز ضعيفة الإضاءة إلى قسم الزيارة حيث يوجد جدار فيه فتحات مثل الشبابيك عليها شبك حديدي من وراء كل شباك يقف أسير، فيبدأ الأهالي كلّ يبحث عمن يخصه من السجناء، وحين يجده يلقي بنفسه إلى الشباك بكل الدموع في عيون الأب وهو يرى طفله من وراء الشباك ولا يستطيع أن يحتضنه ويلاعبه تجري الدموع في عيون الزوجة أو الأم وهي ترى زوجها أو أبناءها وراء القضبان، ولا تدري ما يصنع به داخل هذه الأسوار الجامدة التي لا تعرف الرحمة.

وقبل أن يرتاح الناس من عناء السفر والانتظار والتفتيش المذل، والسير في تلك الدهاليز، وقبل أن يطمئنوا على أزواجهم وأبنائهم وذويهم، يصفق السجانون الذين يقفون وراء السجناء ووراء الأهالي صارخين: انتهت الزيارة، ويبدأون بسحب الأسرى وراء ذلك الباب الحديدي الأصم. ويدفع الأهالي لخارج قسم الزيارات فتشتعل العواطف والمشاعر لدى الموقوفين، يحبس زوج خالتي دمعته لكي لا يراها السجان فيزداد شماتة وفرحة، ويلم مشاعره وعواطفه وهو يهتف مشجعاً زوجته بأن الفرج قريب وكلها خمسة شهور ويوصيها بعبد الرحيم خيراً وبالبيت وأن تهدي السلام للأهل والأقارب والجيران، وهي تمسح دموعها بطرف غطاء رأسها الأبيض المطرز من أطرافه، صائحة: (ولا يهمك بس إنت شد حيلك ولا يكون لك فكر..مع السلامة).

هناك في أزقة الحارات والقرى والمخيمات تنتظم مجموعات وخلايا جديدة على امتداد مدن وقرى وخرب الضفة الغربية ويتجه الشبان إلى بطون الأودية أو وراء الجبال الشامخة ليتدربوا على استخدام السلاح الذي استلموه قريباً أو حصلوا عليه مما كان عند آبائهم أو أجدادهم يخفونه منذ سنوات، مستعدين لبدء المواجهة القادمة مع أول فرصة وهم يتحرقون شوقاً للقاء العدو والسلاح بأيديهم على قلته وبساطته وعدم الخبرة الكافية على استخدامه، ولكنها صدور الشباب تغلي كالمرجل.

في ذلك المتجر كان يلتقي زوج خالتي وأبو علي مع عدد من التجار في تلك الأيام شديدة البرد يرتشفون الشاي، يجتمع عدد من أولئك التجار، وهم يتحدثون من جديد عن أخبار القتال وسجن زوج خالتي وأبو علي، وجدوى عملهما وإضاعتهما فترة ليست بسيطة من عمرهما، وأنه لا جدوى من المقاومة، واعتقالهما أكبر دليل على صدق نظريتهم وتوقعات بعضهم، فيبدأ أحدهم بحساب أيام الشهور التي سيقضيها زوج خالتي في السجن وأنه كان يربح في تجارته في كل يوم ثلاث ليرات إسرائيلية، أي أنه أضاع على نفسه ما لا يقل عن خمسمائة ليرة، ناهيك عن البهدلة وقلة القيمة له ولأهله.

الوضع الاقتصادي السيئ لغالبية الناس وما قد يسببه ذلك من دفع العديدين للمقاومة (والعمل التخريبي) حسب رؤية قادة إسرائيل، بالإضافة إلى حاجتهم للكثير من الأيدي العاملة لبناء الدولة الوليدة جعلهم يدرسون أن يفتحوا باب العمل أمام السكان بصورة تدريجية وبعد التدقيق الشديد في الجوانب الأمنية، وبالفعل فقد أعلنوا ذلك وبدأت دوائر الجوازات والتصاريح باستقبال من يقدم من الرجال طلباً لتصريح عمل داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وقد أثار الأمر جدلاً عنيفاً في العديد من أوساط الشعب الفلسطيني.

ففي زاوية ساحة حارتنا حيث يجلس الرجال ورغم مرض جدي وتقدمه في السن إلا أنه لا زال يواظب على حضور ذلك المؤتمر اليومي حيث تم تداول هذا الأمر، وانقسم الناس في آرائهم بين معارض أشد المعارضة، فكيف نسمح لأنفسنا ببناء دولة الأعداء وتقوية أسسها، بينما جنود العدو يتدربون ويتجهزون لحربنا وحرب شعبنا وأمتنا. ويرى بعض الناس أن ذلك صورة من صور الخيانة وبينما بعض الواقعيين يرون أن الواقع قد فرض نفسه وأن إسرائيل قامت ولن يهدها أو يكسرها عدم عمل مئات أو آلاف العمال فيها.

وكل ما في الأمر أنه يجب مناقشة الأمر من زاوية أن هناك بيوتاً تحتاج للقمة الخبز ورضعة الحليب لأطفالنا ولا نجدها وأن العمل داخل (إسرائيل) رغم صعوبته ومرارته هو من وجهة نظر الآخر مهمة وطنية لدعم صمود شعبنا في مخيماته وقراه، بدلاً من أن تضطره الحاجة للرحيل.

أما في ذلك المتجر في خليل الرحمن فقد كان استيعاب أو قبول العمل في إسرائيل أكثر قبولاً حيث يفهم القوم هناك الأمور الحسابية بصورة أفضل بكثير (لعبة الأرقام هي التي هنا تجاد) وفتح مجالات العمل أمام الناس تفتح المجال أمام ازدهار البلد اقتصادياً، الأمر الذي سيرفع مستواها في جميع وشتى المجالات ويعزز صمود أهلنا وتمسكهم بأرضهم حتى يأذن الله تعالى بالتغيير. على المستوى العملي رجال المقاومة خاصة في مخيمات اللاجئين ومثال ذلك في مخيمات (الشاطئ) اعتبروا ذلك جريمة، فبدأوا يجمعون المعلومات عمن حصلوا على التصاريح ويقومون بجمع تلك التصاريح من العمال وإتلافها بعد توضيح خطورة ذلك ومنافاته للانتماء الوطني، وأحياناً قد يضرب صاحب هذا التصريح عدة ضربات، ضربات بالخيزرانة على جبينه أو يصفع على وجهه أو يسمع كلمات قاسية.

وتجد أن أحد هؤلاء العمال يحاول الإقناع وهو يمتنع عن تسليمه التصريح مشيراً إلى أولاده وبناته الثمانية من خلفه لا يجدون ما يسد رمقهم وما تصرفه وكالة الغوث لا يكفي شيئاً وهم كثيراً ما يبقون جياعاً، ويرجون من الفدائيين الذين يريدون أخذ التصريح منه أن يراعوا وضعه وحالته ويتركوا له تصريحه ويسمحوا له بالعمل، فيرفض هؤلاء ويصرون على أخذ التصريح وعيونهم تترقرق فيها الدموع وهم يرون حجم التناقض الشاسع بين الواقع المرير ومستلزماته ومتطلباته وضروراته، وبين سقف الطموحات الوطنية وربما تناقشوا في ذلك بعد انصرافهم، وقد مزقوا تصريح الرجل وهم يشعرون بالحرج.

الفصل السابع

قبيل موعد امتحانات أخي محمود للتوجيهي بأسابيع أعلنت حالة الطـوارئ فـي البيت، كلما رفع أحدنا صوته صرخت عليه أمي: لا تصرخ ووفر هدوءاً لأخيك محمـود بعد أيام عنده توجيهي إذا جرى أحدنا خلف الآخر صرخت عليه أمي، إذا وقع شيء من أحدنا، إذا دفع أحدنا الآخر أو وخزه كما هي عادتنا حين نلتف حول (طشـت) الغسـيل المقلوب ليلاً لندرس، أخذ نصيبه صفعة على قفاه أو قرصة في خاصرته أو شداً لأذنـه، فإن عليه أن يوفر هدوءاً لدراسة محمود.

وإذا أراد أحدنا أن يورط الآخر لينال علقة من أمي يبدأ بصورة خفية يغامزه فيها مرة ويحرك له وجهه حركات مضحكة، وكثيراً ما كانت أختي تتورط في هذا الأمر حيث إنها لا تستطيع أن تضبط نفسها بالامتناع عن الضحك، فتحبس ضحكاتها ما اسـتطاعت، فإذا ما واصلنا تلك الحركات المضحكة انفجرت ضحكتها فنالت عدة صفعات مـن أمـي التي قلما تعمقت في بحث أسباب الضحك، لتعاقب المتسبب الحقيقي.

أنهينا امتحانات العام الدراسي، وظل محمود يدرس حيث إن امتحانات التوجيهي تتأخر عن امتحاناتنا حوالي شهر، ورغم انتهاء امتحاناتنا ظلت حالة الطـوارئ معلنـة، وانتظرنا أن تنتهي امتحانات محمود أكثر من انتظارنا انتهاء وزوال الاحتلال. آخر يـوم في امتحانات التوجيهي وحين عاد محمود من المدرسة، استقبلناه بأصخب حفلة يمكن أن يستقبل بها أخ حين عودته، وأخرجنا ما كنا قد كتمناه في نفوسنا طيلة حوالي شهرين.

امتلأت الدار ضجة وصراخاً وهجمنا جميعاً على محمود الأولاد والبنات ضـرباً وركلاً وقرصاً وأمي تراقبنا تحاول أن تكون جادة وهي تصرخ دعوكم من أخيكم، ولكنها فشلت في إخفاء تلك البسمة العريضة عن وجهها، وبعد أن انتهينا مـن محمـود هجمنـا جميعاً ومعنا محمود عليها نقبل رأسها ويديها ورجليها وهي تحاول التخلص منا غير جادة في ذلك وهي تحاول حبس ضحكاتها دون نجاح.

ظهرت نتائجنا وكنا قد نجحنا جميعاً ما عدا ابن عمي حسن الذي رسب في الصف الثاني الثانوي، وظل علينا أن ننتظر نجاح محمود. يوم إعلان نتائج التوجيهي أعلنت حالة

طوارئ أخرى أكثر جدية في ذلك اليوم وحتى عاد محمود ووجهه متهلل يكاد ينفجر من الفرحة، فتح الباب وأول كلمة قالها: (ياما ٩٢%) فانحدرت دمعة حادة على وجنة أمي ثم انطلقت زغرودتها وأعدنا الكرّة في حفلة صاخبة، حيث أن نجاح وتفوق محمود كان نجاحاً وتفوقاً لنا جميعاً، دفع كل واحد منا قسطاً فيه.

وانطلقت أمي إلى المطبخ تغلي الحلبة وتعجن مع مائها الدقيق والسكر وتحضر لنا صينية حلوى الحلبة ليحملها محمود إلى فرن الحارة ليخبزها، وحين عاد بها لم ننتظر أن تضعها أمي في الصحون التي جلبتها من المطبخ (وتناوشناها) من كل صوب وهي تلوح بيدها كأنها تريد أن تضرب من يمد يده ولا تضربه، ولكنها نجحت في رفع عدة أطباق منها كانت تقدم طبقاً لمن يأتي يبارك لها من الجارات والأقارب.

جدي مَرض مرضاً شديداً وبدا واضحاً أنه على وشك أن يفارقنا، وقلّما كان يغادر غرفته، ولم يعد قادراً على الذهاب للمسجد غير يوم الجمعة، ولم يعد يشارك في المؤتمر اليومي الذي يعقده رجال الحارة في الساحة المعروفة، ولعل رسوب حسن قد زاد همه ومرضه ولم تعد له الرغبة في مشاركتنا في مناسباتنا، ورغم ذلك تجمعنا جميعاً عنده وسهرنا أولَ ليلة ونحن نحاول أن نضاحكه ونخفف عنه، كان على محمود أن ينتظر العطلة الصيفية وطيلة عام كامل بعد إنهاء دراسته الثانوية حتى يتمكن من الالتحاق بالجامعات المصرية، وقد كانت هذه فرصة نموذجية له ليجمع بعض المال مما سيلزمه عند سفره إلى مصر.

فكرة العمل في داخل الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ كانت مرفوضة تماماً، لذا كان عليه أن يواصل العمل في مصنع خالي وأن يبحث له عن أي عمل إضافي آخر ليجمع قروشاً بيضاء من هنا وهناك للدراسة، فكر محمود وفكرت أمي معه طويلاً، وأخيراً اجتمع رأيهما على أن يتوقف محمود عن العمل في مصنع خالي، ويحل محله هناك أخي محمد فيصبح أخواي حسن ومحمد يعملان في مصنع خالي، ويتفرغ محمود لعمل أكثر جدية وفرص الكسب فيه أكثر وأفضل.

كانت الفكرة البدء بعمل لا يلزمه رأس مال كبير، فقرر أن ينشئ محمود بسطة خضراوات في طرف سوق الخضراوات في الحي، فهذا لا يلزمه سوى بضع ليرات ويمكن أن يكسب كسباً بسيطاً ولكن ادخاره طيلة الوقت يمكن أن يجمع مبلغاً معقولاً على مدار ما يزيد على السنة.

وبالفعل فقد كانت أمي توقظ محموداً مبكراً منذ بزوغ الفجر وفور إعلان إنهاء منع التجول يخرج إلى السوق، سوق الجملة في المدينة ومعه ثلاث أو أربع ليرات فيشتري ما

يتيسر من أنواع الخضراوات ويعود بها إلى بسطته يرتب الخضراوات عليها ويبدأ ببيعها، وعند الظهر يجمع ما تبقى من الخضراوات ليحضرها لتتصرف بها الوالدة للبيت وفي كل يوم يرفعون من كسب اليوم عشرين قرشاً أو ربع ليرة ليدخروه.

فرض منع التجول أثناء النهار كان يتكرر بين الحين والآخر؛ ولأن الجيران كانت تلزمهم الخضراوات التي يشتريها محمود فرغم فرض منع التجول لم تكن تفسد عنده أي خضراوات حيث تتحول بسطته إلى المنزل وفي أزقة الحارة يستطيع أن ينقل ما يريده الجيران دون خوف من جنود جيش الاحتلال، فقد كانوا يخشون دخول المخيم خشية الكمائن التي يعدها لهم رجال المقاومة والفدائيون، ومع استمرار المقاومة والعمل الفدائي وتصاعده وإدراك القادة العسكريين أن اكتظاظ المخيمات وضيق أزقتها والأثمان التي يتكلفونها في عمليات اقتحام المخيم معهم يفكرون في شق شوارع واسعة تقسم المخيم الواحد إلى عدة أرباع يسهل حصرها وعزلها وتمشيطها.

وبالفعل ففي أحد الأيام فرض نظام منع التجول على المخيم، وجاءت قوات كبيرة من الجنود وكأنها عملية احتلال جديدة، مع بعض الجنود كانت دلاء دهان أحمر اللون وفراشٍ للدهان، على بعض جدران المنازل كانوا يضعون إكساً كبيراً باللون الأحمر، على جدرانٍ منازل أخرى كانوا يضعون خطاً رأسياً بعد أن يجروا بعض القياسات، ثم يضعون على أحدها إكساً صغيراً وهكذا، ثم سلموا كل صاحب بيت من البيوت التي وضعت العلامات عليها إخطارات بأنه سيتم هدم البيوت التي وضعت على جدرانها الاكسات الكبيرة، سيتم هدم الأجزاء التي من ناحية الإكس الصغيرة في البيوت التي وضعت على جدرانها خطوط رأسية وإكسها صغيرة، مع كل إخطار يتم تسليمه لأحد أصحاب البيوت تبدأ الصراخات والشتائم والعويل فإلى أين يذهب هؤلاء الناس بأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم؟!! سيصبحون في الشارع من جديد!!.

من حُسن حظنا لم يصل أي من الشوارع التي سيتم شقها بيتنا حيث لم توضع عليه أي علامات، وبات واضحاً أن بيتنا سيصبح مطلاً على شارع عريض وليس على ذلك الزقاق الضيق، فبيت جيراننا سيهدم كاملاً.

ويبدو أن ذلك كان من حسن حظ أخي محمود بالتحديد؛ لأنه لو هدم بيتنا أو جزء منه فكل ما ادخره محمود للدراسة في مصر لم يكن ليكفي لترقيع الوضع ولما كان باستطاعته

الخروج من القطاع وتركنا في الشارع، ولكن الله يحبه ويحب (الغلبانـة) أمـي حسب ما سمعتهما يتحدثان، بعد أيام جاءت الجرافة ومعها قوات كبيرة من الجيش وأعلنوا وجوب إخلاء البيوت التي سيتم هدمها وبدأت الجرافة تطحن البيوت كما يطحـن الغـول عظام فريسته، وتمزق بذلك قلوب مئات الرجال والنساء والأولاد الذين وجدوا أنفسهم في الشارع من جديد.

ظلت الجرافة تروح وتجيء في المخيم ومع كل روحة أو رجعـة ينهـار أحـد الرجال، أو تسقط إحدى النساء بعد أن شدت شعرها ولطمت خدودها، أو ضـرب أحـد الرجال من قبل الجنود ضرباً مبرحاً لما حاول وضع جسده أمام الجرافة لمنعها من التقدم لهدم السقف الذي يأوي أولاده وبناته.

مع حلول المساء كانت مئات المآسي قد فتحت من جديد، وكان على الناس لملمة جراح بعضهم، بيت عمي كان فارغاً منذ زواج زوجة عمي حيث انتقل أبناء عمي حسن وإبراهيم مع جدي في غرفته، فأذنت أمي لعائلتين من جيراننا السكن في البيت مؤقتاً حتى يتدبروا أمورهم، ولا تسل عن كلمات الشكر والثناء التي انهالت علينا. في اليوم التالي جاء مندوبو الصليب الأحمر لمعاينة ما كان، وتسجيل الحقائق من البيانات، وفي اليـوم الذي يليه جاء موظفو قسم الإسكان في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين جمعـوا البيانـات، وأخبروا الناس أنهم سيتم إسكانهم في بيوت جديدة تبنيها الوكالة في مناطق أخرى، فكان الخبر فرجاً نزل على الناس من السماء... .

وبدأوا يوجهون مئات الأسئلة: ومتى نسكن؟ وأين؟ وكيف؟ الخ.. ولم يكن لـدى الموظفين إجابات واضحة ولكن لم يمر الشهر الأول إلا وقد بدأت العائلات تنتقـل إلـى مساكنها الجديدة في أحياء تم بناؤها جديداً في القطاع نفسه أو في مدينة العريش، حيـث كانت إسرائيل قد احتلت سيناء كاملة عام ١٩٦٧، وقد غادرت العائلتان اللتان سكنتا بيت عمي في هذه الفترة، كذلك واستلمت كل عائلة بيتاً جديداً، فتح باب العمل داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ خلق بلبلة كبيرة في أوساط الشعب، ولكن الحاجة الماسة للناس لسـد رمق أبنائهم وستر أعراضهم في بيوت معقولة، لها أبواب تغلق، ولها أسوار ترتفع لتمنع رؤية ما في البيوت وكأنه في الشارع، دفعتهم للعمل في الأراضي المحتلة.
الاحتياجات من التعليم والدواء والغلاء وغير ذلك كان أقوى من كل طرح عارض ذلك العمل، فبدأ تيار الحياة يحيي الرغبة في الاستمرار في الحياة وتطوير مستواها وحرص

الآباء على محاولة ضمان حياة ومستقبل أبنائهم وجعل هذا التيار يتدفق تـدريجياً حتى صار أمراً طبيعياً، ولم يكن بإمكان الفدائيين منعه أو وقفه.

بعد شق الشوارع من ناحية وفتح باب العمل في الداخل من ناحية أخرى والحرب الضروس التي تشنها مخابرات الاحتلال وجيشه على المقاومة بدا واضحاً أنهـم بـدأوا يشعرون بشيء من الارتياح، فأصبح رفع حظر التجول صباحاً أكثر من قبل حتى يتمكن العمال من الخروج مبكرين إلى عملهم والوصول إليه في الموعد المحدد بعد سفر ساعات من الضفة الغربية والقطاع إلى حيفا ويافا وغيرها، ولقد بدا واضحاً أن مسـتوى حيـاة العائلات التي يعمل أربابها في الداخل قد بدأ يتحسن تدريجياً، وخلال فترة ليست طويلـة بدأ هذا الرجل يرفع سقف بيته من القرميد و يضع بدله ألواح (الزينكو) الصاج، وهـذا الرجل يعلي سور بيته، وهذا يضع لبيته باباً قوياً، وهذا يحضر كيساً من الأسمنت وقليلاً من رمال شاطئ البحر الخشنة المخلوطة بالصدف ويستدعي أحد عمال البناء ليرصف له أرضية بيته. وهكذا بدأت البيوت من حولنا ترتقي من جديد تدريجياً ويرتفـع مسـتواها، وبيتنا على حاله،ورغم أنه كان أفضل البيوت في الحي منذ الأيام التي سبقت الحرب، بدا وضعه يتراجع مقارنة بتقدم بيوت الجيران.

بعض الجيران الذين لم تسمح لهم الحال بتغيرات كبيرة في بناء البيت، لجأ إلـى جلب قطع كبيرة من النايلون حيث يتم فرشها على سقف القرميد لتغطي كل السقف، ثـم يقوم بطيّ حوافها ويتم تثبيتها بشرائح خشبية، يتم تثبيتها بالمسامير الصغيرة المربوطـة بالحبال، كل كيس معاً بحيث يكون كل كيس على جانبي سقف القرميد، فلا ينزلق الكيس عن النايلون، ومثل هذه الأكياس تشكل ثقلاً على النايلون يمنع من تحركه وسقوط.

مثل هذا المشروع لا يكلف كثيراً وفيه حل معقول لمشكلة تسرب مياه المطر إلى الغرفة وسيلها على الفراش واضطرارنا لوضع الآنية لاستقبال قطراتها بين فراشنا ونحن نيام، وحين تدارست أمي الأمر مع أخي محمود وعرفا كلفته قرر أن يضيف النايلون على سقف غرف بيتنا، فاشترى محمود النايلون وشرائح الخشب والمسامير، واستعار مطرقـة (شاكوشاً) من أحد الجيران وسلماً ووقف أخواي حسن ومحمد يسـاعدانه، كـان وضـع النايلون على سقف الغرفة تطوراً مذهلاً في حياتنا في الشتاء وبدأنا ننام مرتـاحين مـن تسرب المياه وصوت القطرات وهي تسقط في تلك الآنية ومن رذاذهـا يتراشـق علـى وجوهنا وفراشنا.

كنت قد أصبحت في الصف الثالث الابتدائي، وكانت العادة أن طبيب عيادة الوكالة يأتي لزيارة المدرسة بين الحين والآخر، ويقوم بجولة على الفصول ويعاين الأوضاع الصحية

للطلاب ومن يجد أن عنده فقراً واضحاً في التغذية وأن بنيته الجسمية ضعيفة بصورة مميزة، فإنه يسجل اسمه لديه، وبعد أيام يتم إعطاء هؤلاء التلاميذ (كروتاً) بطاقات تسمح لهم بتناول مرة واحدة في مركز التغذية (الصحة) التابعة لوكالة الغوث في المخيم، جاء الطبيب هذه المرة وقام بجولته في المدرسة وحين دخل فصلنا سألني عن اسمي وسجله عنده فعرفت أنهم سيعطونني (كرتاً للطعمة) بعد أيام استلمت تلك البطاقة وكانت فرحتي به أن رأسي كاد يصل إلى السقف.

عدت بالكرت إلى البيت وبشرت إخوتي، فاطمة غضبت غضباً شديداً وهجمت علي تحاول انتزاع الكرت مني وهي تصرخ (إحنا مش فقراء) وصرخت مستنجداً بأمي التي نادت عليها وطلبت منها وهي تؤكد لها أنه ليس في استلام كرت الطعمة أي عيب فنحن لاجئون طبيعي جداً أن يأخذ أحد الأولاد كرت الطعمة (واحنا أصلاً عايشين على حساب الوكالة، الدار دار وكالة، المدارس مدارس وكالة، الصحية للوكالة، ولما انهدمت دور الناس مين بنالهم سكنهم غير الوكالة ؟!!) فاضطرت فاطمة لتركي رغماً عنها وعلى غير قناعة ورضى.

كل يوم بين الحصص أو بعد انتهاء تلك الحصص ينطلق مئات الأولاد والبنات إلى الطعمة، نقف في طابور طويل ندخل واحداً تلو الآخر، بعد المزاحمة والمدافعات والمشاجرات إلى داخل الطعمة ونضطر هناك للسكوت؛ لأن مدير الطعمة يجلس وراء الطاولة يتناول من أحدنا بطاقته، يشطب رقم وتاريخ اليوم، ثم يناوله البطاقة مرة أخرى ويناوله رغيفاً صغيراً من الخبز، ويدفعه للأمام حيث يناوله عامل آخر من عمال الطعمة طبقاً جديداً فيه عدة تجويفات في كل تجويف نوعٌ من الطعام، ثلاثة أو أربعة أنواع بما فيها الفاكهة أو المهلبية، نأخذ ذلك ونتوجه للقاعة حيث فيها طاولات وحولها كراسي نجلس عليها ليلتهم كل واحد ذلك الطعام اللذيذ، ثم نأخذ الطبق ونلقيه من شباك المطبخ ليغسلوه ونخرج من باب الخروج، على هذا الباب يقف أو تقف أحد أو إحدى العاملين أو العاملات في الصحة في الطعمة ليفتش الخارجين خشية أن يكونوا قد أخذوا الطعام معهم لغيرهم ولم يأكلوه هم، فهو مخصص لهم لاعتبارات صحية، ومن يتم ضبطه قد هرّب الطعام يؤخذ منه ويلقى في سلة القمامة كي يتعلم أن يأكل طعامه في الداخل.

ابن عمي إبراهيم كان أعز أصدقائي وكنا دوماً معاً. في أحد الأيام يوم الثلاثاء، ذهب معي للطعمة على اتفاق أن (أحشو) له نصف الرغيف بالكفتة فقد كان يوم الثلاثاء مخصصاً للكفتة، وقد أخذت معي كيساً صغيراً من النايلون.

جلست على الطاولة وإبراهيم ينتظرني عند باب الخروج، وبخفة وحذر شـديدين حشوت له نصف الرغيف بنصف حصتي من الكفتة ووضعته في كيس النايلون ثم أخفيته داخل بنطالي، أكلت باقي الطعام ووقفت أرى منظر البنطال كيلا يفضحني عند التفتيش.

ألقيت الطبق من شباك المطبخ وتقدمت مثل الولد المؤدب من الست عيشة التـي تقف عند الباب للتفتيش رافعاً يدي فوق رأسي، أجرت تفتيشاً سـريعاً علـي وانطلقـت خارجاً، تلفت يمنة ويسرة بحثاً عن إبراهيم وأنا أمد يدي داخل البنطال لأخـرج نصـف الرغيف.

وما أن صارت بيدي حتى رأيت مجموعة من الأولاد حوالي الثلاثين ولداً مـن عائلة تسكن قريباً من الصحة، كنا نسميهم الهكسوس لكثرة مشاكلهم يهجمون عليّ لسرقة السندويشة من يدي، أطلقت ساقي للريح وهم ورائي.

لكنني جريت بكل ما أوتيت من قوة مسافة طويلة وشعرت أنني قد ابتعدت عـنهم فالتفت ورائي كي أتأكد أنهم قد توقفوا أو رجعوا وما إن أدرت رأسي للوراء فإذا حجـر كبير قد قذف من أحدهم نحوي يصيبني في عيني مباشرة، أظلمت الدنيا أمام عيني وسقط نصف الرغيف من يدي وغطاه التراب، ولم أتمكن أو لم أرغـب بالانحنـاء لألتقطـه، تمسكت بالكرت وواصلت طيراني صارخاً: (ياما) حتى البيت. جريت مسافة طويلة ويدي على عيني حتى وصلت البيت قفزت أمي بهلع بالغ ورفعت يدي عن عيني تنظر ما حدث وصرخت: (يا ويلي راحت عين الولد).

تناولت غطاء رأسها وطارت تجري بي مرة تحملني ومرة تجرني جـراً وهـي تمسك بيدي جرياً إلى عيادة الوكالة، بعد جهد وعناء وصلنا إلى العيادة توجهنا إلى غرفة علاج العيون والتي يتواجد فيها ممرض متخصص وحين وصلنا سألوا أمي عـن كـرت (العيادة) التموين الذي لا يصح أن يتم معالجة أي شخص إلا بعـد أن يظهـره ويجـروا إجراءات روتينية من التسجيل ولكن لهفتها وخشيتها على عيني كانت قد نسيت أن تأخـذ معها الكرت، وبدأت ترجو وتتوسل وتحاول دون جدوى، قالوا لها أحضري كرت التموين وبدونه لن يعالج الولد، أجلستني على (البنك) الكرسي الخشبي أمام عيادة العيون وخرجت تجري لتحضر كرت التموين قبل موعد إغلاق العيادة.

بعد أن تأكد الممرض أنها ذهبت حقاً لإحضار الكرت نـاداني وأجلسـني علـى الكرسي وبدأ بفحص عيني وضع عليها قطة من الشاش (قمـاش) سـميكة، وألصـقها، وجلست أنتظر عودة أمي، عادت أمي وهي تلهث وقد أنهكت رائحة عادية لمسافة طويلة، أتموا إجراءات التسجيل واطمأنت من الممرض على عيني أنها بخير،ثم أمسكت بيدي بكل حنان الأم وعدنا للبيت نمشي الهوينى، مشكلتي وأم مشكلتي حينها كانت ليسـت إصـابة عيني بل أن أختي فاطمة قد استغلت الظرف ومزقت كرت الطعمة، وبذلك فكأنها فقـأت عيني الأخرى حيث حرمتني من الأكل في الطعمة.

وضعنا الاقتصادي كان متوسطاً في هذه الفترة، فهناك من تقدموا علينا من خلال عمل أرباب أسرهم في داخل الأرض المحتلة، وهناك من كانوا دوننا بكثير مثـل عائلـة جارتنا أم العبد فهي أم لأربعة أولاد وثلاث بنات ولا معيل لهم، فقد استشهد رب الأسـرة عام ١٩٦٧، وترك أولاده وبناته وأمهم، كما كانت تقول أمي (تركهم قطاطيم لحم).

الوكالة كانت تغطي غالبية جوانب الحياة ولكن تظل زوايا في الحياة تحتاج إلـى تغطية مالية لا يمكن للوكالة تغطيتها، وكانت أم العبد في حاجة لأن تخفف عن عائلتهـا وتوفر لهؤلاء وبناتها بعض الاحتياجات الأخرى من أجل ذلك. لم تـوفر أم العبـد باباً للكسب المباح إلا طرقته، فكان أولادها يخرجون يوم الجمعة ومعهم أكيـاس الخـيش ينطلقون بعيداً إلى منطقة قريبة من حدود عام ١٩٤٨ هناك كانت مزبلـة للمسـتوطنات اليهودية القريبة، الأحذية القديمة، بعض المعلبات التي فات موعد استخدامها، زجاجـات البيرة الفارغة يجمعون منها كل ما يمكن بيعه أو استخدامه ويضعون في أكياسهم كل ما يجمعون ويحملونها عائدين.

تغسل لهم أمهم الزجاجات جيداً وتبيعها لامرأة أخرى تجلس تبيعها أمام العيـادة يشتريها الناس هناك ليضعوا فيها الدواء الذي تصرفه لهم العيادة، تنظف الأحذية وتجمع كل زوج منها وتبيعها لأحد الباعة في السوق يبيعها هو لأهل المخيم، كما كانت تذهب إلى الطعمة كل يوم صباحاً تشتري من النسوة ما يخرج لهن من مخصصات من الحليـب لا يريدون استخدامه، تصنع منه الجميد (وهو عبارة عن لبنة شبه جامدة)، وتجلس على باب المدرسة تبيعه للأولاد ولما لم يكن مع الأولاد نقودٌ تبيعهم به الجبجب كانت تبيعهم إيـاه مقابل قطعه الخبز، تأخذ من هذا الخبز حاجة عائلتها ثم تبيع الآخر لتجمع قرشاً من هنـا وآخر من هناك وثالثاً ورابعاً كي توفر لأولادها حاجتهم وهي سعيدة راضية بقدرها، وقد جلست تربي أولاد الشهيد من دم عيونها...

تم قبول أخي محمود في كلية الهندسة في جامعة القاهرة، يوم علمنا بذلك احتفلنا به كعادتنا بالصراخ والهجوم على محمود وضربه وقرصه وأعدت لنا أمي صينية الحلبة وجاءتها المباركات والمهنئات، وبدأ محمود يستعد للسفر. بسطة الخضراوات كانت يجب أن تستمر؛ لأنها ستغطي نفقات التعليم للسنوات القادمة، لذلك كان على حسن إدارتها بما يتناسب مع دراسته ودوامه في المدرسة، هذا طبعاً حتى اليوم قبل الأخير من سفر محمود لمصر، فقد ظل مواظباً على عمله حتى يوم سفره، وكان عليّ أن آخذ دوره في العمل في النظافة والترتيب في مصنع خالي مع أخي محمد.

قبل سفر محمود لمصر أعدت له أمي الكثير من الأغراض التي سيأخذها معه، أعدت له بعض زيت الزيتون وشاياً وملوخية مجففة وبامية مجففة وأشياء أخرى شبيهة، اشتروا بالمال الذي ادخروه جنيهات مصرية من سوق العملات، وأخذها محمود إلى أحد الخياطين الذي وضعها له في حزام البنطال داخل القماش وحاك القماش عليها، كي يتمكن محمود من أخذها لمصروفه في مصر، حيث أن موظفي الجمارك من اليهود يصادرون الأموال ويمنعون نقلها مع المسافرين لمصر.

تردد محمود على مقر الصليب الأحمر الذي كان ينظم عملية سفر الطلاب من القطاع إلى مصر وعودتهم بين سلطات الاحتلال والسلطات المصرية حتى عرف موعد سفره، كان عليه مثله مثل باقي الطلاب أن يذهبوا إلى قسم المخابرات في السرايا حيث يتم التحقيق معهم وتحذيرهم من العمل مع المنظمة، ويحاولون تجنيد من يستطيعون.

في الليلة الأخيرة قبل سفر محمود سهرنا جميعاً معه أكثر مما اعتدنا فهو سيغادرنا،وسيغيب عنا حوالي سنة كاملة، كانت الليلة ممزوجة بالضحك والبكاء والفرح والحزن، خليط غريب من المشاعر، ومليئة بصورة خاصة بتوجيهات أمي وأوامرها لمحمود.

في الصباح استيقظنا مبكرين كانت أمي قد جهزت حقيبتين كبيرتين مستخدمتين كان محمود قد اشتراهما، حيث وضعت فيهما كل الأغراض والمتاع. حمل أخي حسن واحدة وابن عمي حسن الثانية وخرجت أمي معهما لوداع محمود، ونحن ودعناه حتى أطراف الحارة، وعدنا أدراجنا والحزن بادٍ في النفوس، فقد بدأنا ندرك أكثر معنى فراق الأحبة.

أوصلوه حتى مقر الصليب الأحمر حيث كان هناك الكثير من النـــاس خرجــوا لوداع أبنائهم كان الطلاب ينتظرون داخل الحافلات والأهل ينتظرون قبالتهم عــن بعــد، يلوحون لهم، ثم انطلقت الحافلات وظل الأهل يلوحون لهم حتى غابت الحافلات.

بعد أيام من سفر محمود جاءت إحدى جاراتنا تشتكي أن ابن عمي حسن يضايق ويعاكس إحدى بناتها، احمرّ وجه أمي خجلاً من الجارة ووعدت بوضع حد للأمر، جدي كان في فراش عجزه ومرضه، ومحمود كان قد سافر إلى مصر وكل من تبقى في البيت كان أصغر من حسن الذي كبر وأصبح من الصعب التغلب عليه، لذا فكرت أمــي فــي استخدام الحيلة والاقناع.

حين جاء آخر النهار نادته وجلست تحدثه، يا حبيبي يا عمتي الجار وحق الجار، وأبوك الشهيد وسيرة أبيك، وسيرة العائلة، وسمعتنا وشرفنا، وماذا يقول الناس، في نهاية الأمر وعدها حسن ألا يقترب من ابنة الجيران، سألته: وعد شرف يا حسن؟ قال: وعــد شرف يا مرة عمي.

بعد أيام عادت الجارة وهي ترتجف ودخلت البيت صارخة: (يا أم محمــود هــذا الولد مش مصلي على النبي، حشر البنت في الشارع ومد إيده عليهــا)، انتفضــت أمــي غضباً، وحاولت تطييب خاطرها وقد أدخلتها للبيت قائلة: (يا أم العبد أنت عارفة إنــه لا عندك ولا عندي في رجال تُؤدبه، والله بيعلم أنه بناتك زي بناتي، تعالي نفكر كيف نحط لهلولد حد) وجلستا. والدتي طرحت فكرة أنها سترتبطه وهو نائم وتضربه هــي والأولاد، وإذا كرر الأمر فسوف تستعين بأحد الفدائيين وليكن بعده ما يكون وليكســروا لــه يــده ورجله.

أعدت أمي الحبل وعصا، وحين عاد حسن وبعد أن تعشى وذهب للنــوم دخلــت عليه أمي وأخي حسن وأخي محمد وبعد أن تأكدوا من نومه شدت أمي الحبل على رجليه ويديه بخفة وحذر ثم أيقظت جدي وأخبرته بما كان من ابن عمي حســن، فأخــذ الجــد يرتجف ويقول (الله يسود وجهك يا حسن..الله يسود وجهك يا حسن) اضــربوه، كســروا يديه ورجليه.استيقظ حسن فوجد نفسه مقيداً فبدأ يهدد ويتوعد، فبدأت العصا تنزل علــى جنبيه، وهو يسب ويشتم ويتوعد، ضربوه ضرباً مبرحاً، وأفهمته أمي أنهم جعلوا الأمــر داخل البيت خشية الفضيحة، وأنه إذا عاد لمضايقة سعاد فسوف تخبر الفدائيين وتطلــب منهم أن يكسروا يديه ورجليه، ثم تركوه مربوطاً بالحبل حتى الصباح، حيث طلبت مــن إبراهيم ابن عمي أن يفكه.

إبراهيم كان طيباً ومطيعاً وذكياً ومجتهداً في دراسته، ذهب وفك قيود أخيه فضربه حسن وهو يهدد ويتوعد ثم اندفع إلى غرفتنا ليهدد أمي ويتوعدها محاولاً إخافتها، فصرخت عليه: (وله، اصحى تحساب إنك بتخوفني، انت واحد هامل، والهامل بخوفش حد، وعمرك ما تصير زلمة، ولا راجل).

زمجر حسن وتقدم نحو أمي ودفعها فوقعت على الأرض، فما كان منا جميعاً أولاداً وبناتٍ إلا وقد هجمنا عليه فأوقعناه أرضاً وضربناه، وعضضناه، ونتفنا شعره، فقام وهو يركل ويضرب ويسب ويشتم وخرج من المنزل.خرج حسن ولم يعد، وبدأنا نسأل عنه فقيل لنا إنه ذهب إلى الأرض المحتلة من عام ١٩٤٨ (داخل إسرائيل) وأنه يشتغل هناك وقرر عدم العودة للدراسة.

صحة جدي تدهورت، وأسلم روحه لربه، فودعناه بالبكاء والدموع -رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته- مات جدي دون أن يعرف شيئاً عن مصير والدي الذي غاب منذ ما يزيد على خمس سنوات، ودون أن يرى حفيده الذي هرب من غزة ليعمل في إسرائيل ودون أن يكون محمود إلى جواره ولكنا قمنا بالواجب، والجيران وقفوا إلى جانبنا، فالمخيم كالعائلة الواحدة في الأفراح والأتراح.

الفصل الثامن

صباح كل يوم يخرج المئات من أبناء وبنات المخيم في حدود الساعة السابعة صباحاً إلى مدارسهم من كل الأجيال من أبناء وبنات السابعة، الذين يذهبون للمدرسة في الصف الأول الابتدائي وحتى أبناء وبنات الثامنة عشرة الذين يدرسون الثانوية العامة.

مجموعات من الأولاد تتبع مجموعات من البنات وراءها مجموعات من الأولاد وهكذا كل صباح غالبية أولاد وبنات المخيم لا يهتمون بإنشاء علاقات حب وغرام حيث أن قواعد الحي في المخيم توجب التعامل مع بنات الجيران مثل التعامل مع الأخوات، أمي كانت دوماً تحذر إخوتي وأخواتي من أي علاقات مع الجنس الآخر. وكثيراً ما كانت تحذر إخوتي من النظر إلى بنات الجيران أو معاملتهن، وتحذرنا من أن نتطاول على أعراض الناس، فلا بد أن الناس ستتطاول على أعراضنا، ولو ظن البعض أنه أذكى الأذكياء، هذا كان رادعاً لنا عن أن نفكر مجرد تفكير في أن نفعل ما يفعله بعض الأولاد والشبان من الوقوف على زاوية الطريق في طريق الفتيات الذاهبات والعائدات من مدارسهن مثل البدور.

بعض هؤلاء الشبان كانوا يقفون على طريق الفتيات فقط لمجرد النظر إليهن أو إلقاء بعض الكلمات العابرة (وين يا جميل)، (ما تطلعوا علينا يا ناس... الكبرة لله) آخرون يقفون هناك ليروا الفتيات العائدات اللواتي أحبوهن واقتنعوا بحبهن، عسى أن تتطور العلاقة معهن وتنظر إحداهن على من أحبها نظرة تملأ عليه يومه بالسعادة وعسى أن تقبل أن تستلم منه رسالة، كتبها لها من أعماق فؤاده، نعم فأهل المخيم مثل كل الناس، رغم بؤسهم وشقائهم يحبون ويعشقون ويعيشون الحياة كما يعيشها كل الناس.

ولكن مما لا شك فيه أن مستوى المحافظة على العادات والتقاليد واعتبار الاقتراب من فتيات الجيران ماساً بكل تلك التقاليد وخارجاً عليها جعل تلك التعبيرات عن معاني الحب والعشق أكثر انضباطاً وعفافاً، وظل غالبيتها حبيس المشاعر داخل النفوس، اللهم إلا من نظرة إعجاب أو إكبار وشوق عن بُعد، أو من مساعدة واضحة ومميزة للأهل تدعو للاستفسار عن السبب وراء هذا التفاني في المساعدة والحرص على المصلحة.

لكن البعض من شباب المخيم كان أجرأ على اجتياز تلك القواعد فأجازوا لأنفسهم كتابة وتبادل رسائل العشق والغرام، واللقاء أثناء الذهاب والعودة للمدرسة، ولو بأن يسير الواحد وراء الآخر وكأنه أمر عفوي، وأحياناً يتم تبادل بعض الكلمات كأن كل واحد منهما يتحدث مع زملائه أو زميلاتها، وبعضهن كن يسمحن لأنفسهن بفتح شباك الغرفة في ساعة محدودة حيث يكون حبيب القلب قد مر في نفس اللحظة من جواره فيلقي رسالته إليها من خلاله، كثيراً ما ضربت العديدات من الفتيات من آبائهن أو إخوانهن أو أمهاتهن حيث يُضبطن أثناء تبادل الرسائل مع الشبان، ولكن كل هذه القصص كانت قليلة ونادرة جداً في المخيم، في تلك الفترة المبكرة من بعد الحرب.

بالمقابل فقد بدأت أعداد العمال الذين يتوجهون صباحاً للعمل داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ تزداد تدريجياً، وباتت الظاهرة تتنامى وتتنامى معها ظواهر أخرى مرافقة، ففي ساعات الصباح الباكر يخرج الرجال كل واحد منهم يحمل بيده كيساً صغيراً أو حقيبة يضع فيها طعام يومه ويسير مسافة طويلة حتى موقف العمال، هناك يتواجد عدد كبير من السيارات والشاحنات والحافلات، هذه إلى يافا وهذه إلى أسدود وهذه إلى تل أبيب وغيرها، وكل سائق ينادي على المسافرين إلى هدفه والعمال يتقاطرون، يستقلون السيارات التي تنطلق بهم.

الكثير من أصحاب البسطات لبيع الفلافل والفول أو السحلب أو غير ذلك وجدوا في هذا الجمع الكبير من العمال هدفاً مناسباً وسوقاً مربحة لتجارتهم، وتجد العمال وهم في طريقهم للسيارة التي تقلهم يخرج الواحد من جيبه بضعة قروش يشتري بها حبات من الفلافل يتناولها سريعاً ليضعها في كيس طعامه، وينطلق إلى السيارة التي تقله، يلقي بنفسه فيها ليكمل نومه الذي قطعه ساعة أو ساعتين حتى وصوله إلى مكان عمله، هناك في داخل الوطن السليب.

يعمل هؤلاء العمال في البناء أو في الزراعة أو في النظافة، في أي عمل من مجالات العمل الصعبة والمهنية التي يتكبر عليها اليهود. يكون صاحب العمل (المعلم) اليهودي يقف على رؤوسهم يصدر لهم الأوامر ويراقب عملهم، عند الساعة العاشرة صباحاً يأخذون فاصلاً نصف ساعة يتناولون فيه طعام إفطارهم أو غدائهم ويشربون الشاي إن تمكنوا من إعداده، ثم يقومون ليكملوا يوم عملهم،وعند الساعة الثالثة أو الرابعة عصراً، ينهون عملهم يبحثون عن سيارة تعيدهم إلى غزة أو الضفة، ينامون في طريق العودة ويعودون لبيوتهم وقد أنهكهم العمل.

يوم الجمعة يعملون حتى الساعة الثانية ظهراً فقط، حيث إن أصحاب العمل اليهود يتهيأون لدخول السبت الذي يكون يوم عطلة أسبوعياً، بعض هؤلاء العمال يعملون بصورة يومية ويقبضون أجرتهم في نهاية يوم العمل وفي اليوم التالي يخرجون من جديد حيث يقفون على مواقف العمال فيأتي المقاولون وأصحاب العمل اليهود بسياراتهم وبناطيلهم القصيرة يبحثون عن عمال فيتهافت العمال عليهم، فينتقي الواحد منهم من يناسبه من العمال لغرضه ويتفق معه على الأجرة، آخرون يعملون بصورة أكثر ثباتاً أسبوعياً أو شهرياً أو بصورة دائمة.

مع تطور العلاقات بين العمال العرب وأصحاب العمل اليهود وأمام الإرهاق والتعب من السفر اليومي بدأ أصحاب العمل يبحثون لعمالهم عن أماكن للمبيت فيها طيلة الأسبوع، يخرج العامل من بيته صباح يوم الأحد مبكراً، ويظل في عمله حتى ظهر الجمعة حيث يعود إلى أهله وقد ملأ جيبه بالنقود وسلته أو كيسه بالأغراض التي جلبها معه من إسرائيل.

بعض العمال كانوا يستأجرون بيوتاً في قلقيلية أو طولكرم تقربهما من الداخل، يشترك عدد من العمال في استئجار غرفة أو بيت يسكنون فيه طيلة الأسبوع، وحتى أحياناً طيلة الشهر ليوفروا أجرة المواصلات ويدخروا الجهد والتعب من السفر اليومي ذهاباً وإياباً، هناك في داخل الأرض المحتلة يلتقي العمال الفلسطينيون بعالم جديد له عاداته وأعرافه وقيمه المختلفة تماماً عن عادات وأعراف وقيم شعبنا.

الغالبية العظمى من هؤلاء العمال لا تتأثر بذلك بل تنظر إليه بازدراء واحتقار، ولكن بعض الشبان المتفلتين يتأثرون بذلك فتجد أن أحدهم قد بدأ بشرب الخمر وتردد على أوكار الزانيات والملاهي والمراقص. وفي حالات نادرة تَجِد أن أحدهم قد صادف فتاة يهودية وتطورت علاقته بها وأصبح يحبها ويعيش معها وفقاً لقيم وعادات مجتمعها.

مع تدفق حركة العمال زادت الحاجة إلى سيارات أخرى تحمل هؤلاء العمال، وفتح بذلك المجال لعدد جديد من السائقين، بعض هؤلاء العمال تمكن من شراء سيارة يسافر بها للعمل ويأخذ معه عدداً محدداً من العمال من جيرانه يدفعون له الأجرة المعتادة، وهو يوفر عليهم السير على الأقدام صباحاً إلى موقف العمال ومساءً العودة إلى البيت، فبدأت تدخل سيارات البيجو المناطق وازدادت حركة وتواجد السيارات في المناطق، وتجد أحد هؤلاء العمال قد أحضر على ظهر سيارته بعض الكراسي أو المقاعد أو أصناف الأثاث الأخرى التي اشترى (معلمه) اليهودي جديداً بدلها وأراد التخلص منها، فأخذها هو ليحسن بها مستوى الحياة في بيته أو يهديها لأحد أصدقائه، أو أقاربه أو لبيعها في السوق (سوق الخردوات).

بدأ التجار اليهود يتوافدون على مدينة الخليل والمدن الأخرى القريبة من مناطقهم خاصة طولكرم وقلقيلية يشترون منها مستلزماتهم، وبعضهم يتعاقد مع ورشة الحدادة أو المنجرة أو غيرها، لتوفر له مائة باب أو ألف شباك أو ما شابه، هو يجد مطلبه بسعر أرخص بكثير مما يجده في المصانع الإسرائيلية. وأصحاب العمل الفلسطينيون يرفعون السعر فيكسبون المزيد ويشتغلون ويشغلوا غيرهم من العمال من أبناء البلد.

ورغم تحسن الوضع المادي العام للناس بصورة عامة إلا أن المقاومة استمرت وظلت على شكل موجات تعلو وتهبط، فهي لم تكن يوماً مرتبطة بالوضع المادي فقط وإنما بالانتماء الوطني والشعور بالواجب، مع أن ضيق الحال يزكي تلك المشاعر، وبذلك ظلت العمليات الفدائية مستمرة، إلقاء قنبلة هنا، إطلاق نار هناك، وفرض حظر التجول هنا أو هناك واعتقالات وتحقيقات واحتجاز المارة بالساعات واكتشاف عميل وقتله أو قتلها.

تدفُق المئات والآلاف من العمال إلى داخل الدولة اليهودية فتح المجال للمقاومين للتفكير في تنفيذ عمليات واسعة داخل الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ في قلب التجمعات السكانية في المدن والبلدات والقرى والمستوطنات، وبذلك فُتِح بابٌ جديدٌ من أبواب المقاومة، عبد الحفيظ ابن جارتنا أم العبد أقنع والدته أنه من أجل مستقبل إخوانه جميعاً يجب أن يتوقف عن إكمال الدراسة ويتوجه للعمل ليتمكن إخوته وأخواته من العيش وإكمال دراستهم، ولكي ترتاح هي من الأعمال المتعبة التي تنهكها، بعد محاولات متكررة لإقناعها وافقت على الفكرة.

وتوجه عبد الحفيظ للعمل في الداخل مثله مثل الآلاف، يتوجه للعمل كل صباح ويعود عند المساء، بعد أشهر تمكنوا من وضع باب مقبول لبيتهم، ووضعوا ألواح الصاج (الزينكو) بدلاً من القرميد، ورصفوا أرضية المنزل بالإسمنت، ولكن بعد فترة اكتشف الجميع أن لعبد الحفيظ هدفاً آخر من العمل في (إسرائيل) غير مستوى الحياة، وتعليم اخوته، اكتشفنا ذلك بعد حوالي سنتين، فقد كان عبد الحفيظ قد انضم إلى صفوف الجبهة الشعبية، وكان الهدف من عمله هو البدء بالإعداد والتخطيط لعمليات فدائية داخل الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وبالفعل فبعد أشهر من بدء عمله وتعوده على الواقع الجديد بين الحين والآخر، يأخذ قنبلة يخفيها في كيس طعامه ويحملها إلى يافا، هناك يكون قد اختار حافلة أو مقهى أو ملهىً، يضعها ويخفيها هناك ويعود إلى البيت بعد إنهاء العمل، فتنفجر هناك محدثة إصابات أو أضراراً وأحياناً قتلى.

ظل عبد الحفيظ على هذه الحالة سنتين، وهو يعمل بمنتهى الحيطة والحذر، وقد نجح في تنفيذ العديد من تلك العمليات، التحقيقات التي أجراها جهاز المخابرات (الشين بيت) حينها أدت إلى الشك الكبير في عبد الحفيظ، وفي إحدى الليالي داهمت الحارة قوات كبيرة من جيش الاحتلال حاصرت البيت وقامت باعتقاله حيث أخذ للتحقيق، وهناك لا تسل عما تعرض له من الشبح والضرب والتعذيب، وهو ينكر أي علاقة له بأي شيء مما يتهمونه به، في نهاية الأمر كانوا قد اعتقلوا زميلاً له، اعترف عليه أنه منظم في الجبهة الشعبية، واجهوه به فاعترف بذلك فقط، وقد حوكم على ذلك بالسجن لمدة سنة ونصف.

عند انتهاء العام الدراسي واقتراب عودة أخي محمود من مصر للإجازة الصيفية، كنا نبدأ بالتردد على مقر الصليب الأحمر لنسأله عن موعد عودة طلاب الجامعات من مصر، أو لنراقب لوحة الإعلانات هناك حيث كانت تنزل على اللوحة أفواج العائدين أسماؤهم ومواعيد عودتهم. في اليوم الذي سيعود فيه محمود، نخرج جميعاً لانتظاره عند مبنى الجوازات هناك تأتي الحافلات تحمل الطلاب ترافقها سيارات جيب عسكرية، يُدخلون الجوازات، ينزلون وينتظرون في قاعة الانتظار فيقفز إليه أهله يقبلونه ويسلمون عليه ويعانقونه، ويذهبون إلى البيت.

كنا نجلس هناك ننتظر محمود عند عودته كل سنة، يخرج إلينا فنتسابق إليه فينقض علينا يقبلنا ويسأل عن أحوالنا، ويقبل رأس أمي ويدها وهي تنظر إليه بفخر واعتزاز والدموع تترقرق في عينيها وهي في قمة فرحتها بابنها (الباش مهندس محمود) ورغم قلة حيلتنا تجتهد أمي في إعداد أنواع الطعام المختلفة إكراماً لمحمود وحفاوة بقدومه وتعويضاً عن سنة من الحرمان.

محمود كان يحضر لنا بعض الملابس القطنية من المصنوعات المصرية، أيامها بدأنا نعرف ملمس ورائحة الملابس الجديدة، وقد كنا من قبل لا نلبس إلا ما نأخذه من الوكالة أو نشتريه من مواد وأدوات مستخدمة، ومنذ انتهاء السنة الأولى لدراسته أصبحت أمي تناديه (الباش مهندس).

على زاوية أحد الشوارع، يفرش عدد من الشبان بطانية سوداء مما نستلمه من الوكالة ويجلسون عليها يلعبون (ورق الشدة)، كل يوم بعيد العصر يجلسون هناك يقضون بعضاً من وقتهم حيث لا توجد وسائل تسلية أخرى، ويستمرون في لعبتهم حتى بعيد المغرب حيث يحل الظلام، يجمعون أوراقهم وينفضون بطانيتهم ويطوونها وينصرفون إلى بيوتهم، فبعد قليل يحل أوان منع التجول.

في أحد الأيام يمر بهم الشيخ أحمد هكذا كانوا يسمونه، رغم أنه كان لازال شاباً، وهو عائد من صلاة المغرب في المسجد، يقرأ عليهم السلام كلما مر بهم كالعادة، ولكنه هذه المرة اتجه نحوهم وجلس معهم وقد أبدوا استغرابهم من ذلك بصورة واضحة من خلال توقفهم عن اللعب، وجمعهم الأوراق وانتباههم الواضح لقدوم الوافد الغريب.

جلس الشيخ أحمد عندهم وقال: اسمحوا لي أن أتكلم معكم في أمر هام يخصكم، بدت الدهشة واضحة على وجوههم وقالوا: تفضل. بدأ الشيخ يتحدث بإسهاب وانطلاق مستشهداً بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف محذراً من إضاعة الوقت في اللهو غير المفيد، والحث على الطاعة، وعبادة الله، وأداء الفرائض مذكراً بنعم الله علينا محذراً من الخسارة في الآخرة ومن عذاب جهنم، رابطاً ذلك كله بصورة لطيفة بمستقبل الإسلام الذي يجب أن تعلو رايته في أرض فلسطين، أرض الإسراء والمعراج حتى تتحرر الأرض وينعتق الخلق، وتنجح المساعي المبذولة.

ظل الشباب الأربعة صامتين مندهشين من الحديث الذي يسمعونه لأول مرة، وطاب لهم ذلك الربط العجيب بين الدين والوطنية، فهذا مزج غريب لم يسمع من قبل، فالساحة الفلسطينية اعتادت أن ترى في الآونة الأخيرة إما الشيخ أو المتدين الذي لا علاقة له بالواقع والهم الوطني وإما الوطني أو الفدائي الذي لا علاقة له بالدين ولا بالتدين، وقد بدأت تظهر على وجوههم ملامح الإعجاب والرضا والإقناع بالكلام الذي يقوله الشيخ الشاب.

وتساءل أحدهم: وما هو المطلوب منا يا شيخ؟ ارتسمت على شفتي الشيخ بسمة خفيفة قائلاً: غداً إن شاء الله تغتسلون وتتطهرون وتتوضأون ثم تذهبون للمسجد للصلاة،كلما ارتفع الأذان. هز الشباب رؤوسهم معلنين الموافقة، سلم عليهم الشيخ أحمد واحداً واحداً وهو يضغط بيده على كل واحد منهم وانطلق. فلملموا أوراقهم ونفضوا بطانيتهم وطووها وانطلقوا وقد حلّ الظلام وآن موعد منع التجول.

بعد حملة شق الشوارع بات واضحاً أن قدرة جيش الاحتلال على السيطرة على المخيم أصبحت أكثر سهولة ويسراً، وكان من السهل على دورياته المنقولة بالآليات التحرك بسهولة وأن تراقب ما يجري في المخيم بسهولة ومن ثم يتم حصار أي ربع فيه اشتباه بتحركات معادية وتفتيشه واعتقال أو قتل من يشكون فيه. سرعة تحركات سيارات الدوريات وقدرتها على الوصول المفاجئ لكل أطراف المخيم بدأ يثقل على المقاومة والفدائيين، فكان لا بد من تطوير طريقة جديدة للإنذار السريع للفدائيين بوجود قوات للاحتلال قريبة، حتى يتمكنوا من أخذ حيطتهم واستعدادهم، وقد كان، ففي كل مكان يظهر فيه جنود الاحتلال، وكلما رأى أحد الصبية أو الفتيات وحتى الكبار من الرجال والنساء قوات الاحتلال هتف بصوت عال (بيعوا) وكل من يسمع هذه الكلمة يرددها فوراً بصوت عال (بيعوا..بيعوا..بيعوا واتريح منو) وقد كان القصد حينها مطالبة جنود الاحتلال بيع أسلحتهم.

هذه الظاهرة ظاهرة المناداة ورفع الصوت بهذا النداء تحول بعد وقت قصير إلى صورة من النشيد الشعبي، فحينما يرى الطلاب والطالبات في طريقهم إلى المدرسة وإيابهم منها دورية احتلال انفتحت حناجرهم في أنشودة شعبية عارمة (بيعوا..بيعوا..بيعوا واتريح منو والصندل أحسن منه) ويظلون يرددون ذلك كلما ظلت عيونهم واقعة على تلك الدورية، والجنود لا يعرفون كيف يتصرفون إزاء ذلك فيقعون في ربكة وحيرة.

ويسمع الفدائيون تلك الأصوات ويعرفون مكانها فيأخذون حذرهم واستعدادهم، العادة كانت أن الصغار هم من يرددون هذا النداء، ولكن حين لا يتواجد الصغار ولا يكون مناصّ للكبار من ترديده، لإنذار الفدائيين فإنهم لا يتورعون عن رفع أصواتهم به.

مرت الأيام سريعة، وبدأنا نعد الأيام على عودة محمود من مصر، وقد تخرج من كلية الهندسة، وبدأنا نتردد يومياً على مقر الصليب الأحمر بحثاً عن اسمه في أحد أفواج العائدين من مصر، وموعد عودته، بعد أيام من التردد على المقر والسؤال، نزلت قوائم العائدين على لوحة الاعلانات ووجدنا اسم محمود في الفوج الثالث، طرنا إلى البيت نبشر أمي بموعد وصول الباش مهندس محمود.

وبدأت حالة الإعداد والاستعداد لاستقباله على قدم وساق، الشي الأكبر هو أنها طلبت من أخي حسن أن يشتري كمية من الجير (الشيد) حضرنا له حفرة وسط الدار ووضعناه فيها ووضعنا عليه كمية من الماء لكي يبرد، ثم بدأنا بتصفيته وطرشنا الدار كلها باللون الأبيض مع شيء من الزرقة، ثم بدأت أمي بتجهيز الطعام والشراب خاصة الحلبة والبسبوسة، الحلوان لنا وللأحباب الذين سيأتون للمباركة والفرحة معنا.

يوم موعد قدوم محمود تجهزنا وخرجنا لاستقباله مقابل الإدارة العامة للجوازات، جاءت الحافلات تراقبها سيارات الجيش ودخلت المقر، انتظرنا على أحر من الجمر نحن ومئات العائلات، وبدأ العائدون بالخروج واحداً تلو الآخر، حتى خرج محمود، فطرنا إليه جرياً مستقبلين وسبقنا أمنا، وقد استقبلنا بذراعيه بكل الحب، ودموع عينيه تنهمر بغزارة حتى وصلنا لأمي التي ذرفت عيناها الدموع من شدة الفرح، ومحمود ينكب يقبل رأسها ويديها، وهي تبارك له تخرجه، وهو يهمهم قد عدت يا أمي وانتهى عصر التعب والشقاء إن شاء الله إلى غير رجعة، فتردد الحمد لله الحمد لله، إن شاء الله إن شاء الله.

ما إن وصلنا البيت حتى اجتمعت تقريباً كل الحارة لاستقبال محمود في حفل أشبه بالحفل الجماهيري العارم، وجميع الرجال يحتضنونه ويقبلونه والنسوة يباركن لأمي وبعضهن يطلقن الزغاريد. بصعوبة دخلنا الدار من شدة الزحام في الشارع رغم سعته، وتدافع الجيران للدار يباركون ويهنئون، وأمي وإخوتي وأخواتي مشغولون بتقديم الحلويات والمشروبات لهم وصيحات: (يا باش مهندس تتردد) والجيران ينادون محموداً ويسألونه عن مصر وعن الجامعة وعن صحته وعن كل شيء.

اقتربت الشمس من الغروب، وبدأ الظلام يسدل أستاره واقترب بذلك موعد منع التجول فبدأ الجيران ينصرفون لبيوتهم وهم يرددون كلمات التهنئة والمباركة، وجلسنا نحن في البيت حول محمود، عائلتنا وحدها، بما فيها دار عمي إبراهيم الذي اندمج في العائلة مثل أي واحد فينا تماماً دون أي فوارق وبدأت الأحاديث عن الآمال والطموحات، فحسن سوف يصفي البسطة ويتفرغ للدراسة فقط، وأنا ومحمد سوف نتوقف عن العمل البسيط في مصنع خالي، سنبني غرفة جديدة في البيت، سنرفع سقف القرميد عن الغرفتين، ونرفع جدرانها ونسقفها بالإسبست وسنرفع أرضيتها، وسنرصف أرضية الدار بالإسمنت ..الخ، من تلك المشاريع فقط بعد أن يتوظف محمود ويبدأ باستلام راتبه.

وقد كان واضحاً أن محموداً لن يترك المخيم، ولن يترك القطاع ويسافر للعمل في الخارج. فقد سُرّ في العودة بعد أن أنهى فترة الدراسة بعيداً عن البيت والعائلة. قضينا يومين آخرين في الاحتفال بعودة وتخرج محمود وفي استقبال المهنئين.

وفي الليلة الثالثة بعدما دخل موعد منع التجول بساعات وبينما رقدنا للنوم سمعنا أصوات سيارات الدوريات قد دارت من جديد لتتصرف، ولكنا فوجئنا بأصوات الجنود في ساحة دارنا وبأصواتهم يدقون الباب بشدة وينادون علينا للخروج إلى الساحة ساحة الدار، وضعت أمي وأخواتي أغطية رؤوسهن بسرعة وخرجنا يتقدمنا أخي محمود إلى الساحة ليجد عشرات الجنود يحتلون الدار وعشرات البنادق موجهة إلينا من كل صوب.

صرخت أمي وقد خرجت من الغرفة: ماذا تريدون؟إيش عايزين؟ شو بدكو؟ تحدث الضابط موجهاً حديثه إلى محمود متسائلاً: أنت محمود؟ أجابه محمود: نعم أنا محمود، قال الضابط: عايزينك شوية في السرايا، صرخت أمي: خير ايش عايزين فيه لسّه مبارح رجع من مصر، قال الضابط: يريدونه في عدة أسئلة فقط وغداً صباحاً برجع لكم، وطلب من محمود مرافقتهم، محمود طلب أن يغير ملابسه، فرفضوا ذلك وطلبوا منه الخروج معهم كما هو فخرج حاولت أمي الخروج فمنعوها وسحبوا الباب وراءهم، ودوت موتورات السيارات وانطلقت مبتعدة عن البيت والحارة.

في تلك الليلة لم نعرف للنوم طعماً، وأمي تصرخ وتبكي وتندب حظها (أجت المسكينة تفرح مالاقت إلها مطرح) فاطمة وحسن يحاولان تهدئتها وتطمينها، بأن محمود سيعود مع الصباح، وقد قال الضابط أنهم يريدونه لعدة أسئلة فقط، وهي تردد: (آه أكم سؤال، لو بدهم منه أكم سؤال لاستنوا للنهار وطلبوه بورقة تبليغ زي ما بدهم من حد أكم سؤال) ثم تعود لندب حظها (يا حسرتي يا حسرتي إيش عملت ياما يا محمود إيش عملت).

ومع إطلالة أول النهار وانتهاء منع التجول كانت قد لبست ملابسها وانطلقت برفقتها أخي حسن إلى السرايا، هناك أوقفها الجنود الذين يحرسون البوابة ومنعوها من الدخول وهي تحاول أن تشرح لهم ما حدث وأنها تريد أن ترى ما حدث مع محمود، وهم لا يفهمون ما تقول ولا يرددون سوى: (روخ من هون).

أمام الموقف المحرج أقنعها حسن بأنهم لن يسمحوا لها بالدخول وأن عليهما الانتظار مقابل الباب على الجهة المقابلة حتى خروج محمود، وبدأ يسحبها سحباً وأجلسها على الجهة المقابلة ومرت الساعات ساعة تلو الأخرى ومحمود لا يخرج وهي تريد الذهاب

مرة، ومرة محاولة الدخول وحسن يمنعها محاولاً إقناعها بأنهم لن يدخلوها وسيبهدلونها، نحن في البيت بقينا في حالة استنفار، وأعلنا حالة الحداد العام، وانتظرنا عودة أمي وحسن ومعهما محمود وطال الانتظار.

مع اقتراب الغروب عادت أمي وحسن يجران أرجلهما جراً والحزن يعلو وجهيهما وأمي في حالة لم أرها في أسوأ منها قط، الحال كان يغني عن السؤال ولم نجرؤ على فتح أفواهنا حتى بكلمة واحدة وارتمى كل واحد في فراشه دون أن يسمع صوت أنفاسه، أما حسن فجلس إلى جوارها وهو يحاول أن يخفف عنها قائلاً: غداً سأذهب إلى محامٍ لنوكله للسؤال عنه ومتابعة موضوعه ونبلغ الصليب الأحمر باعتقاله. وأمي تجيب رجلي على رجلك، فوافقها.

ومن الصباح الباكر انطلقا من جديد ليقوما بالمهمة، أوكلا محامياً وأبلغا الصليب الأحمر، وفهما جيداً أنه ليس أمامهما وأمامنا سوى الانتظار، فقد لا تتضح أي معلومات قبل مرور شهر، ليس هناك سوى الانتظار، والانتظار فقط ولا غير.

مرت الأيام الأولى سوداء ثقيلة وكئيبة، ولكن يبدو أنه أصبحت لنا قدرة على التكيف مع كل مصيبة مهما عظمت، فقط علينا اجتياز ساعاتها وأيامها الأولى ثم يصبح الأمر عادياً مثل كل المصائب السابقة، المهم الآن أن كل مشاريعنا السابقة ألغيت، أو أجلت على أفضل تقدير فعلى حسن أن يستمر في العمل على البسطة، وعلي أنا ومحمد أن نداوم على الذهاب إلى مصنع خالي للنظافة والترتيب، كلما مرت عدة أيام كانت أمي تصطحب حسناً لمراجعة المحامي والصليب الأحمر، بصورة دورية مرة أو مرتين أسبوعياً وبعدما يزيد على الشهر، أخبرنا المحامي أنه سيتم توجيه (لائحة اتهام لمحمود) وسيقدم للمحكمة ولكن يبدو أن الأمر بسيط، وسيتضح خلال أسبوعين أو ثلاثة، وبعد حوالي أسبوعين علمنا أنهم أخرجوا محموداً للمحاكمة، وأن القاضي مدد توقيفه شهرين جديدين، وبعد حوالي أسبوعين آخرين علمنا من الصليب أنه ستكون لمحمود زيارات في سجن غزة المركزي، وأن بإمكاننا أن نزوره مرة كل شهر، يوم الجمعة الأول من كل شهر ابتداءً من الشهر القادم.

حسن كان قد أنهى الثانوية العامة وأمام وضع العائلة الاقتصادي الذي لا يحتمل سفره لمصر أو لغيرها للدراسة رضي بأن يلتحق بالمدرسة الصناعية التابعة لوكالة الغوث وقد قبل فيها في قسم الخراطة والبرادة، وكان عليه الالتحاق بالدارسة في مطلع العام حيث يدرس فيها مدة سنتين يتخرج بعدهما بدبلوم صناعي.

الفصل التاسع

في الأردن خرج الملك حسين بعد انتصار الكرامة قائلاً: كلنا فدائيون، وتدفق الشباب الفلسطيني بالآلاف في كل تجمعات اللاجئين في الدول العربية إلى مكاتب حركة فتح للالتحاق بها بعد مشاعر العزة التي واكبت النصر في الكرامة، وبدأت الثورة الفلسطينية ترسخ قدمها على الأرض في الأردن وغيرها من الدول العربية، وبدأ قادتها وزعمائها خاصة ياسر عرفات يُستقبلون في العواصم العربية استقبالاً كله حفاوة خاصة في القاهرة لدى جمال عبد الناصر الذي اعتبر زعيم الأمة العربية.

كثير من العائلات الفلسطينية مقسمة بين الضفة الغربية ومعسكرات اللاجئين في الأردن أو لبنان أو سوريا ليس فقط العوائل التي هاجرت عام ١٩٤٨ وإنما الكثير من العائلات التي تشتت أثناء الحرب ١٩٦٧، والتي فرت أمام الاحتلال الإسرائيلي وخشية من مجازر وحشية.

إحدى هذه العائلات هي عائلة التاجر أحمد من الخليل، الذي كثيراً ما يجلس عنده زوج خالتي عبد الفتاح يتداولون الأحاديث، والذي تربطه به علاقة تجارية طيبة فأبو أحمد له أربعة أولاد واحد منهم ظل في الخليل معه، والثلاثة الآخرون هاجروا عام ١٩٦٧ أمام الاحتلال الإسرائيلي إلى الأردن واستقروا فيها، اثنان منهم التحقا بصفوف الثورة في الأردن، والثالث يعمل سائقاً على شاحنة هناك. اللذان التحقا بالثورة لم يكن بإمكانهما العودة للخليل مطلقاً حيث هناك خشية حقيقية من اعتقالهما من قبل السلطات المحتلة، أما الثالث أحمد فكان يعود أحياناً لزيارة أهله ويأتي ليجلس عنده والده أحياناً في متجره، فيلتقي زوج خالتي به ويتحدثون هناك عن أوضاع الفلسطينيين في الأردن.

الوضع الفلسطيني في الأردن كان يدعو كل الفلسطينيين للفخر والاعتزاز دون شك ولكن أحمد متخوفٌ من المستقبل فلا شك لديه أن تنامي القوة الفلسطينية في الأردن بدأ يقلق الملك حسين والأخطر من ذلك أن بعض الفدائيين هناك يتصرفون بدون مراعاة لمشاعر الناس وقد يبالغون في تحدي تلك المشاعر، الأمر الذي قد يشكل مبرراً لتفجير صراعات بين الثورة والملك، وقد تحدث أحمد أكثر من مرة معبراً عن تخوفاته هذه، ولكن بعض الحاضرين كانوا يحاولون طمأنة أنفسهم بأن الأمور لا يمكن أن تصل إلى الصدام والتناحر بل إن ذلك مستحيل.

وفجأة جاءت الأخبار عن بدء تلك الصدامات التي عرفت بأحداث أيلول الأسود من عام ١٩٧٠ والتي تطورت إلى معارك حقيقية ملأت أصداؤها المنطقة، وأدت إلى تحركات سياسية على مستوى الزعامات العربية.

أم أحمد كان لها ثلاثة أولاد في الأردن في تلك الاشتباكات الطاحنة ولكل واحد من أولادها الثلاثة زوجة وعدد من الأولاد، وهم هناك في خطر حقيقي فلم تعد أم أحمد قادرة على النوم أو على وضع الطعام في فمها وهي ترتجف هلعاً عليهم. أبو أحمد يحاول تهدئتها وطمأنتها وأن تتوكل على الله فلن يحدث إلا ما قدره الله، ولكنها أم وقلب الأم لا يعرف الطمأنينة في مثل هذه الحالة.

إزاء ذلك اضطر أبو أحمد أن يقرر السفر للأردن ليطمئن على الأولاد وعائلاتهم. فصرخت أم أحمد : وهل ستسافر وحدك؟ فأجابها: نعم، قالت: وما فائدة ذلك؟ فخوفي وهمي يزيد، سأل:وما الحل؟ ما الرأي؟ أجابت: نسافر سوية. حاول أن يثنيها عن عزمها فلم يستطع. جهز التصاريح له ولها وانطلقا مسافرين إلى الأردن وهناك كانت أشبه بحرب حقيقية.

وصولهم إلى منزل سعيد ابنهما السائق اكتنفته مخاطر جسيمة، وبعد وصولهما البيت لم تقر لهما عين فالوضع في غاية الخطر وإطلاق النار لا يتوقف حتى اضطروا إلى إغلاق النوافذ ووضع الخزانات وأثاث البيت عليها، كيلا تدخل الطلقات فتصيب من في البيت، فكانوا يضطرون للسير وهم منحنون طيلة الوقت، فإذا رفع أحدهم رأسه وسار معتدلاً صرخ عليه الجميع: لا ترفع لئلا تصيبك إحدى الرصاصات الطائشة، وأبو أحمد يتمتم بين الحين والآخر هذا من تحت رأسك لقد كنا هناك في أمان، فتردد أم أحمد هنا بين أولادي وعيالهم رغم الخطر أهون علي من الانتظار هناك بألف مرة، فيتمتم: طيب طيب والله يتمم على خير... يا ساتر يا ساتر.

انتهت أحداث أيلول وجرش وعجلون ورحلت الثورة إلى لبنان، وما إن بدأت الأمور بالهدوء حتى عاد أبو أحمد وزوجته إلى الخليل، وعاد أبو أحمد إلى متجره يحدث بما شاهد بأم عينه من ويلات ورعب حقيقي ويحمد الله على سلامته، فيهنئه الحضور بالسلامة فيحمد الله مرة أخرى على سلامته وسلامة أم أحمد والأولاد وعيالهم.

لم تمر فترة طويلة حتى أعلنت الإذاعات عن موت جمال عبد الناصر الذي نزل نزول الصاعقة على رؤوس الجماهير الفلسطينية التي رأت فيه بغالبيتها زعيم الأمة العربية وأملها، فانطلقت المظاهرات عارمة في كل أنحاء الوطن في مخيماته ومدنه وقراه.

في مخيم الشاطئ تعطلت الدراسة عدة أيام أعلنت الإضراب عن الطعام فلم تفتح المحلات التجارية وطافت المظاهرات وعلى رأسها عدد من المدرسين والمثقفين في المخيم وهم يهتفون للوحدة العربية ويرددون مناقب ومآثر الرئيس الراحل ويرفعون صوره واللافتات التي تحمل شعارات القومية العربية والترحم على عبد الناصر.

انضم إلى هذه المظاهرات كل من في المخيم أو غالبيتهم العظمى، وكان الرجال يبكون والنساء ينتحبن وعويلهن يعلو، والمظاهرة في قمة انفعالها، انطلقت خارج المخيم إلى الطرق الرئيسية في المدينة متجهة نحو مركز المدينة، وشارع عمر المختار. وقد التحقنا بها كطلاب المدارس صغاراً وكباراً أولاداً وبنات والجميع يهتفون: تعيش الوحدة العربية... فلسطين عربية بالروح بالدم نفديك يا جمال، في أول اتصال للمظاهرة بشارع عمر المختار الشارع الرئيسي في مدينة غزة كان في انتظارها قوات كبيرة من جيش الاحتلال، حيث بدأوا بإطلاق النار على رؤوس المتظاهرين لإلقاء الرعب في نفوسهم، وإجبارهم على التفرق، وعدم مواصلة طريقهم فبدأ المتظاهرون برشقهم بالحجارة فبدأ إطلاق النار على الأرجل فتساقط الجرحى الذين نقلوا إلى مستشفى دار الشفاء وإلى عيادة الوكالة التي كانت تقدم العلاج في هذه الفترة من الزمن منذ احتلال ١٩٦٧.

كانت قوات الاحتلال وأجهزتها قد اتخذت جملة من الإجراءات التي من شأنها ضبط المناطق ووقف حركة المقاومة و العمل على خنقها، حيث بدأت بعملية إحصاء للمواطنين وإعطاء بطاقات هوية شخصية للبالغين والبالغات، وسجلت فيها الأبناء وفرضت تسجيل المواليد وفتحت لذلك دائرة الجوازات والتصاريح التي تشرف على هذه المجالات وغيرها من متابعة الشؤون المدنية للمواطنين والسكان.

وبدأت تفتح خطوط اتصال وتفاهم مع المخاتير ووجهاء المناطق حيث يستدعيهم الحاكم العسكري للمنطقة بين الحين والآخر ليناقش معهم أمور الحياة للناس وليوصل من خلالهم ما يريد للناس، فترى عدداً من هؤلاء المخاتير أو الوجهاء يتوجهون إلى مقر الحاكم العسكري في المدينة، يلبسون العباءات ويبرمون الشوارب، يدخلونهم لغرفة الحاكم العسكري الذي يتعامل معهم في العادة باحترام إلا إذا كانت هناك مظاهرات أو عمليات أو ما شابه فإنه يكون غاضباً ويبدأ بالصراخ عليهم وهم خانسون، وإذا نطق أحدهم بدأ بيا سيادة الحاكم ويا حضرة الحاكم وما شابه.

هؤلاء المخاتير ظلوا يحملون أختام المخترة والتي كانت للمواطنين والسكان عند إقدامهم على إجراء أي من المعاملات فلو أراد أحدهم السفر للخارج أو أراد تصريحاً لفتح مشروع أو للبناء أو لأي معاملة رسمية فلا بد من التوجه إلى مختار بلدته، الذي يضع ختمه على تلك الورقة وفي العادة يأخذ بعض القروش مقابل ذلك.

دوريات الاحتلال كانت تجوب المناطق تحمل الخرائط العسكرية وتسير وفقاً لها لتتعرف على خفايا المناطق وتفاصيلها الدقيقة على مدار الساعة ليلاً نهاراً، راجلين وراكبين في السهول والوديان والجبال، في المدن والقرى والمخيمات، فتجد العشرات من الجنود يسيرون في صفين أو ثلاثة صفوف أو أربعة، بين كل واحد منهم والآخر عدة أمتار يشهرون بنادقهم ويتلفتون يمنة ويسرة، ومن في آخر الصفوف يستديرون بين الحين والآخر في حركة دوران كاملة، كي يكتشفوا إذا كان خلفهم من سيهاجمهم.

يسيرون ثم يتوقفون من حين لآخر ينظر الضابط في الخريطة التي بيده ثم يسير في الاتجاه المحدد، وكثيراً ما يوقفون أحد المارة من الشباب أو الرجال يطلبون بطاقة هويته الشخصية للتعرف عليه، وقد ينظر الضابط في ورقة يخرجها من جيبه تحمل عدداً من الأسماء وأرقام الهويات لعدد من المطلوبين للاعتقال والتحقيق، وفي كل يوم أو عدة أيام تجد عدداً كبيراً من سيارات الجيب العسكرية كبيرة أو صغيرة تتقدمها سيارة مدنية عارية (تحمل شارة ترخيص صفراء) تتقدم تلك السيارات عشرات الجيبات تسير في أحد الاتجاهات فيكون معروفاً للجميع أنها في طريقها لمداهمة أحد البيوت أو إحدى البيارات أو الأماكن لاعتقال أحد المطلوبين من الفدائيين أو ممن يساعدونهم. وأحياناً تجدها في طريق العودة حيث اعتقل ذلك الشخص وربطت يداه حول ماسورة مقعد الجيب، ووضع على رأسه كيس القماش السميك ذي اللون الجيشي، أحياناً نعرف ذلك الشخص من ملابسه وأحياناً لا نعرفه ويكون حينها في طريقه للتحقيق.

رغم تلك الممارسات فقد استمرت عمليات المقاومة، فكلما مرت عدة أيام نسمع أن قنبلة قد ألقيت على إحدى الدوريات فأصابت وجرحت عدداً من الجنود. أو أن أحد الفدائيين قد أطلق النار من بندقية الكارلوستاف على سيارة دورية عسكرية أو على جنود دورية راجلة فأصاب أو قتل منهم ولكن الكثير من تلك المظاهر الواضحة أو شبه الواضحة للفدائيين المسلحين علانية أو من يظهر سلاحهم من تحت ملابسهم أو يحملونه في أكياس الخيش ويمرون به أمام السكان فيكون معروفاً بصورة أكيدة أنه سلاح.

كل هذه المظاهر بدأت في الاختفاء تدريجياً وبدأت حركة الفدائيين تصبح أكثر سرية شيئاً فشيئاً، في هذه السنين من مطلع السبعينات ظهرت الوحدة (١٠١) التي شكلها الجنرال "أريل شارون" والتي وقف على رأسها الرائد "مائير داجن" والتي اشتهرت بلبس القبعات الحمراء وعرفت شعبياً باسم (الطواقي الحمر) والتي اعتبرت وحدة خاصة دربت تدريبات خاصة جداً، هذه الوحدة كانت تقتحم الأزقة داخل المخيمات وفي البيارات بين أشجار الحمضيات وتطلق النار على كل من يتحرك للاشتباه فيه، وتهاجم الناس وتضرب وتعتدي وتفتك دون أي ضوابط أو قوانين وقد كان لها دور بارز في محاربة المقاومة وتصفية الكثير من قياداتها وعناصرها.

كانت القوة من هذه الوحدة تتكون من حوالي عشرة جنود حتى عشرين يلبسون الزي العسكري الرسمي، كلهم شبان في مقتبل العمر يحملون أسلحة جديدة مدربين أحسن تدريب يضعون على رؤوسهم القبعات القماشية الحمراء، معهم عصي خشبية قصيرة يحمل أكثر من واحد منهم جهاز لاسلكي كبير على ظهره، يرتفع منه الهوائي عالياً يسمع صوت الاتصال من موقع القيادة والتوجيه بصورة دائمة.

ذات يوم طاردت واحدة من هذه الوحدات أحد الفدائيين بعد أن شُخص بصورة ما لظهور القنبلة التي كانت في يده وأطلق ساقيه للريح جرياً في أزقة المخيم للاختفاء، فانطلقوا وراءه يطلقون النار ويجرون في المخيم والجندي الذي يحمل جهاز اللاسلكي بدأ يتصل بمقر القيادة وقد تمكنوا من تشخيص المنطقة التي اختفى فيها ذلك الشاب، فحاصروه وخلال وقت قصير حضرت قوات تعزيز كبيرة جداً حيث أحاطوا بالمنطقة إحاطة السوار للمعصم، ونودي على الناس لمطالبتهم بالخروج من البيوت جميعاً رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، وأجلسوا على جانب الطريق، وبدأت عملية تحقيق معهم واحداً واحداً من رجال المخابرات. ودخل الجنود إلى بيوت المنطقة يقلبون كل ما فيها بحثاً عن ذلك الشاب أو عن ملجأ أو مخبأ اختفى فيه ويبدو أنهم بطريقة ما استدلوا على البيت الذي اختفى فيه ذلك الشاب.

فبدا الضابط ورجال المخابرات يدخلون ويخرجون ويتشاورون وقلبوا كل ما في البيت رأساً على عقب في نهاية الأمر استدلوا على مدخل الملجأ الذي اختفى فيه ذلك الشاب فبدأوا عبر مكبرات الصوت ينادون عليه للخروج، فلم يخرج أحد.

اقتربوا من مدخل الملجأ فأطلقت عليهم النار فانسحبوا، ثم تسلل عدد من جنود تلك الوحدة حيث لغموا المكان بالمتفجرات وانسحبوا ثم فجروه. هز صوت الانفجار المخيم كله ثم احضروا إحدى الجرافات التي هدمت البيت وبدأ الحفر لكشف الملجأ وما فيه، وبعد حين أخرجت جثث أربعة من الفدائيين، كانوا قد اختفوا في ذلك الملجأ.

مع مرور الوقت تقلص وجود قوات التحرير الشعبية وأصبحت الغالبية من رجال المقاومة تابعين لحركة فتح، وفي بعض المناطق كانت الغالبية من الجبهة الشعبية والاعتقالات في أوساط الرجال والشباب كانت لا تتوقف في كل يوم اعتقالات للعشرات خاصة بعد تنفيذ إحدى العمليات الفدائية، ودوماً هناك من يتم الإفراج عنهم ففي نفس الوقت ترى هذه المرأة تتقرح عيونها من البكاء خوفاً على زوجها أو ابنها الذي اعتقلوه الليلة، ولا تدري ما تفعل، وتجد تلك تطلق الزغاريد بعودة زوجها أو ابنها من معتقله بعد أيام أو أشهر أو سنوات من الغياب في ظلمة أقبية التحقيق وزنازينه.

بدأ الاعتقال في مدينة الخليل منذ الأيام الأولى للاحتلال، حيث جاء كبار القادة الإسرائيليين إلى بيت رئيس بلديتها وكبير وجهائها الشيخ محمد علي الجعبري وأعربوا لهم عن احترامهم وتقديرهم الخاص له وسألوه عن طلباته منهم، فطلب منهم أن يتجنب جنودهم الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم فأكدوا له أن ذلك سيكون، وقد لوحظ درجة معقولة من التزام جنودهم بذلك.

لكن في الأيام التالية تمت مصادرة مساحات واسعة من الأراضي، غالبيتها من أراضي عائلة الجعبري بالإضافة لأراضي عائلات أخرى، وبدأت عليها عملية إنشاء مستوطنة كريات أربع وتوقف بناءً على ذلك إكمال البناء في مسجد خالد بن الوليد المحاذي لتلك الأراضي المصادرة، كما تم الاستيلاء على مدرسة أسامة بن منقذ، وكراج السيارات القديم في وسط المدينة، وعلى مبنى الدبوية، حيث أنشئت فيها نقاط تجمع وتمركز والتي تحولت مع الوقت إلى نقاط تجمع وتمركز عسكرية، والتي تحولت مع الوقت إلى نقاط ومراكز استيطان وانطلاق لحركة المستوطنين إلى الحرم الابراهيمي الشريف الذي كان اليهود لا يزالون يعتبرونه مكاناً مقدساً وتابعاً لهم ويطمعون في السيطرة عليه وطرد المسلمين منه.

هذا العدو بدأ يشهر تحركات عسكرية مكثفة تدرجاً مع مرور الوقت ولكن طيلة الوقت حرص على عدم الصدام مع الأهالي وعلى تطور علاقاتهم بهم وتوطيدها وعلى الحفاظ على علاقات جيدة ما أمكن، أو كحد أدنى على علاقات غير عدائية ولأن بعضهم قد ساءته بعض الاحتكاكات بين الصبية العرب واليهود فكان كبار المستوطنين مثل

الحاخام "ليفنجر" وغيره يأتون لوجهاء المنطقة للصلح بالضبط وفقاً للعادات العربية مؤكدين حرصهم على حسن الجوار واستمرار علاقات الأخوة والجيرة الحسنة، فيأخذون (العطوة) ويقدرون التعويض ويدفعون الدّية إن لزم، المهم أن يظل العرب على حال من المهادنة والمسالمة.

بعض مناطق الاحتكاك التي ظلت تحافظ على شيء من سخونة المقاومة في المنطقة كانت في المخيمات القريبة حيث يقع مخيما الدهيشة والعروب على الطريق الرئيسي بين القدس وبيت لحم وأثناء تحرك الجنود أو الحكام والموظفين العسكريين أو المستوطنين والسياح على هذه الطريق، كانوا يتعرضون لبعض العمليات الفدائية من هذه المخيمات، فتقلب الدنيا على رؤوس ساكنيها حيث يفرض منع التجول ويحتجز الرجال، ويُضربون، ويُعتقلون لفترات.

ظلت تلك النظرة الفوقية التي امتاز بها أهل المدن خاصة أهل مدينة الخليل على سكان المخيمات حيث إن النظرة إلى المهاجر أو اللاجئين ظلت كما هي طيلة هذه السنوات رغم أمور الاحتلال الذي طرد هؤلاء من قراهم ومدنهم هو نفس الاحتلال الذي يجثم الآن على صدور الجميع من المهاجرين اللاجئين في مخيماتهم أو المواطنين في مدنهم كما أن النظرة الفوقية قد استمرت تجاه أهل القرى المحيطة كما هو الحال في شتى مناطق الوطن، حيث ينظر ابن المدينة لابن القرية نظرة استعلاء. ويتعامل معه بالكثير من الفوقية إلا في بعض الحالات النادرة.

أبناء القرى ونساؤهم يزرعون ويجنون ويحصدون ويربون المواشي ويصنعون الجبن واللبن، ويستخرجون السمن وينزلون للمدينة ويبيعون ما يحملون من سلال التين والعنب وشتى الفواكه، أو (طباخات) اللبن الرائب أو السمن في أسواق المدينة بأقل وأزهد الأثمان ثم يشترون احتياجاتهم من الملابس أو الأحذية أو الصابون وغيرها من المدينة بأعلى الأسعار، ويعودون لقراهم ببعض القروش سعداء راضين والدنيا كلها لا تسعهم.

تجد الصبي و المرأة يحمل أو تحمل سلة التين أو سلة البيض، ينتظر قدوم الباص في قلب القرية منذ ساعات الصباح الباكر يستعدون، هذا يحتضن سلته وتلك تحتضن جرة الفخار التي تمتلئ باللبن أو السمن فينطلق بهم (الباص) في تلك الطرق الترابية غير المرصوفة مسافة طويلة، حتى يجد طريقه المرصوفة فينزلون في سوق المدينة، يتلقف منهم التجار ما جلبوا معهم وتراهم ينطلقون في السوق يستعرضون بضائع المدينة ويشترون ما يطيب لهم ثم يعودون لانتظار (الباص) لنقلهم للعودة لقراهم، وقد يضطر أحدهم بعد عودته إلى موقف الباص في القرية على قطع مسافات طويلة إلى داره وإن

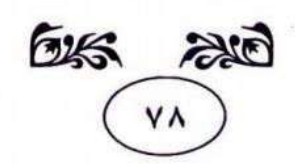
كان حمله ثقيلاً، فإنه ينتظر الساعات الطويلة حتى مرور أحد أقاربه أو معارفه ليساعده أو يساعدها في تحميله ذلك الكيس على ظهره أو على رأسها أو على ظهر حماره وهم راضون سعداء.

مع فتح باب العمل للعمال الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، بدأ هؤلاء العمال يعرفون الكثير الكثير عن تفاصيل المجتمع اليهودي وعاداته وتقاليده ودينه. يوم الجمعة بعد الظهر يدخل السبت عند اليهود إلى ما بعد غروب الشمس بعض الوقت، لكن الكثيرين منهم لا يلتزمون بذلك في شؤونهم الخاصة وداخل بيوتهم، ولكن المؤسسات الرسمية تتعطل ولا يتم إشعال أو إطفاء النار والأنوار أو أي شيء كهربائي، ذلك يكون جاداً وقاطعاً يوم عيدهم المسمى بعيد يوم الغفران. قبيل عيد يوم الغفران من عام ١٩٧٣ والذي كان يوافق السادس من أكتوبر عاد العمال من الداخل ليعطلوا هم الآخرون حيث تكون المصانع والمصالح والمؤسسات مغلقة.

ويبدأ هؤلاء العمال يتحلقون أمام بيوتهم ويتحدثون ويتمازحون ويشربون الشاي ويتحدثون عن أعمالهم ومشاكلهم وشؤون حياتهم، وهذا هو حال عدد من العمال في حارتنا فبينما كانوا يجلسون على تلك الحال في يوم السادس من أكتوبر/تشرين الأول ويتحدثون ويتمازحون وإذا بأحد الجيران يخرج مسرعاً من بيته وهو يحمل المذياع صارخاً: ولعت الحرب بين العرب وإسرائيل، انتفض الجميع قائلين: لا ماذا تقول؟ الحرب؟ بين العرب وإسرائيل؟ أي عرب؟ فصرخ عليهم مشيراً إلى المذياع: أنصتوا واستمعوا للمذياع.

كان صوت المذيع المصري يدوي كالرعد قارئاً البيان العسكري الأول الصادر عن قيادة القوات المسلحة لجمهورية مصر العربية معلناً بدء الهجوم المصري على سيناء وشواطئ قناة السويس وبدء السيطرة على خط بارليف، فرك العديد عيونهم ونظروا حولهم هل صحيح ما يسمعون!! ثم بدأ الصراخ وتعبيرات السعادة والفرح مع تتالي البيانات العسكرية التي أكدت دخول سوريا الحرب وإعلانات التقدم في المعارك لصالح العرب، وإسقاط أعداد كبيرة من الطائرات الإسرائيلية من المضادات المصرية والسورية، وتدمير أعداد خيالية من الدبابات.

وبدأت الأحلام بالنصر والعودة تداعب خيال كل واحد من أهالي المخيم لا يقطعها إلا صوت مكبرات صوت الاحتلال تعلن منع التجول والتزام البيوت حتى إشعار آخر فالتزم الناس بيوتهم، وهم يحلمون أن هذه آخر مرة يمنع عليهم التجول، فكلها أيام وتصل جيوش العرب المحررة، والتفت كل عائلة حول المذياع، وقد التففنا نحن كذلك حول المذياع.



الفصل العاشر

في اليوم التالي لقدوم أخي محمود إلى غزة من دراسته في مصر، كان طالب آخر من العائدين من مصر للإجازة الصيفية في القطاع قد ضبطت معه أثناء التفتيش رسالة وفيها قائمة أسماء لمجموعة من الشبان الفلسطينيين الذين تم تنظيمهم في مصر لحركة فتح، ليبدأوا في تنظيم العمل الفدائي في قطاع غزة وفي هذه القائمة كان اسم محمود، وبناء عليه تم اعتقاله والتحقيق معه.

قسم التحقيق في سجن غزة كان يسمى (المسلخ) لما يمارس فيه من تعذيب وقهر وسلخ لمن يدخلونه، وهو عبارة عن مبنى فيه ممر يتوسط المكان، عرضه حوالي أربعة أمتار وطوله عشرون متراً... على جانبيه تفتح أبواب غرف مختلفة الحجم يتم فيها التحقيق. في هذا الممر الطويل يتم إجلاس المعتقلين على الأرض أو إيقافهم ووجوههم إلى الجدار وقد غطيت رؤوسهم بأكياس من القماش السميك حتى الأكتاف، وربطت أيديهم خلف ظهورهم.

الجنود يدورون بينهم يضربون ويركلون ويصفعون دون انقطاع، وإذا شعر الجنود بأنه قد سَها أو غفا للحظة سكبوا عليه الماء البارد...، يتم بين الحين والآخر جر(سحب) أحد المعتقلين إلى واحدة من الغرف الجانبية حيث يرفع الكيس عن رأسه ليجد أمامه مجموعة من المحققين الذين يتحدثون اللغة العربية بصورة تشوبُها اللكنة العبرية يوجهون له آلاف الأسئلة وخلالها الركل والضرب والصفع دون انقطاع.

أحد المحققين يلعب دور الصديق الحريص على المعتقل، فيخلصه من بين أيدي العنيفين المعتدين الذين أوسعوه ضرباً وصفعاً وهو يقول: اتركوه أنا سأتحدث معه. أنا أعرف أن الضرب لا يفيد، وأعرف أنه يريد الاعتراف، وهم يتظاهرون بمحاولة الهجوم عليه وهو يدفعهم لخارج الغرفة فيخرجون. فيبدأ بالحديث معه بالكلام المعسول محاولاً إقناعه بالاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار وكل شيء معروف وأنهم سوف ينقضون عليه وينهكونه ضرباً وتعذيباً حتى يعترف، فما لزوم ذلك وهكذا من الكلام الرقيق الناعم وقد يقدم له سيجارة يشعلها أو يحضر له كأساً من الشاي، فإن نجح في انتزاع اعترافه طلب منه كتابته، وإن فشل عادوا ليكملوا مهمتهم بالقوة... .

يُلقى المعتقل على ظهره ويداه مكبلتان بالقيود الحديدية وراء ظهره، وعلى وجهه ورأسه كيس قماش، ويجلس واحد منهم على صدره ليخنقه ويصب الماء علـى الكـيس، وآخر يقف على بطنه وثالث يضع الكرسي بين رجليه ليبعدهما عن بعضـهما الـبعض ويجلس على الكرسي، بينما رابع يضغط على خصيتيه، وآخران يمسك كل واحد منهمـا أحد قدميه.

وهكذا على شكل جولات كلما انتهت جولة يفصلها عن الجولة الثانية ثوان معدودة ويُلقى على طاولة طويلة بنفس الصورة، وتمارس معه نفس الأساليب، وقد يتم ربط يديه بالقيود الحديدية وراء ظهره. ثم تربط يداه في حلقه أو ماسورة مثبتة في الجـدار عاليـة حيث يصبح شبه معلق تكاد أطراف أصابعه تلامس الأرض، ورأسه مغطـى بكـيس أو بأكثر من كيس، أثناء ذلك يتعرض للكمات في بطنه وللركلات في كل أنحـاء جسـمه، ويسكب الماء البارد عليه، وأحياناً تشغل عليه المروحة الكهربائية، فيبدأ المعتقل يرتجـف برداً وقد شعر بجسمه يتجمد.

لكل تلك الأساليب وغيرها تعرض محمود أثناء التحقيق معه في (مسلخ) سـجن غزة حتى نحل عوده وهزل قوامه ولم يعد يعرف أنه هو. هكذا على مدار أربعين يومـاً قلما رأى فيها النوم أو ذاق فيها الطعام أو لامس فيها الماء جسده. وفي اللحظـات التـي يريدون فيها أن يريحوه قليلاً خشية الموت أنزلوه على إحدى الزنـازين وهـي غرفـة صغيرة لا يزيد عرضها عن متر ونصف وطولها عن مترين ونصف ليجد نفسه فيها مع خمسة أو ستة معتقلين قد أنهكهم التحقيق وقلة النوم فيرتمون الواحد منهم علـى الآخـر ويغرقون في نوم مخيف لا يستيقظون منه إلا على أيدي السجانين. يسحبونهم من جديـد إلى المحققين.

بعد أسابيع من إنكار محمود لأي علاقة له بالتنظيمات وبفتح أو غيرها واجهـوه بأنهم ضبطوا قائمة باسمه وأسماء آخرين مع طالب جاء بعده من مصر وأنهـم نظمـوا هناك، ومطلوب منهم تنظيم العمل في القطاع. أصر محمود على إنكاره وأكـد أن هـذا مجرد توريط من أناس غير صادقين فعادوا إلى أساليبهم القديمة من الضرب والتعـذيب والشبح، وقد أدرك محمود أنهم لن يتركوه.

اعترف أن شخصاً نظمه لفتح في مصر، وقال إنهم سوف يتصلون به عند عودته إلى غزة وهذا كل ما كان، ظن محمود أن الأمر سيتوقف عند ذلك. وإذا بالتحقيق يبدأ من جديد.

هل تدربت على أي سلاح؟ ما هي المهمات التي طلب منك تنفيذها؟ مـن تـنظم معك؟ هل نظمت آخرين؟ ومن هم؟ آلاف الأسئلة الأخرى، وأمام إنكاره لأي شيء مـن ذلك بدأ التحقيق معه من جديد وبصورة أشد وأقسى. أدرك محمود حينها أنه أخطأ حـين اعترف اعترافه الأول وأنه كان سيستمر بنفس العذاب على كل الأحوال، فعليه أن يصر عليه، دون أن يورط نفسه في فترات أطول في السجن، وهكذا اسـتمروا فـي تعذيبـه وتعذيب الآخرين من المعتقلين في قسم التحقيق حيث لا تسمع إلا صراخ المعتقلين وسباب وشتائم المحققين على مدار اليوم والليلة.

بعد حوالي أربعين يوماً أدركوا أنهم لن يأخذوا منه شيئاً إضافياً، فـأنزلوه إلـى الزنازين وبعد أسابيع تم نقله إلى داخل السجن العادي، دخل إحدى الغرف في أحد أقسام السجن، بعد أن سلموه بعض الملابس والبطانيات وصحنين من البلاستيك وملعقة، هنـاك وجد في الغرفة ما يقارب العشرين من الأسرى. عرف بعضهم من أبناء المخيم، هنـاك استقبله إخوانه بالترحاب والمواساة جلسوا كل واحد يعرف على نفسه، اسـمه ومنطقتـه وتهمته وغير ذلك.

القضية التي كانت تؤرق محموداً وتقلقه هو رؤية أمي ورؤيتنا وطمأنتنا عليه أنه لا زال حياً، وأنه بخير, إنه لن يحكم لفترة طويلة جداً، كما يحدث مـع الكثيـرين ممـن يعتقلون، فيدخلون السجن ولا يخرجون منه، فتساءل منذ اللحظات الأولى عن زيـارات الأهل، فأخبره الشباب أنها لمنطقة مدينة غزة تكون يوم الجمعة الأول من كـل شـهر، تساءل عن تاريخ اليوم فعلم أن عليه الانتظار أسبوعين آخرين.

سألت أمي بعض الجيران ممن لهم أبناء معتقلون خاصة جارتنا أم العبـد، هـل يمكننا أخذ الأغراض، مأكولات وملابس للسجن وهل يسمحون لنـا بإدخالهـا؟ فأجيبـت بالنفي، سمعت عن عدد الأشخاص المسموح لهم بالزيارة وعرفت أنه مسموح لثلاثة كبار أو لكبيرين وصغير، وتلك الليلة التي سبقت الزيارة تناقشنا كثيراً حول من الذين سيذهبون مع أمي لزيارة محمود وكل واحد منا يريد أن يكون هو.

أمي في نهاية الأمر قسمت ذلك باختيار أختي فاطمة وأنا ومريم. حسن غضـب وقام مبدياً الاستياء وعدم الرضا، ولكن أمي أوضحت له أنها تخشى عليه من الاحتكـاك بالجنود والسجانين وأنها أول زيارة نذهب نحن نتفحص الوضع ثم نقرر، فوافـق علـى مضض.

يوم الجمعة صباحاً ومع بزوغ الشمس كنا نقف عند باب الزيارات الجانبي لمبنى السرايا الذي يقبع فيه سجن غزة المركزي. ومع وصولنا المبكر وجدنا مئات العـائلات بالانتظار. إلى جوار الجدار كان هناك حاجز من المواسير الحديدية لتنظـيم الطـابور، جلسنا جميعاً في مساحة مخصصة للانتظار. فتحت طاقة في الباب وأطـل منهـا أحـد السجانين ثم فتح الباب وخرج بيده سجل، وبدأ بمناداة الأسماء.

وكلما نادى اسم أحد السجناء، وقف أهله قائلين: نعم وتوجهوا نحو بداية الحاجز الحديدي ليصطفوا في انتظار دخولهم للمبنى، وكلما نادى ثلاثين اسماً واصطف أصحابها انسحب داخلاً وبدأوا بإدخال الناس للتفتيش بعد فصل الرجال عن النساء ثم يجتمعون بعد التفتيش ويدخلونهم للزيارة.

انتظرنا وانتظرنا على أحر من الجمر حتى نودي اسم أخي محمود فـي الفـوج الخامس قلنا نعم ووقفنا في الطابور حتى اكتمل الفوج. ثم بدأوا بإدخالنا، لم يكـن معنـا رجال بالغون فذهبنا جميعاً إلى جهاز تفتيش النساء، حيث قامت مجندات بتفتـيش أمـي وأخواتي وتفتيشي، ثم أدخلنا إلى ساحة انتظرنا فيها حتى اكتمال عملية تفتيش الآخرين.

رأينا الفوج الذي دخل قبلنا يخرج من الزيارة، ثم أدخلنا عبر ممرات طويلة، قليلة الإضاءة حتى وصلنا إلى قسم الزيارة، جدار إسمنتي فيه فتحات مغطاة بالشبك الحديـدي من جانبي الجدار تفصلنا عن المعتقلين. دخل الصغار أولاً جرياً والكبار يمشون رويـداً فجريت مع الصغار وبدأنا كل يبحث عن والده أو أخيه، وجدت أخي محموداً يجلس وراء أحد الشبابيك فصرخت: (ياما هي محمود ياما هي محمود!) كان الصراخ قد ارتفع ولـم تسمعني أمي ولكنها رأتني أقف أمام الشباك فتقدمت هي وأختاي فاطمة ومريم وكانت أمي قد وصلت مع أختيَّ الاثنتين.

انهالت أمي بآلاف الأسئلة على محمود،عن حالته صحته وهل ضـربوه؟ وهـل أطعموه؟ كيف جسمه؟ هل شلوا قدميه أو يديه؟ أسئلة لا نهائية متلاحقـة دون أن تنتظـر الإجابات!! ودموعها تتدفق ومحمود يحاول تهدئتها مشيراً بيديه قائلاً: خيراً يا أمي خيراً، فأنا بخير وها أنا ذا أمامك بدني بخير ورجلي بخير وكلي بخير، كيف حالك أنت وكيـف إخوتي؟ كيف حالك يا فاطمة (كيفك يا مريومة) تمتمت فاطمة وهي تمسح دموعها: بخير يا أخي بخير، ومريم ردت الحمد لله.

بدأت أمي تسأله عن قضيته وعن المحكمة؟ وقد أجابها إنها بسيطة ولــن يزيــد الحكم إن شاء الله عن سنة أو سنة ونصف، فشهقت أمي حتى كادت روحها تنخلع من بين جنبيها قائلة: سنة أو سنة ونصف يا ويلي، فبدأ محمود يُهدئ من روعها ويحاول طمأنتها وقد أخبرته أنها عينت له محامياً. بدأ السجانون الذين يقفون خلفنا وخلفهم مــن الجانــب الآخر يصفقون ويصرخون: (الزيارة خلص الزيارة خلص) تمكنا من تبادل التحيات مرة أخرى، والتقف السجانون محموداً وغيره من الأسرى وسحبوهم خلف الباب وبدءوا بدفعنا نحن الأهالي للخارج.

وما نالني من هذه الزيارة أنني رأيت محمود، سألني عن حالي، وسألته عن حاله وحين قال لأمي مع السلامة تذكرني وقال: مع السلامة يا أحمد، وكل الوقت كانت أسئلة من أمي وطمأنة من محمود وحديث عن القضية وعن الحكم والمهم أننا منذ هذه الزيــارة قد شعرنا أن أوضاع أمي النفسية قد استقرت وبدأت تعود إلى شيء من طبيعتها.

كان محمود قد نزل في قسم (ب) في سجن غزة، والقسم عبارة عن ثماني غرف أبوابها تفتح على ممر طويل بعرض ثلاثة أمتار، وتتراوح مساحة الغرفة بين خمسة عشر متراً مربعاً وخمسة وعشرين، لها عدة شبابيك صغيرة وبابها من القضبان الحديدية، فــي إحدى زواياها مرحاض، يدخل في كل غرفة ما لا يقل عن عشرين سجيناً يفرشون على الأرض البطانيات وينامون عليها متراصين على جنوبهم، حيث لا تسع لأن ينام الواحــد منهم على ظهره، وهو لا يتمكن من التقلب، إلا إذا نهض واقفاً من نومه وأدار نفسه لينام على الجنب الآخر، وإن ترك أحدهم مكانه لضرورة الذهاب إلى دورة (الميــاه) يضــطر لتخطي النيام، وحين يعود يجد أن مكانه قد ضاع حيث تزحزح إليه النائمون.

عند الساعة السادسة صباحاً يتم الإعلان في مكبرات الصوت أن العدّ سيدخل بعد قليل فيتم إضاءة الأنوار ويبدأ السجانون بالدق على الأبواب لإيقاظ الأسرى، حيث يجــب أن يستيقظ كل واحد منهم ويطوي أغراضه ويرتبها ويجلس في انتظار العدّ، وإذا تــأخر أحدهم ولم ينتبه له زملاؤه لإيقاظه، فتح السجانون الباب، ودخلوا يركلونه بأقدامهم بكــل قسوة وفظاظة.

يأتي عدد كبير من السجانين على رأسهم أحد الضباط يعدون الأسرى حيث يجب أن يقف الأسرى في طابورين، السجانون يحملون الهراوات ويلبسون الخــوذ، وأحــدهم يحمل مدفعاً للغاز المدمع ويعدون الأسرى غرفة تلو غرفة، ثم يخرجــون لعــد الأقســام الأخرى.

وفي النهاية تعلن مكبرات الصوت عن انتهاء العدّ حيث يحضرون طعام الإفطار وهو في العادة شريحتان أو ثلاث من الخبز، وقليل من الزبدة وقليل من المربى، وأحياناً يكون معها نصف بيضة مسلوقة، وكأس من شيء يشبه الشاي في الطعم والرائحة، يتناول الأسرى طعامهم بعد أن يكونوا قد دخلوا لدورة المياه واحداً تلو الآخر، وربما كان أحدهم مضطراً للدورة وبدا الألم يعتصر أمعاءه وهو يتلوى ويمسك بطنه ويلح على صاحبه بالخروج؛ لأن حالته تتدهور.

يأتي السجانون إلى الغرف واحدة تلو الأخرى ليخرجوا من فيها غرفتين غرفتين إلى ساحة (الفورة) وهي مساحة محاطة بجدران عالية سقفها مغطى بالأسلاك الشائكة ومساحتها حوالي مائة وعشرون متراً مربعاً، يخرج الأسرى كل واحد منهم يضع يديه خلف ظهره ويطأطئ رأسه واحدا تلو الآخر إلى الساحة، هناك يقف السجانون بالعصي وسط الساحة ويبدأ الأسرى يدورون في الساحة على شكل حلقة، ومن فتح فمه وتحدث مع زميله أو تأخر أو تقدم نال نصيبه من الضرب بالهراوات والركل والصفع. يدورون في هذه الصورة ساعة أو أقل ثم إلى غرفهم، يجب أن يجلس كل واحد منهم على بطانيته المطوية، ويمنع عليهم الجلوس في حلقات أو على شكل تجمعات تتحدث أو تتدارس، فإذا جلسوا كذلك اقتحم السجانون عليهم الغرفة وأوسعوهم ضرباً وربما أخذوا بعضهم لزنازين العقوبات التي تسمى (السنوكات).

يعلن عن عدّ الظهر وبعد العد يأتي طعام الغداء بضع شرائح من الخبز ومرقة خضراوات، يكون فيه أحياناً شيء من الخضراوات مثل الجزر وأحياناً يكون مجرد ماء ساخن فيه طعم الملح. أحياناً تأتي البطاطس المهروسة أو الرز أو شرائح الباذنجان، تصيب الواحد من أي منها لا يكاد يلمس، فيتناول الأسرى غداءهم، يقوم بعضهم بغسل الآنية ويجلس الآخرون يرتكز بعضهم على الجدار يداعب النعاس من شدة الفراغ والسأم جفنيه، فإن رآه أحد السجانين الذين يروحون ويجيئون في الممر أمام أبواب الغرف صرخ عليه كيلا ينام، فالنوم مسموح فقط بالليل.

تمر الساعات ثقيلة حتى يأتي طعام العشاء، الذي لا يكاد يرى في الطبق. قبيل الساعة الخامسة يتناول الأسرى الطعام ثم يجلسون في انتظار الغروب، بعيد الغروب بساعة أو ساعة ونصف وبعد أن يكونوا قد أجروا عدّ المساء بنفس الصورة، يطفئ السجانون الأنوار وقد تمدد الأسرى متراصين استعداداً للنوم، يطل السجان دائماً يراقب الغرف وصوت حذائه يدق الأرض دقاً، وكأنه يرفض أن يسمح لهم بالنوم حتى في الليل...

يوم الخميس يتم إخراج الأسرى أربعة أربعة إلى الحمامات في طرف القسم حيث أمام الواحد خمس دقائق للاستحمام في الأسبوع فالمياه نادراً ما تكون ساخنة، وقطعة الصابون الرديء يجب أن تكفي كل من يدخلون الحمام، أي ربع من في القسم من السجناء، بعد الحمامات يعطي السجان لكل غرفة شفرة حلاقة واحدة على الجميع أن يحلق ذقنه بها... .

يوم الجمعة يكون يوماً لزيارات الأهل، كل منطقة من مناطق القطاع، في إحدى الجمع وفي الصباح يستعد من لهم زيارة، وينتظرون صوت مكبرات الصوت المثبتة على جدران القسم تنادي أسماء الزائرين فوجاً بعد الآخر، من تنادى أسماؤهم يخرجون من الغرف بعد أن يفتح لهم السجانون، يتم تجميعهم من كل الأقسام في غرفة انتظار ويتم تفتيشهم واحداً تلو الآخر، ثم يدخلون إلى قسم الزيارة يسحبهم السجانون بقوة حيث يتم التفتيش من جديد، ويفصل سجناء كل قسم على حدة، ويعودون إلى غرفهم هناك يستقبلهم زملاؤهم بالتهنئة ومباركة الزيارة، فيجيبون الله يبارك فيك، عقبال عندك.

إلى هذا الواقع المرير والقاسي وصل أخي محمود وعاش في سجن غزة الذي كان يكاد ينفجر بمئات السجناء فيه من شتى مناطق القطاع، إدارة السجن تمنع أي مظهر للحياة الجماعية المنظمة، وتحرم الأسرى من أبسط حقوقهم التي تكفلها حقوق الإنسان وميثاق جينيف، ومن يحاول أن يعترض يناله من الضرب والشدة ما لم يتخيله عقل آدمي.

يوم المحكمة يأتي السجانون ليخبروا محموداً وغيره من السجناء أن عليهم أن يستعدوا للخروج إلى المحكمة، وخلال دقائق يخرجونهم من الغرف، يجرون عليهم تفتيشاً دقيقاً ثم يقيدون أيديهم بقيود الحديد (الكلبشات) وراء ظهورهم، ويقيدون أرجلهم كذلك، ويبدأون بإدخالهم بجرجرتهم إلى المحكمة العسكرية القريبة من مبنى السجن (في طرفه الآخر) وهناك يضعونهم في غرفة الانتظار، ويبدأون بإدخالهم واحداً تلو الآخر لقاعة المحكمة، حيث يحبسونهم في قفص الاتهام يحرسهم الجنود، وفي وسط القاعة طاولة كبيرة، وراءها ثلاثة كراسي خلفها علم إسرائيل، يدخل القضاة ضباط عسكريون فيصرخ أحد الجنود قيام، حيث يجب أن يقف كل من في القاعة حتى الأهالي الذين يجلسون في الطرف الآخر وبنادق الجنود موجهة إليهم، وتبدأ المداولات في المحكمة حيث إن دور المحامي يكون أقرب إلى الصفر.

محمود يسترق النظر من بين عشرات الجنود تجاه أمي وخالي وأخي حسن الذين يجلسون بين الأهالي، محاولاً أن يرسم البسمة على وجهه مطمئنـــاً، فتحـــاول أن تــرد بابتسامة باهتة مكفهرة لا تستطيع أن تخفي قلقها وتحسبها مما ســيأتي، وتمــر جلســات المحكمة الواحدة تلو الأخرى دون نتائج، وفي كل مرة يرجع السجناء بنفس الإجــراءات إلى السجن حيث يستقبلهم زملاؤهم متسائلين عما حدث، محاولين الاطمئنـــان وإذا كــان أحدهم قد حكم بدأوا يحاولون مواساته والتخفيف عنه بأن الفرج قريب وأن السجن لا يؤثر على الرجال وأن هذه ضريبة الانتماء الوطني.

شروط الحياة كانت قاسية بشكل لا يطاق، وردود فعل السجانين على أي محاولة للاعتراض كانت أقسى من كل خيال، فكثيراً ما هُشم رأس أحد الأسرى حيث تساءل: هل هذا الطعام يقيت الآدميين؟ وهل يكفي لعشرين؟ وكثيراً ما كسرت يداه؛ لأنه التفت إلــى أحد أبواب الغرف الأخرى أثناء مروره في الطابور خارجاً إلى الساحة وكثيراً ما ازرقت عيونه؛ لأن ثلاثة أو أربعة جلسوا في زاوية غرفتهم على شكل حلقة، وكان لا بد أن يفعل الأسرى شيئاً لكسر هذه القاعدة في التعامل.

بدأ ثلاثة أو أربعة من الأسرى بينهم محمود يتحاورون في الأمر وكل واحد منهم يجلس مكانه كيلا يثيروا السجانين، بحثاً عن طريقة لإنهاء هذا الواقع. وقد كان واضــحاً لهم جميعاً أن استخدام العنف والقوة لغير صالحهم، فهم لا يملكون سوى أيديهم بينما يمتلك السجانون الهراوات والدروع والخوذات والغاز المسيل للدموع، وكل البشـــاعة والقســوة وعدم الشعور بالحد الأدنى بالإنسانية فما يعمل؟ في النهاية خلصوا إلى أن الوسيلة الوحيدة لتغيير هذا الواقع هو الإضراب المفتوح عن الطعام، فبالإضراب المفتوح عــن الطعــام ندخُل معركة الإرادة والقدرة على احتمال آلام الجوع، وانتظار الموت فيقهر بذلك صلف الجلاد ونجبره على تغيير معادلة تعامله معنا.

اتخذ القرار وبدأت عملية التنسيق، طلب من العامل الأسير الذي يخرج لتوزيع الطعام أن يسرق قلماً من السجانين وأن يدبر بعض الورق، وبعد محاولات أفلح في ذلك، حيث أخفى القلم والأوراق عدة أيام وفي إحدى زوايا الغرفة التي لا يراهــا الســجانون بسهولة حين مرورهم في الممرات بدأت عملية كتابة رسائل ســيتم توجيههــا للأقســام الأخرى لتنسيق الإضراب بصورة جماعية، في كل الأقسام ليبدأ في نفس اللحظة.

يوم الزيارة حمل بعض الأسرى الرسائل واجتازوا بها التفتيش وقد غُلِّفت بالنايلون وسهل إخفاؤها في الفم في غرفة الانتظار تم توزيع الرسائل على شباب من الأقسام الأخرى وضع كل واحد منهم الرسالة في فمه وهم يتبادلونها بحذر شديد. إذا تنبه أحدهم لحركة سجان في الممر واقترب تنحنح أو ضرب رجليه في الأرض، فأخفيت الرسالة وحين تنتهي الغرفة منها تطوى من جديد، وينتظر قدوم وجبة الطعام التالية بينما يناولهم الرسالة فيبدأون بتداولها وقراءتها، وهكذا خلال أسبوعين كان جميع الأسرى قد علموا واستعدوا للإضراب.

صبيحة يوم الأحد بعد العدّ وقدوم الطعام أخرج السجانون الأسير المعتاد لتوزيع الطعام أخذه ووقف عند باب الغرفة الأولى قائلاً: (أكل يا شباب) فردوا عليه: لا نريد نحن مضربون، تفاجأ السجان ونادى على صاحبه ليبلغ المسؤولين، وأمر الشباب بالمرور للغرفة التالية (أكل يا شباب) لا نريد نحن مضربون والثالثة والرابعة وهكذا باقي الغرف، وهكذا باقي الأقسام.

جن جنون السجانين، وجاء مدير السجن وضباطه يهرولون إلى الأقسام ومعهم قوة كبيرة من السجانين يحملون العصي والدروع والغاز، صرخ المدير على السجان: افتح الباب ففتح باب الغرفة الأولى، صرخ المدير: هات الطعام، احضر السجين الطعام، وبدأ المدير يسأل الأسرى واحداً واحداً: هل تريد الطعام؟ فيجاب: لا، يسأل الثاني فيجيب:لا، والثالث والرابع جال على عدة غرف في غالبية الأقسام، دون أن يجد من هو مستعد لتناول الطعام أو استلامه، فقط يشربون الماء وبضع ذرات من الملح.

جاء الغداء فلم يستلم والعشاء لم يستلم، ومر اليوم الثاني والثالث، انقضى أسبوع وأسبوعان، وبدأ الأسرى يضعفون وتنحل أجسادهم وتغور أعينهم في مآقيها، وفي كل يوم أو كل عدة أيام يأتي المدير أو أحد ضباطه ليحاول أن يجد من انكسر أو انهار واستعد أن يتناول طعامه دون جدوى وبات واضحاً أن الأسرى مصرون على المواجهة والمواصلة ولا شك أن الأمر رفع لجهات عليا، جاء المدير ليسأل هذا الأسير أو ذاك عن مطالبه، فيجد جواباً واحداً لدى الجميع لست مخولاً للحديث عن هذا، تحدث مع اللجنة "محمود الصالح" و "حسن ثبات" و "عبد العزيز شاهو" فصرخ المدير ليس هناك لجان نحن لا نعترف بلجان ولا بكم، أنتم مخربون ومجرمون...

مر أسبوع ثالث وبات واضحاً أن الأمور بدأت تتفاعل فقد بدا واضحاً أن هناك خطراً حقيقياً على حياة الأسرى ولا شك بأن ذلك سيخلق ضغطاً عنيفاً على إسرائيل في المحافل الدولية في الإعلام العالمي ولا يصح أن يموت هؤلاء جوعاً، فلا يصح أن تبرز صورة الفلسطيني بهذه البطولة والشموخ، فبدأت المفاوضات مع اللجنة، تم استدعاؤها إلى مكتب مدير السجن، على الطاولة وضعت أطباق ما لذ وطاب من الطعام وجلس طاقم إدارة السجن وعلى رأسه المدير وجلس الأسرى الثلاثة قبالتهم، لا يكاد الواحد منهم يثبت على كرسيه ولكنه يتجالد ويحاول أن يجمع آخر ذرات القوة في جسده المنهك.

عرض المدير عليهم تناول الطعام فاعتذروا بأدب ولطف، فهم مضربون مثل إخوانهم وهم سيكونون آخر من يتناول الطعام إذا تحققت المطالب، ما هي مطالبكم؟ وقف سياسة الضرب والاعتداء الجسدي، السماح بالجلوس في الغرف كيف نشاء، السماح بالنوم في النهار الحرية في الفورة الجلوس السير أو التجمع، طلبنا تزويدنا بفرشات للنوم، تحسين الطعام، وزيادة كميته، مضاعفة مواد التنظيف، وزيادة وقت الحمام وجعله مرتين في الأسبوع، السماح بالدفاتر والأقلام والكتب ومطالب أخرى، سجلوا المطالب ووعدوا بالرد عليها في موعد آخر، حمل الثلاثة أنفسهم بصعوبة يرافقهم السجانون الذين بدا الذهول يكسو وجوههم يوماً بعد يوم، مما رأوه من عزم هؤلاء الرجال وإصرارهم ومواجهتهم للموت مختارين طائعين.

بعد يومين استدعيت اللجنة مرة ثانية وبدأ المدير يعلن الموقف من تلك المطالب، حيث تمت الموافقة على بعضها ورفضت الأخرى، وقف أعضاء اللجنة معلنين نيتهم المغادرة قائلين: هذا لا يكفي والإضراب مستمر، حاولوا إقناعهم بالجلوس حيث يمكن الحوار على مطالب أخرى فكان الرفض والجواب: نريد استجابة كاملة لمطالبنا.

في اليوم التالي استدعيت اللجنة وقدمت الردود التي كانت موافقة على معظم تلك الطلبات فأعلنت اللجنة الموافقة المبدئية على وقف الإضراب، ولكنها طلبت السماح لها بالتجوال في الأقسام لاطلاع الأسرى على النتائج وسماع رأيهم، رفض الطلب فأعلنت اللجنة استمرار الإضراب وخرجت، وبعد ساعات استدعيت مرة أخرى وأخبرت بالموافقة لها على التجول في الأقسام برفقة أحد الضباط، وبدأوا يتجولون على الأقسام يدخلون الغرف واحدة تلو الأخرى يسلمون على الأسرى فيها، ويطلعونهم على ما حدث ويأخذون موافقتهم على إنهاء الإضراب حتى أتموا جولتهم على كل السجن.

حينها تأكد الضباط من إنهاء الإضراب واستعد الأسرى لقبول الطعام ولكن يجب أن يقتصر ذلك على السوائل فقط خلال ثلاثة الأيام الأولى، ثم يتم التطوير في استلام الطعام الجامد والقاسي حيث إن المعدة والأمعاء التي لم تعمل منذ أسابيع ليست جاهزة للطعام الاعتيادي، ولا بد من التدرج في تشغيلها كما نصح أحد الأطباء من المعتقلين.

بعد تناول الوجبة الأولى جلس الأسرى في كل غرفة جلسة جماعية واحدة على شكل حلقة في غرفة (٧) قسم (ب) تحدث محمود في الجلسة عن النصر الذي تحقق وأنه إذا تحقق عزم الرجال واستعدادهم للموت فإن شيئاً لا يمكن أن يقف في وجههم، ولا بد أن النصر سيكون حليفهم، وبدأ يتحدث عن الثورة الفلسطينية التي انطلقت من عزيمة الرجال واستعدادهم فقط وأعلن أن أحد شعارات حركة فتح (ما بيحرر الأرض غير رجالها تماماً كما قال أجدادنا ما بيحرث الأرض غير عجولها) في اليوم التالي خرج الأسرى لساحة الفورة دون أن يتواجد السجانون فيها بهراواتهم وفعل كل واحد منهم ما شاء، سار أو جلس، اثنان أو ثلاثة أو أربعة دون أن يتدخل أحد ووقف أحد السجانين فوق السقف القريب يرقب الموقف دون تدخل...

خلال الفترة التالية أصبح موضوع الجلسات الثقافية والتعبدية والدراسية في السجن أمراً عادياً جداً، حيث نجد في هذه الغرفة جلسة يتحدث فيها مقدمها عن التاريخ الفلسطيني وفي الغرفة الثانية جلسة سياسية حول آخر تطورات الأحداث، وفي الثالثة جلسة حول مبادئ وشعارات وأهداف حركة فتح وفي الرابعة جلسة عن الفكر الاشتراكي والفلسفة الماركسية وهكذا بدأ السجن يتحول إلى مدرسة متقدمة يعلم فيها المتعلم غيره، ويتدرب فيها عديم الخبرة على المناظرة والتفكير السياسي، وبدأ يتبلور فكر سياسي وايديولوجي واضح للمعتقلين حسب انتماءاتهم السياسية حيث كانت قد برزت ثلاثة تجمعات واضحة تجمع قوات التحرير الشعبية بميولها اللينينية، تجمع فتح بطرحه الوطني المجرد، وتجمع الجبهة الشعبية بطرحه الماركسي اليساري.

الفصل الحادي عشر

اقترب موعد إطلاق سراح محمود فبدأت أمي تعد العـدة لاسـتقباله والاحتفـال بعودته المظفرة. مرة أخرى طرشنا الدار بالجير (الشيد)، وأعـدت الحلبـة والبسبوسـة وأصناف المأكولات الأخرى وبدأنا من جديد نتحدث عن المشاريع والطموحات التي كنـا قد تحدثنا عنها عند عودته من مصر.

يوم إطلاق سراحه انتظرنا جميعاً بكامل عدتنا وعتادنا أمام باب السرايا... أطـل من باب السرايا مع ساعات الظهر، حين رآنا جرى نحونا وجرينـا نحـوه، واسـتقبلناه بالأحضان ونحن نتمتم "الحمد لله على السلامة الحمد لله على السلامة) كانت أمي كالعادة متأخرة، وصل إليها محمود وانكب عليها يقبل رأسها ويديها وهي تحاول منعه قائلة (لا يا باش مهندس) ثم انطلقنا إلى البيت ورؤوسنا تطاول العنان وكلما مررنا بأحد معارفنا وقف مسرعاً أو التفت إلينا مسرعاً وجاء مهنئاً مقبلاً، حاضناً لمحمود قائلاً (الحمـد لله علـى السلامة يا باش مهندس) وصلنا أطراف الحارة فكانت كلها في انتظارنا واسُتقبل محمـود استقبال الفاتحين المحررين ودامت الأفراح والاحتفالات واستقبل المهنئين أياماً متتالية.

ما إن انتهت أفراحنا بعودة محمود من السجن بدأت من جديد احتفالات بتوظيفـه في الوكالة حيث بدأ الدوام في مقرها، والعمل كمراقب أبنيـة ومهنـدس عمرانـي فـي مشاريعها المختلفة، وكان واضحاً أن باب السماء قد فتح لنا بعد طول انغلاق، فالوظيفـة في الوكالة تعود براتب ممتاز للغاية.

وما إن انتهت احتفالاتنا بوظيفة محمود جاءت فرحة جديدة بدأت بخطوبة أختـي فاطمة لأحد زملاء محمود في العمل ثم بإجراء الزواج، يوم زفاف فاطمة وبعد أن انتقلت إلى بيت عريسها وعدنا من حفل الزفاف إلى البيت شعرنا أن ركناً من أركان البيت قـد هدم فقد ملأت فاطمة علينا البيت بل شعرت أنا شخصياً أن قلبي انخلع من بين ضـلوعي وقفز خارجاً، ولكن مع الأيام اعتدنا على ذلك، خاصة بعد أن عرفنا أنهـا سـعيدة فـي زواجها.

بعد فترة قصيرة أطلق سراح عبد الحفيظ جارنا ابن أم العبد الذي كان قد سـجن بتهمة الانتماء والعمل للجبهة الشعبية الحارة استقبلته استقبالاً حافلاً لا يقل عن اسـتقبالها لأخي محمود وأمه أم العبد كانت هي الأخرى قد أعدت الحلويات احتفالاً بالإفراج عنه.

أما استقبال أخي محمود لعبد الحفيظ فكان غريباً جداً فمن ناحية كان حميماً للغاية حيث إنهما عاشا في السجن معاً، وخاضا الإضراب والمعاناة سوياً، مما جعلهما صديقين حميمين ومن ناحية أخرى كان واضحاً أن بينهما خصومة حادة حيث سرعان ما ينتقد أحدهما الآخر قاطعاً حديثه حين يتطرق للمواقف السياسية والفكرية.

بعد أشهر من وظيفة محمود أصرت أمي على بدء مشاريعنا ببناء غرفة جديدة تليق بالباش مهندس، ومن يأتون لزيارته من أصحابه وزملائه وشباب ورجال الحارة، وبالفعل فقد استأجرنا أحد البنائين واشترينا المواد اللازمة، وبنينا غرفة واسعة مرتفعة الجدران مسقوفة بالإسبست لها عدة شبابيك كبيرة وباب خشبي ممتاز، وأرضيتها كانت مرتفعة ومرصوفة بالأسمنت.

أصرت أمي بعد ذلك على شراء سرير، صحيح أنه كان مستخدماً ولكنه كان صرخة في عالم التطور في بيتنا، كان ينام عليه محمود وأحياناً يستلقي عليه أحدنا لبعض الوقت ثم اشتروا طاولة وكرسيين وهكذا بدأت الأمور تتطور في الدار تطوراً ملموساً. ثم بدأ الحديث يتزايد عن النوايا لزواج محمود وبدأت أمي تتحاور معه حول الفتاة التي يريدها هل يريد بنتاً بعينها؟ وما هي المواصفات التي يريدها في عروسه؟.

كانت المقاومة قد بدأت تخف جذوتها فقد اعتقل الكثيرون، واستشهد العديدون، وانفتحت الدنيا على الناس وشغلتهم بالإضافة إلى النجاحات الكبيرة التي حققتها المخابرات الإسرائيلية ضد المقاومة حيث ضبطت كميات كبيرة من السلاح والذخائر. ويبدو أن مستوى معلوماتها ومعرفتها بالواقع الفلسطيني قد تزايد بصورة كبيرة جعلها قادرة على حصر ومضايقة المقاومة وتقليصها، قوات التحرير الشعبية بدأت تضعف بصورة كبيرة فهي تنظيم عسكري بأساسه وليس لها ذلك البعد التنظيمي والدعم من الخارج ووجوده كان محصوراً في قطاع غزة دون الضفة الغربية ومع مرور الوقت بدأت تحتل مكانة فتح والجبهة الشعبية.

مع عمليات الاعتقال والسجن للعديدين من الشباب تم انتهاء مدة محكومياتهم وإطلاق سراحهم بدأت تتبلور تيارات فكرية وسياسية تنجم عنها حوارات فكرية وسياسية حادة في أوساط هؤلاء الشبان وأهلهم وفي الدوائر المغلقة التي يعتقدون أنها بعيدة عن سمع وبصر

المخابرات الإسرائيلية، وبدأنا نسمع بصورة واضحة أن هناك من تبنى وجهة نظر فتح ويطرح أفكارها وهناك من تبنى وجهة نظر الجبهة الشعبية ويحمل أفكارها وأيدلوجيتها.

كثيراً ما كان يأتي عبد الحفيظ لدارنا يجلس هو وآخرون في غرفة أخي محمود يتحاورون ويتناقشون في مسائل فكرية، عبد الحفيظ ماركسي اشتراكي يدعو إلى ذلك الفكر ويبدأ في نقاش مسائل فكرية تتعلق بحركة التاريخ (الديالكتيك) يستشهد ببعض الكتب مما كتب ماركس أو لينين أو أنجر ويتحدث عن دعم الاتحاد السوفيتي لنضال شعبنا وحقوقه المشروعة ودعم الدول الاشتراكية لنا ولقضيتنا، وأننا يجب أن نستغل هذه الصداقة والدعم. محمود كان يتبنى وجهة نظر أخرى بأن قضيتنا لا تحتمل أن تتوزع إلى تيارات فكرية أياً كانت، وعلى كل واحد أن يتبنى الفكر الذي يريده فهو حر في ذلك والمهم أن مجهوداتنا يجب أن تنصب كلها في بوتقة العمل الوطني الموحد تحت لواء حركة التحرير الوطني فتح، التي تتسع للمتدين والعلماني والشيوعي، للمسيحي والمسلم للجميع، وأنه لا مجال للخلافات الفكرية.

كلما اجتمعوا في دارنا أو دار أم العبد أو وقفوا على زاوية الشارع ثارت تلك النقاشات وارتفعت الأصوات بها، كل يتطرف لموقفه وأحياناً يحتد النقاش ويصبح مثل (الطوشة) ولكنهم في النهاية ينتهون بشرب الشاي الذي قدم لهم وينصرف كل منهم إلى عمله ومشاغله.

من جانب آخر بدأ الشيخ أحمد بدعوة مجموعة من الشباب للصلاة، والقدوم للمسجد وأخذوا يترددون على المسجد يؤدون الصلوات فيه، ثم يجلسون في حلقة يقرأون القرآن أو يتدارسون أحد الكتب الدينية من السيرة أو الفقه أو الحديث، كان الشيخ أحمد يشرح ويفسر ويدرب الشبان من حوله، يستقبلون ما يقول بفهم وإقبال، والشيخ يوجه هؤلاء الشبان وينتشرون ثم يعود لشباب جدد للمسجد فتكبر الحلقة وتتعاظم.

أخي حسن كان أطيبنا قلباً وأكثرنا استعداداً للتضحية من أجل الآخرين، فقد تحمل عبء إعالة البيت وتغطية نفقات تعليم محمود في مصر من خلال عمله على بسطة الخضراوات ومواصلة تعليمه، ثم بقبوله أن يدرس في صناعة الوكالة رغم أنه حصل على مجموع ودرجات ممتازة في شهادة الثانوية العامة.

ولو توفرت له فرصة مناسبة لأمكنه أن يدرس هو الآخر الهندسة أو العلوم ولكن الظرف كان قاهراً فقبل الدراسة في الصناعة راضياً مع استمرار تحمله لعبء بسطة الخضراوات، وقد شارف على التخرج من قسم (الخراطة والبرادة) من مدرسة الصناعة.

خلال عمله على بسطة الخضراوات تعرف على الشيخ أحمد حيث أشترى منـــه احتياجات بيته عدة مرات ولاحظ طيب خلقه وأصالة نفسه فدعاه للصلاة والتـــردد علـــى المسجد مذكراً بالآخرة، محذراً من عدم طاعة الله ومخالفة أمره والطمع فيما عنـــده مـــن نعيم.

وبأن طريق الدين وطريق الاستقامة عليه هي خير طريق، وأقصرها للســـعادة والنصر في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة فوجد الحديث طريقه إلى قلب حسن، ووعد الشيخ بأن يبدأ الصلاة وأنه سيأتي للمسجد، وبالفعل فمن مساء ذلك اليوم بدأ حسن يتوضأ ويصلي، يتردد على المسجد للصلاة كلما سنحت له الفرصة لذلك.

عادة ما كان يذهب إلى المسجد وقت صلاة المغرب ويظل هنـــاك حتـــى يـــؤدي صلاة العشاء وبعد العشاء يعود إلى البيت، الأمر كان مقبولاً جداً علينا في البيت وخاصة أمي فموضوع الصلاة والتردد علي المسجد هو أمر لا غضاضة فيه، وحسن كبير و واعٍ ولا خوف عليه منه. يشارك أحياناً في النقاشات التي تدور بين أخي محمود وجارنا عبـــد الحفيظ والشبان الآخرين حيث يكون حاداً جداً في نقاشه ضد عبد الحفيظ خاصة، ويبدأ في اتهامه بالإلحاد وعدم الإيمان والكفر، وقد كان واضحاً أن عبد الحفيظ أقوى في طرحـــه الفكري، حيث أن مستواه الثقافي أفضل بكثير من أخي حسن ويبدو أن فترة الســـجن قـــد مكنت عبد الحفيظ من تلك القدرات الفكرية، حيث يبدأ بتهجم على منهج التفكيـــر الـــديني ويدعي أن الدين هو أفيونة الشعوب وهو عامل تخدير. أين المتدينون وأين دورهـــم فـــي النضال الوطني ومقاومة الاحتلال؟ فيبدأ حسن بالردود عليه ردوداً ضعيفة، كما أن حسن كان يصطدم كثيراً بمحمود في تلك النقاشات حيث يطرح عليه ضرورة العـــودة للـــدين والتمسك به خلال عملية التحرير مستشهداً بمقولة ينسبها لعمر بن الخطاب ﷺ بأن حال آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به حال أولها، فيجد ردوداً قوية من محمـــود بـــأن الدين لا شك فيه ولا اعتراض عليه ولكننا في مرحلة تحرير وطني ويجب ألا يشغلنا عن ذلك أي خلاف فكري وديني. ويسكت حسن فلا يجد جواباً، أما سؤال محمود: وماذا مـــع النصارى من أبناء شعبنا؟ وأين دورهم ومحلهم من النضال الوطني؟ وكيـــف ســـنتعامل معهم إذا أعلنا وبدأنا الصراع.

يعود حسن في اليوم التالي من المسجد وقد حمل عدة كتب أحدها يناقش ويســـفه الفكر الماركسي ونظريات الاشتراكية والآخر يناقش النظام الاقتصـــادي فـــي الإســـلام والثالث كتاب في العقيدة يضعها بجواره ويبدأ في تقليبها والبحث فيها عن إجابات للأسئلة التي عجز عنها في حوار الأمس.

محمود بدأ يعلق على حسن إزاء التطورات التي تطرأ عليه وبدأ يجلس معه أحياناً متسائلاً عن المسجد والنشاط فيه وكونه يتردد عليه محاولاً نصح حسن بالابتعادعن أولئك الجماعة ولما لم يسمع حسن لصوته ونصيحته، بدأ محمود يحاول استغلال تأثير أمي لمنع حسن من الاحتكاك بأولئك الجماعة، وبدأنا نسمع كلمة كثر ترددادها مثل (إخونجية). حيث يقول محمود أن الشيخ أحمد والجماعة الذين يترددون على المسجد ويحضرون النـدوات ويتبادلون الكتب الدينية هم إخونجية أي من الإخوان المسلمين ويُبدي لأمه خوفه مـن أن يصبح أخي حسن (إخونجياً) محذراً من أن الإخونجية لا يؤمنون بالقومية العربية وهـم ضد جمال عبد الناصر وقد حاولوا قتله، وأن الأنظمة والحكومـات ضـدهم وتكـرههم وتطاردهم وأن حسناً إذا صار إخونجياً فسيعرض نفسه للخطر دون مبرر.

أمي كانت تدعو حسن وتجلس معه محاولة الاستفسار منه عما سمعت من محمود خاصة عن موضوع الإخونجية، فينفي حسن نفياً قاطعاً أنه من الإخوان أو أن أحداً ممن يترددون على المسجد قد تحدث معه عن الإخوان، أو أنه سمع واحداً منهم يتحـدث مـع الآخرين عن الإخوان، وأن كل ما يحدث في المسجد هو الصلاة، وتعلم القرآن وقراءتـه وتعلم سور الدين، فهل هذا خطأ؟ فتجيبه أمه: لا، ثم توصيه أن يأخذ حذره ولا يتدخل في الأمور التي توجع الرأس فيطمئنها ويمازحها وتخرج أمي في النهاية راضية.

كنت اسمع الكثير من تلك الحوادث سواء بين محمود وحسن، أو بـين محمـود وأمي أو حسن وأمي، أحاديث محمود كانت مقنعة أكثر لعقلي ولكن طيبة حسن وبسـاطة تناوله للأمور كانت تدعو للراحة والطمأنينة أكثر، ولعل حسناً قد أحسّ بذلك فبدأ يحـاول التأثير علي بالصلاة والتردد معه على المسجد فكنت أصلي أحياناً وأترك الصلاة أحيانـاً أخرى، وقد ترددت معه مراراً على المسجد وجلست معه في الجلسة(الحلقة) التي تعقد في المسجد بين المغرب والعشاء فكان يديرها الشيخ أحمد، وقد حضرت عدة جلسـات فـي تفسير بعض السور القرآنية مثل سورة الزمر والمدثر.

كان كلام الشيخ مؤثراً وجميلاً وهو يتحدث واصفاً مشاهد القيمة وعذاب الآخـرة ونعيمها، وهو يصف كيف تلقى رسول الله ﷺ أوامر ربه لحمل راية الـدعوة وتبليغهـا والصدع بها.

تخرج حسن من الصناعة وعلى الفور وجد عملاً في إحـــدى ورشـــات الحـــدادة والخراطة والبرادة في منطقة الزيتون في غزة، وبراتب معقول، مع وعد بالزيادة إن أثبت جدارته وقدراته الفنية وبات واضحاً أننا قد دخلنا عصر حياتنا الذهبي بعد سنوات الفقـــر والقحط.

كنت حينها قد أوشكت على إنهاء دراستي الإعدادية، وإبراهيم ابن عمي كان قـــد بدأ الثانوية وأخي محمد كان في الثاني الثانوي/ القسم العلمي، تهاني كانـــت قـــد أنهـــت الثانوية العامة وسجلت للالتحاق بدار المعلمات في غزة وتنتظر النتائج في تلك الفتـــرة، مما بدا وكأن الدنيا تبتسم لنا من جديد.

بعد سنوات من الغياب أطل علينا حسن (ابن عمي من جديد) ولكن بصورة جديدة كان قد أصبح رجلاً كبيراً ولكنه قد أعفى لحيته وشعره، ملابس غريبة بصورة موحشة، مثل ملابس اليهود، وقد لبس في عنقه سلسلة ذهبية ووضع حول رسغ يده سلسلة ذهبيـــة سميكة، ويلبس بنطال كابوي متآكل عند ركبته وبيديه علبة سجائر، يبدو تماماً من كوكب آخر، طرق الباب فتحت له ولم أعرفه للوهلة الأولى فوضع أصابع يده بين شعري ناثراً إياه قائلاً: أنت أحمد فعرفته من صوته: أنت حسن؟ فقال نعم فصرخت يا أمي يا محمـــود هذا ابن عمي حسن قد عاد للدار.

خرج الجميع يجرون من غرفهم تجاه باب الدار وكان حسن قد خطا خطوتين أو ثلاثاً للداخل، وكل من يخرج جارياً يتوقف كمن أصابته صاعقة، ولا يدري ما يقول، كان أول من أفاق من الصدمة أخي محمود، تقدم وسلم عليه وعانقه، سلم عليه إبراهيم وأخذه محمود من يده إلى غرفته ولحقنا به إبراهيم وحسن وأخي محمد وأنا، وذهبت أمي لإعداد الشاي.

وجلسنا في الغرفة وبدأ محمد يستفسر عما جرى معه وكيف وصلت به الأمـــور؟ وما هي أخباره؟ وهو يحدثنا أنه يعيش في تل أبيب وأنه يعمل في مصنع والد صـــاحبته اليهودية، وأن وضعه ممتاز، وأنه يسكن شقة مستأجرة ممتازة في يافا، المهم أن لســـانه كان ثقيلاً وهو ينطق بالعربية ويكثر من استخدام الكلمات العبرية في حديثه.

أحضرت أمي الشاي ودخلت به لتضعه على الطاولة فسألها: كيف حالك يا مرت عمـــي؟ أجابت: الحمد لله، فقال: المهم يا مرت عمي أنت كسبتي فيّ خير، طلعـــت مـــن المخـــيم وشفت الدنيا وعشت وأخذت راحتي بدل بؤس المخيم وحرمانه. فقالت أمي متهكمـــة: (آه شفت الدنيا مع صاحبتك اليهودية)

فقال: آه ومالها اليهودية؟!! تدخل محمود متسائلاً (المهم يا حسن ايش بعـــدين) فأجاب حسن: (ولا بعدين ولا قبلين، بس أنا جيت أسلم عليكو وأشوف إبراهيم بده إشـــي) ومد يده إلي جيبه فأخرج محفظته وأخرج منها رزمة كبيرة من الأوراق النقدية وعد منها مبلغاً كبيراً وتناوله ومد يده بها نحو إبراهيم.

إبراهيم لم يحرك ساكناً وجميعنا التزمنا الصمت، قال حسن خذ يا ابراهيم، فـــرد إبراهيم: لا شكراً، أريد أن أعيش مع دار عمي مثل أي واحد منهم ولا ينقصني شيء فقال حسن: خذ أنا أخوك، فرد إبراهيم: أنت أخي حين تعود للدار وتعيش معنا وتترك اليهـــود وحياتهم رد حسن: مهلك يا إبراهيم مهلك، هل تريدني أن أرجع للمخيم لماذا لا تأتي أنت معي؟ رد إبراهيم: أعوذ بالله، رد حسن: (براحتك).

بدأ محمود يحاور حسناً محاولاً إقناعه بالعودة للبيت وأن بيته لا يـــزال ينتظـــره ويمكنه أن يبنيه ويرتبه ويمكن أن نزوجه أحسن بنت، ويبحث له عن عمل محترم، كـــان حسن يبتسم طيلة الوقت معبراً عن رفضه ثم غادر بعد سلام فاتر.

ظلت أمي تحاول إقناع محمود بضرورة الزواج وكان يحاول التملص من ذلـــك بدعوى أن البيت صغير وعدم صلاحه للزواج فيه، فكانت تحاول إقناعه بأن هذا يكـــون مؤقتاً حتى نتوسع وعندنا الآن في البيت ثلاث غرف، غرفتـــه التـــي بنيناهـــا جديـــداً، والغرفتان القديمتان وقد صلحناهما حيث تعيش هي وتهاني ومريم في إحداها ويعيش أخي حسن ومحمد وأنا و ابن عمي ابراهيم في الثانية، ويتزوج هو ويعيش مع زوجتـــه فـــي الغرفة الجديدة.

فكان يتساءل ولو جاءنا ضيف أو زوار أين سيجلسون؟ فكانت تجيب في غرفـــة الأولاد أو في غرفتي أنا والبنات، أليس هذا حال كل أهل المخيمات؟ وزيادة علـــى ذلـــك فعندنا دار عمك ويمكننا إصلاح غرفة من غرفها للتوسع فيها، وبالفعل فقد اتفـــق علـــى تصليح الغرفتين في دار عمي على أن تكون واحدة لمحمود وزوجته، والثانية لحسن حين يتزوج، وتظل الغرفة الجديدة لاستقبال الضيوف.

بعد بناء الغرفتين من جديد اقترح محمود على أمي أن يتم تأخير زواجه عدة أشهر أخرى ويتزوج هو وحسن مرة واحدة بدلاً من تكاليف عرسين نعملها عرســـاً واحـــداً، فنـــوفر تكاليف عرس حسن، وحسن مسكين وطيب وضاع عليه التعليم من أجلي وأجل البيت،

فلنجعل فرحتنا فرحة واحدة. أمي اقتنعت بالفكرة وبدأت تتحدث مع حسن لإقناعه فالغرفة جاهزة والعرس سيكون وسيكون.

بعد أيام من محاولات الإقناع والضغط وافق حسن هو الآخر، وبدأت أمـي فـي حوار مطول مع كل منهما من التي يريدها؟ أو مواصفات التي يريدها؟ وبـدأت تقتـرح عليهما بنت فلانة وبنت فلانة، وتخرج لزيارة تلك البيوت لترى البنات في بيوتهن، وترى البيوت ومستوى نظافتها وترتيبها، وعادات أهل البيت وتعود غير راضـية بالمسـتوى المطلوب.

تهاني اقترحت على أمي رؤية إحدى زميلاتها في معهد المعلمات فتاة كفلق البدر وذات خلق حميد وبنت عائلة من طبقتنا (من طينتنا) وأهلها ناس بسطاء ومحترمون، وقد اتفقت أمي مع تهاني على زيارة بيت تلك الفتاة، ذهبنا وعادت أمي بغاية الرضا والسعادة فقد عثرت لمحمود على العروس المناسبة، فقط ظل أن تعجبه هـو وأن توافـق البنـت ويوافق أهلها، ومن الذي سيرفض (الباش مهندس محمود الصالح!!) تحدثت أمـي مـع محمود ووصفت له الفتاة فأبدى موافقته المبدئية على أن يبت نهائياً في الأمر بعد رؤيـة الفتاة.

ذهبت أمي لزيارة بيت أبي محمد السعيد مرة أخرى، وهناك تحدثت مع أم محمد أن لنا الشرف في أن نتقدم لخطبة ابنتهم "وداد" لمحمود، فهل نأتي لذلك بصورة رسـمية، أجابت أم محمد بعد مشاورات سريعة في البيت: أهلاً وسهلاً بكم واتفقن على الموعد أن يكون بعد عصر يوم الجمعة القادم.

يوم الجمعة حضر خالي ليشارك في الوفد كما حضرت أختي فاطمة وتجهـزت أمي ومحمود وحسن وتهاني وخرجوا إلى بيت العروس، كالعادة جلس الرجال في إحدى الغرف والنساء في غرفة أخرى مع الكثير من عبارات الترحيب والمجاملات، في آخـر الأمر رأى كل من محمود ووداد الآخر وأعرب كل منهما عن الإعجاب بالآخر، وموافقته عليه.

فانطلقت الزغاريد وأعلن عنهما كخطيبين واتفق على عقد القرآن والزواج بعـد شهرين، حيث نكون نحن قد أكملنا الإجراءات اللازمة، خاصة بإتمام البحث عن عروس لحسن، وتكون وداد قد أنهت الدبلوم من معهد المعلمات وحصلت على الشهادة.

واصلت أمي البحث عن عروس مناسبة لحسن، ويوم بعد يوم تخــرج لمعاينــة إحدى الفتيات فلا تعجبها هذه لأن شعرها مجعد، ولا تعجبها تلك لأن أنفها طويل، ولا هذه لأن أنفها كبير، ولا تلك لأنها غير مرتبة، فبيتهم لم يكن مرتباً، وتلك لأن بيتها لم يكــن نظيفاً كما يجب وبعد كل جولة من جولاتها الاستكشافية تعود لتقدم التقرير لحسن وبمرافقة تهاني.

وبعد طول جهد واجهها حسن بالسؤال: (يا ما إنت ليش مغلبة حالك؟) التفتت إليه غاضبة عاتبة قائلة: (وليش ما أغلب حالي هو إنت قليل يا حسن!!) فأجابها ضاحكاً (مــا تفهمنيش غلط ياما قصدي أن العروس موجودة وقريبة وتحت عينك من زمان) نظــرت إليه بدهشة متسائلة: (مين؟ إيش قصدك!!) فقال: (سعاد بنت أم العبد، جارتنــا) ابتســمت أمي وداعبته متسائلة: (والله كنت بتحبها يا شيخ حسن؟(ظهرت ملامح الخجل على وجه حسن قائلاً: (والله ياما انت عارفتيني والله عمري ما اطلعت عليها من حد ما كبرنا، لكن البنت حلوة ومحترمة وغلبانة زي حالتنا، وزي ما بقول المثل: من طــين بــلادك لــط اخدادك) تساءلت أمي بجدية: هل تريدها بحق؟ (بدك إياها عن جد) نعم وبكل الجد.

نادت أمي تهاني وأخبرتها بالأمر، نظرت تهاني بدهشة متسائلة (وهــل تريــدها بجد؟) أجاب: نعم، قالت تهاني: الصحيح أنها جميلة ومحترمة ومن عائلة محترمة كيف لم ننتبه لها من البداية؟ أجاب حسن: هذا هو حال الدنيا يكون الذهب بين يــديك ولا تــراه، وأنت تنظر بعيداً!! تعجلت أمي القول (بكرة من الصبح راح أخطبها إلك بعون الله).

وبالفعل من ساعات الصباح الباكر صارحت أمي أم العبد وبدون مقدمات أخبرتها أنها تخطب سعاد لحسن، طلبت أم العبد إمهالها حتى الظهر لتنظر ما هو رأي ابنتها وما هو رأي إخوتها. بعد الظهر عادت أمي إلى بيت أم العبد لتعرف جوابها، وعرفنا الجواب حين سمعنا زغاريدها وزغاريد أم العبد معاً، وبالطبع فقد خرجت الجارات من البيــوت القريبة مهنئات.

بدأت الاستعداد لحفلة الزواج على قدم وساق، شراء أثــاث البيــت للعروســين وإعداد شنطة ملابس كل واحدة من العروسين، على مدار حوالي شهر لم تجلس أمي في البيت مرة إلى بيت أم العبد ومرة إلى بيت أبي محمد السعيد، (مرات إلى البلد) أي إلــى قلب المدينة لشراء الملابس والمجوهرات للعروسين حتى اكتملت التجهيزات، وجاء موعد عقد القرانيين والزواج.

كان عليّ أنا ومحمد وابن عمي إبراهيم أن نجهز الكثير من الأمور واستأجرنا عدداً من كراسي القش ونقلناها على إحدى عربات (الكارة) ووضعناها أمام الباب، أحضرنا صواني البقلاوة واشترينا كمية من اللحم، وكيسين من الرز وجمعنا عدداً كبيراً من الصواني من الجيران نكتب اسم كل عائلة على صينيتها خشية أن تختلط علينا الصواني، وأشرفت أمي على عدد من جاراتها اللائي جئن يساعدنها في تحضير الطعام، أعددنا منصة زفة العرسان (اللوج) حيث استعرنا عدة طاولات وربطناها ببعضها وثبتناها إلى جوار الجدار وغطيناها بالبسط والحصائر ووضعنا عليها كرسيين من الخيزران مزدوجين استعرناها من الجيران وغطيناهما بسجادات الصلاة بحثنا عن وصلة طويلة من أسلاك الكهرباء وصلناها بأحد بيوت الجيران البعيدة ممن لديهم كهرباء حيث لا توجد كهرباء إلا في بعض البيوت فقط من ذوي الحال الممتاز، وكنا قد استأجرنا وصلة فيها عدد من اللامبات ذات الألوان المختلفة علقناها فوق منصة الزفاف، كل ذلك كان جاهزاً بعد الظهر حيث بدأ المدعوون والمدعوات يحضرون.

النساء جلسن داخل الدار والرجال جلسوا تحت العريش، الذي أقمناه في الشارع..صوت غناء النساء وزغاريدهن لم ينقطع قط، ثم بدأنا بتقديم الطعام صواني الأرز الأصفر وعليها قطع اللحم الأحمر ثم وقفنا أنا ومحمود وإبراهيم بأيدينا قطع الصابون وأباريق الماء الفخارية وعلى أكتافنا الفوط القطنية، فمن شبع من المدعوين قام إلينا فناوله أحدنا قطعة الصابون وصب على يديه الماء حتى إذا غسل يديه وفمه وهو يهنئ ويبارك، ناولناه (البشكير) لينشف يديه ومن ثم ذهب إلى صينية البقلاوة ليتناول منها (التحلاية).

بعد انتهاء الطعام انصرف الكثيرون من المدعوين، أهل العروسين عادوا لبيوتهم في انتظار ذهابنا لكتابة الكتاب، واصطحاب العروسين إلى بيت عريسيها وظل معنا أخص الأقارب والأصدقاء، حيث تجمعت النسوة وبدأن السير وهن يغنين ويزغردن إلى بيت جديد من الصوف تحتهما أغطية بيضاء وعلى كل واحد تتدلى ربطة عنق، استمرت النسوة في غناء الأغاني الشعبية والطبل يرافقهن حتى اقتربن من بيت "أبو محمد" فبدأن يغنين الأغنية الشعبية الشهيرة (عمين لفيتن يا بنات...عادار أبو محمود لفينا ياليله، طلبنا منه النسب...رحب واحترم ياليله...)

وحين وصلن الباب انطلقت زغاريدهن من داخل البيت. دخل الرجال إلى إحدى الغرف، حيث حضر الشيخ الذي أتم إجراءات عقد القرآن وتوثيق ذلك كما هي العادة من خلال ذلك تم تجهيز العروس، وخرج الرجال وانتظروا عند باب البيت، وخرجت العروس

يمسك أبوها بذراعها وأحد إخوتها بذراعها الآخر حيث سلمها لأخـي محمـود، والزغاريد تتعالى وانطلق الركب عودة إلى البيت.

أدخلت العروس البيت وظل عدد من النسوة معها وعدد آخر يغنين ويزغـردن وخرج الركب مرة أخرى ليقطع الأمتار القليلة حتى بيت العروس الثانية وبنفس الطريقة وبنفس الإجراءات أمسك أخوا سعاد ذراعيها وسلمها لحسن الذي تقدم بها نحو البيت بين الزغاريد والأغاني.

أدخلت العروسان إلى نفس الغرفة ليجهزن للزفة، وطلبت أمي من محمود وحسن الصعود إلى منصة الزفاف ليجلس كل منهما على كرسيه انتظاراً لخروج عروسه لتجلس إلى جواره لتتم الزفة كالعادة، محمود لم تكن لديه مشكلة، أما حسن فقد رفض ذلك بقـوة قائلاً: كيف سأجلس يا أمي بمكان ستقوم فيه النساء بالرقص أمامي هذا حرام...فوجئـت أمي بالأمر وبدأت ترجوه فهذا يوم فرحتنا الذي انتظرته طيلة حياتي ومحمود يحاول مع حسن لكي لا يفسد الفرحة والزفاف وحسن يرفض ذلك رفضاً قاطعاً.

استمر الحوار وطال، وفي النهاية اقترحت فاطمة حلاً وسطاً بحيث يصعد محمود وحسن نصف ساعة، حيث تجلس عروسهما، وفي نصف الساعة هذه لا ترقص النسـاء ويكتفين بالغناء والزغاريد ثم يغادر العريسان ويرفع أحد المقعدين وتجلس العروسان على نفس المقعد حيث يتم الاحتكاك بهما كيفما تشاء النساء حيث يكن وحدهن. وافق محمـود على ذلك وتنازل حسن في نهاية الأمر. وصعدا على المنصة حيث جلس كل منهما على المقعد، ثم خرجت العروسان وجلست كل واحدة إلى جوار عريسها، وبدأت النساء بالغناء والزغاريد.

كانت دموع أمي في طيلة الوقت تغسل وجهها دون انقطاع، وفاطمة إلى جانبهـا من اليمين وتهاني من اليسار يحاولن تهدئتها..لماذا البكاء وهذا يوم الفرح الذي انتظرتـه طويلاً فتمسح دموعها ثم تنفجر من جديد وهي تهمس لو حضر أبوكما هذا اليوم فتنهمـر دموع فاطمة وتهاني وهن يرددن همساً لماذا تفتحين هذا الجرح يا أمي وقد انـدمل منـذ زمن بعيد؟!!

نزلت العروسان لتبديل بدلتيهما البيضاوين بلون آخر، ونزل العريسان ليغـادران وقد أخذا معهما أحد المقعدين، وأزاحا الأخر إلى منتصف المنصة ومحمود يـدفع حسـناً وينخزه في خاصرته قائلاً: (يا سيدي الشيخ أي هو كل يوم الواحد متجوز والله طلعـت إخونجي أصلي أنا عارف إيش هلّي جوزني معاك، روح الله يجازيك) فتبسم حسن قائلاً: (اطلع اطلع سيب النسوان يفرحن لحالهن).

من ورائهم كان صوت غناء النسوة وزغاريدهن يتعالى دون انقطاع وقد أجبرن أمي إلى الدخول وسط التجمع للرقص ثم أجبرن أم العبد وأم محمد، نزلن ورقصـــن ولا تدري كيف تفهم تلك الدموع الجارية في أجواء هذا الفرح الغامر، ولكنها أحوال المخـــيم كل فرحة تنكأ الجراح من جديد، وتفتح مرة أخرى كل الذكريات.

الفصل الثاني عشر

زوج خالتي كان قد أنهى مدة سجنه وخرج من السجن وعاد لمزاولة أعماله التجارية ومتابعة شؤون أراضي العائلة، وقد بدأ ابنها عبد الرحيم يدرج على الأرض لاعباً وهو يردد كلماته الأولى.

زوج خالتي يتردد على ذات المحلات التي كان يتردد عليها في الخليل والتي تربطه بها علاقات تجارية قوية، يجلسون في نفس المجالس وتدور الأحاديث من جديد حول موقد النار ورشفات الشاي والرجال يسألونه عن السجن، وكيف تعاملوا معه؟ وكيف عذبوه؟ وكيف حققوا معه؟ وهو يحدث بتواضع محاولاً التخفيف من مشاعرهم بالخوف والتحسب من المحتل ومن السجن، مؤكداً أن ذلك صعب حقاً ولكنه ممكن ومحتمل، وهو يصقل العود ويقوي النفس ويجعل الإنسان يشعر بقوته وعظمته، والرجال يهزون رؤوسهم ويحملق أحدهم بالآخر مستغربين مستنكرين، ولعل أحدهم يقول للأخر بعد أن ينصرف زوج خالتي (شوف قليل هاالعقل بهدل حاله وشتت عيلته وصنع على حاله ثورة، وبيقول ممكن ومحتمل!! إيش هاالكلام الفاضي).

أخوه عبد الرحمن في السنة الثانوية الثالثة (التوجيهي) في مدرسة طارق بن زياد الثانوية في الخليل معروف بجده واجتهاده، وخلقه ودينه وعلاقاته الحميمة بالكثيرين من شباب المدرسة في المدينة والقرى المحيطة. في تلك الفترة بدأت تتبلور في مدرسة طارق بن زياد الثانوية مجموعة من الشباب المتدينين المحسوبين على التيار الإسلامي، عدد من المدرسين في هذه المدرسة كانوا قد تخرجوا من قبل وقت من الجامعة الأردنية وقد انتظموا أثناء دراستهم هناك في صفوف الإخوان المسلمين، بعودتهم إلى الخليل وعملهم في مدارسها، بدأوا يحاولون نشر الفكر الإسلامي في المدينة ووجدوا في صفوف طلاب المدرسة الثانوية تربة خصبة لذلك.

في نفس الوقت افتتحت كلية الشريعة في المدينة، رئيس البلدية في المدينة هو الذي أشرف على فتحها، التجمع الشبابي في الكلية أوجد تلقائياً تيارات سياسية وفكرية كان أبرزها تيار الإخوان المسلمين بتأثير المدرسين في الكلية والدراسة الإسلامية والشرعية منها.

تكتل عدد من الشباب في تلك الكلية كنواة لعمل الإخوان المسلمين وهؤلاء بدأوا ينتشرون في أنشطتهم إلى المدارس الثانوية، فالتقى جهدهم بجهد المدرسين في مدرسة طارق بن زياد،

حيث بدأت تتبلور مجموعة من الطلاب الذين تجمعـوا حـول فكـر الإخـوان المسلمين، اسم الإخوان المسلمين في مدينة الخليل لم تكن تلك الموسيقى الصـاخبة التـي ترافقه إذا ذكر في قطاع غزة أو في شمال الضفة الغربية، فهناك كان اسم الإخوان أشبه بالشتيمة أو السب، أما في الخليل فقد كان للإخوان تاريخ قديم، كانت فكرة الإخوان متبناة لدى عائلات معروفة بغناها وبشرفها في المدينة لذا فقد كان من السـهل ظهـور الاسـم وإعلانه دون حرج.

في مدرسة طارق بن زياد التقى عبد الرحمن مع مجموعة أخـرى مـن شـباب المدينة وشباب من القرى الأخرى وشكلوا بتأثير طلاب الجامعة/كلية الشريعة، وبتـأثير بعض المدرسين شكلوا إطاراً مفتوحاً يدرس ويتبنى أفكار الإخوان المسلمين، ويقبل على دراسة الإسلام وكتب الفكر الإسلامي المعاصر.

في أحد الأيام جاءت مجموعة من هؤلاء الزملاء إلى قرية (صـوريف) لزيـارة عبد الرحمن وكأحد الأنشطة التي يستخدمها الإخوان للتعارف والترابط والتربية، التقـت مجموعة من حوالي عشرة طلاب من زملاء عبد الرحمن على سفح جبل تلهـو وتلعـب وتجلس للتحدث في أمور الدين والسياسة، كانت خالتي -بناء على طلب عبد الـرحمن- تجهز لهم طعام الغداء، حيث ذبح لها عبد الرحمن منذ الصباح أربع دجاجـات وبـدأت بإعداد (أكلة المسخن).

عند الظهر عاد زوج خالتي من متجره، ولما تأخر عبد الرحمن لأخـذ الطعـام بنفسه توجه إلى الأرض ليوصله إليهم، قرأ عليهم السلام ونادى عبد الـرحمن أنـه قـد أحضر لهم الطعام وأجاب عبد الفتاح شاكراً متسائلاً: لماذا أرهق نفسه فقد كـان ينـوي القدوم لأخذه؟ أوضح عبد الفتاح ألاّ إرهاق في ذلك وأن هـذه فرصـة للتعـارف علـى الشباب.

جلس معهم يتناولون طعام الغداء ويتعرف عليهم ويشاركهم مـرحهم وسـعادتهم وأحاديثهم محاولاً استثارة مشاعرهم وانتمـائهم الـوطني، لقـراءة آرائهـم وأفكـارهم واستعدادهم، متسائلاً: ما رأيكم في العمل الوطني ومستواه الحالي في البلد أجـاب أحـد الشباب: المشكلة أن شعبنا ما زال يفتقر إلى أهم مقومات العمل الوطني والمقاومة ولذلك فمستوى الاستعداد والتضحية لازال منخفضاً.

ناقش عبد الفتاح متفاجئاً: كيف تقول ذلك وعلام تستند في ادعائك هـذا؟ أجـاب الشاب: إن قضية بمثل حجم وأهمية القضية الإسلامية، قضية المسـجد الأقصـى أولـى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين تتطلب الكثير من التضحيات والفداء ومسـتوى العمـل الوطني لازال أبسط بكثير من المطلوب. واستعدادية الناس لا تزال أقل بمليون مرة مـن المطلوب.

ناقش عبد الفتاح مرة أخرى قائلاً: ولكن لم تسمع عن العمل الفدائي في كل المناطق المحتلة في قطاع غزة في شمال الضفة ووسطها وفي القدس والخليل والقرى؟ قاطعه الشاب: بلى قد سمعت ولكن ذلك كله أبسط وأقل بكثير جداً من المطلوب!! ألا ترى يا رجل كيف يصول اليهود ويجولون في مدينة الخليل دون أن يتعرض لهم أحد إلا نادراً، وكيف يأتي السياح لزيارة الحرم واليهود يسرحون ويمرحون في الحرم الإبراهيمي، وكيف يأتون للمتاجرة في الخليل كيف يترددون على ورشاتها للحدادة والنجارة، والناس وأهلنا يتعاملون معهم وكأنهم ليسوا احتلالاً ولا محتلين وغاصبين لأرضنا ومقدساتنا.

قاطعه عبد الرحمن: لا شك أن الدافع الوطني وحده غير قادر لإدارة الصراع وأن من الضروري...قاطعه عبد الفتاح: يا أخي هذا شعبنا طيلة تاريخه يدافع عن أرضه ولا يستسلم وهو... قاطعه الشاب: أنا سأحدثك بقصة حدثت معي، بعد الاحتلال الإسرائيلي للخليل كنت لا أزال صغيراً، ورأيت يهودياً يسير وحده في شارع الخليل، فأغاظني ذاك الأمر فتناولت حجراً عن الأرض وألقيته على ذاك اليهودي ثم هربت وراء الأشجار (التفاح) في قطعة أرض لنا وجلست هناك لبعض الوقت حتى اعتقدت أن اليهودي قد ذهب، وإذ بي أسمع صوت أحد أبناء الجيران ينادي يا جمال يا جمال...تعال لقد ذهب. خرجت من وراء الأشجار فإذا باليهودي يختبئ وراء زاوية البيت، يخرج نحوي وقد أشهر مسدسه نحو رأسي، وبدأ يحاول إخافتي كي لا أعاود الكرة، وقد فهمت أنه بعد أن ألقيت عليه الحجر، قد طرق باب الجيران وهددهم إذا لم يحضروني ويسلموني له أنه سوف يخرب بيتّهم ويسجن أولادهم، فقام أحد أبنائهم بذلك الدور حيث سلمني لليهودي بتلك الصورة.

قاطع عبد الفتاح هذا يحدث هذا يحدث.. ولكن الناس بخير وشعبنا بخير، وأنا أقول إن شعبنا بخير حتى أولئك الناس بخير، فهم أناس طيبون ولكنهم مساكين يخافون على مصالحهم يعني استعدادهم للتضحية محدود، ولا بد من أن تتم عملية طويلة من...قاطعه عبد الفتاح: يا رجل، لا لزوم لأي عملية فالواجب يحتم على كل واحد أن يقوم بدوره لكن مالنا ولهذا الحديث ولماذا أوجع رؤوسكم بأحاديثي عليّ أن أترككم تكملون يومكم.

وقام ينفض ملابسه وهو يقول: أهلاً وسهلاً بكم يا شباب أهلاً وسهلاً بكم ووقف قائلاً السلام عليكم وهو ينفض ثيابه وانطلق منصرفاً، فقام الشباب يمرحون ويتمازحون بين أشجار الزيتون.

أخي محمد وابن عمي إبراهيم تأثرا كثيراً بأخي حسن وتدينه فبدآ يصليان ويلتزمان بالصلاة تدريجياً ويترددان معه على المسجد، أنا لم أكن مثلهم، كنت أصلي أحياناً وأترك الصلاة أحياناً أخرى وكنت أرافقهم أحياناً إلى المسجد فنصلي تلك الصلاة جماعة.

ثم نجلس أحياناً في إحدى تلك الحلقات التي يعقدونها بعد الصلاة، فبدأ أحدهم يتحدث في أحد الموضوعات الدينية يفسر شيئاً من القرآن أو يشرح حديثاً شريفاً، أو يقرأ في أحد الكتب ويشرح ما يقرأ، أو يشرح شيئاً من السيرة النبوية وأحياناً بعد صلاة المغرب حين أصلي معهم في المسجد كانوا يجلسون في تلك الحلقات ويبدأون في قراءة أدعية يسمونها المأثورات بصوت جماعي أنا لم أكن أحفظ مثلهم ما يقرأون فأحرك شفتي معهم وكأنني أحفظ ما يقرأون.

محمود كان مستاءً جداً من تدين محمد وإبراهيم وقد ساءه من قبل تدين حسن. وكثيراً ما كان يجلس معهم جميعاً أو مع كل واحد منهم على حده، يقنعه بالامتناع الدائم عن الذهاب للمسجد والجلوس فيه والمشاركة في الأنشطة التي تجري هناك، محذراً من أن من يشرف على ذلك هم إخونجية يعني (إخوان مسلمين)، الشيخ أحمد إخونجي والإخوان ضد عبد الناصر وضد الوحدة العربية ولا يعترفون بمنظمة التحرير الفلسطينية، ويقولون إن شهداء الثورة الفلسطينية (فطايس) وليسوا شهداء ولا يشاركون في المقاومة والعمل المسلح، فينظر إليهم ثلاثتهم إن كانوا سوية أو أحدهم حيث يكون وحده مستغرباً قائلاً ماذا تقول؟ أنا ذاهب للمسجد وأجلس في الندوات وأسمع ما يقال، وليس هناك أي شيء مما تقول! فيقول محمود وقد ارتفع صوته وازدادت حدته: (ولك أنا بعرفهم، ماهم بقولوش هذا الكلام إلكم هلقيت، هلقيت بيحكو لكم عن الدين والإسلام والرسول والصلاة وبعدين بيدخلوا للموضوعات الساخنة) فيعبر أحدهم عن تذمره قائلاً: (يا راجل سيبك من هالحكي هو إنت بتحسبنا ولاد صغار).

في كل المرات التي ذهبت فيها إلى المسجد وجلست فيها في تلك الندوات لم أسمع أحداً ممن تحدثوا فيها قد تطرق للسياسة، أو ذكر فلسطين أو المقاومة أو الاحتلال ولا حتى تاريخ القضية الفلسطينية، ولا منظمة التحرير ولا فتحاً ولا الشهداء ولا غيرهم، فقط كانوا يتحدثون في موضوعات دينية محضة.

فهل التطرق لتلك الموضوعات تم في جلسات لم أكن أحضرها لا أدري. ولكن كنت مثلي مثل كل الشباب في المخيم في تلك الفترة، أشعر بشيء كبير من الاحترام والتقدير لأبي عمار "ياسر عرفات" الذي أصبح رمزاً للثورة الفلسطينية، وأعتبره قائدي وزعيمي، ولطالما رفعنا صورته في المظاهرات، ولطالما رددنا شعار (بالروح بالدم نفديك يا أبو عمار) وقد كنا نقول ونردد ذاك الشعار من أعماق قلوبنا، وبكل صدق وجدية.

لكني كنت ألاحظ أن أخي حسناً ليس مثلي ومثل الباقين من الشباب في المخيم فلم أكن أشعر أنه حين يذكر اسم أبي عمار ينفعل أو يتأثر مثلنا وكأنه أي شخص آخر يذكر أمامه، لكنه لم اسمعه ولو لمرة واحدة يصرح بموقف معادٍ أو مضاد لعرفات أو لمنظمة التحرير.

وحين يطرح موضوع الشهداء، فيقال الشهيد فلان أو استشهد فلان، كان أحياناً يصرح بأن الله هو العالم بمن هو شهيد ومن ليس شهيداً، فهذا موضوع مرتبط بالنوايا والقلوب، وقد كانت صراحته تزداد حين يذكر أن أحد أفراد الجبهة الشعبية استشهد، فيقول: ومن يدري أنه شهيد؟ فقد يكون أصلاً غير مؤمن بالله وملحداً فكيف يكون شهيداً إذاً...؟ في مثل هذه المواقف كان محمود يحتد ويصرخ عليه من أنت ومن كل مشايخك حتى تحددوا أن فلاناً شهيد وفلاناً غير شهيد وأنتم تجلسون في بيوتكم وعند نسائكم تصدرون الفتاوى على الناس التي تحمل روحها على أكفها وتناضل في سبيل الوطن..فيتمتم حسن بكلمات غير واضحة، ويقف بحدة وعصبية، ويغادر المكان فإذا ما كان فيه محمد وإبراهيم غادرا المكان بعده بقليل، فتخرب الجلسة وتنفض.

كان الحوار يحتد كثيراً جداً إذا ما كان عبد الحفيظ في إحدى هذه الجلسات فيبدأ بالتهجم على المشايخ وعلى الدين ويصل به الحد إلى القول أن الإخوان عملاء لأنهم يقبضون رواتب من السعودية، بالإضافة إلى نقاشات فكرية مختلفة وكان حسن يرد عليه ردوداً غاضبة بتهمة الإلحاد وعدم الإيمان بالله، وأنهم أذناب للاتحاد السوفيتي الذي كان أول من اعترف بقيام دولة إسرائيل عام (١٩٤٨).

كان الكثير من حديث حسن وحواره يعجبني ويجد صداه مع نفسي وأعماق روحي لكني كنت لا أفهم مواقفه في عدة نقاط وكنت أرى ضعفه واضحاً جلياً حين يناقشون معه دور الإسلاميين في حمل الهم الوطني، ودورهم في المقاومة المسلحة ضد الاحتلال إضافة إلى موقفهم من الشهداء الذين يقضون في سبيل الوطن.

كذلك موقفهم المغمغم من منظمة التحرير الفلسطينية، وكان حسن ومحمد وإبراهيم كانوا يشعرون بعجزهم الواضح في تلك القضايا وعدم قدرتهم على إقناع الآخرين بموقفهم حيث أنهم هم أصلاً غير فاهمين بالضبط ما هو الموقف من تلك القضايا وكأنهم توجهوا للشيخ أحمد وسألوه عن الأمر فأخبرهم أنه سيتحدث في هذه الأمور في الندوات التي سيعقدها في المسجد خلال الأيام القادمة.

بعد أيام أحسست أنهم يريدونني أن أذهب معهم إلى المسجد في صلاة المغرب حيث عادة ما تعقد تلك الندوات بين المغرب والعشاء فذهبت معهم، صلينا المغرب وراء الشيخ حامد الذي كان قد هرم وصوته لا يكاد يسمع والمسجد كان مكتظاً بالشباب والرجال والأولاد على غير ما كان عليه عندما كنت آتي إليه مع جدي -رحمه الله- وأنا طفل. وبعد الصلاة انصرف بعض الناس من المسجد ثم جلس عدد كبير من الشباب حوالي خمسين شاباً في حلقة.

وجلس الشيخ أحمد الذي بدأ حديثه: فحمد الله وصلى على رسوله، ثم بدأ يتحدث عن دور الإنسان في الأرض وعبوديته لله ضارباً مثلاً واضحاً لمن فهم الرسالة بربعي ابن عامر رسول سعد بن أبي وقاس إلى رستم قائد الفرس قبل يوم القادسية، حين سأله رستم ما الذي جاء بكم من جزيرة العرب لقتالنا فقال: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد لعبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وشرح ذلك مستفيضاً موضحاً أن هذا الفهم يصعب على الناس اليوم من شعبنا فهمه في ظل أزمة وجود شعبنا وأرضنا تحت الاحتلال ولكنه هو وحده طريق التحرر والخلاص ولكن الناس لا تدرك ذلك وحتى قد تعادي هذا.

كما كان الرسول ﷺ في مكة يدعو أهلها والعرب إلى الإسلام وفيه عزهم وسؤددهم وهم لا يدركون ذلك، فعادوه وحاربوه وقد ثبت في النهاية أن عز العرب بالإسلام وهذا ما كان وهذا ما سيكون فعزنا بيدينا.

ثم بدأ يتحدث عن تعريف الشهيد في الإسلام بما مفاده من قاتل لكي تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وأن هذا هو التعريف الشرعي لمعنى الشهيد، أما ما اصطلح عليه الناس بأنه شهيد فهذا شيء آخر وتحدث طويلاً عن مفاهيم مرتبطة بطبيعة الجماعة الإسلامية التي تمثل المسلمين، وكأنه يتحدث عن تحفظه على أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ولكن دون أن يكون ذلك صراحة بل تلميحاً.

جاء الشيخ حامد وأذن العشاء فقمنا إلى الصلاة وقد قدم الشيخ حامد أحمد للإمامة فصلى بالناس وقرأ في الصلاة آيات مطلع سورة الإسراء وكان يكرر في صلاته بعض الكلمات أو الجمل من الآيات وكأنه يكمل درسه من قبل الصلاة حول موضوع (عباداً لنا أولي بأسٍ شديد) وقد أدركت أن الشيخ يتجنب الحديث عن موضوع الصراع مع الاحتلال صراحة، ويحاول التلميح إليه خشية مطاردة سلطات الاحتلال له وملاحقته ومنعه من القيام بنشر فكرته.

حسن ومحمد وإبراهيم خرجوا من المسجد راضين وقد عبروا في حديثهم أثناء طريق عودتنا إلى ادار عن شعورهم بالرضى والقناعة من كلام الشيخ والإعجاب به ولم أكن أدري ما يعجبهم في الأمر، رغم أن كلام الشيخ كان جميلاً ومؤثراً ولكن ليس فيه إجابات واضحة على التساؤلات التي يطرحها كل من محمود وعبد الحفيظ في حوارهما مع حسن.

كان مستوى الحياة في المخيم قد بدأ يتطور ويرتقي بصورة ملحوظة فقد أصبح في معظم البيوت عامل أو عاملان ممن يعملون في إسرائيل ويكسبون دخلاً ممتازاً مقارنة بأوضاع القطاع القديمة أو في الدول العربية مثل السعودية والكويت. وبدأت أوضاع الناس تتحسن بصورة واضحة، فبدأت تجد في كل الدور أجهزة مذياع وفي كثير منها أجهزة التلفزيون، وكثير من البيوت اشتركت في شبكة الكهرباء فأصبحت تضاء والبعض منهم أصبح لديه ثلاجات أو أفران غاز ومعظم البيوت اشتركت في شبكة المياه، في بيتنا كان مذياع جيد واشتركنا في شبكتي الكهرباء والمياه، ولكن لم يحالفنا الحظ بعد بالتلفزيون أو الثلاجة أو فرن الغاز، ورغم ذلك فحالنا كان أفضل بكثير من حال العديد من العائلات التي ظلت في حالة الضنك.

المهم في الأمر أنه خلال العقدين الماضيين من بعد الهجرة بعد نكبة (٤٨) قد تضاعفت أعدد سكان المخيمات بصورة مذهلة حيث لم تعد البيوت تتسع لساكنيها، وخاصة أن كثيراً ممن كانوا أولاداً حينها أو حتى ممن ولدوا بعد النكبة قد أصبحوا رجالاً وتزوجوا وأنجبوا أولاداً وبنات وأصبح في كل بيت واحد أو أكثر من الأخوة المتزوجين، وتحولت بيوت المخيم المكتظة أصلاً إلى ما يشبه كراتين فراخ الدجاج.. .

في هذا الوقت بدأ الحديث عن مشاريع إسكانية تعد لها دائرة الإسكان في الحاكمية العسكرية بحيث أن من يريد أن يتوسع في دار المخيم يمكنه أن يسجل اسمه في الإسكان ويدفع رسوماً رمزية شريطة أن يهدم دار المخيم، وبذلك يمنح كل واحد متزوج في هذه الدار غرفة سكنية في الأحياء التي ستنشأ.

وقد فتح هذا الأمر جدلاً عنيفاً في أوساط سكان المخيم، فلا تجد تجمعاً أو لقاء أو زيارة إلا ويطرح فيها هذا الأمر وينقسم الناس إلى معارض ومؤيد، المؤيد يطرح فكـرة التعاطي مع الواقع، حيث لا يمكننا العيش في المجتمعات مثل (علب السردين) إلى مـا لا نهاية.

فالبيوت لا يمكنها الاتساع لنا مع الزيادة الكبيرة في النسل، وحل القضية لـيس في الأفق المنظور ولا يمكننا شراء أرض عادية والبناء عليها فكلفة ذلك أعلـى مـن أن تطاق والمعارضون يخشون من ذوبان قضية اللاجئين بتفريغ المخيمات من سكانها، وأن هذا هو هدف الاحتلال توطين اللاجئين في هذه الأحياء وإنهاء قضيتهم.

استمر الجدل وكانت تلك المشاريع لا تزال مجرد فكرة لم تخرج لحيز التنفيذ بعد حتى يثبت رأي أحد الطرفين أو عكسه.

قبل زواج أخويّ محمود وحسن، لم أكن أعرف أن هناك شيئاً اسمه مواد تجميل فأمي مثلها مثل نساء المخيم لم تستخدم تلك المواد، وكل ما كـان يطـرأ علـيهن فـي المناسبات السارة هو أنهن ينزعن الشعر عن وجوههن ويخففن من حواجبهن، ورغم ذلك فقد كن يبدون غاية في الجمال. ومَن تلك التي كانت ستبحث عن مواد التجميل وهـي لا تجد قوت أولادها وأولادها لا يعرفون طعم اللحم إلا فـي المناسـبات العظيمـة، أو لا يميزون بين أسماء وأصناف الفواكه التي لا يرونها إلا في صـور كتـب الأحيـاء فـي المدارس.

حين كانت تتزوج إحدى الفتيات كان يبدو واضـحاً أن النسـاء حـين يزينهـا يستخدمن بعض مواد التجميل، ولكن لم تدرك أن هناك شيئاً اسمه مواد تجميل ولكن بعد زواج محمود وحسن، وعندما كنت أدخل إحدى غرفهم كنت أرى في رفوف (التسريحة) -وهي خزانة في وسطها مرآة كبيرة توضع في غرف النوم- عدداً من القناني والعلـب التي فهمت أنها مواد تجميل، ولكنها على ما يبدو لم تكن للاستخدام أكثر من يوم الزفاف وفي مناسبات الزواج للأقارب..لم نر حتى هذا الوقت أياً من النساء تسير فـي شـوارع المخيم وهي متبرجة وتضع على وجهها تلك المواد.

صحيح أن كثير من النساء لم يكن يغطين رؤوسهن وبعضهن كن يغطينها، ولكن مواد التجميل لم تكن معروفة أو مشهورة حتى مع الشعور الواضح بتحسن وضع النـاس الاقتصادي العام...لم نشعر أن هناك تغيراً كبيراً في هذا المضمار، ولكن لا شـك بـأن بعض النساء كن قد بدأن يستخدمن من هذا أنواعاً ولكن هذا ظل محدوداً.

فتيات المخيم كن على طبيعتهن دون مواد تجميل دون أي عمليات تجميل، حتى البدائية جداً مثل نزع الشعر وتخفيف الحواجب، ورغم ذلك فقد كن في العادة مثل البدور وأجمل ما في غالبيتهن كان الحياء في أوج درجاته فإذا سألت الواحدة منهن ظلت عيونها نحو الأرض ولو صادف أن وجهت نظرها، والتقى بنظر أحد الشباب خفضته فوراً، والدم يكاد يتفجر من وجنتيها، الأمر الذي يزيدها جمالاً على جمالها...

"خليل" أحد أبناء الجيران كان قد بدأ يتعلق بإحدى فتيات المخيم بعد أن التقى نظره بنظرها ذات مرة، أحس أنه أحبها، وبدأ يحس أنها تبادله الشعور، فبدأ دوماً ينتظر خروجها من البيت للمدرسة وعودتها من المدرسة إلى البيت، دون أن يجرؤ على الاقتراب منها، أو يتبادل كلمة واحدة معها، كان يكتفي في معظم الأيام بأن ترفع عينيها عن بعد فتلتقي عينه بعينها، ثم تخفض نظرها فيدرك أنها تبادله ذلك الشعور، ويكتفي بذلك إلى أن يتمكن من التقدم إلى أهلها ليخطبها منهم بعد أن ينهي دراسته ويجد له عملاً، ويجمع ما يكفي لتغطية تكاليف البناء والزواج ليتقدم لخطبتها.

بعض الشبان كانوا يتراسلون مع فتيات أحبوهن، وبعضهن كن يجبن على تلك الرسائل أي غالبية شبان وشابات المخيم كانوا ملتزمين بالقواعد الصارمة بعدم الاقتراب من هذا الميدان وقد كنا وفقاً لتعليمات أمي الصارمة وتربيتها السامية أبعد ما نكون عن هذه الأشياء، ولكن يبدو أن بعض الشبان والشابات قد تجرأوا وأوغلوا في هذا المجال...وبدأوا يتعاملون معه وكأنه لعبة.

فذات مرة كنت قادماً من شاطئ البحر إلى الدار، وبينما التفت عند زاوية الدار وإذا بإبراهيم ابن عمي عائد من المسجد وإذا بواحدة من فتيات الجيران من تلك الفتيات اللعوبات تجلس عند باب دارهم فحين رأت إبراهيم يسير مستحيياً وهو ينظر إلى الأرض وفقاً لتوجيهات المشايخ في المسجد وتعليمات أمي ووصاياها الدائمة. حين أصبح قبالتها نظرت إليه وقالت بصوت لعوب (إنه الكبر لأنه سيدي الشيخ، دخيلك اطلع علينا ياهل الله ياللي فوق متطلعوا علي تحت) نظرت نحو إبراهيم فوجدته قد انفجر وجهه احمراراً من شدة الحرج والخجل وأصبحت خطوته ثلاثة أضعاف ما كان، كمن يفر من اعتقال طويل الأمد وظلت تلك الكلمات مطروحة محرجةً لإبراهيم، وجملتي التي أهدده بفضحها لزوجة عمه (أمي) إذا ما لف ودار معي.

انتصار عام ١٩٧٣ ورغم أنه لم تخفف شيئاً عملياً لنا كفلسطينيين كان نقطة تحول استراتيجية في مشاعرنا جميعاً، صحيح أننا لم نر إسرائيل تزول وترحل عن فلسطين ولم نعد إلى بلدتنا ومدننا وقرانا التي هُجر منها أهلنا عام ١٩٤٨ وحتى لم تتحرر المناطق التي احتلت عام ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء وأن كل ذلك الذي حصل عملياً هو تقدم الجيش المصري واجتيازه لقناة السويس وخط بارليف، إلا أننا شبعنا وارتوينا حتى تمام الرضى من هزيمة إسرائيل..

هكذا فهمنا الأمور حينها وصدقنا وآمنا وأقنعتنا بكل عقولنا وقلوبنا أن أسطورة إسرائيل وجيشها الذي لا يقهر قد انهارت أمام عظمة وإرادة الجندي العربي الذي خاض معركة معقولة سواء على الجبهة المصرية أو الجبهة السورية، وكانت رؤوسنا جميعاً تكاد تطاول السماء فخراً وعزاً.

ولكن مشاعرنا تلك بدأت تنقلب تدريجياً أمام النبرة الجديدة التي بدأنا نسمعها من الرئيس المصري السادات حول استعداديته للسلام مع إسرائيل.. وكم كانت صدمتنا عظيمة ونحن نسمعه يعلن أنه مستعد لزيارة الكنيست الإسرائيلي، والمصيبة كانت قد ألجمتنا تماماً ونحن نسمع المذياع وهو يغطي زيارة السادات للقدس وخطابه في الكنيست أمام الحكومة الإسرائيلية وأعضاء الكنيست في إسرائيل، لم يكن عندنا في الدار جهاز تلفزيون. لذا لم نر تلك الصور ولكن التغطية للحدث في المذياع كانت كافية لصدمنا بصورة أفقدتنا القدرة على إدراك هل كان ذلك حقيقة أم مجرد خيال؟ ويبدو أن الصدمة أصابت العالم العربي بأسره أو في معظمه حيث أن مستوى التناقضات والخلافات التي حدثت بين الأنظمة كانت خطيرة وبعيدة الأثر وبصورة طبيعية فقد كنا كفلسطينيين نميل بكل جوارحنا إلى الصوت المعارض والمضاد والهجومي ضد السادات وضد اتفاقيات كامب ديفيد، حيث أننا كنا نحب أن نسمع لمحطات المعارضة خاصة تلك المحطة التي كانت تبث من بغداد.

الحدث الأهم بالنسبة لنا على مستوى العائلة هو أن الجامعات المصرية قد أغلقت أبوابها أمام الطلبة الفلسطينيين، على خلفية التناقض الكبير بين السادات ومنظمة التحرير المعارضة بقوة للسلام مع إسرائيل، والذي كان معروفاً واضحاً وصريحاً وقد تتوج بأنه قام بعض الفلسطينيين بقتل الكاتب الصحفي المعروف "السباعي" على خلفية ذلك، صدر القرار المصري السياسي بتقليص العلاقات مع الفلسطينيين والذي شمل عدم قبول خريجي الثانوية العامة الفلسطينيين من القطاع في الجامعات المصرية، كما كان من قبل.

أنهى أخي محمد هذه السنة دراسته الثانوية وكان من المفترض أن يتم قبوله في الجامعات المصرية، وقد كان وضعنا الاقتصادي في هذا الوقت أنسب ما يكون لذلك (هناك) ووقف محمد حينها على مفترق طرق أين يدرس؟ في نهاية الأمر اتفق على أن يدرس في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية قرب مدينة رام الله، فسافر إلى هناك وقدم طلب التحاق بالجامعة، وقد قبل في كلية العلوم، وبدأ الدوام هناك منذ مطلع العام الدراسي الجديد، حيث اشترك مع طلاب آخرين واستأجروا إحدى الشقق في مدينة رام الله وسكنوا هناك، وكان محمد يعود إلى البيت مرة كل شهر يمكث عندنا عدة أيام ثم يعود إلى رام الله.

العمل الفدائي لم يتوقف في الأراضي المحتلة وداخل الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨ ولكنه تقلص بصورة كبيرة وبدأ كثير من العمل الوطني يأخذ صورة العمل السياسي والنقابي والجماهيري، كانت السلطات الإسرائيلية قد سمحت بإجراء انتخابات للبلديات في الضفة الغربية وقد تبلورت الأطر السياسة في مختلف المناطق لتخوض الانتخابات.

في الخليل تحالف ممثلو حركة فتح وعلى رأسهم فهد القواسمي مع الإخوان المسلمين وغيرهم ضد الشيخ الجعبري الذي كان في رئاسة البلدية منذ الحكم الأردني في الضفة الغربية وإبان فترة الاحتلال الإسرائيلي، وقد انسحب الشيخ "الجعيري" حين وجد أن حظه في الفوز ضعيفاً، ففاز التحالف الفتحاوي/الإخواني وتشكل مجلس البلدية من خليط فكري وسياسي. كما فاز في مدن الضفة الأخرى مندوبون وطنيون ووجوه وطنية معروفة مثل "بسام الشكعة" في مدينة نابلس وغيره. في نفس الوقت تشكلت العديد من النقابات المهنية مثل جمعيات المهندسين، والجمعيات الطبية، وجمعيات المحاميين في شتى مدن الضفة الغربية التي كانت تجري فيها انتخابات دورية لاختيار الهيئات الإدارية فيها، وكان التنافس فيها بين قوى اليسار وفتح، ثم بدأ يبرز التيار الإسلامي الذي كان في الغالب يتحالف مع فتح ضد اليسار ثم بدأ في بعض المواقع يخوض الانتخابات بمفرده، كذلك فقد بدأ نشاط شبيه في الجامعات، جامعة النجاح الوطنية في نابلس وجامعة بيرزيت في بيرزيت قرب رام الله، وفي جامعة الخليل التي بدأت تتطور عن كلية الشريعة في المدينة...

في هذا الوقت من أواخر السبعينيات وبعد إغلاق أبواب الجامعات المصرية أمام الطلاب من قطاع غزة اجتمع عدد من وجوه مدينة غزة وقرروا فتح جامعة في قطاع غزة وبدأوا بالعمل على تخفيف ذلك بالاتصال بالسلطات الإسرائيلية التي لم توافق على افتتاح جامعة.

لكنه لم يكن من الصعب الاتفاق على ذلك، حيث فتحت جامعة في مدرسة معهد الأزهر الديني الثانوية في غزة في الفترة المسائية، وكأنها امتداد للمعهد ثم بدأت تتسع تدريجياً وتتحول إلى جامعة رغم أنها لم تحظ باعتراف سلطات الاحتلال مطلقاً، بل عانت طيلة الوقت من الحصار والمضايقات.

وواصلت تلك الوجوه اتصالاتها مع قيادة منظمة التحرير في الخارج لتلقي الدعم لفتح الجامعة، ومع بعض الوجوه المعروفة في فلسطين والخارج لتجنيدهم لجمع الدعم المادي للجامعة في الدول العربية... ولأن اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل قد خرجت إلى حيز التطبيق، فقد بدأت إسرائيل بمحاولات تجميل صورتها في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وكتحضير للحكم الذاتي الذي تضمنته اتفاقيات كامب ديفيد، فأنشأت ما يسمى الإدارة المدنية والتي كان عليها أخذ مسؤولية إدارة المناطق من القيادة العسكرية كمرحلة تمهيدية للحكم الذاتي المزمع إقامته بعد حين.

الإدارة المدنية كان مجرد اسم جديد للحكم العسكري والتغيرات لم تكن ذات قيمة واضحة ومميزة، ولكن على مستوى فتح المجال أمام بعض التعبيرات السياسية المضبوطة، فقد كان ملموساً كما سبقت الإشارة لذلك.

خلال هذه الفترة نشط الإسلاميون وتقدموا بطلبات لافتتاح مؤسسات وجمعيات وفقاً للقانون العثماني، وسمح لهم بذلك مثل الجمعيات الإسلامية، وجمعيات الشبان المسلمين والمجتمع الإسلامي والجمعيات الخيرية والأندية ورياض الأطفال والعيادات الطبية. والتي من خلالها بدأوا يقدمون الخدمات للأهالي ومن خلال ذلك ينشرون الفكرة للإسلاميين.

أختي تهاني تخرجت خلال هذه الفترة من معهد المعلمات وبعد وقت توظفت في مدرسة الوكالة الابتدائية للإغاثة في المخيم كمعلمة، وبعد وقت تقدم لها أحد الشبان الطيبين وتزوجت به، وكانت سعيدة في زواجها وراضية أيما رضى.

الفصل الثالث عشر

انتهى العام الدراسي، فتقدم طلاب مدرسة طارق بن زياد في الخليل لامتحانات إنهاء العام الدراسي وظهرت النتائج وبدء خريجو الثانوية العامة يبحثون عن آفاق مستقبلهم فمنهم من سيدرس في كلية الشريعة/جامعة الخليل، ومنهم من سيبحث عن فرصة دراسة في الجامعات السعودية، ومنهم من سيبحث عنها في الجامعات الأردنية.

زوج خالتي كان لازال يحلم بالدراسة في الجامعة الأردنية، ولكنه كان مدركاً أن القطار قد فاته وأن مشاغله أصبحت أكبر من التفرغ للدراسة، وقد رأى عند تخرج أخيه عبد الرحمن من المدرسة الثانوية فرصة ليحقق حلمه من خلاله.

حدثه عن الدراسة في الجامعة الأردنية، فوافق على ذلك حيث توافق ذلك مع رغبته خاصة في كلية الشريعة، وقد توافق ذلك مع رغبة صديقه جمال الذي كان معه اللقاء والحوار على سفح الجبل في قرية صوريف.

وبالفعل فقد قبل الاثنان في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية. وقبيل بدء العام الدراسي سافرا إلى عمان وفي عمان استأجرا هما وطلبة آخرون شقة سكنية في حي المهاجرين، وهو حي شعبي فيه بعض السكان الفلسطينيين. في الجامعة عالم جديد تماماً يختلف عن ذلك العالم الذي عاش فيه عبد الرحمن في صوريف أو جمال في الخليل، أو عاشاه معاً في مدرسة طارق بن زياد.

الحياة الفكرية والصراعات السياسية والانفتاح الاجتماعي ومستوى وقدرة الأشخاص الفاعلين والمؤثرين في مجرى الحياة الطلابية، كل ذلك مختلف تماماً عما عرفا وعاشا من قبل. في كلية الشريعة التي يدرسان فيها مستوى التزام الطالبات بالحجاب كان ممتازاً، ولكن في الجامعة بصورة عامة كانت الحياة منفتحة إلى حد بعيد بالنسبة للمجتمع المحافظ في الخليل وعلى وجه الخصوص في القرى المحيطة مثل صوريف.

لكن عبد الرحمن وجمالاً كانا قد حسما أمرهما واتجاه سير حياتهما بصورة كاملة ومنذ سنوات دراستهما في مدرسة طارق بن زياد في الخليل وانتمائهما الصريح للتيـار الإسلامي وتبنيهما لأفكار الإخوان المسلمين.

هنا في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية في عمان كان عدد من أقطاب الإخوان من المدرسين في الكلية من حملة شهادة الدكتوراه في الشريعة.وهنا التقى جمال وزميلـه مع أشخاص ذوي خبرة في العمل الدعوي والجماهيري والتقيا بمن كانوا أعلى من سقف أحلامهما، فغرقا في النشاط الطلابي وما يكتنفه من صراعات فكرية وسياسية في ردهات الجامعة وساحاتها.

في الجامعة الأردنية كان قد صدر قرار بإلغاء الاتحادات الطلابية ولكن ذلك لـم يحل دون أن يكون مستوى التفاعل في الأنشطة الطلابية في قمته، وقد وجـد الطـلاب متنفساً في الانتخابات التي تجري بما سمي الجمعيات، وقد ترشح جمال لجمعيـة إحيـاء التراث في كلية الشريعة، وكان من الفائزين ضمن مرشحي التيار الإسلامي المحسـوب على الإخوان. حيث بدأت الجمعية تدير جوانب من النشاط الطلابي في المجالات الثقافية والسياسية والتربوية بترتيب الرحلات إلى الأماكن الأثرية والتاريخية أو تنظيم الرحلات للحج والعمرة حتى اقترح أحد أعضاء الجمعية تمثيل مسرحية (عالم وطاغيـة) للشـيخ "يوسف القرضاوي"، ناقشت الجمعية الفكرة وقـررت تبنيهـا وبـذل الجهـد المطلـوب لإنجاحها، رصدت لها ميزانية وتم الاستعانة بمخرج تلفزيوني حيـث تمـت التـدريبات وأجريت البروفات مراراً وتكراراً وحين بدأ العرض فقد لاقت المسرحية نجاحاً ملحوظـاً للغاية لم يُخف الكثير من الدكاترة والمحاضرين دهشتهم وإعجابهم بالمستوى الرائع.

في هذه الفترة كان الاجتياح الروسي لأفغانستان والذي كان له انعكاساته الكبيرة على مستوى الأنشطة الطلابية في الجامعة، حيث إن الإسلاميين أبرزوا الحديث وبـدأوا ينظرون للثورة في أفغانستان والمجاهدين، وبات واضحاً أنهـم يتبنـون الثـورة هنـاك ويعتبرون أنفسهم امتداداً لها، وبدأت أحاديث عديدة في أوساط الشباب الإسـلامي عـن وجوبالسفر إلى أفغانستان لنصرة المجاهدين والشعب المسلم هناك، وقـد وصـل الأمـر بجمعية إحياء التراث أن تتبرع بخمسة آلاف دينار من ريع المسرحية (عـالم وطاغيـة) الذي وصل إلى حوالي خمسة عشر ألف دينار.

ازدادت حركة الاستيطان اليهودي وتصاعدت في كل أنحاء الضفة الغربية فأينما أدرت وجهك وجدت أرضاً تصادر ومستوطنات تنشأ ومستوطنين يهود يسكنون الأرض ويبدأون في التعامل معها على أنها أرضهم، الأمر الذي أثار حفيظة السكان ودفع لجنة التوجيه الوطني حينها إلى بدء التوجه لحملات من المظاهرات والمسيرات والعمل الإعلامي ضد الاستيطان.

بدأت الأحداث تتصاعد وعمليات رشق الحجارة والزجاجات الحارقة تزداد وقد برز دور بعض المخيمات في الضفة الغربية خاصة مخيم الدهيشة قرب بيت لحم وعلى الطريق من القدس إلى الخليل التي تكتظ بحركة المستوطنين.

على خلفية هذا التوتر بدأت تتشكل مجموعة يهودية متطرفة من المستوطنين بصورة سرية وبدأت تخطط لاغتيال عدد من الشخصيات الوطنية الفاعلة من أعضاء لجنة التوجيه، يساعدهم ضباط متفجرات في الإدارة المدنية، وقد نجحوا في جمع معلومات عن عدد من الشخصيات وزرعوا لها عبوات ناسفة في السيارات أو في المرآب.

ومع صباح ذلك اليوم بدأت هذه العبوات تنفجر فأصابت البعض وتظاهرت قوات الاحتلال وكأنها اكتشفت باقي العبوات، وفككتها، هذه الأحداث أججت الأراضي المحتلة ورفعت مستوى التوتر على مستوى الفعاليات الشعبية بصورة منقطعة النظير، ولكن بالمقابل كان من الواضح أن مستوى عمل المقاومة المسلحة قد انخفض بصورة كبيرة جداً، إحدى بؤر هذه الفعاليات كانت جامعة بيرزيت، قرب رام الله والتي برزت خلال هذه الأحداث كمركز واضح للعمل الوطني.

في ظل هذه الأجواء وصل أخي محمد إلى رام الله بعد أن تم قبوله في كلية العلوم/جامعة بيرزيت إلى عالم جديد تماماً عن عالم المخيم المحافظ والمغلق وعن عالم قطاع غزة بصورة عامة. في جامعة بيرزيت حينها لا تجد فتاة واحدة تغطي رأسها، وتجد جميعهن متبرجات وفي غاية زينتهن ولا تجد الفتاة حرجة من الحديث مع الشباب، وممازحتهم والسير معهم حتى الاختفاء وراء أشجار الزيتون المترامية، مجتمع مفتوح تماماً كأي من المجتمعات الغربية. كان من الصعب جداً على محمد أن يندمج في هذه الحياة الجديدة؛ لأنه أولاً لم يعثر على مثلها في قطاع غزة وفي مخيم الشاطئ ولأن تربيته والمنهج الذي ارتضاه لنفسه والقواعد الدينية التي قرر الالتزام بها تجعل إمكانية حياته في هذا المكان شبه مستحيلة.

أما على مستوى الصدامات مع قوات الاحتلال في المظاهرات التي تندلع بين الحين والحين الآخر إزاء كل تطور يطرأ على الساحة الفلسطينية، فلم يكن من الصعب التعاطي معه فمن ترعرع في مخيم الشاطئ وعاش بين أحداث المقاومة المسلحة في قطاع غزة يجد مثل هذه الأحداث بسيطة وسهلة مقارنة مع ما رأى وشاهد.

كل البيوت في بلدة بيرزيت استؤجرت من قِبل الطلاب القدامى فلم يجد متسعاً له هناك لذا اضطر أن يستأجر هو وعدد آخر من الشبان في رام الله، لذا كان عليهم يومياً السفر من رام الله إلى بيرزيت سفراً ليس طويلاً وكلفته محدودة، ولكنه يجعل الواحد مضطراً لقضاء طيلة الوقت بعيداً عن غرفة دراسته وراحته وطعامه في انتظار المحاضرات التالية.

في هذا البيت اكتشف محمد عدداً من التناقضات والأمور التي لم تناسبه حيث أنه الوحيد الملتزم إسلامياً من بين الشبان الستة الذين سكنوا معه في نفس الدار، وبعضهم كانت له توجهات فكرية متناقضة فأحدهم كان ماركسياً يعلن ذلك صراحة ودون تردد، وقد كان هذا التيار في الجامعة يكاد يكون التيار الأبرز في حينها لذا لم يتورع هذا الشاب عن التهكم على محمد وعبادته ودينه، الأمر الذي كان يُدخل البيت في كثير من الأحيان إلى وضع من التوتر والقطيعة.

شاب آخر كان غير متفرغ للدراسة مطلقاً فكل همه أن يتحدث عن الفتيات وجمالهن وعلاقاتهن وتجاوزاتهن، وعن بطولاته هو في هذا الميدان، يمكث الساعات ليكتب رسائل الغرام، ثلاث أو أربع رسائل في نفس الوقت لثلاث أو اربع فتيات مختلفات ثم يبدأ يقرأ تلك الرسائل بصوت مرتفع ليسمع كل من في الدار غير آبه أو غير منتبه لأخطائه التي لا تحصى في الصياغة والنحو وغير آبه بمن حوله ممن يدرسون ويرجونه الكف عن ذلك.

أوضاعنا المادية كانت قد تحسنت كثيراً لذا فلم تكن هناك مشكلة لدى محمد من الناحية المالية والمصرفات لكنه كان يحاول الاقتصاد ما أمكنه ذلك ليوفر على البيت ولكن ذلك لم يمنعه في كثير من الأحيان من الذهاب إلى مطعم الجامعة ليتناول طعام الغداء، هناك في الأيام التي يكون فيها مضطراً للدوام شبه الكامل على مدار اليوم في الجامعة انتظاراً للمحاضرات.

في مثل هذه الأيام كانت تواجه محمد مشكلة أداء الصلوات، صلاتي الظهر والعصر وحتى أحياناً صلاة المغرب فليس في الجامعة مسجد فيضطر للانزواء خارج مبنى الجامعة قريباً من إحدى أشجار الزيتون ليؤدي الصلاة، ولكنه بعد وقت قليل عرف أن في البلدة مسجداً رغم أن غالبية أهلها الساحقة من المسيحيين فبدأ يتردد على المسجد لأداء الصلوات فيه كلما سمح له وقته بين المحاضرات، وللمفاجأة فقد تعرف في المسجد إلى العشرات من الشباب من طلاب الجامعة ممن يؤدون الصلوات ويلتزمون إسلامياً.

هذه المجموعة من الشباب المؤمنين المتدينين تحقق بينها درجة عالية من الانسجام والتآلف في تلك الأجواء الغريبة والمعادية تماماً لأي صورة من صور التدين.
حين يعود لرام الله بعد المحاضرات والدوام في الجامعة يخرج أحياناً للتجوال في شوارع المدينة الهادئة ليلاً وشبه الخالية من المارة، فيسمع أذان العشاء في المسجد القريب، فيبدأ يتبع صوت الأذان الذي يقوده إلى المسجد ويصلي العشاء هناك.

مع تكرار صلاة العشاء والمغرب أحياناً ثم أداء صلاة الجمعة، بدأ محمد يتعرف على عدد من الطلاب الإسلاميين ومن الشباب الإسلاميين في المنطقة الذين بدأوا يشكلون نواة الكتلة الإسلامية في جامعة بيرزيت، يلتفون حول بعضهم البعض، يسيرون معاً ويصلون في المسجد القريب معاً ويجلسون في كافتيريا الجامعة على نفس الطاولة يشربون الشاي ويتحدثون في أمور دراستهم وشؤون الجامعة والنشاط الإسلامي فيها وعلى طاولة أخرى يجلس عدد آخر من شباب فتح يشكلون نواة كتلة فتح، وعلى طاولات أخرى يجلس طلاب وطالبات من جبهة العمل الطلابي لإطار الطلاب للجبهة الشعبية وهكذا.

على كل طاولة عدد من الطلاب لهذا التجمع أو ذاك، كل تجمع من هذه التجمعات يلتقي ليخطط برامج عمله لضم الطلاب غير المنتمين لأي من هذه الاتجاهات ولكسبهم لاتجاهه يبدأون بتحضير قوائم بأسماء الطلاب والطالبات في كل كلية ويصنفونهم حسب ما هو معروف عن توجهاتهم الفكرية والسياسية ويحددون اللامنتمين، ثم يوزعون أنفسهم لبدء الاتصالات بهم وفتح علاقات معهم لبدء دعوتهم للانضمام إلى تجمعهم أو أقل شيء أن يدعمهم في عملية الانتخابات القادمة. عدد كبير من طلاب جامعة بيرزيت هم من الإناث وأي تجمع طلابي يريد العمل وسط الطلاب لا بد له من العمل مع هذا الصنف، وإلا فلن يحقق أي نجاح، الاتجاهات اليسارية لا مشكلة عندها في هذا الميدان حتى أن الكثير من أعضاء هذه الاتجاهات أصلاً من الطالبات أما الكتلة الإسلامية فهناك حواجز كبيرة أمام العمل مع الطالبات.

بعض الطالبات لديهن ميول إسلامية، وتأييد للكتلة الإسـلامية، ولكـنهن لسـن ناشطات وفاعلات وجميع نشطاء الكتلة بمن فيهم محمد على قناعة بضرورة فتح قنـوات اتصال مع الفتيات لدعوتهن للانضمام للكتلة أو تأييدها، لكن محمداً الذي جاء من مخـيم الشاطئ والذي تربى على القواعد الصارمة التي ظلت أمي تعود وتكررها حتى حفظناها جميعاً كان أضعف من أن يقوم بهذه المهمة. هو لو حصل وجاءت إحدى زميلاتـه فـي الكلية لتسأله سؤالاً حول المحاضرة أو كتاب أو أي موضوع يتعلق بالدراسة وبالدراسـة فقط فإنه يحمر وجهه ويتصبب عرقه وينظر إلى الأرض مجيباً إجابات مقتضبة جداً بنعم أو لا أو بزيادة بعض الحروف الأخرى، ثم ينطلق مبتعداً.

الجميع يستعدون للانتخابات كل الكتل أو التجمعات، الجميع يتحدث مع الجميـع مناظرات هنا وحوارات هناك حول تاريخ القضية وحاضرها ومستقبلها ودور كل طائفة واعتراضاتها ونقاش الأفكار والعقائد والأيدلوجيات وساحة الجامعة تغـص بالملصـقات والشعارات واللافتات والجميع يحاول تحصيل أفضل النتائج.

وبعد فرز النتائج للانتخابات يحقق تجمع اليسار أعلى النتـائج ولكـن النسـب متقاربة بين فتح واليسار ولكن اليسار هو من يشكل اتحاد الطلاب لفوزه بأعلى النسـب. أما الكتلة الإسلامية فحققت ما لم تتوقعه رغم كونها القوة الأخيرة في حجمها.

اعتاد محمد أن يعود إلى الدار في مخيم الشاطئ كل شهر مرة تقريباً، يعود مساء الخميس ويظل عندنا يوم الجمعة ثم يعود إلى رام الله يوم السبت صباحاً ليواصل دراسته ونشاطه الطلابي.

جمال وعبد الرحمن أنهيا امتحانات العام الأخير في كلية الشريعة في الجامعـة الأردنية ولم ينتظرا خروج نتائج الإمتحانات بل رزما أدواتهما وعادا فوراً إلـى الضـفة الغربية، أم جمال كان يقلقها أنها تريد أن ترى ابنها وقد اجتمع مع بنـت الحـلال بعـد تخرجه من الجامعة، فبدأت لا تفوت فرصة تتاح لها للاختلاء به إلا وتحدثه عن موضوع الزواج.

جمال كان يطمح أن يكمل دراسته الجامعية للحصول على درجة الماجستير وكان يود السفر إلى الباكستان لإكمال الدراسة هناك. من هناك يستطيع بالإضافة إلـى إكمـال دراسته أن يشارك في أداء بعض الواجب تجاه القضية الأفغانية في أفغانستان ولو بالقليل من المشاركة المعنوية من خلال التواجد في ساحة مجاورة.

وأمام ضغط الوالدة بدأت الفكرة أكثر قبولاً فما المانع من الزواج حيث لا تناقض بين الأمرين. أثناء رحلة السفر لأخذ الشهادة من الجامعة وفي إحدى القاعات التي اجتمع فيها عدد كبير من الخريجين والخريجات، أجاز لنفسه أن ينظر يمنة ويسرة بحثاً عمن قد تكون زوجة المستقبل.

في إحدى الزوايا كانت تجلس فتاة مثل فلقة البدر، كانت مُطرقة تتلفع في ردائها الإسلامي فيزيدها عفة وجمالاً، وكأن القلب حدث صاحبه بأن الهدف قد تحقق فإذا بطفل صغير يأتي دارجاً نحوها فتحتضنه وتقبله، فأدار جمال رأسه وهو يقول لنفسه، استغفر الله العظيم هذا ابنها فهي متزوجة وجلس ينتظر إتمام المعاملات التي يريدها وبينما هو مطرق إذا بصوت امرأة تتحدث إليه قائلة: ألست جمال؟ رفع نظره نصف رفعة وهو يجيب: نعم ما الأمر؟ وقد أدرك أنها تلك المرأة التي نظر إليها قبيل لحظات فقالت: أنا انتصار زميلتك في الكلية وقد كان خالي الحج حسن قد تحدث مع أهلي أنه يريد أن يخطبك لي.

وقد سمعنا عنك كل خير والآن يتقدم لي ابن عمي وهو شاب غير متدين ولا أريده وصمتت حياءً من أن تكمل..حينها أجاز لنفسه رفع نظره فوجد أمامه درة يجللها الوقار والحياء أطرق ثانية وقد احمر وجهه متمتماً: الله يجيب اللي فيه الخير.

حين عاد للأهل والزملاء والمعارف ولشدة الأسف عرف أنها لا تمتلك بطاقة شخصية في الضفة الغربية وهذا يعني أنها لن تستطيع المكوث في الضفة لو قرر العودة وتم الزواج وسيجعل ذلك الحياة صعبة جداً فكثيرون أولئك الذين تزوجوا فتيات ليس معهن بطاقة الهوية الشخصية (الاسرائيلية) التي تثبت أنهن من الضفة فتحولت الحياة إلى جحيم، فقرر أن يصرف نظره عن ذلك الزواج.

حين توجه لطلب تصريح بالسفر للباكستان رفضت سلطات الأمن الأردني منحه ذلك التصريح لكونه مسجلاً لديها أنه ناشط معروف من الإخوان في الجامعة فاضطر للعودة للاستقرار في مدينة الخليل، وبدء العمل فيها، أحد الزملاء دله على فتاة تخرجت هي الأخرى من الجامعة الأردنية من كلية العلوم، ذهبت الوالدة للتعرف عليها وعلى أهلها فنالت إعجابها وعادت تحمل كل الفرح وتقرر الذهاب للتعرف على الفتاة ورؤيتها في بيت أهلها.

حين دخل الغرفة أثقل الحياء رأسه فأطرقه، فجلس على أحد المقاعد في تلك الغرفة حاول البدء بالحديث فإذا بفتاة أخرى وإذا بأمها التي كانت قد دخلت من قبل وظنها من يريد خطبتها تعرف عليها. بدأت الحديث محاولة كسر جليد الحياء اللا محدود وقد قدر الله أن يكون النصيب وتكون شريكة الدرب.

الكثيرون من خريجي الكليات الشرعية من الإسلاميين كانوا يتوظفون في العادة في الجمعية الخيرية الإسلامية في الخليل والتي لها العديد من المؤسسات التعليمية والتنموية والاجتماعية.

جمال ذهب للوظيفة في مدرسة رابطة الجامعيين الثانوية النموذجية، والتي كان واضحاً أنها تتبع بصورة أو أخرى لمنظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يتبع لها كذلك عدد من المؤسسات التعليمية مثل معهد البوليتكنك ومركز الأبحاث، في المدرسة عمل في تدريس الثقافة الإسلامية لصفوف الثالث الثانوي.

العمل في هذه المدرسة والتواجد بين ذلك الكادر الكبير من المدرسين والجامعيين بين شتى الأطر السياسية والفكرية في الشارع الفلسطيني جعل هذا المكان مثل منتدى سياسي حيث يتم نقاش قضايا الساعة ويطرح كل وجهة نظره ويناقش الآخرين فيما لديهم.

كثيراً ما مثل جمال بصورة تحمل تياره الفكري مسؤولية خروج المقاومة الفلسطينية من الأردن لماذا لم يشارك الإخوان في الأردن المقاومة الفلسطينية للإطاحة بحكم الملك حسين؟ فيجيب جمال: إن هذه قضية حسم الإسلاميون رأيهم فيها منذ البداية وهم لم يكونوا ولن يكونوا يوماً أداة لعدم الاستقرار وإدخال المنطقة أو جزء منها في حالة عدم وضوح أو التورط في ممارسات تستثير ضدهم الرأي العام.

في أحد أزقة مخيم جباليا بقطاع غزة شاب في مقتبل عمره يلبس (سترة) رغم أن الجو ليس بارداً بصورة تدعو للشبهة، ويلقي بكوفية سوداء على رأسه ليحاول إخفاء ملامحه ويضع يديه في جيب (سترته) محاولاً التظاهر بانتظار أحد أصدقائه، وإذا بسيارة جيب عسكرية تقترب حين وصلت قبالة الزقاق، سمع صفيراً متقطعاً من زميله الذي يرصد لها الهدف، فسحب يده من جيبه وفيها قنبلة يدوية سحبها، وألقاها على الجيب واستدار جارياً، ولكن لم يحدث أي انفجار، وأوقف الجنود سيارتهم وبدأوا يطلقون النار ثم يطاردون الشاب الذي تمكن من الإفلات مثل هذه الحوادث كانت معروفة للكثير من الشخصيات القيادية في فصائل المقاومة وخاصة فتح التي كانت قد تصدرت ذلك فأصبحت تثير قلقاً كبيراً لديهم.

في أحد اللقاءات لعدد من أولئك لدى أخي محمود تحدثوا عن قلقهم، وتساءل محمود: هل ما يحدث يدلك على أن من يقوم بتزويد تلك المجموعات بالسلاح يقصد ذلك؟ أليس ذلك صورة من صور إجهاض العمل الفدائي؟ وهل من حقنا أن نرى أصابع جهاز المخابرات الإسرائيلية الشاباك في ذلك؟ وأنه هو من يزود خلايانا بهذه الأسلحة الفاسدة؟ وقد كان هناك إجماع لدى الجلوس بأن الأمر يحتاج إلى تحقيق ومتابعة لمعرفة خفايا الأمور بالاتصال بكل من لهم علاقة بالأمر خاصة الشباب المعتقلين في السجن لمعرفة ما لديهم من معلومات.

الفصل الرابع عشر

كانت في هذه الفترة قد تفجرت الحرب الأهلية في لبنان وبدأ يشتد وزرها وأصبح الفلسطينيون في لبنان جزءاً مؤثراً ومتأثراً بها. أخبار الحرب من لبنان كانت تفعل فعلها في الأراضي المحتلة فما من بيت أو عائلة إلا ولها نصيب في تلك الحرب، فالشعب الفلسطيني قد تشتت مرتين الأولى نكبة عام ١٩٤٨، والثانية نكسة ١٩٦٧، الأمر الذي أدى إلى انقسام العديد من العائلات، يكون نصف العائلات في مخيمات الضفة ونصفها الآخر في لبنان، ويكون نصفها في مخيمات قطاع غزة والنصف الآخر في مخيمات الأردن ناهيك عن الذين رحلوا أو رُحّلوا خلال هذه السنوات أو الذين خرجوا لأسباب عدة كالعمل وغيره، وانقطعت بهم الأسباب ولم يعودوا قادرين على العودة.

نحن لم يكن لنا أقارب معروفون في لبنان آنذاك، ولكن العديد من جيراننا كان لهم أبناء أو إخوان أو أقارب من الدرجات الأولى هناك، هؤلاء الجيران كانوا يعيشون على أعصابهم وهم يتابعون الأخبار ويتناقلونها بين الحين والآخر، بعض النسوة كان لهن أبناء ممن التحقوا بالثورة وسافروا إلى لبنان ومكثوا فيها، هؤلاء النسوة كان القلق يقتلهن وهن يستمعن للأخبار، ويحاولن معرفة ولو أي شيء عن أولادهن. والمشكلة أنه لم يكن حينها مجال للاتصالات الهاتفية وكان السفر إلى لبنان مكلفاً ومعقداً حيث يضطر من يريد السفر إليها العبور من خلال الأردن حيث لا علاقات لإسرائيل مع لبنان ولا معابر بينها، وفوق كل ذلك ما قد يتعرض له من يريد السفر من مشاكل مع مخابرات الاحتلال.

إحدى جاراتنا كان لها ابنان مع الثورة في لبنان. هذه المرأة كادت أن تفقد عقلها أو حتى فقدته في تلك الفترة كانت تظل شاردة الذهن شاحبة الوجه بدأت تمتنع عن الطعام إلا نادراً فنحل جسمها وهزل وظلت كوابيس المنام واليقظة تلاحقها بمصير شؤم لأبنائها، ونسوة الحارة يحاولن أن يخففن عنها بكل الصور الممكنة كي يبقى آخر ما تبقى لديها من قوة لتواصل الحياة وفيها عقل تدرك به ما يجري حولها، وكي يقنعها أن تتناول القليل القليل من الطعام.

ومع استمرار الحرب وطول أمدها ومع صباح أحد الأيام استيقظ المخيم على خبر وفاتها دون أن تعرف شيئاً عن مصير ولديها. مع تخرج ابن عمي إبراهيم من الثانوية العامة وجد نفسه أمام خيار أن يخرج للدراسة في إحدى الجامعات في الضفة (النجاح أو بيرزيت) تحديداً أو أن يدرس في الجامعة الإسلامية التي افتتحت عامها الأول بحوالي عشرين طالباً.

وفي هذه السنة هناك حديث عن قبول عشرات فقط وعن افتتاح كلية للغة العربية بالإضافة إلى كليتي الشريعة وأصول الدين، الآفاق أمام هذه الجامعة الوليدة لم تكن واضحة وما كان يرجحه أي عاقل حينها أنها ستؤول إلى الفشل المحقق، حيث إنها بلا مبان، فطلابها يدرسون في مبنى الأزهر الثانوي بعد الظهر وهي بلا طاقم أكاديمي من المدرسين، حيث يدرس فيها عدد من مشايخ مدرسة الأزهر ولا ميزانيات تذكر ولا شيء من مقومات الجامعة بحدها الأدنى.

فور إنهاء إبراهيم دراسته وظهور الامتحانات التي أظهرت تفوقه الباهر حيث حصل على (٩١%) في القسم العلمي، تحدثت أمي مع أخي محمود عن دراسة إبراهيم الجامعية واقترحت أن يدرس مع محمد في جامعة بيرزيت. في مساء ذلك اليوم حين اجتمع شملنا في الدار، نادى محمد على إبراهيم وجلس معه في غرفته حيث طلب منه أن يتوجه خلال الأيام القادمة إلى رام الله ويسجل في جامعة بيرزيت، أظهر إبراهيم تردداً من التسجيل في بيرزيت فتساءل محمود: -ساد به خوف وشك من طموح لا تحتمله قدراتنا المادية- (إذاً فين تريد الدراسة؟) أجاب إبراهيم بصورة غير المتأكد: قد أسجل في الجامعة الإسلامية، تساءل محمود بدهشة واستغراب: الجامعة الإسلامية!! تقصد الجامعة التي افتتحوها في الأزهر؟ أجاب إبراهيم محتمل محتمل...

دخلت أمي إلى الغرفة وقد كانت تسمع الحديث قائلة ماذا جرى لك يا إبراهيم كأنك تريد ألا تدرس في بيرزيت خشية التكاليف، يا بني أنت وأولاد عمك مثل الإخوة وما يكفي واحد يكفي الاثنين، ورزقنا ورزقك على الله وحالنا الآن والحمد لله بخير...كان واضحاً أن أمي قد فهمت ما في أعماق صدر إبراهيم ولكنه حاول أن يخفي ذلك مغمغماً، وقد ترقرق الدمع في عينه (الله يخليك إلنا يا مرت عمي، بس أنا ما بديش أطلع من غزة).

أخرج محمود من جيبه مبلغاً مالياً من الأوراق النقدية الأردنية ومدها إلى إبراهيم قائلاً: (هذه رسوم الفصل الأول ورسوم التسجيل وتكاليف السفر وشوية للفسحة لنذهب ونسجل في بيرزيت) رفض إبراهيم أخذها ودفع يد محمود للوراء، فصرخت عليه أمي (خذها الآن وفكر براحتك وسجل حيثما شئت نحن نريدك أن تسجل في بيرزيت مع محمد وأنت حر والقرار قرارك في النهاية...خذها خذها) مد إبراهيم يده وتناول النقود وقد طأطأ رأسه إلى الأرض ويبدو أنه كان قد حسم أمره بالتسجيل في الجامعة الإسلامية، حيث أن أي عملية حسابية تؤكد انها لا تكلف نصف ما تكلفه الدراسة في بيرزيت أو غيرها.

وهو لا يريد أن يثقل على العائلة، زيادة على أن وجوده في غزة يمكنه من العمل أحياناً لكسب بعض النقود التي يمكن أن تخفف مما سيكلفة للعائلة، وبالفعل فقد توجه إلى مبنى مدرسة الأزهر حيث سجل للدارسة في الجامعة الإسلامية وقد تم قبوله فيها (لغة عربية).

حين عاد بالخبر أخبرني به أولاً وأخرج من جيبه باقي المبلغ ليعطيني إياه لأعيده لأمي فهو خجل منها، ولكني رفضت أخذه منه قائلاً: مالي ومالك وماذا أدخلني بينك وبين الحكومة اذهب إليها بنفسك وتدبر معها الأمر فقال تعال: وخرجت أمامه إلى المطبخ حيث تعد أمي الطعام قائلاً لها: باركي لإبراهيم فقد تم قبوله في الجامعة الإسلامية/ كلية اللغة العربية، التفتت إليه أمي وقبل أن تتفوه بأي كلمة قال: الله يبارك فيك، هذا ما زاد من الفلوس، فامتلأت عيون أمي بالإكبار والتقدير، تناولت النقود منه ثم أعادت له منها خمسة دنانير قائلة: اصرفها أو تصرف فيها فهي تلزمك الآن حاول الرفض فأرغمته على أخذها، فأخذها والحياء يكاد يقتله ويردد (الله يخليك إلنا يا مرت عمي، الله يكثر خيرك).

الجامعة الإسلامية في هذا الوقت لم تكن أكثر من طموح. وبعض الطلبة الذين اضطرتهم الحاجة للدارسة فيها، حيث أن فرصهم الأخرى معدومة. في مدرسة معهد الأزهر الديني الواقع على شارع الثلاثيني في غزة بعد أن تنتهي فترة الدراسة الصباحية لطلاب المعهد الديني وينصرفوا إلى بيوتهم يأتي طلاب الجامعة الإسلامية، حوالي عشرين طالباً أنهوا دراستهم للعام الأول في كليتي الشريعة وأصول الدين، وعشرات محدودة من الطلبة الجدد في كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية.

تدخل كل مجموعة إلى أحد الفصول في المعهد، ويدخل إليهم أحد مشايخ المعهد ليدرسهم إحدى مواد تخصصهم. يخرج الشيخ الأول ليدخل الشيخ الثاني، وهكذا أربع أو خمس محاضرات متتالية تماماً كما في المدرسة الثانوية من دون أي تغيير ملموس.

إلى هذه الأجواء الدراسية دخل إبراهيم دون أي شعور بأن هناك جامعة أو حياة جامعية مثل تلك التي سمع عنها من محمود عن الحياة الجامعية في مصر، أو مما سمع من محمد عن الحياة في بيرزيت، ولكنه يدرك أن ليس من حقه الاثقال على العائلة بقرش واحد وإباء نفسه كان يمنعه من أن يسلك غير هذا الطريق.

في نفس الوقت كانت نفسه قادرة على أن يعاود العمل على بسطة الخضـراوات في السوق خاصة أن دراسته في الجامعة تكون في الفترة المسائية ويمكنه العمل بصورة ممتازة في الفترة الصباحية، ولكن يدرك أنه إن ذكر ذلك مجرد ذكر أمـام أمـي وأمـام محمود فستقوم القيامة على رأسه، لذا بدأ يفكر في طريقة أخرى للعمل للكسب بصورة لا تثير أمي ولا تستنفر مشاعر محمود.

كان أحد أصدقائه من شباب المسجد يعمل في البنـاء ويـرفض العمـل داخـل الأراضي المحتلة عام (٤٨) ويرضى بالعمل في القطاع، رغم زهادة الأجور في البنـاء ورغم قلتها، فاتفق إبراهيم معه أنه حين يجد عملاً فإنه مستعد للعمل معه كمساعد حتـى الظهر فوجد ذلك مقبولاً عنده، عاد إبراهيم وطرح الأمر علينا على أنه يريـد أن يـتعلم مهنة البناء مع صديقه وليس على أنه يريد اكتساب الرزق، ولم يكن لدى الأهل ممانعـة وفقاً للصورة التي عرضها عليهم إبراهيم.

في الأيام التي كانوا يجدون فيها عملاً في أحد البيوت كان يخرج إلى العمل من الصباح الباكر، وقد لبس ملابس العمل فإن كان العمل قريباً عاد بعد العمل ليبدل ملابسه ويذهب للجامعة وإن كان العمل بعيداً أخذ معه ملابسه وكتبه، عند الظهر يبدل ملابسه إن كان الظرف مناسباً ويذهب للجامعة، أو يذهب بملابس العمل وهناك يبدلها وأحياناً يضطر إلى حضور المحاضرات بنفس ملابس العمل، وفي كثير من الأسابيع كانوا يعملون يـوم الجمعة يقطعون العمل بالذهاب للمسجد لصلاة الجمعة ثم يعودون لإكمـال عملهـم بعـد الظهر، وقد بات راضياً، أن إبراهيم قد بدأ يكفي نفسه المصاريف والاحتياجـات، وقـد اشترى بعد وقت دراجة هوائية لكي تسهل عليه الحركة بين البيت والعمـل والجامعـة، وتوفر عليه الجهد والمصاريف.

مستوى الحياة في الأراضي المحتلة بدأ يتطور بصورة ملموسـة، فقـد بـدأت التكتلات السياسية والفكرية في النقابات المهنية المختلفة تـزداد بـروزاً. فـي جمعيـة المهندسين تكتلت الاتجاهات الرئيسية الثلاثة في كتل بارزة اتجاه فتح والاتجاه اليسـاري والإسلاميون، أخي محمود كان من النشطاء الفتحاويين في الجمعية، وقد كان هو وزملاؤه ينسقون عملهم لكسب أكبر عدد من أصوات المهندسين في محاولة للفـوز بالانتخابـات للهيئة الإدارية للجمعية، حالهم حال نظرائهم من التوجهين الآخرين وكما هو الحال فـي الجمعية الطبية وفي نقابة المحامين.

التنافس في هذه الجمعيات والنقابات كان على أشده، حيث يشكل كل إطار طواقم من نشطائه يبدأون بزيارة زملائهم في بيوتهم وأماكن عملهم في محاولة لاقناعهم بالمشاركة في الانتخابات وانتخابهم دون غيرهم.

وفي بعض الأحيان تتحالف قوتان ضد القوة الثالثة لانتزاع الهيئة منها ولأن اليساريين كانوا أسبق في العمل النقابي، وأقدر على تنظيم أنفسهم، فقد تحالفت فتح مراراً مع الإسلاميين للعمل على التغلب على اليساريين.

الصورة الأبرز حينها كانت في انتخابات جمعية الهلال الأحمر في غزة، حين كان اليسار قوياً ومتمكناً في هذه الجمعية الأمر الذي اضطر فتح والإسلاميين للتحالف في محاولة للفوز ودحر اليساريين، الأمر الذي تطور إلى صدامات حشد لها الإسلاميون حشداً كبيراً في الجامعة الإسلامية في القطاع وقد تنامت في الآونة الأخيرة بصورة ملحوظة.

أخي محمود شارك بما عليه في انتخابات جمعية المهندسين من فتح الذين كانوا يخططون لحسم أكبر عدد من المهندسين من أجل كسب الانتخابات، كان لهم اجتماع كل يومين أو ثلاثة يجلسون يستعرضون أسماء المهندسين ونتائج الاتصالات معهم وتقييم عمل القوى المناوئة، ثم ينطلقون للعمل لمزيد من الحسم وهكذا حتى جاء يوم الانتخابات فشغلوا عدداً من سياراتهم لنقل بعض المهندسين المترددين في القدوم، كذلك في الجمعية الطبية وفي نقابة المهندسين، وفي نقابات مهنية أخرى.

وقد كان من الواضح أن الإسلاميين يركزون جهداً على طلاب الجامعات بصورة خاصة وعلى طلاب المدارس الثانوية على وجه العموم ففي كل جامعات ومعاهد الأرض المحتلة في الضفة الغربية أنشطة شبابية ثقافية ورياضية واجتماعية هدفها جمع الشباب وتأطيرهم وتعبئتهم فكرياً وعقائدياً.

الشيخ أحمد كان يشرف على النشاطات الطلابية في غزة بنفسه. كان يدعو إليه عدداً من الطلاب الناشطين في الجامعة الإسلامية ليتعرف على أوضاع الطلبة ويطلب منهم الحضور مرّة في الأسبوع، وقد دعوا معهم آخرين من الشباب القريبين منهم ويأتون فيناقش معهم أمور العمل الإسلامي في الجامعة، والتحضير للانتخابات، وكيفية العمل مع الشبان العاديين وأساليب التقرب منهم، وحسمهم لصالح الإسلاميين.

حتى إذا تمت الانتخابات وتحقق الفوز بدأ يوجههم للعمل في المدارس الثانوية لتهيئة الأجواء بين الطلاب الذين سيأتون للجامعة الإسلامية أو سيذهبون للجامعات الأخرى فيكونون جاهزين للانضواء تحت لواء الكتل الإسلامية، وحمل أعباء العمل الإسلامي.

إبراهيم كان أحد الناشطين في الجامعة في تلك الفترة، وكان الشيخ أحمد يعتمد عليه وعلى عددٍ من الطلاب بصورة كبيرة، وقد كان أحد مرشحي الكتلة الإسلامية لانتخابات مجلسِ اتحاد الطلبة الذين فازوا في الانتخابات، وكان طيلة الوقت منهمكاً في عمله لكسب بعض القروش في الفترة الصباحية ثم الدراسة في فترة ما بعد الظهر وفي فترة المساء ينشغل في عمله الإسلامي، كان إبراهيم مثال الشعلة حركةً ونشاطاً، فإذا ما دخل الليل وعاد إلى البيت تناول عشاءه ثم جلس يقرأ في كتب دراسته أو بعض كتب أخرى، وقلما نام بصورة طبيعية، فغالباً ما يغلبه النوم والكتاب في يده فأقوم لأخذه عن صدره وأضعه في جواره ثم أغطيه، وأنا أزداد احتراماً وتقديراً له... وأزداد إصراراً وإقبالا على دراستي في سنتي الثالثة في الثانوية.

محمد كان يقطع أشواطاً ممتازة في دراسته في كلية العلوم في جامعة بيرزيت، السكن في رام الله لم يكن مناسباً فحرص على تدبير سكن جديد في بيرزيت نفسها وبصعوبة وجد ذلك السكن مع مجموعة من شباب الكتلة الإسلامية. في نفس البيت تحت أحد البيوت الفاخرة من الجهة الأخرى الخلفية للشارع ثلاث غرف كان يسكن محمد مع خمسة من زملائه.

هذا البيت كان مختلفاً تماماً عن البيت الذي سكن فيه في رام الله، فشركاء محمد في البيت كلهم شباب متدينون من الكتلة الإسلامية. البيت تحول منذ مطلع العام إلى شبه مقر للكتلة ونشاطها، يتردد عليه غالبية نشطاء الكتلة ويعتمدونه في اجتماعاتهم، ويعدون فيه خططهم للعمل الطلابي في الجامعة.

كان لمحمد دور بارز في قيادة العمل الأمر الذي جعله رغماً عنه ملزماً بالتنسيق مع الطالبات المؤيدات للكتلة، وقد بدأت بعض الطالبات بلبس الحجاب، الأمر الذي كان شبه تحول استراتيجي في جامعة بيرزيت بأن ترى بعض الطالبات المتحجبات، وكان دوماً يدعوهن بصورة جماعية فيأتين اثنتين أو ثلاثاً، فيقفون يتحدثون في أحد ممرات الجامعة، أو يجلسون في المقصف وهم يطرقون فلا يرفعون نظرهم إليهن، وهن يطرقن فلا يرفعن نظرهن إليهم فيوجهونهن لترتيب العمل مع الطالبات ويشرحون لهن دورهن في العمل في الجامعة.

العمل الطلابي في الجامعات لم يظل محصوراً في إطار الجامعة الواحدة، وهـذا كان مستوى التوجهات والأطر الطلابية جميعاً، فكل تكتل طلابي في أحد الجامعات يحاول الاتصال بنظيره في الجامعات والمعاهد الأخرى بصورة تلقائية، طلاب حركة فتح فـي بيرزيت يتصلون بزملائهم في جامعة النجاح وغيرها.

وكذا بالنسبة لطلاب الكتلة الإسلامية كثيراً ما تجد وفداً منهم من جامعة النجاح يزور زملاءهم في جامعة بيرزيت أو العكس، يتبادلون الخبرات أو النصـائح وينسـقون الأنشطة المشتركة ورغم صغر وبداية الجامعة الإسلامية ومحدودية العمل الطلابي فيهـا إلا أنها أخذت دورها في ذلك النشاط ولطالما التقى محمد وإبراهيم في بعـض الأنشـطة المشتركة التي كانت تُنظم.

كثيراً ما كان النشطاء من جامعة بيرزيت يذهبون إلى جامعة النجاح الوطنية في مدينة نابلس، هناك مستوى الانفتاح أقل مما هو عليه في جامعة بيرزيت، ولكنـه يـزداد بعشرات الأضعاف عما عليه الوضع في مدينة غزة المحافظة إلى درجة غير عادية، حتى قبل انتشار النشاط الإسلامي ولعل هذا كان أحد عوامل الانتشار الكبير له في القطاع الذي فاق مناطق أخرى.

جامعة الخليل كانت تقع في تدريجها بين نابلس وغزة، فهي أقل محافظة مـن غـزة وأشد من جامعة النجاح، حركة هؤلاء الطلاب كانت بعيدة عن أي رقابة واضحة أو مضايقات من أجهزة مخابرات الاحتلال وإن كان هناك شيء من الرقابة فلـم تكـن ظاهرة. فكان هؤلاء الطلاب يتحركون بسهولة ويمارسون أنشـطتهم دون أي قيـود خاصة وأنها كانت في العادة محصورة في مجالات الصراعات الفكريـة والتنـافس الداخلي بين الأطر والتوجهات المختلفة، ولم يكن لذلك أثرٌ واضح على الاحتلال.

في بعض المناسبات الوطنية أو حين تطرأ حوادث خاصة وتكـون لقـوات الاحـتلال معلومات أو شك بأن أحداثاً ستقع في الجامعات فإنها تمنع الطلاب من الوصـول إليهـا بوضع الحواجز في الطرق، وإرجاع الطلاب أو بمحاصرة الجامعات بقوات كبيرة ومنع الطلاب من الخروج منها، ونقل ضوضائهم ونشاطهم إلى المناطق القريبة وقـد تحـدث بعض الإشكالات بين الطلبة والجنود. يُلقي الطلبة الحجارة خلالها ويـرددون شـعارات وهتافات وطنية، ويطلق الجنود القنابل المسيلة للدموع أو الرصـاص فـوق الـرؤوس، وأحيانـاً علـى الأرجـل، وأحيانـاً يعقـب ذلـك بعـض المـداهمات والاعتقـالات

لبعض الطلاب، حيث يتم احتجازهم لبعض الوقت بعضهم يسجن لفترات لا تطول، ثم تتواصل الحياة على طبيعتها.

في مدرسة الكرمل الثانوية حيث أدرس نظم طلاب الكتلة الإسلامية الـذين يشـرف عليهم ابن عمي إبراهيم نظموا رحلة إلى القدس وبعض المناطق السياحية الأخـرى داخل فلسطين وقد بدأ بالتسجيل لمن يريد حيث يدفع الراغب بالتسجيل رسوم الرحلة.

جاءني أحد النشطاء وعرض علي المشاركة في الرحلة فترددت ووعدته بدراسة الأمر والرد عليه لاحقاً، في البيت تحدث معي إبراهيم أن عليّ أن أسجل في الرحلة وألا أتخلف عنها، خسارة أن أضيع هذه الفرصة للخروج من القطاع إلـى الضـفة الغربيـة والقدس وداخل الأرض المحتلة عام (١٩٤٨) والتعرف إلى بلادنا وقد سألني وقـال: إذا كان لديك مشكلة في رسوم الرحلة فيمكن أن أسددها عنك.

ابتسمت وأوضحت له أن وضعي المالي يسمح لي بذلك والمشكلة لم تكـن فـي الرسوم وإنما في مبدأ المشاركة في مثل هذه الرحلات.ضغط عليّ كي أشـارك فوعدتـه بذلك.

في اليوم التالي سجلت للرحلة ودفعت الرسوم لمسؤول الكتلة في المدرسة وفـي يوم الجمعة استعددنا للخروج منذ ساعات الصباح الباكر، حيث تجمعنا عند باب المدرسة وكل واحد منا يحمل كيساً فيه طعامه لهذين اليومن وقد كنت على علم بمشاركة إبـراهيم لنا فهو المشرف الحقيقي على الرحلة، وفي الحافلة يدعو دعاء السفر ونحن نردد وراءه:

﴿بسم الله مجريها ومرساها الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنّـا إلـى ربنا لمنقلبون، اللهم نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى﴾.

وكلما مررنا على أحد المواقع أو آثار إحدى القرى أو البلدات الفلسطينية التـي تدمرت في الحرب أو دمرها اليهود ليزيلوا كل آثار عروبة المكان وقف إبراهيم أو شاب ثانٍ معه يعرفون ويشرحون هذه كذا، وهذه آثار مدينة عسقلان، وهذه الجميزة تقـع فـي مركز قرية حمامة، هنا آثار مسجد حديقة أسدود، وهناك آثار مدرستها وتلك آثار بعـض بيوتها. وقفتنا الأولى كانت فوق هضبة جميلة عليها أحد الأديرة النصرانية، نزلنا هنـاك من الحافلة وبدأ إبراهيم يشرح عن هذا المكان الذي يسمى اليوم باسم (دير اللطرون) وأن هذا المكان قد دارت عليه معركة عمواس بقيادة "أبي عبيدة عامر بن الجراح" الذي قـاد جيش المسلمين لفتح فلسطين.

انحنى إبراهيم وهو يصف بعض التفاصيل للمعركة والعدد الكبير من الصحابة الذين استشهدوا فيها، وقبض حفنة من ترابها الذي يميل لونه إلى الحمرة، وقال: هذا التراب يشهد أنه مجبول بدم صحابة رسول الله ﷺ وترقرقت الدموع في عينيه وساد صمت مطبق على الحاضرين إلا من تغريد عصفور أو حفيف أوراق الشجر تهزه الريح، ثم قال: هذا التراب ترابنا، وهذه الأرض أرضنا جبلها صحابة رسول الله ﷺ بدمائهم الزكية ولا بد أن تجبل بدم زكي طاهر من أتباع الرسولﷺ حتى تتحرر من جديد.

صعقت مما أسمع خصوصاً أن يأتي من إبراهيم، ذلك الأخرس الأبكم في الدار خاصة أمام أمي، يتألق هنا كأفضل مُنَظّر لفكرته، وهو يعرف الكثير من المعلومات التفصيلية عن كل الأماكن التي نمر بها، وكان يزداد بنظري عظمة واحتراماً.

انطلقت الحافلة من جديد تقطع المسافات ووقف زميل إبراهيم يشير بيده إلى سفح الجبل وهو يقول هنا على سفح هذا الجبل تقع قرية دير ياسين، وبدأ يشرح عن المجزرة التي حلّت بالقرية وذاع صيتها، وأصبحت رمزاً للبطش اليهودي بأهل فلسطين، وصلنا بعد قليل إلى القدس ثم إلى أسوار المسجد الأقصى والبلدة القديمة في القدس، دخلنا شوارع القدس القديمة سيراً على الأقدام. المحلات التجارية على جانبي الطريق، تعرض شتى أنواع البضائع التقليدية، كل ما تريد وعلى وجه مخصوص التحف الخشبية التي يشتريها السائحون الذين يملأون شوارع القدس القديمة وأزقتها، وقد قدموا من شتى أنحاء العالم، وفي كل زاوية تجد عدداً من جنود الاحتلال من حرس الحدود يحملون بنادقهم ويراقبون بعيونهم كل حركة وسكنة.

اقتربنا من أحد الأبواب للمسجد الأقصى المبارك كان على تلك البوابة عدد كبير من حرس الحدود الذين يتفحصون كل زائر، ويفحصون بطاقة هويته الشخصية وأحياناً يسجلون رقمها. دخلنا المسجد الأقصى بعد أن سجلوا أرقام هوياتنا وصوت أحد المشايخ عبر مكبرات الصوت يقرأ آيات من القرآن الكريم.

كانت قبة الصخرة المشرفة بألوانها الزاهية تتربع فوق تلك التلة المرتفعة، حيث تصعد إليها عبر الدرجات الحجرية، تقدمنا حتى وصلنا باب المسجد الأقصى المبارك، شعور من الخشوع والرهبة انتابني وأنا أخطو خطواتي الأولى داخل المسجد بعد أن أمسكت حذائي بيدي وقفنا لنؤدي ركعتي تحية المسجد ثم جلسنا بانتظار خطيب الجمعة الذي صعد المنبر وألقى خطبة عادية لم أشعر أن فيها شيئاً جديداً أو مميزاً عما يخطبه المشايخ في غزة، ثم وقفنا نصلي صلاة الجمعة وسنتها وبدأ الناس ينفضون من المسجد.

تجمعنا من جديد وصعدنا الدرجات إلى مسجد قبة الصخرة، بدأ إبراهيم يشرح لنا عن المسجد وعن تلك الصخرة التي صعد من فوقها رسول الله ﷺ إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج وشرح أن الإسراء كان من مكة إلى القدس وأن المعراج كان من القدس إلى سدرة المنتهى في السماء، ثم بدأ يشرح الحكم في أن القدس كانت المحطة الأساسية في الأرض في رحلة تنافس إلى السماء.

فقد كان من الممكن أن يصعد الرسول ﷺ إلى السماء مباشرة من مكة، ولكن حكمة الله اقتضت هذا المرور من القدس ليوضح الله للمسلمين أن للقدس أهمية خاصة في عقيدتهم ودينهم وطريقهم إلى السماء ويعود ويؤكد مراراً وتكراراً من هنا من القدس ارتقى الرسول ﷺ إلى السماء، مرت بجسدي رعشة وغطتني قشعريرة لم أستطع أن أخفيها عمن وقفوا بجانبي الذين سادهم نفس الشعور، فنحن في مخيمات غزة هناك نزور القدس للمرة الأولى، وقد كانت في عقولنا من قبل مجرد اسم يُذكر له بعض التأثير البسيط، وها نحن نقف اليوم في هذا المكان المقدس الذي يحيط به جنود الاحتلال يسمحون لمن يريدون إدخاله ويمنعون من يريدون وهذه أمة المسلمين والعرب بملايينها وأموالها وجيوشها تقف عاجزة عن تحريره وتخليصه من هذه العصابات النكدة اللعينة.

منذ هذه اللحظات بدأنا نفهم جيداً أن للصراع وجهاً آخر غير ما كنا نعي وندرك من قبل، فالمسألة ليست فقط مسألة أرض وشعب طُرد من هذه الأرض وإنما هي معركة عقيدة ودين، معركة حضارة وتاريخ ووجود، وقد نجح إبراهيم ومن نظموا هذه الرحلة في غرس هذا المعنى جيداً في نفوسنا، من وسط تلك الخواطر انتزعنا صوت إبراهيم معلناً أن علينا التوجه الآن إلى الحافلة لنتوجه إلى مدينة الخليل، حيث سنزور فيها الحرم الإبراهيمي الشريف وتكرر الصوت فسرنا نحو البوابة ننتزع أقدامنا من الأرض انتزاعاً فإن رهبة المكان وقدسيته وما يثيره في النفس من مشاعر يجعل من الصعوبة عليك أن تفارقه طائعاً راضياً وتود لو أنك تبقى هنا.

طيلة الطريق إلى الحافلة كانت لا تزال تتردد في سمعي كلمات إبراهيم عن منبر صلاح الدين الذي أعده قبل تحرير القدس بسنوات ووضعه أمامه ليكون له حافزاً ومحركاً للسير نحو القدس لتحريرها من أيدي الصليبيين وكيف أحرقته الأيدي اليهودية الآثمة عام ١٩٦٨ وأتساءل في نفسي هل من صلاح الدين لهذه المرحلة؟.

انطلقت بنا الحافلة نحو الخليل، حيث مرت في طريقها بمدينة بيت جالا، ثم بيت لحم ثم مخيم الدهيشة، عرفنا المخيم من شكل بنائه المكتظ المتراص ومن بساطته، عرف إبراهيم أن هذا مخيم الدهيشة ثم أشار إلى الجانب الآخر، فإذا بخيمة قد نصبت في أرض خالية وعشرات الجنود يحرسونها فقال: هنا يعتصم الحاخام "موشي ليفنجر" أحد كبار المستوطنين في مدينة الخليل، وهو يعتصم أمام مخيم الدهيشة احتجاجاً على عجز قوات الاحتلال من حماية المستوطنين في طريقهم إلى الخليل من حجارة فتيان المخيم التي تنهال عليهم ليل نهار، مررنا بعد ذلك بمخيم العروب، وبعد وقت وصلنا مدينة الخليل.

حين دخلنا قلب المدينة القديمة، وجدنا أنها أشبه بثكنة عسكرية لقوات الاحتلال. مئات الجنود هنا وهناك، وعشرات السيارات العسكرية تتحرك في المواقع الحساسة، والأسلاك الشائكة تحيط بالعديد من المواقع والمباني.

منذ أواسط السبعينيات كان المستوطنون اليهود بدعم وحماية وتغطية قوات الاحتلال قد بدأوا يسيطرون على العديد من المباني والمواقع في المدينة القديمة يطردون الناس منها ويسكنون فيها وعشرات الجنود يحرسونهم ثم يبدأون بعمليات بناء وترميم وتغيير لوجه المنطقة العربية، وفي كل يوم يسيطرون على مبنى جديد أو موقع جديد والجنود يحمونهم ويدعمونهم.

وصلت بنا الحافلة إلى الحرم الإبراهيمي الشريف. أعداد ضخمة من الجنود يتمركزون في المكان ويفحصون بطاقات القادمين من العرب ويستوقفونهم بينما السياح من اليهود والأجانب يتحركون بكل سهولة ويسر صعوداً بذلك الدرج (السلم الحجري) الطويل، ثم سرنا في ممر طويل حيث إلى جوارنا ساحة طويلة مفروشة للصلاة، ثم دخلنا إلى ساحة جانبية تفضي إلى صحن المسجد الرئيسي في الحرم، وفي طرفها الآخر قاعتان أخريان للصلاة، رأينا أضرحة عديدة كتب عليها أسماء موغلة في التاريخ: إبراهيم، اسحاق، سارة ويوسف عليهم السلام، مجللة بالقماش الأخضر، أدينا في المسجد صلاة المغرب، وتجولنا فيه نتعرف على أركانه وما فيه من تاريخ أمتنا وعقيدتنا، ثم خرجنا حيث اشترينا من الباعة عند الأبواب قطع الملبن والقمردين والزبيب والقطين، ثم انطلقت بنا الحافلة إلى غزة.

بدأ الجميع يقرأون أدعية مأثورات المساء: ﴿أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله... وما كان من المشركين﴾ كان صوت الدعاء الجماعي يتردد من حناجرنا وقد غرق كل واحد في مقعده، وبدت للكلمات التي نرددها معانٍ أخرى غير التي اعتدنا عليها حين يذكر محمد ﷺ وأبونا إبراهيم عليه السلام. بعد هذه الرحلة، في تلك الأماكن المقدسة يصبح للكلمات معنى ووقعٌ آخر تماماً. من هذا اليوم قررت أن أواظب على الصلاة فلا أتركها قط، وقد كان عليّ أن أبدأ التجهيز الجاد لامتحانات إنهاء الثانوية العامة(التوجيهي) فلم يبق للامتحانات سوى شهرين ونصف وعليّ أن أحصل على درجات معقولة.

الفصل الخامس عشر

النصف الأول من العقد التاسع من الساعة العاشرة للألفية شهد الكثير من التغيرات على الساحة الفلسطينية، كما شهد الكثير من التطورات على مستوى أخلاقنا ومسلكياتنا.

أنهيت دراستي الثانوية وقررت الالتحاق بالجامعة الإسلامية بغزة، رغم معارضة أخي محمود الذي كان يقول ماذا؟ هذه جامعة؟ هذه لا تصلح أن تكون مدرسة ثانوية؟! أما حسن فكان مع فكرتي في الدراسة فيها، وإبراهيم كان موافقاً، وأمي نزلت عند رغبتي، وطلبت من محمود السكوت عن الأمر وترك الخيار لي، فالأمر يخصني، وأنا صاحب القرار فيه، فالتزم السكوت سكوت الحانق الغاضب غير الراضي.

سجلت في الجامعة الإسلامية وقبلت في كلية العلوم وانتظرت قدوم العام الجديد وبدء الدراسة على أحر من الجمر، خاصة وأن الأخبار قد جاءت أن الجامعة هذا العام ستتطور تطوراً ملموساً، حيث إنها ستستقبل خمسمائة طالب وطالبة، وسوف تنتخب رئيساً يحمل شهادة الدكتوراه وسوف يأتي عدد من حملة الدكتوراه للتدريس فيها، كما سيتم بناء مبنى خاص بها.

إبراهيم حافظ طيلة العطلة الصيفية على المواظبة على العمل في البناء مع صديقه وكسب مبلغاً مالياً جيداً، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنه أصبح الآن بنّاءً محترفاً حيث تعلم المهنة من صديقه، وأصبحا شريكين يشغلان معهما أحد العمال كمساعد، وصارا يأخذان مقاولات متوسطة في البناء وأشغاله، وبات واضحاً أن عصامية إبراهيم تصنع منه رجلاً.

أخواي محمود وحسن رزق كل منهما بمولود وكذلك أختي فاطمة، وتطور عمل حسن حيث قرر أن يفتح ورشة خراطة وبرادة خاصة به، استأجر المكان وبدأ بالعمل على شراء الماكنات اللازمة للورشة، ولم ينقصه المال، ومحمد كان يتقدم في دراسته(الكيمياء) في جامعة بيرزيت، وينهي كل فصل بامتياز، ولم تعد الجامعة تستوفي الرسوم، حيث أن الجامعة كانت تُعطي الطلبة المتفوقين منحة دراسية، وكل الذي يلزمه كان فقط بعض المصاريف الحياتية.

مع بدء العام الدراسي بدأنا الدوام في نفس مبنى المعهد الديني للأزهر، والكثير مما سمعنا عن تطور الجامعة بدأ يتحقق حقاً، فعدد الطلاب والطالبات المقبولين كان صحيحاً، وقد حضر دكتور لرئاسة الجامعة، وعدد آخر من حملة الدكتوراه للتدريس فيها

وقد شرعوا في إتمام بناء كانت أسسه موضوعة منذ زمن ليكون خاصاً للجامعة.

كل ذلك كانت مؤشرات على أن الجامعة ستصبح جامعة بحق، وأن البشائر تؤكد ذلك مما جعلنا كطلبة أكثر اطمئناناً للمستقبل، ولكن رغم ذلك فقد بقينا نداوم في غرف المعهد بعد الظهر، الطلاب يداومون في القسم الخاص بطلاب الأزهر، الطالبات يداومن في المقر الخاص بطالبات الأزهر.

السنة التي قبلنا فيها كانت سنة تأهيلية، حيث ندرس فيها مواد دراسية تعادل دراستنا الثانوية العامة، مع دراسة طلبة الثانوية الأزهرية، أي أنها كلها كانت مواد نظرية في غالبيتها مواد دينية، يدرسنا إياها بعض المشايخ مع بعض المواد العلمية التمهيدية، ولكن هذه كانت قليلة لذا فمستوى شعورنا بالجدية والإرهاق من الدراسة كان محدوداً جداً وقضينا معظم العام في اللعب والتسالي ومواكبة الصراعات الفكرية بين طلبة الاتجاهات المختلفة.كان واضحاً أن طلبة التيار الإسلامي هم الأكثر عدداً من عموم الطلاب، وهم الأكثر تنظيماً والأقدر على عرض أفكارهم والتقرب من الطلاب، وإنشاء العلاقات معهم.

شباب فتح كانوا أقل قدرة ولكنهم كانوا يحاولون تطوير قدراتهم ومستواهم بشكل جيد ودائم طلاب اليسار كانوا قلة قليلة، ولم يكن لهم صوت يُذكر، كانوا تكتلاً صغيراً منطوياً على نفسه، وحركتهم كانت محدودة للغاية.

بعد شهر من بداية العام بدأت الجامعة تضطرم بالحركة بين الطلاب استعداداً للانتخابات التي ستجري قريباً لانتخابات اتحاد الطلبة، وبالمقابل فقد كان هناك انتخابات موازية لهيئة الطالبات، بدأ الناشطون من شتى التيارات أكثر نشاطاً في الاتصال بالطلاب الجدد لعرض أفكارهم، ومحاولة استقطاب هؤلاء الطلبة لأطرهم.

قاعة الكافتيريا الصغيرة كانت تزخر بالمناقشين على الطاولات وبمن يعرضون أفكارهم أو يهاجمون الآخرين، بعد أيام بدأنا نحس أن هناك مشكلة بين ناشطي الكتلة الإسلامية بحيث أن غالبيتهم يعملون بصورة منفصلة عن مسئولهم السابق الذي كان السبب وراء الأحداث و الصدامات حول انتخابات الهلال الأحمر.

وبعد أيام أخرى عرفنا أنه انفصل عنهم وسينزل للانتخابات في قائمة خاصة به، وسينزلون هم في قائمة أخرى وستجتمع القوى الوطنية من فتح والمنظمات اليسارية معاً

في قائمة ثالثة، وبدأت النقاشات تزداد حدة، والبيانات توزع والشعارات تعلق على الجدران، طلاب الكتلة الوطنية أكثروا من إلصاق صور "أبو عمار" على الجدران.

كل قائمة جعلت أسماء مرشحيها الأحد عشر في قائمة عليها اسمها وشعارها، وبدأت بتوزيعها على الأنصار والمؤيدين، إبراهيم كان من أبرز الناشطين في الكتلة الإسلامية ورغم أنني لم أعتبر نفسي كتلة إسلامية، أو نصيراً لها، لم يكن أمامي خيار لانتخاب ابن عمي وقائمته حيث أن ما بيننا من الحياة المشتركة وإعجابي الشخصي به لم يكن يسمح لي بأن أخالف ذلك مع أنه كانت لدي ميول ما لفتح، لما لها من رمزية ولدورها في العمل الفدائي والمقاومة المسلحة.

يوم الاقتراع كان تجربتي وتجربة الكثيرين الانتخابية الأولى، اصطففنا طابوراً طويلاً كل واحد يحمل بطاقته الشخصية، ويبرزها للجنة التدقيق من قبل ساعة الاقتراع، ثم يدخل فيعطى نموذج الاقتراع ويشطب اسمه من قائمة المقترعين ثم يذهب إلى إحدى الطاولات المخصصة فيختار من يريد ويطوي الورقة ويضعها في الصندوق أمام رقابة عدد من العاملين في الجامعة ومراقب مع كل قائمة تخوض الانتخابات، وقد كان إبراهيم مراقباً عن قائمته.

بعد خروجي من باب الخروج من قاعة الاقتراع وجدت جلبة تحدث في أحد أطراف الساحة توجهت لأنظر ما حدث فكان حديث من نشطاء فتح أن نشطاء الكتلة الإسلامية قد مزقوا صور "أبو عمار" وداسوا عليه لا شك بأن الأمر أحدث تأثيراً سلبياً لدى البعض، وقد يكون أثر ذلك على آراء البعض فغيروا قرارهم بالتصويت للكتلة الإسلامية.

بعد أن انتهت عملية التصويت بدأت عملية الفرز وبدأت تتسرب بعض الأخبار عن النتائج الأولية للانتخابات، مرة يقال لصالح الكتلة الإسلامية ومرة يقال أنها بقيت في الجامعة في انتظار إبراهيم ونتائج الانتخابات...، وقرابة الساعة الحادية عشرة ليلاً خرج عميد شؤون الطلبة وأعلن النتائج، كان الفوز بصورة مميزة للكتلة الإسلامية، وبفارق واضح عن الكتلة المستقلة التي سبقت الكتلة الوطنية، عدنا ليلاً أنا وإبراهيم للبيت، كان إبراهيم في قمة السعادة، وكانت أمي في انتظارها في قمة القلق، حيث وصلنا البيت تذكرت ما حدث حين خرجت من قائمة الاقتراع وسألته هل صحيح أن أحد نشطائكم مزق صور "أبو عمار" وداس عليها؟ فنفى ذلك نفياً قاطعاً وأكد أنهم قد فحصوا الأمر فوراً وتحققوا من عدم صحته، وأنهم يعتقدون أن ذلك كان مجرد محاولة انتخابية من نشطاء الكتلة الوطنية لسحب مؤيدين في الكتلة الإسلامية في اللحظة الأخيرة، بالنسبة لي كنت أصدق إبراهيم

دون تفكير حيث عرفت أنه صادق دوماً ولم أشهد عليه كذباً مطلقاً، ولكن هل من سألهم إبراهيم كانوا صادقين لم أكن متأكداً من ذلك.

رغم تفجر الحرب الأهلية في لبنان والتي كانت المقاومة الفلسطينية جزءاً أساسياً فيها، إلا أن وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان ظل قوياً ومصدر قلق دائم لإسرائيل، خاصة وأن رجال المقاومة بين الحين والآخر كانوا يطلقون عدداً من صواريخ الكاتيوشا على المستوطنات الإسرائيلية في شمال فلسطين المحتلة خاصة على كريات شموني، وقد استغلت حكومة إسرائيل برئاسة "مناحيم بيجن" ووزير حربه "شارون" عملية اغتيال لشخصية إسرائيلية في أوروبا فحشدت جيشها على الحدود اللبنانية، وبدأت اجتياح لبنان.

كان البعض يتوقع أن يكون ذلك لعدة كيلومترات محددة لمنع إطلاق الكاتيوشا، وحتى يبدو أن "بيجن" كان يظن ذلك، ولكن "شارون" دفع بالجيش الإسرائيلي إلى العمق اللبناني، حتى حاصر بيروت، وأمام خوف قيادة الثورة الفلسطينية من اجتياح الجيش الإسرائيلي لبيروت والمخيمات الفلسطينية حولها بهدف القضاء على المقاومة وسيطحن في مثل هذه الحرب عشرات آلاف من المدنيين، فقرر رحيل المقاومة من لبنان من خلال بعض الوساطات وبالفعل وصلت قيادة الثورة وكل المسلحين الفلسطينيين من لبنان، وتركت المخيمات والتجمعات السكانية من اللاجئين الفلسطينيين دون حماية وتنسيق واتفاق بين الكتائب اللبنانية، والجيش الإسرائيلي.

ارتكبت مجزرة صبرا وشتيلا حيث قتل فيها المئات من اللاجئين الفلسطينيين رجالاً ونساءً وأطفالاً، وارتكبت أبشع الجرائم ضد الإنسانية في تلك المجازر. ومع تناقل الأخبار عبر وسائل الإعلام تفجر الوضع في الأراضي المحتلة، في هذه الفترة كانت صعبة وقاسية للغاية فما من بيت من بيوت المخيمات إلا ولها أبناء أو آباء أو أقارب من الدرجة الأولى في المخيمات اللبنانية، وكان على اللاجئين أن يعيشوا الهم والغم مرة ثانية وثالثة ورابعة مع ما في ذلك من قصص إنسانية مؤلمة من أم لا تعرف أخبار أولادها، أو أبناء لا يعرفون أخبار أبيهم، أو زوجة لا تعرف ما حال زوجها.

نحن في الجامعة تظاهرنا بصورة صاخبة جداً، وقد تناسى الجميع انتماءاته وخلافاته واصطدمنا مع قوات الاحتلال التي كانت تمر على طريق شارع الثلاثيني بجوار الجامعة وألقينا عليها كميات خيالية من الحجارة وهي لم تتوقف عن إطلاق الرصاص علينا، وإطلاق قنابل الغاز المدمع وقد أصيب العديد من الطلبة ونقلوا إلى مستشفى دار الشفاء للعلاج.

في مدينة الخليل كان الاستيطان في تزايد يومي في كل سبت يسيطر المستوطنون على بيت جديد يطردون منه أهله ويدخلونه، والجيش يحميهم ويوفر لهم الدعم الكامل وقد ضاق السكان ذرعاً بالأمر.

في نفس الوقت خلية فدائية لفتح من ثلاثة شبان تنتظم وتبدأ بالتخطيط لعملية فدائية قوية ورادعة ضد المستوطنين والجنود الذين يحرسونهم وسط الخليل، في قمة الإجراءات الأمنية يحصلون على السلاح، بضع بنادق وذخيرة لها وعدد من القنابل اليدوية ويبدأون في رصد الأماكن محاولين اختيار الهدف الأسهل والأمكن حيث يمكنهم أن يوقعوا أكبر قدر من الخسائر بالأعداء بعد جولات عديدة في أنحاء المدينة القديمة لمبررات مختلفة للتمويه والتغطية على هدفهم الحقيقي.

اختاروا مهاجمة التجمع الاستيطاني والعسكري في مبنى الدبوية وبخفة وحذر تسللوا إلى المقبرة التي تطل على المبنى من أعلى أخذوا موقعهم وانتظروا اللحظة الحاسمة، حيث القوا ما بأيديهم من قنابل يدوية، وأطلقوا نيران بنادقهم وارتفع صوت الصراخ والعويل من كل حدبٍ وصوب ولم يجرؤ أحد من الجنود على إطلاق النار رداً على المهاجمين إلا بعد وقتٍ طويل.

بعد قليل حضرت قوات كبيرة لتعزيز المكان، وإخلاء القتلى والجرحى، وقد تضاربت الروايات حول عدد القتلى، ولكن مما لا شك فيه أن عددهم لم يكن قليلاً، فرض نظام منع التجول على المدينة وبدأت عمليات تمشيط وتفتيش وتحقيقات في المدينة لالتقاط أي معلومة عن المنفذين، يرافق ذلك حملة من التخريب والتدمير المبرمج والمقصود في كل الأنحاء. استمر حظر التجول أياماً عديدة وحين رفع كانت قوات الاحتلال قد فرضت قواعد جديدة في المدينة. وفي الحرم الإبراهيمي الشريف الذي كانوا يلتزمون بزيارته كسائحين فقط أما الآن فقد اقتطعوا منه أجزاءً خصصوها لهم حيث يتواجد فيها المستوطنون المتدينون اليهود بشكل شبه دائم ما عدا أوقات صلاة الجمعة.

وضعوا في القاعة اليوسفية مقاعدهم وشمعدانهم، ومكث علــى مــدار الســاعة عشرات الجنود يحرسون هذه الأماكن والمتدينين اليهود وأدوات عبــادتهم فــي جــوف المسجد، كما ألغيت طرق وصودرت بيوت وزاد التضييق على النــاس وازدادت كثافــة الانتشار لقوات الاحتلال المارة تفحص بطاقات هوياتهم الشخصية، وتجري عليهم وعلى أغراضهم التفتيشات في كل شارع أو زقاق يمرون فيه وتحول حياتهم إلى جحيم حقيقي، وبات واضحاً أن الناس تكاد تختنق مما يمارسه المحتلون والمستوطنون.

جمال كان يتوجه للصلاة في الحرم الإبراهيمي وقد واصل تردده علــى الحــرم رغم كل التضييق والتشديد فأي شيء في الكون يجب ألا يمنعنا من الصلاة في مســجدنا، وكل ما يفعلوه هو محاولات منهم لإرهابنا وطردنا من المسجد. ونحن من دام فينا عرق ينبض فلن نتخلى عن مسجدنا أبداً، فتضطر الأم الحانية والزوجة المشفقة علــى التســليم بالأمر الواقع وتلجئان للدعاء بالحفظ والسلامة.

في مدرسة رابطة الجامعيين حيث يعمل وبين عدد كبير من المدرسين من مؤيدي حركة فتح يتفجر النقاش في كل مناسبة، يبدأ أولئــك المدرســون بمهاجمتــه ومهاجمــة الاسلاميين الذين يقفون وقوف المتفرج ولا يشاركون في العمل المسلح ضــد الاحــتلال، وهو يبتسم مناقشاً أن شعبنا لكي يخوض معركته الحقيقية التي تتواصل ولا تتوقف ابداً لا بد أن يتسلح بسلاح الدين والإيمان ولا بد أن يعود إلى دينه كي تأخــذ المعركــة بُعــدها الحقيقي وتكون بالمستوى المطلوب حين يدرك الناس أنهم يجاهدون ويعانون ويقاسون في الدنيا لينالوا الأجر والرضوان في الآخرة فإنهم سيتحملون ذلك بسهولة بل وســيتدافعون ويدفعون أبناءهم للجهاد والبذل والتضحية، فلا ينالهم أذى ولا يتهمون بالتقاعس عن أداء الواجب الوطني.

لم يمر وقت طويل حتى كان المستوطنون قد شكلوا تنظيماً سرياً، بدأ يعد ويخطط لمهاجمة العرب في مدينة الخليل وغيرها، مجموعة المســتوطنين هــذه لــديها الســلاح والذخيرة والمتفجرات ولديها الخبرة العسكرية حيث خدم غالبية أعضائها فــي وحــدات عسكرية قتالية في الجيش الإسرائيلي، كبار الحخامات المتطرفين يدعمونها ويوفرون لها الغطاء الديني، ويصدرون لها الفتاوى لقتل أكبر عدد من العرب وتدمير بيوتهم وأمــاكن عبادتهم.

في ساعات الصباح وبينما طلبة وطالبات جامعة الخليل يجتمعــون فــي حــرم الجامعة توقفت سيارة (بيجو ٤) بيضاء اللون ونزل منها ثلاثة مسلحين وفتحــوا نيــران أسلحتهم الأوتوماتكي على الطلاب وخلال دقائق معدودة كانت السيارة تنطلــق مغــادرة المكان وقد خلفت وراءها العشرات من الطلبة والطالبات يغوصون في دمائهم بينهم عدد من الشهداء، بعد وقت طويل جاءت قوات جيش الاحتلال ومخابراته متظاهرة بأنها تريد التحقيق في الحادث، حيث استجوبت عدداً من الطلاب والمــارة فــي الشــارع والنــاس تغمغم...ماذا يريد هؤلاء؟ هل يعتقدون أننا نصدق أن الحــادث لــيس مــن تخطــيطهم وتدبيرهم؟.

نفس المجموعة من المستوطنين كانت قد استأجرت بيتاً في المدينة القديمة فــي القدس وبدأت تركز فيه كميات من المتفجرات المتطورة، وتجري تدريبات مكثفة يشرف عليها ضباط متقاعدون من بينهم لتفجير المسجد الأقصى على من فيه لإزالة أي شيء من آثار إسلامية منه.

تسرب الخبر لأجهزة الأمن والسادة درسوا الأمر ووجدوا أن الوقت لم يزل غير مناسب لتدمير المسجد الأقصى فقرروا وقف عمل هــذه المجموعــة المتطرفــة فقــاموا باعتقالها وأودعوها بالسجن بشكل مؤقت رغم ضلوعها بقتل العديدين والتخطيط لأعمــال غاية في الخطورة.

في وقت قريب من ذلك أعلنت حركة دينية متطرفة تسمى حركة أمناء الهيكــل أنها تنوي الدخول إلى باحة المسجد الأقصى ووضع حجر الأساس لإقامة هــيكلهم علــى أنقاض المسجد الأقصى المبارك وأنهم قد يلجأون للقوة في فعل ذلك، حيث قبل وقت ليس طويلاً قام أحد المتطرفين باقتحام المسجد الأقصى وإطلاق النار على الحراس المســلمين العاملين في الأوقاف الإسلامية، وعلى المصلين وقتل عدداً منهم.

الأخبار عن نية هذه الجماعة اقتحام المسجد الأقصى، طارت إلــى كــل مكــان ووصلت إلى الجامعة الإسلامية. قبل الظهر على الفور تجمع عدد من أعضــاء مجلــس الطلاب وعلى رأسهم إبراهيم وسط ساحة الجامعة وبدأوا في عقد مهرجان خطابي عــن المخاطر التي تهدد المسجد الأقصى وأعلنوا أنهم سيخرجون مع من يريد من الطلاب لــم يكن باستطاعتهم السفر للقدس دون اطلاع أهلهم وعدد آخر لم يترددوا في إعطاء حقائبهم وكتبهم لزملائهم ليوصلوها لبيوتهم ويخبروا أهلهم بخروجهم للقدس، وقد كنت وإبــراهيم ممن فعلوا ذلك.

انطلقت بنا الحافلة إلى القدس ومعنا أحد المدرسين من الجامعة الشيخ يونس وكنا نريد أن تطير بنا الحافلة للوصول إلى القدس لنجعل أجسادنا درعاً لحماية المسجد الأقصى وطيلة الطريق كان الشيخ يحدثنا عن فضل هذه الأرض المقدسة وعن فضل الجهاد فيها حتى التهبت عواطفنا ومشاعرنا فوق التهابها الأصلي.

وصلنا المسجد الأقصى فوجدنا فيه أعداداً كبيرة من الرجال والنساء والولدان، تجمع كبير غير منظم كنا نحن حوالي ستين، تجمعنا في أحد أركان المسجد وشكلنا قيادة على رأسها إبراهيم، وكان الشيخ هو الموجه والمعبئ، تم تقسيمنا إلى عدة مجموعات أوكلت كل مجموعة بحماية أحد الأبواب التي يفترض أن يأتي منها المعتدون، لم يكن لدينا ما ندافع به غير أيدينا وما تيسر من العصي والحجارة، أخذنا مواقعنا وقد طلب منا عدم مغادرتها مهما كان خشية أن يهاجموا المسجد الأقصى من عدة أماكن، والجموع كونها غير منظمة فهي ستندفع إلى الباب الأول الذي ستأتي الأخبار أن الهجوم حصل منه.

تم تقسيم كل فرقة إلى مجموعتين لأداء الصلوات عند حلول وقتها مجموعة تصلي وأخرى تواصل الحراسة فإذا أنهت الأولى صلاتها احتلت مواقع الحراسة وذهبت الثانية للصلاة ثم عادت، حين حل الليل وسكنت الحركة وبدا أن الأمور قد تطول اتفق على أن تذهب المجموعة الأولى للنوم شطر الليل الأول ثم تعود لتذهب الثانية للنوم شطر الليل الثاني ومجموعة القيادة توزع الأوامر على كل الفرق بحيث كان العمل موحداً للجميع.

من ظلوا للحراسة بدأ الليل ببرده يتناوشهم، فسارع عدد من الأهالي لإحضار البطانيات الصوفية وأعطوا كل واحد منا واحدة ليلف نفسه بها، ونزلنا بجوار الجدران والأعمدة الحجرية نترقب تداعب خواطرنا كل تلك الأفكار الجميلة عن قداسة المكان والمراحل التي مر بها والتهامس بأننا والحمد لله قد نلنا شرف الرباط العلمي في الأقصى لنحميه بأجسادنا من أي عدو آثم.

تذكرنا إسراء ومعراج رسول الله ﷺ وتذكرنا الناصر صلاح الدين واغرورقت العيون بالدموع وسُمع نحيب البعض، بدلتنا المجموعة الثانية عند منتصف الليل فأعطيناهم البطانيات ليلتفوا بها والحجارة ليتسلحوا بها، وانطلقنا إلى صحن المسجد الأقصى نفترش بعض بسطه ونتغطى بالبعض الآخر، حتى أذان الفجر قمنا وتوضأنا وصلينا الفجر مع المصلين.

كان أحد حراس المسجد الأقصى قد رأى مستوى التنظيم والاستعداد لدينا فهمس في أذن إبراهيم بأنه يوجد مئات المواسير الحديدية مما تستخدم لصنع سقالات البناء، خذوها واستخدموها إن لزمت.

حين أشرقت الشمس كانت حافلة أخرى قد وصلت من طلاب الجامعة فأصبحنا نزيد عن المائة مسلح كل واحد منا بماسورة حديدية أفضل بمئات المرات من الأذرع وحدها أو من الحجارة وأخذ الجميع مواقعهم، وبدأ الناس يندفعون من جديد للمسجد. بين الحين والآخر كانت تصل إشاعة بأنهم سيهاجمون من باب المغاربة فيندفع الناس بمجموعهم للباب، ويظل طلاب الجامعة كل في مكانه انتبهنا أن هناك مجموعة كبيرة من الشبان والرجال أكثر نظاماً من عموم الناس، وقد انتبهوا هم كذلك لنا ويبدو أنهم شخصوا أن إبراهيم هو قائدنا، فتوجه إليه بعضهم يتعرفون علية وعرفوه على أنفسهم فهم من الشباب المتدينين من أهلنا في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ من المثلث وخاصة من بلدة أم الفحم، على الفور انضموا لنا وأصبحوا ضمن فرقتنا ومجموعاتنا. ان أكثر ما يميزه طيبة قلب غير عادية واستعداد خيالي للتضحية والفداء وسرعان ما تجد أحدهم قد أطلق لنفسه العنان للنشيد أو الغناء أو المواويل بمعانٍ غاية في السمو والعفاف حول فداء الأقصى بالروح والدم، فلا نتمكن من حبس دموع عيوننا تنهمر على وجوهنا، وتشتد قبضات أيدينا على المواسير التي بأيدينا.

مر اليوم الذي حدده أمناء الهيكل دون أن يجرؤوا على الاقتراب من المسجد الأقصى وبقينا يوماً آخر زيادة في الطمأنينة، وحين تأكدنا من زوال الخطر وبعد أن صلينا الظهر في المسجد الأقصى جلسنا في حلقة وسط صحن المسجد وجلس الشيخ يونس يحدثنا عن هذه السرية التي خرجنا فيها معاً في سبيل الله وسبيل أقصانا، والتي لم يكتب الله لنا فيها لقاء العدو، ولم ينل أحدنا فيها الشهادة، ثم أخذ يدعو بدعوات يسأل الله فيها أن يحمي لنا أقصانا من كيدهم وأن ينلنا الشهادة وفضل الجهاد في ساحته، وأطال في دعواته تلك ونحن نردد خلفه آمين آمين، وقد تفجرت عيون الجميع بالبكاء وعلا النحيب ثم انطلقت بنا الحافلة عائدين إلى غزة والصمت يطبق علينا طيلة الطريق.

رحلتنا إلى المسجد الأقصى ولقاؤنا بأهلنا من عرب الداخل ذكرنا بشطر آخر من شعبنا الممزق في أنحاء شتى، كانت تلك المرة الأولى التي احتك بنا الناس من عرب الداخل وقد كنت أسمع من قبل القليل عنهم ولكنهم في هذا اللقاء عرفتهم فوجدت أنهم سرعان ما اقتحموا عليّ قلبي وتربعوا في سويداته لجميل خصالهم وطيبة قلوبهم وخفة روحهم.

الأهم بين ذلك كله صمودهم طيلة سنوات الاحتلال ورغم كل ممارساته لسلخهم عن عروبتهم وإسلامهم وفلسطينيتهم إلا أنهم لا زالوا أصلب مما يمكن أن يتصوره أي من الناس ممن لم يلتق بهم وير روحهم واستعدادهم.

أخي محمد كان قد التقى بالبعض من شبان الداخل أثناء زيارته لجامعة الخليل، فكما هي عادة النشطاء في القوائم المختلفة، كان محمد يقوم مع زملائه بجولات على الجامعات الأخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة حيث يلتقون مع الناشطين من نفس تياراتهم وينسقون العمل والمواقف.

أثناء إحدى تلك الزيارات لجامعة الخليل دعاهم أحد الناشطين إلى أحد بيوت الطلاب لتناول طعام الغداء، هناك وجدوا عدداً من الشبان الذين أحسنوا استقبالهم وبصورة مميزة وجهزوا طعام الغداء ثم جلسوا يتناولونه معهم. حينها تعرف محمد أنهم من شباب الداخل (٤٨) من أم الفحم وكفر قاسم وغيرها وقد كان واضحاً أن هؤلاء الشبان يتحلون بنفوس طيبة للغاية وبمستوى من التدين عالٍ جداً وأنهم يشعرون بالانتماء الجدي لهذا الدين ولهذا الشعب وأن سنوات عيشهم تحت الاحتلال لم تزدهم إلا تمسكاً بدينهم وبقضيتهم.

تخرج أخي محمد من كلية العلوم بامتياز، الأمر الذي مكنه على الفور من أن يقبل في جامعة بيرزيت معيداً في قسم الكيمياء في كلية العلوم، وقد كانت أمي في انتظار تخرجه وعودته للاستقرار في غزة، ولكنه مع تعينه في الجامعة أصبح من الواضح أنه سيواصل قضاء معظم وقته في الضفة الغربية، هذا في حد ذاته كان بالنسبة لأمي مشكلة باستمرار غياب محمد في رام الله وكان حلاً لمشكلة فلا شك أنه بعودته وقد تخرج يحتاج لغرفة جديدة وليس في البيت متسع لذلك، وحين ناقشوا موضوع سكنه في رام الله أكد أنه سيعيش السنة الأولى على الأقل مع نفس الطلبة في شقة مشتركة معهم كما كان وقت دراسته.

في أحد الأيام بعد رباطنا الذي كان في المسجد الأقصى وبينما كنا في إحدى الجلسات التي جمعت بالبيت العائلة ذكرت ذلك الحدث، أفلت الحديث عنه من بين أسناني ولم أعد قادراً على التراجع أو التوقف، رغم نظرات إبراهيم الحادة على الفور بدأ محمود بمهاجمة إبراهيم ومحمد محسن كأعضاء في التيار الإسلامي، منتقداً عدم المشاركة في المقاومة المسلحة والاكتفاء بالعمل السياسي والجماهيري، وأن هذا الوقت يضع قيادتكم في موضع الاتهام، حيث أنها تعطل طاقات كبيرة من الشباب عن الاشتغال في المقاومة باسم الدين.

رد عليه محمد الذي يبدو أن شغله في العمل الطلابي قد جعله صاحب خبرة عالية في النقاش السياسي قائلاً: إن من يسمعك يظن أن مدافعكم لا تتوقف وعملياتكم ستجعل اليهود يهربون خلال ساعات، أنت تعرف أنه منذ سنوات لم يكن هناك شيء اسمه مقاومة مسلحة وكل ما يحدث هو محاولات ضعيفة تموت في مهدها أليس كذلك (يا باش مهندس).

حين ذهبنا في اليوم التالي لصلاة المغرب في المسجد، جلس الشباب في المسجد كعادتهم في الحلقة وجلس الشيخ أحمد يريد الحديث فاستأذنه محمد قائلاً: يا شيخ أحمد اسمح لي فهناك سؤال أود أن تجيب عليه لأنه كثيراً ما يتردد ويطرح علينا في كل مناسبة، وهو أين دور الإسلاميين في العمل الوطني يعني المقاومة؟ ابتسم الشيخ أحمد وهو يتفرس في وجوه الحاضرين ويلتفت حوله قائلاً: نحن الآن في مرحلة تربية وإعداد، وبدأ يشرح موضوع التربية وأهميتها في صناعة مستقبل الأمم والشعوب التي تطمح لتحقيق أهداف سامية، ثم انتقل إلى الموضوع الذي كان ينوي التحدث فيه من قبل.

كلمتا (إعداد وتربية) أو (تربية وإعداد) ظلتا تترددان طيلة الوقت على مدار شهر وسنوات كلما حدث نقاش في بيتنا أو في بيت أم العبد بحضور ابنها عبد الحفيظ أو في الجامعة في أي نقاش يتم التعرض فيه لموقف الإسلاميين من المقاومة المسلحة في الوقت الراهن، فإذا سأل أحد أفراد الاتجاه الوطني عن ذلك الدور أجابه مناظره من الإسلاميين نحن الآن في مرحلة تربية وإعداد، وكثيراً ما كان من يطرح هذا الجواب يستشهد برجل الدعوة الإسلامية الأول محمد رسول الله ﷺ بالعمل التربوي والدعوي على مدار سنوات طويلة قبل بدء الجهاد بالسيف.

في أحد الأيام عدنا للبيت متأخرين فوجدنا أمي في قلق كبير وعلمنا أن شرطياً قد أحضر مذكرة تبليغ لإبراهيم تطلب منه الذهاب صباح اليوم التالي إلى مقر المخابرات وتحذره من التأخير. إبراهيم لم ينزعج ولم يبد عليه القلق أو الخوف وطمأن أمي أن هذا الأمر روتيني جداً، وهناك العشرات من الشبان يتم طلبهم بهذه الصورة حيث يسألونهم عدة أسئلة ثم يتركونهم يغادرون.

في اليوم التالي ذهب إبراهيم لتلك المقابلة حيث تم احتجازه في أحد الأكشاك هو وعدد من المطلوبين مثله ساعات طويلة حتى العصر، بعدها أدخلوه إلى مكتب مسؤول المخابرات عن منطقتنا الذي كنيته "أبو وديع" وبدأ يوجه له أسئلة عادية اجتماعية عن أهله وأقاربه ومسكنه ودراسته، وإبراهيم يجيب إجابات قصيرة ومقتضبة جداً، وأبو وديع يحاول أن يستدرجه للاستفاضة في الحديث، وإبراهيم ملتزم بسياسة الاقتضاب.

بعد وقت قصير من هذه الاسئلة بدأ يوجه أسئلة عن نشاطه الطلابي في الجامعة فلا يجد إلا إجابات بنعم أو لا أدري، استفز أبو وديع وصرخ هل تظن أننا لا نعرف نشاطاتك وعلاقاتك ولا نعرف أن رأسك مثل الحجر.

ظل إبراهيم صامتاً فزاد صراخ رجل المخابرات وقد بدأ يدفع إبراهيم بيده أو يصفعه صفعات خفيفة وإبراهيم لا يحرك ساكناً وقد احمر وجهه صرخ أبو وديع تربية وإعداد...تربية وإعداد لماذا التربية والإعداد؟ نظر إبراهيم قائلاً: لا أدري عمّ تتحدث؟ ضحك أبو وديع: أعرف أنك ستقول ذلك ولا أتوقع منك غير ذلك، ولكن ليكن في علمك أننا نعرف أنكم ترددون هذه الكلمات، وأنك قلتها في الجامعة مئات المرات في ردودك على أسئلة طلاب الكتلة الوطنية عن دوركم في العمل التخريبي ضد دولة إسرائيل، وليكن في علمك أننا نراقبكم، وأننا نعرف كل نفس تتفوه وأول ما تفكر في عمل شيء غير الحكي سنعرف كيف نضعكم في السجون.

مد يده ببطاقة الهوية مناولاً إياها لإبراهيم قائلاً: كل هذا الحقد الذي يملأ عيونك مثل عيون البغل لا تحضره معك حين أطلبك مرة ثانية واتركه في البيت، تناول إبراهيم بطاقته وخرج من الغرفة وهو يبتسم ابتسامة لم يكن من السهل إخفاءها.

الفصل السادس عشر

خالتي فتحية رزقت بنتاً أسموها "منى" ورغم جمال الوليدة وخفة دمها وظرافتها، إلا أنها لم تشغل خالتي مطلقاً عن ابنها عبد الرحيم الذي بدأ يدرج ويتكلم... ثم بدأوا يعدونه للذهاب للمدرسة مع بداية العام الدراسي الجديد.عبد الرحيم كان طفلاً أسمر مليحاً ولكنه كان حاد المزاج، إذا أغضبه أحدهم عبس وظل عابساً حتى إذا تمكن من تنفيس غضبه، يضرب ذلك الذي أغضبه، وهو متعلق بدرجة كبيرة بعمه عبد الرحمن الذي تزوج بعد إنهاء دراسته الجامعية وأنجب بنتاً أسماها "رقية".

عمه عبد الرحمن يحبه حباً جماً، وكلما سنحت له الفرصة يأخذ بيده الصغيرة بعد أن تجهزه أمه للخروج مع عمه ويخرج به من الدار إما إلى الجبل أو إلى مشوار في القرية في مسائها الهادئ بعيد الغروب، فيشتري له ما يحب من دكان قريب، ولطالما أخذه معه إلى المسجد حيث يصلي المغرب، وعبد الرحيم يقف إلى جوار عمه يقلده في صلاته، فإذا أطال السجود في صلاة نافلة رفع عبد الرحيم رأسه ليرى الوضع الذي عليه عمه، فإذا ما رآه ساجداً عاد إلى السجود..ثم يجلس معه في المسجد برفقة عدد من الشبان الذين يترددون على المسجد يناقشون قضية فقهية أو مسألة في التاريخ أو حدثاً في السيرة النبوية فيجلس عبد الرحيم متربعاً ويطرق برأسه قليلاً ثم يرفع نظره إلى المتحدثين ويضع رأسه بين يديه وقد أسندهما إلى ركبته.

ولطالما أخذه عمه معه إلى الخليل ليزور صاحبه وزميله جمالاً فيجلسون في الدار يتجاذبون أطراف الحديث حيث يأتي معهم أصحاب آخرون يتحدثون في قضايا دينية وسياسية وغيرها، وأحياناً يخرجون إلى أحد المساجد في الخليل أو إلى أحد بيوت الأصدقاء لزيارتهم.

الوعي السياسي في الأراضي المحتلة تطور بصورة واضحة، خاصة في مراكز التجمع الشبابية وعلى وجه التحديد في الجامعات والمعاهد والمدارس الثانوية...كما أن التنافس بين القوى السياسية والفكر السياسي قد بدأ يتصاعد تدريجياً خاصة وأن كل قوة تحاول أن تحسم أكبر عدد من المواقع لصالحها...ففي الجامعات مثلاً يحاول كل تيار أن يحسم الطلاب لصالحه ليضمن فوزه في الانتخابات لاتحاد مجلس الطلبة.

أثناء عملية التنافس هذه تحدث دوماً صدامات صغيرة ومحدودة يتم حلها بسرعة ويسر، ولكن أمام تنافس قوة التيار الإسلامي في كافة المواقع بدأت تثور حساسية شـديدة لدى التيار الوطني وعلى رأسه حركة فتح. فالتيار الوطني الذي يمثل منظمـة التحريـر الفلسطينية بفصائلها المختلفة يعتبر نفسه أنه هو الامتداد للمنظمة التي هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وهذا ما اعتاد عليه الشعب الفلسطيني على مـدار عشـرات السنوات، وهذا ما اعترفت به جامعة الدول العربية والدول العربية وحتى الأمم المتحدة، وغيرها من المؤسسات الدولية.

هكذا جرت الأمور خلال عشرات السنوات وفجأة يبرز التيـار الإسـلامي فـي الأرض المحتلة، ويتنامى بصورة كبيرة ويصبح يتنافس على العديد من المواقـع مقابـل ممثلي فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، ويفوز في العديد منها أو يحصل علـى نسـب جيدة في مواقع أخرى الأمر مقلق للغاية وما يزيد القلق أمران آخران، فهذا التجمـع لـم يحمل على عاتقه أي مسؤولية عملية في مسيرة الكفاح المسلح ضد الاحتلال، والآخر أنه لا يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية على أنها الممثل الشـرعي للشـعب الفلسـطيني، صحيح أن قادته وزعماءه لا يصرحون بذلك ولكنهم في نفس الوقت لا يعلنون اعتـرافهم الصريح بهذه الحقيقة، وإن سئلوا عن ذلك أجابوا إجابات دبلوماسية لا لا و لا نعم.

مع تنامي قوة هذا التيار على كافة مناطق الأراضي المحتلة خاصة فـي غـزة، وتحديداً في الجامعة الإسلامية التي سيطر عليها التيار الإسلامي شبه سيطرة كاملة على الطلاب من خلال الفوز في انتخابات مجلس الطلاب بنسبة عالية جـداً، وعلـى هيئـة العاملين بفوز مرشحيه على مرشحي التوجه الوطني، وعلى الطالبات بفـوز مرشـحاته بهيئة الطالبات على مرشحات التيار الوطني.

مع هذا التنامي أصبح الأمر مقلقاً فبدأت محاولات أكثر جدية لمعادلـة إعـادة التوازن، ويبدو أن التعليمات قد جاءت من قيادات الخارج للعمل الجاد لحسم الأمور فبدأت كل الدوائر بالعمل الأمر الذي أحدث احتكاكات حادة في العديد من الأماكن، والتي وصلت أكثر من مرة إلى صدامات تبدأ في الجامعات ثم تنتقل إلى شوارع وأزقـة المنـاطق و المخيمات.. حيث تبدأ عمليات الاعتداء من أحد الأطراف على أعضاء في الطرف الآخر ثم يأتي رد هذا الطرف على الأول وهكذا في سلسة من الاعتداءات التـي تـؤدي إلـى أضرار جسدية وتقتضي العلاج في كثير من الحالات.

في هذه الأجواء كان الجميع يتحزبون لجماعاتهم وتنظيماتهم، كل واحد يتحــزب لجماعته ولو بالقول والدفاع عن مواقعها، الأمر الذي كان ينعكس فوراً على دارنا، فأخي محمود فتحاوي، وإخواني حسن ومحمد وابن عمي إبراهيم من التيار الإسلامي وجارنــا ونسيبنا (أخو امرأة حسن) من الجبهة الشعبية. فور تفجر أي صراعات أو صدامات مــن هذا النوع ينعكس ذلك على الدار والعلاقات فيها، حيث يحتد النقاش ويتحول إلى صــراخ أنتم فعلتم، لا أنتم الذين فعلتم...من أنتم حتى تفعلوا؟ ومن تظنون أنفسكم أنتم؟ أمي تقــف محاولة الإصلاح والتوفيق أو على أقل حد ألا تتطور الأمور إلى ضرب بالأيدي، وأنــا أقف معها في العادة، زوجة محمود تقف معه، وزوجة حسن تقف معه... وتنتهي الأمور بأن ينفض الجمع كل واحد إلى غرفته محاولاً تجنب الآخر بصورة مقصودة وواضــحة مظهراً زعله وغضبه من الآخر.

لوجود إبراهيم في الجامعة ودوره القيادي في الكتلة الإسلامية فقد كان يُكِنّ لهــا احتراماً غير عادي قد يصل إلى شيء من القداسة، ولكني لوجودي في الجامعة وقربــي منه فقد كنت ألاحظ ذلك بصورة واضحة وقد كنت أخشى أن يعتدي عليه البعض فكنــت أحاول أن أكون قريباً منه ما استطعت، وما سمحت لي ظروف المحاضرات وما سمحت لي حركته وظهوره فقد كان يختفي أحياناً، وقد كان يجلس أو يقف أحيانــاً مــع نشــطاء الكتلة، فلا أقترب منهم حيث أقدر أنهم يتحدثون في أمور خاصة بهم، ولا بــد أنهــم لا يحبون اطلاعي عليها.

ويبدو أن المعلومات عن دور إبراهيم كانت تصل عن طريق نشطاء فــتح مــن الطلبة إلى أخي محمود الذي يعتبرونه أحد قياداتهم فكنت أرى على وجه محمود الغــيظ والحنق على إبراهيم وهو لا يستطيع الاقتراب منه، أو حتى الحديث معه ولو بكلمة تمسه أو تسبب في زعله فهذا خط أحمر عند أمي لأن زعل إبراهيم من أحدنا يعني قيام الساعة، هكذا عودتنا منذ أن تركته أمه.

أحياناً كان محمود يحاول أن يتحاور مع إبراهيم ضاغطاً أعصابه محاولاً ضبطها كيلا تنفلت فيحدث الصراع، فتهب أمي لتصب على رأسه جام غضبها فيبدأ يحــاوره أن الأمور لا تجري بهذه الصورة وأن ما تفعله خطأ وما شابه بما يوحي أنه يُحمل إبــراهيم وجماعته مسؤولية ما يحدث من صدامات.

يبتسم إبراهيم ويقول: يا رجل أنت تحاول أن تلقي بالمسؤولية علينا...نحن لم نبدأ الصدام، وأنتم غير مستعدين للاعتراف بوجودنا كقوة شعبية وكتيار سياسي واجتماعي يختلف معكم، فيرد محمود: أنتم من تميلون إلى العنف واستخدام العصي والجنازير والبلطات، أنتم من لا تعترفون بمنظمة التحرير الفلسطينية ولا تحملون مسئوليتكم في الكفاح المسلح وتعتدون على ممثلي الحركة الوطنية والاحتلال يتفرج عليكم.

فينظر إليه إبراهيم عاتباً ويتساءل: هل هذا اتهام لنا بالعمالة بأننا ربائب الاحتلال؟ فيحاول محمود التبرير أنا لا أتهمك يا إبراهيم أنا لا أتهمك، لكن ممكن مسؤولوكم لهم أهداف شخصية، فيجيب إبراهيم: يا رجل نحن لم نبدأ الصدام في أي مرة، نحن في كل مرة دافعنا عن أنفسنا، وأصل المشكلة هو عدم استعدادكم للاعتراف بوجودنا كقوة منافسة وكأن طابو العمل الفلسطيني والسيطرة على المؤسسات والجمعيات والنقابات مسجلة على أسمائكم وحدكم، يجب أن تعترفوا أن هناك قوة منافسة تختلف معكم في الكثير من وجهات نظركم ومواقفكم، حينها تتدخل أمي التي تكون قد انتبهت للحديث وبدأت تراقب تطوراته دون أن يشعر مطالبة الكف عن هذا الحديث وعدم نقل المشاكل في الشوارع إلى خلافات داخل الدار.

في إحدى المرات أرسل الحاكم العسكري مذكرة تبليغ بطلب الحضور لإبراهيم ولعدد آخر من النشطاء في الاتجاهات المختلفة لمقره، حين ذهب إبراهيم وجد جمعاً من حوالي عشرة من النشطاء، وبدأ الحاكم يطلبهم إلى مكتبه واحداً تلو الآخر، حين طلب إبراهيم بدأ يتحدث معه وكان يحمله مسئولية ما يحدث، اعترض إبراهيم على الأسلوب موضحاً أنه لا علاقة له بما يجري من صدامات، فانتقل الحاكم إلى أسلوب المزاودة، كيف أنتم كشعب تحت الاحتلال تريدون الاستقلال، تتحاربون وتتقاتلون أنتم شعب لا يستحق الحياة وأنتم وأنتم...

وجد إبراهيم نفسه في مأزق إن لم يُجب فإن ذلك كصفعة حادة، وإن أجاب فكأنه يؤكد ما يجري أو أنه جزء منه، فكر قليلاً ثم قال: بداية أريد أن أؤكد ألا علاقة لي بكل ما يجري ولكني أعتقد أنك تعرف أن كل الشعوب التي تعيش تحت الاحتلال أو التي تكون لديها سيادة ومؤسسات كما حال شعبنا، يحدث عندها خلافات وصدامات وقد حدث ذلك عندكم مراراً وتكراراً...قديماً وحديثاً، وآخرها ممارسات الهاجناة ضد الإتسل.

بهت الحاكم، ولم يستطع أن يخفي ذلك وتساءل: من أين عرفت هذا؟ أجاب إبراهيم: هذا مكتوب في الكتب، حاول الحاكم أن يعيد الكرة إلى إبراهيم قائلاً: أنا أفتخر أن واحداً مثلك يعتبر الشعب اليهودي قدوة ومثلاً له، رد إبراهيم: أنا لم أذكر ذلك كقدوة ومثل، وإنما كنموذج من التاريخ وأنا أؤكد لك مرة أخرى ألا علاقة لي بما يجري.

في كل يوم كان إبراهيم يزداد في نظري سمواً واحتراماً، فهو الذي تربى يتيماً من أبيه الذي استشهد وهو في الرابعة من عمره، ثم تركته أمه وهو لا زال صغيراً، وترَبى بيننا، وقد أصبح رجلاً عصامياً، وقائداً حقيقياً رغم صغر سنه، وصعوبة الظروف تحت الاحتلال.

كنت أنظر إليه وهو يتحرك في ساحة الجامعة يتحدث مع هذا ويوجه ذاك، ويصدر أوامره وتعليماته لهؤلاء، ويُسَيّر الأمور كما يريد، ثم تجده مفكراً ومناظراً جيداً، وفوق كل ذلك فهو في حيائه كالبكر في خدرها سرعان ما يتدفق الدم إلى وجهه فيحمر ويكاد ينفجر من وجنتيه.

كان الاحتلال يمنع البناء في الجامعة في محاولة لحصرها والتضييق عليها، ولم يكن بُد من فرض سياسة الأمر الواقع، كان عدد طلاب الجامعة وطالباتها قد تجاوز الألف وخمسمائة وزاد عدد الكادر الأكاديمي والإداري فيها بصورة لم تجعل لدى أي من طلابها أو مراقبيها شكاً بأنها قد تجاوزت مرحلة الخطر، وبدأت تخطو في طريق الجامعة الرسمية.

وكان الأمر قد تحول إلى تحدٍ ضد الاحتلال الذي يحاربنا في كل شيء حتى في التعليم، لذلك رأيتنا ونحن ننشئ الخيامَ وعرائش سعف النخيل لندرس فيها، وإبراهيم يقف على رؤوسنا ويشرف على العمل بكل جد واهتمام، ويزرع في الطلاب روح الإصرار والتحدي فيأتي الواحد منا للجامعة وهو يشعر أنها جزء من واجبه الوطني أولاً قبل همه الدراسي. بدأ ينطبع اسم (جامعة الخِيام) على الجامعة الإسلامية، وكان هذا موضع فخرنا واعتزازنا ولم يكن بوسع الاحتلال الوقوف أمام إرادة شعب للعلم والتعليم، فقد بدأ يسلم بالأمر الواقع، وكان علينا التقدم للأمام.

فجأة ودون سابق إنذار تدخل الجامعة عدة شاحنات تقف وتبدأ بتفريغ كميات كبيرة من مواد البناء، وإذا إبراهيم يتحول من طالب وناشط إلى مقاول حيث انهال هو وعدد من الطلاب المحترمين والمئات منا يساعدونهم في بناء قاعات دراسية بالطوب وسقفها بالإسبست.

هكذا فرض الأمر الواقع على الاحتلال فإذا بعدة قاعات قد جُهزت للدراسة، وبعد فترة جهزت عدة قاعات أخرى ثم دفعة ثالثة وبات واضحاً أننا قد أصبحنا في غنى عن معرشات سعف النخيل والخيام، كل ذلك كان يزيد إبرهيم في عيني وفي قلبي عظمة وسمواً وحباً.

كان إبراهيم يدرس ومتفوقاً في دراسته، ويزاول نشاطه الطلابي ويحتل بين زملائه موقعاً مرموقاً كقيادي في جماعته، وفوق كل ذلك كان يزاول أعمال البناء التي يكتسب من ورائها المال الذي يكفيه للمصروف، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنه في أحد الأيام ونحن جلوس في البيت في إحدى الأمسيات توجه إلى أمي قائلاً: أريد أن اقترح أمراً ولا أريد أن تزعلي مني، فقالت: أنت تعرف أني لا أزعل منك وأنا أعرف أنك لا تقول ما يسبب زعلي، فقال: ولكن يبدو أنني هذه المرة الأولى أفعل ذلك فأرجو أن تسامحيني، نظرت إليه أمي بدهشة واستغراب وتساءلت: ما الأمر يا إبراهيم؟

فأجاب وهو يمد يده في جيبه ويخرج رزمة من النقود: أريد أن أشارك في مصروف الدار، فأنا الآن رجل وأكسب الكثير من المال ولا بد أن أشارك في المصروف ويكفي أنكم...صرخت أمي مقاطعة: إبراهيم ماذا جرى لك؟ هل جننت؟ فتمتم إبراهيم: يا مرة عمي أنا الآن...صرخت أمي مرة أخرى: لا أنت الآن ولا غيره...دعك من هذا الكلام الفارغ، وإذا كان لديك نقود فائضة فهاتها أدخرها لك فقد تلزمك غداً أو بعد غد، وعلى كل حال ستلزمنا حين نزوجك بعد تخرجك من الجامعة، ثم بدأت تحدثه بحنو: كلما زاد معك قرش هاته لأدخره لك سوف يلزمك، سوف يلزمك يا إبراهيم .

ويبدو أن الرفض لم يرقه فكنت أراه كلما مرت عدة أيام يعود للبيت وقد حمل ظرفاً أو كيساً مملوءاً بالمواد الغذائية أو الفواكه أو الخضراوات أو الحلويات، يحضرها للبيت كنوع من المشاركة، فتنظر إليه أمي نظرة إكبار واحترام وهي تتمتم: آه ماذا أفعل معك يا إبراهيم، الله يرضى عليك.

المقاومة المسلحة تقلصت إلى حد بعيد، وشاع المثل (كل موتة يهودي) يحدث كذا، للتدليل على ندرة حدوث ذلك الشيء أو انعدامه، ليس فقط الموت بين الأعداء تقلص، بل أي عمل مقاوم، تقلصت مظاهر الاستنفار العسكري، تقلص عدد الدوريات التي تجوب الشوارع، نادراً جداً ما كان يفرض حظر التجول، حظر التجول الليلي رُفع، سمح للناس بالتواجد على شاطئ البحر ليلاً في العديد من المناطق.

بدأت حافلات من اليهود تأتي إلى كافة المناطق مثلاً إلى قلب مدينة غـزة أيـام السبت للفسحة وللتسوق حيث الأسعار رخيصة، مع ما في ذلك من تأثير سلبي كبير على مستوى البلد المحافظ حين تأتي عشرات الحافلات التي تقل الفتيات والنساء شبه العاريات.

ضباط المخابرات (مسئولو المناطق) بدأوا يتجولون بسياراتهم (السوبارو) فـي الشوارع بل ويوقف أحدهم السيارة في أي ساعة من ليل أو نهار وفي أي مكان وينـادي على أحد المارة ويطلب بطاقة هويته الشخصية ويبدأ باستجوابه أو الحديث معـه دون أي حراسة من أحد، دون خشية أو تحسب، وأحياناً إذا رأى ما يريبه في أحد الأزقـة نـزل جرياً في تلك الأزقة وراء من يريد، هكذا بدلاً من تلك القوات الضخمة التي مـا كانـت تستطيع اقتحام المخيم وصل الحال إلى هذا الوضع، وقد تجده يصرخ على أحد الشـباب الذين استوقفهم وقد يصفعه أو يركله ثم يستقل سيارته دون أن يعيد له بطاقة هويته طالباً منه اللحاق به إلى مكتبه، والويل لهذا الشاب إن لم يفعل.

حركة العمال للداخل أصبحت بدون حدود أو ضوابط، ونسج العديد من هؤلاء العمال والحرفيين علاقات صداقة مع أصحاب العمل اليهودي ولم يظل ذلـك محصـوراً فـي علاقات العمل فقط بل تعدى ذلك للعلاقات الاجتماعية، فإذا ما طلب هذا العامـل إجـازة لمدة أسبوع لأنه يريد الزواج استفسر منه (معلمه) عن موعد ذلك وأخبره أنه سيأتي مـع زوجته للتهنئة وإحضار الهدية. فكثيراً ما تجد سيارة إسرائيلية تحمل إشـارة تـرخيص صفراء اللون، تدخل المخيم تتوقف وتسأل سائقها بالعبرية أو بالعربية المكسرة عن منزل العريس فلان أو العريس علان فيدلونه عليها، فيوقف سيارته أمام البـاب وينـزل هـو وزوجته نصف العارية بمعاييرنا في المخيم ويحملون الهدايا، ويطرقون الباب، ويدخلون للبيت ساعة أو أكثر أو أقل ثم ينصرفون دون أن يعترض عليهم أحد.

كانت مخابرات الاحتلال قد بدأت تتغلغل في المخيم شيئاً فشيئاً بشـكل ممـنهج ومدروس وما من مجابه لذلك أو معترض يرسل ضابط المخابرات المسئول عن المنطقة عشرات مذكرات الاستدعاء (تبليغ) للشبان والرجال فيـذهبون لمكتبـه، يجلسـون فـي التخشيبة ساعات طويلة، ثم يبدأ باستدعائهم واحداً واحداً، يضرب، يهدد، يتوعد، يسـاوم، يعزي ويبذل كل جهده في محاولة تجنيد من يستطيع منهم، وينجح أحياناً فـي اقتنـاص بعض ضعاف النفوس، كل من يريد السفر للخارج للدراسة، لزيارة أقاربه، للعمل، كل من يريد ترخيصاً للبناء، لفتح ورشة، أو متجر كل من يريد ومن لا يريد لا بد أن يمر مـن مكتب ضابط المخابرات حيث يبدأ المساومة ويعرض خدماته المسـهلة مقابـل خـدمات بسيطة جداً من هذا المواطن.

فإذا وجد استعداداً للتعاون المبدئي فهم أنه يمكنه تطوير ذلك إلى تعاون وخيانة، الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى أن عدداً من العملاء أصبح مشهوراً ومعروفاً ويحمل المسدس على جنبه ويتردد به في الشوارع، ويدخل إلى مكتب المخابرات وقتما يشاء، ويعربد على الناس ويعتدي عليهم. وقد وصل الأمر بأن البعض حين تكون له حاجة لتصريح أو ترخيص فيرفضه ضابط المخابرات يمكن أن يتوجه إلى أحد هؤلاء العملاء المشهورين طالباً وساطته للحصول على حاجته، فيطلب هذا عمولة على ذلك.

أحد أبناء الجيران كان قد خرج للدراسة في تركيا، أنهى ست سنوات في كلية الطب وبقيت سنة الامتياز، منع من السفر، تردد على ضابط المخابرات مراراً وهذا يرفض في كل مرة إعطاءه تصريح السفر، حتى حفيت قدماه.

فنصحه أحد الناصحين أن يذهب إلى أحد العملاء طالباً مساعدته، فذهب إليه فطلب ذلك العميل عمولة مقدارها خمسمائة دينار أردني، مبلغ كبير جداً، وحين حاوره الرجل في أن المبلغ كبير أجابه بتهكم، أنا عميل لليهود لو استطعتم فستقتلونني لذا يجب أن أمص دماءكم قبل ذلك.

بعضهم افتتح مكتباً لإصدار التصاريح وما شابه من المعاملات التي لا تتم إلا من خلال إذن المخابرات وأصبح يجني من وراء ذلك عمولات وينمي الثروات ويركب السيارات الفاخرة بات واضحاً أن مخابرات الاحتلال ومن خلال عملائها قد بدأت تروج تجارة واستخدام الحشيش والمخدرات والخمور، هي تعتبر ذلك وسيلة لتدمير الشعب وقتل أي روح للمقاومة فيه وعملاؤها يعتبرون ذلك وسيلة للكسب السريع وظهورهم محمية، وبدأ العملاء يروجون الفساد والرذيلة من خلال نشر الصور والمجلات الخليعة وأشرطة الفيديو الجنسية على الصبية والفتيات.

المطلعون من الناشطين من التنظيمات المختلفة كانوا يرون تلك الصور الكدرة المظلمة، وليس فقط أنهم لا يستطيعون أن يحركوا ساكناً إزاء الظاهرة بل إنهم أصبحوا جميعاً تحت الرقابة الدائمة من هؤلاء العملاء، كون أخي محمود وابن عمي إبراهيم ناشطين معروفين فقد لازم العميل رقابة باب المنزل الرئيسي فلم يكن هؤلاء يعرفون أن لبيتنا باباً آخر، باب بيت عمي سابقاً، فكان محمود وإبراهيم يغادرون الدار من الباب الخلفي بهدوء، وأولئك المشبوهون يظنون أنهما لا زالا في الدار.

جميع الشباب في المخيم كانوا يعرفون الكثير من قصص النساء وأن تلك المرأة أو الفتاة قد أسقطت في العمالة وصارت تشتغل مع المخابرات كدعارة لإسقاط الشباب في الجنس أولاً ومن ثم يتم تصويرها في أوضاع مخزية وفاضحة، وتبدأ المخابرات في محاولة ابتزازهم وتهديدهم للعمل على تجنيدهم للتعامل معها.

اشتهرت بعض القصص عن محلات كوافير أو محلات استوديوهات تصوير أو غير ذلك ممن يمتلكها العملاء أنها باتت كأوكار للإسقاط الأخلاقي كمقدمة للإسقاط الأمني، افتضحت هذه القصص تحديداً بعد أكثر من حادثة انتحار لفتيات حيث تكتب الواحدة منهن رسالة لأهلها أنها خدعت حين ذهبت لصالون الكوافير الفلاني وضعوا لها المنوم في كأس الليمونادة وحين استيقظت وجدت أن العملاء قد هتكوا عرضها وصوروها في أوضاع فاضحة وهددوها بوجوب التعامل مع المخابرات وإلا فضحوها فآثرت الموت والانتحار.

عُرفت واشتهرت العديد من هذه القصص بأسماء من انتحرن وأسماء المحلات وأسماء من مارس فيها تلك الممارسات المخزية. بات واضحاً أن مخابرات الاحتلال باستخدام عملائها تمارس عملاً ممنهجاً لنشر الفساد المنظم لتدمير الشعب وإنهاء كل أمل لديه في مستقبل للتحرر أو المقاومة، وفي كل يوم تتطور أساليب عملهم في هذا الميدان، حتى أنك تجد أحد المكاتب التابعة لأحد العملاء المشهورين يُعلن عن التسجيل لرحلة سياحية إلى داخل الخط الأخضر لبعض المناطق السياحية المشهورة مثل الفشخة أو بانياس أو عين جدي وحين تخرج الرحلة وفيها عشرات الشبان الأغرار تؤخذ معهم عدة داعرات معروفات بعمالتهن مع مخابرات الاحتلال حيث تجري أثناء الرحلة، وفي تلك الأماكن السياحية محاولات توريط أولئك الشبان في مشاهد وحالات يتم تصويرها وبذلك يتم تهديدهم بالفضيحة أو إخبار عائلاتهم وأهاليهم بما كان إذا لم يوافقوا على التعاون مع المخابرات.

أحد شبان المخيم كان قد خرج في إحدى هذه الرحلات وتورط أثناءها حيث التقطوا له صوراً في أوضاع تعيسة، وأن ضابط المخابرات المسئول عن المخيم طلبه إلى مكتبه وعرض عليه التعامل معه فرفض، فأظهر له صوره تلك وهدده بنشرها في المخيم وفضحه وتشويه صورته، وقد أصر الشاب على الرفض، فقال له "أبو وديع": سأمهلك أسبوعاً للتفكير، وبعد أسبوع سأطلبك مرة أخرى وإذا لم توافق على مساعدتي فسترى كيف أفضحك؟

الشاب خرج مذعوراً وهو يشعر أنه وقع في مصيدة، فإن رفض التعامل فضح على مستوى المخيم وساءت صورته، وإن وافق على التعامل فقد ازداد تورطاً واضطر لخيانة أهله ووطنه. وأخيراً لجأ إلى أحد أصدقائه يسأله عن المخرج؟ صاحبه وجد نفسه في حيرة حيث لا خبرة له بمثل هذه الأمور، فتوجه هو وذلك الشاب المتورط إلى أخي محمود عسى أن يفيدهم وشرحوا له الأمر.

محمود عنف ذلك الشاب كيف يخرج في مثل هذه الرحلات؟!! وكيف يقترب من العملاء أصلاً؟ وكيف يتورط في ذلك الأمر؟!! وأفهمه في النهاية أن مشكلته محلولة أصلاً فما دام قد تجرأ وذكر ذلك لصديقه، وكان لديه الموافقة على المجيء إليه فقد حُلت العقدة، حيث أن المخابرات في العادة لا تنشر مثل هذه الصور، وإنما تهدد الشبان الأغرار بها، وخشيتهم من علم الناس بذلك هي التي قد تجعلهم يوافقون على التعاون والتعامل وانه إن طلب فعلاً لضابط المخابرات مرة أخرى فعليه أن يوضح له أنه لا يخاف الفضيحة وبإمكانه أن ينشر الصور ولا مانع لديه هو أن يأخذ منه ألف نسخة ليوزعها هو بنفسه في المخيم.

استدعي الشاب بعد أيام وفعل مثلما أفهمه محمود، فاستشاط أبو وديع غضباً وبدأ يهدد ويتوعد ولكنه في النهاية طرده من المكتب وقال له إنه سيمهله فترة أخرى، للتفكير وإن لم يوافق فسيجعل حياته هماً وغماً، في إحدى الأمسيات وبينما كان أبو وديع يتجول بسيارته في شوارع المخيم كان ذلك الشاب في طريقه لشراء بعض الحاجيات فرآه أبو وديع فتوقف لكي ينادي عليه فانتبه لذلك الشاب فالتفت وجرى هارباً في أحد الأزقة، فنزل أبو وديع جرياً وراءه في الأزقة.

كثيراً ما كان أخي محمود وزملاؤه يتحدثون في جلساتهم ولقاءاتهم حول هذه الموضوعات حول أنشطة المخابرات وعملائها، ويتناقشون في كيفية مواجهتها فلا يجدون حيلة ويبدو أن الوضع قد وصل إلى حد صدق المثل (اتسع الخرق على الراقع).

مصيبتنا كانت أن ابن عمي حسن قد عاد مرة أخرى للظهور في المخيم، فقد كانت صاحبته أو عشيقته اليهودية قد طردته من شقتها بعد أن انهارت شركته مع أبيها وأعلنا إفلاسهما، فهام على وجهه ثم قرر العودة إلى المخيم، حين جاء إلى البيت كان من المؤكد أنه لا مكان له بيننا وأنه قد وصل نقطة اللاعودة، فقد أصبح أكثر شبهاً باليهود منه بنا، ولا أحد منا بإمكانه أن يطيق رؤيته.

ورغم ذلك تبني محمود فكرة أن نعطيه فرصة ونحاول إصلاحه وإعادتـــه إلـــى وضعه الطبيعي، أفرغنا له غرفة الضيوف وبدأنا جميعاً نحاول أن نشعره بدفء العــودة للعائلة، ولكنه لم يكن قادراً على الشعور لا بدفء ولا بحرارة، وفي كــل يــوم يحــاول التطاول على أحد الجيران أو الاعتداء على أعراضهم، فتأتي الشكاوي، فيبــدأ محمــود بالنصح والإرشاد دون جدوى حتى فاض الأمر وطفح الكيل، وبات واضحاً أننا نعالج في حالة مستحيلة فقررنا بالإجماع طرده من الدار وكان أشد المتطرفين في ذلك إبراهيم.

حين عاد حسن من إحدى طيشاته وقد كان في حالة مماثلة، بدأ إبراهيم الحــديث معه بحدة وعصبية وأخبره بأنه لا محل له عندنا وعليه الانصراف حيث يشاء، ودخلنــا جميعاً لنشارك في ذلك الحديث حيث أوضحنا له ذلك بصورة قاطعة، تناول بعض أدواته خاصة جهاز تلفازه وانصرف وهو يتمتم بالشتائم معظمها باللغة العبرية وبعضها بالعربية المكسرة، وغاب عنا وقد تصورنا أننا قد ارتحنا منه ومما جلبه لنا من حرج مع الجيران.

بعد أيام جاءتنا الأخبار أنه يسكن في بيت أحد المشبوهات التي فاحت رائحتهــا حتى أزكمت الأنوف، ثم بدأت الأخبار تتوالى أنه يعمل في ترويج المخدرات والحشــيش والصور والمجلات الفاحشة. وبات واضحاً لنا أنه على علاقة أكيدة بالمخــابرات، وقــد تأكدنا من ذلك حين جاء بعض أصدقاء محمد وأخبروه أن حسن يذهب إلى مكتــب أبــي ديع بصورة دورية، ويدخل ويخرج من هناك بدون تشديد أو رقابة أو موانع.

صورتنا وسمعتنا في المخيم كانت على أفضل ما يحب كل فلسطيني طيلة فتــرة حياتنا بل إن وضع محمود عند فتح، ووضع إبراهيم عند التيار الإسلامي جعلنا كأننا بؤرة للعمل الوطني والاستقامة الدينية وكما كانت أمي تقول: (الحمد لله كــل المخــيم بحلــف بحياتكم وبأدبكم) وفجأة يطل علينا حسن هذا ليشوش كل الصورة. أكثر المتضررين مــن ذلك كان أخي حسن فكثيراً ما سمع الناس عن الفاسد الكبير والمشبوه "حسن الصالح"، فإذا ما ذكر أخي حسن اسمه "حسن الصالح" ارتجف السامع وفتح عينيه مستفسراً مســتغرباً، وعلى حسن في كل مرة أن يفسر ويوضح القصة من بدايتها فأحياناً يصــدق الســامعون وأحياناً يهزون رؤوسهم وعيونهم تخبر بأنهم غير مصدقين.

أصبح حسن والحديث عن حسن ومشاكل حسن شغلنا الشاغل، ورغم معرفة جميع أهل الحارة والمخيم لنا بدأنا نشعر أن علينا أن نسير ونحن مطأطئو الرؤوس من هذه الوصمة التي حلت بنا، فكيف يمكن أن تنفك عنا هذه اللعنة، كان علينا أن نتصرف، وبدا عجزنا واضحاً جاءني إبراهيم ذات مرة قائلاً: يا أحمد أريد أن أحدثك في أمر، وأريد منك عهداً ألا تخبر أحداً بذلك، قلت: لك العهد، قال: يجب أن نقتل حسناً!! انتفضت مما أسمع، ونظرت إليه مستغرباً دون أن أنبس ببنت شفة، فأعادها: نعم يجب أن نقتله، وإما أن نفعل ذلك علناً، نمسح ما حل بنا من عار وأنا مستعد لدفع الثمن بالسجن المؤبد، وإما أن نفعله سراً والمهم أن نخفيه عن وجه الأرض.

كنت أحس ما يعاني إبراهيم، وما نعاني جميعاً من وراء حسن وأفعاله وسيرته، لكني لم أكن مستعداً للذهاب إلى هذا البعد حتى ولو في التفكير فقط، ولكن لا بد من حل للأمر فاقترحت على إبراهيم أن نذهب أنا وحسن ونكمن له ونكسّر رجليه حتى يظل ملقىً في تلك الدار ويكف عن أذاه للناس، وأفهمته أنني غير مستعد للذهاب أبعد من ذلك... فوافق.

توجهنا لحسن بالأمر، فوافق على الفور، واستعد أن يجهز هو ثلاث مواسير حديدية وثلاثة أقنعة، وبالفعل فقد تربصنا به وكمنا له، وفي إحدى الليالي وهو عائد إلى بيت الشؤم ثملاً مخموراً انقضضنا عليه، ضربه إبراهيم على رأسه فخر صريعاً، همست وأنا أمسك إبراهيم لا تضربه على رأسه على رجليه فقط، وانهلنا على رجليه ويديه ضرباً دون وعي، ثم انتقلنا منصرفين من المكان، وقد أخذ حسن المواسير والأقنعة لإخفائها.

مع صباح اليوم التالي كان الخبر قد شاع أن مجموعة حاولت قتل حسن، وأنه لم يمت وأنه مصاب إصابات بالغة وقد كسرت قدماه وإحدى ذراعيه ولديه كسر في الجمجمة، أخذوه للمشفى ونحن لم نبدِ أي اهتمام وكان الجميع ينظرون إلينا وعيونهم تقول: لقد فعلتوها، الله يسلم أيديكم.

بعد أيام جاءت سيارة الشرطة إلى البيت وأخذونا، كل من في البيت من الشباب وحققوا معنا حول الاتهام بمحاولة قتل حسن، أنكرنا ذلك، فكيف نقتل ابن عمنا، فهو من لحمنا ودمنا والدم لا يتحول لماء، احتجزونا حوالي أسبوعين ثم أطلقوا سراحنا بعد أن لم يثبت ضدنا أي شيء، ورغم مرور الأسبوعين فقد ظل حسن ملفوفاً بالجبص ملقىً في المستشفى ما يزيد على شهرين، بعدها خرج وظلت ترافقه في سيره عرجة تميزه حتى في الظلام، ولكنه اشترى سيارة بيجو (٥٠٤) بيضاء اللون وظل يتحرك بها، ولكنا لم نعد نسمع عن فضائحه في المخيم.

عام ١٩٨٥ حدثت صفقة تبادل الأسرى بين إسرائيل ومنظمة القيادة العامة "أحمد جبريل" حيث تحرر خلالها عدد كبير من الأسرى الفلسطينيين ممن قضوا في السجون سنوات طويلة معظمهم كانوا من فتح والجبهة الشعبية، وبعضهم كان من التيار الإسلامي في السجون الذين كانوا أصلاً من تنظيم قوات التحرير الشعبية، تحررهم جعل المناطق المحتلة تدخل في عرس وطني على امتداد الوطن، فأينما ذهبت تجد الاحتفالات والمهنئين...

من ناحية أخرى فقد شكل ذلك دفعة واضحة بمستوى الوعي الوطني والأمني في الشارع الفلسطيني، بخروج هذه الدفعة من أصحاب الخبرة والتجربة وكان له أثر واضح في ازدياد الجدل السياسي في القضايا المختلفة، حين يتواجد أولئك المحررون في أحد المجالس وبيتنا والعمل، ولكن دوريات الناطرين للبيت من المشبوهين لم تتوقف بل تزايدت حدتها وتكثفت وأصبحت على مدار اليوم والليلة.

أخي الشيخ محمد تعرف على إحدى طالباته المتدينات، وبدا واضحاً أنه يميل إليها، وأن قلبه قد بدأ يهفو نحوها، وقد بادلته أحياناً نظرات يملؤها الحياء، وفيها رسالة واضحة على ما تبادله من شعور...عاد إلى غزة يوم الخميس ومكث عندنا ليوم الجمعة حيث أخبر أمي عن تلك الفتاة، وطلب إذنها في أن يخطو الخطوات الأولى فأذنت له بعد تردد، حيث أنها مقتنعة بأنها يجب أن تراها أولاً فهي ترى أن محمداً مثل القطة العمياء، وقد لا تكون الفتاة جميلة بالقدر الكافي.

عاد محمد لبيرزيت، طلب من تلك الفتاة أن تسمح له بالحديث معها دقيقتين في أمر خاص، وهو يكاد ينفجر حياءً، فسألها هل يستطيع أن يتقدم لأهلها لخطبتها، فتدفق الدم إلى وجنتيها فزادها جمالاً وهزت رأسها إيجاباً، فطلب منها عنوان أهلها، فأخبرته.

عاد في الجمعة التالية لأخذ الوفد العائلي فذهبت معه أمي وأخواي محمود وحسن وخالتي وأختاي فاطمة وتهاني إلى بيت تلك الفتاة، أعجبت أمي بالتأكيد، وظلت لاحقاً تتفكه بالأمر (والله يا شيخ محمد طول الوقت بحسبك زي البسة العميا، طلعت مصيبة) وافق أهل الفتاة وأعلنت الخطوبة، واتفقوا على تأجيل (كتابة الكتاب) عقد القرآن والزواج حتى تخرجها بعد سنة ونصف وكان ذلك مناسباً لمحمد ولنا.

الفصل السابع عشر

جمال وعدد من إخوانه من مدينة الخليل يركبون سياراتهم التي تنطلق بهم إلى صوريف لزيارة صديقهم عبد الرحمن... يطرقون الباب فيخرج عبد الرحيم جارياً لدى الباب فيجد أصدقاء عمه وأصدقاءه الكبار الذين يعرف غالبيتهم، فلطالما زارهم برفقة عمه منذ طفولته...يبتسم مرحباً، أهلاً وسهلاً، ويلتفت لداخل الدار صارخاً: يا عمي لقد جاء الشباب لزيارتك، ثم يلتفت إليهم: تفضلوا... تفضلوا ويفسح لهم الطريق إلى غرفة الضيوف، بينما عمه عبد الرحمن يأتي مسرعاً مرحباً، يجلسون يتحدثون وعبد الرحيم يعتبر نفسه واحداً منهم رغم فارق السن الذي قد يزيد عن خمسة وعشرين عاماً.

تجهز النساء طعام الغداء ويحضرونه حتى باب الغرفة فيخرج عبد الرحمن وعبد الرحيم ليدخلاه، وبعد أن يتناولوا طعامهم يخرجون للتنزه في أطراف القرية، وعبد الرحيم يرافقهم.

الأرض سهلية خصبة، ولكنها تخلو من الزرع الجيد وبقايا أسلاك ممتدة بمسافات بعيدة، يشير عبد الرحمن إلى الأسلاك قائلاً: هذا خط الهدنة الفاصل غربه الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ وجزء من أراضي القرية للغرب من السلك لعائلتنا أربعون دونماً قد صودرت عام (٤٨) وهذا الجزء يكمل أرضنا بضع دونمات لا نستطيع زراعتها لمحاذاتها للحدود الفاصلة، لا تنس هذا يا عبد الرحيم. فيهز عبد الرحيم رأسه وهو يتمتم، وكيف أنس يا عم وكيف أنس؟ فيتمتم جمال وكيف ينسى وكيف ننسى، وكيف يعيش المرء من دون قلبه وجوارحه... .

يستقلون السيارة التي تنطلق بهم إلى الخليل وعبد الرحيم يجلس إلى جوار عمه، على الطريق عشرات السيارات تحمل إشارة الترخيص صفراء اللون مما يعني أنها إسرائيلية، تسير في الاتجاهين رائحة وغادية، ينفث جمال زفيراً ساخناً بصوت صاخب قائلاً: ثم ماذا مع هؤلاء المستوطنين لقد ابتلعوا الأرض لا يكتفون ولا يتوقفون عند حد...

يدخلون المدينة يقترب أذان المغرب وينطلق الأذان من مؤذن المسجد الحرم الإبراهيمي الشريف فيتجه السائق نحو الحرم. لا تكاد السيارة تتقدم من شدة الازدحام فهناك المئات من المستوطنين والجنود المحتلين يحرسونهم في طريقهم إلى الحرم.

يسيرون للدخول للمسجد وعشرات البنادق مشرعة مشهرة بأيدي جنود الاحتلال المستوطنون اليهود يلبسون على رؤوسهم القبعات الصغيرة المزركشة، واللحى الطويلة غير المهذبة، ويلفون أجسادهم بتلك الأقمشة المخططة التي تتدلى فيها خيوط كثيرة، فتقارب ركبهم يهرولون للمسجد يزاحمون أهله ويوقفونهم عند كل حاجز.

يدخل الشباب للمسجد وقد رفعت البسط من الجزء الخلفي منه وتم تقديم الحواجز من الأعمدة الحديدية التي تمتد بينها الحبال الغليظة محددة الساحة للمصلين بالصلاة فيها...ربع المسجد فقط للصلاة، وفي ثلاثة أرباعه بالإضافة إلى الساحة الخارجية والقاعتين المرفقتين بها تمتلئ باليهود (آه...اليوم السبت) تمتم جمال وفي كل زاوية يقف أحد اليهود بيده كتاب يقرأ به كلاماً غير مفهوم وسريع وهو يهز جسده للأمام والخلف.

أقام المؤذن الصلاة، وتقدم جمال للإمامة، اصطف المصلون، كبر تكبيرة الإحرام، وقرأ الفاتحة وجاء صوت المصلين من خلفه هادراً رداً على الدعاء (غير المغضوب عليهم، ولا الضالين) آمين، ثم بدأ يقرأ بصوت جهوري جميل **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً...﴾** حتى قوله تعالى **﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾**[1]، الله أكبر فيركع ويركعون، والمصلون اليهود من ورائهم يهزون أجسادهم وهم يتلون توراتهم.

خرجت من قاعة المحاضرات من محاضرتي الأخيرة التي كانت في وقت متأخر فقد قاربت الشمس على الغروب، وإذا إبراهيم ابن عمي في قاعة قريبة، حييته بالسلام، فرد التحية سألته: عائد إلى الدار فأجاب:نعم، وانطلقنا سوية كل واحد منا يحمل كتبه، ومن حولنا العديد من الطلاب والمنصرفين إلى بيوتهم، وإحدى الحافلات تقف بباب الجامعة، تجمع طلاب المناطق الجنوبية ليعودوا إلى بيوتهم.

---
[1] سورة الإسراء آية (٨)

سرنا على الأقدام عائدين إلى البيت ومن بعيد كانت إحدى سيارات الجيب العسكرية تقف ترقب الطلبة الخارجين من الجامعة، نظر إبراهيم نحوهم وقال: من كان يصدق أن غزة سيصبح بها جامعة بحق وحقيقة كما هي الآن؟ هل تذكر يا أحمد حين قررت التسجيل في الجامعة الإسلامية ماذا كان رد أمك؟ هززت رأسي بالإيجاب. توقفت على الجانب الآخر من الطريق سيارة فيها عدد من نشطاء الكتلة الإسلامية أصدقاء إبراهيم، ونادوا عليه ذهب تحدثوا ببضع كلمات ثم عاد إلي وناولني كتبه قائلاً: خذها معك، سأذهب مع الشباب في مشوار وقد أتأخر فطمئن الحكومة.

ابتسمت وتناولت حافظة أوراقه وكتبه وانطلقت أفكر في حكومتنا أي (أمي) وفي طريقة تعاملها مع إبراهيم وحبها له وحبه لها، وبدأت الصورة والذكريات تداعب خيالي، انتبهت على صوت بوق إحدى السيارات وقد كادت تصدمني حين تجاوزت طريقاً رئيسياً دون أن أنتبه. مع المفاجأة سقطت الكتب من يدي وتناثرت، انحنيت لأجمعها تحت ضوء المصباح الكهربائي على العامود الكهربائي عند زاوية الشارع، اختلطت كتبي وكراساتي وأوراقي بكتب وكراسات وأوراق إبراهيم، فحاولت أن أتركز لأميزها وأعيد كلاً منها لمكانه.

استدعت انتباهي ورقة، ميزتها أنها من أوراق إبراهيم وبينما كنت أضعها بين أوراقه وقع نظري على سطر العنوان فيها...تقرير حول تحركات وممارسات "حسن الصالح" لم أتمكن من مقاومة الفضول للاطلاع على ما فيها، جمعت باقي الأوراق بسرعة، وأجزت لنفسي أن أقرأ ما كتب في ذلك التقرير الاستخباري المحكم الذي يحمله إبراهيم والموقع بأخوكم (٢٣) إذا فالأمور لدى إبراهيم وجماعته أكبر من العمل الطلابي، والتنافس الحزبي، والصلوات في المسجد.

تأخر إبراهيم في تلك الليلة بصورة ملفتة للنظر، قلقت أمي فطمأنتها بلسانه فقالت: قلبي يحدثني أن إبراهيم قد دخل طريقاً شائكاً وأخشى عواقبه، طمأنتها يا أمي إبراهيم واعٍ وكبير ولا تخافي عليه، وماذا يمكن أن يفعل؟ وما الخطر الذي سيكون عليه؟ قالت: قلبي يحدثني بذلك، قلت: لا تصدقي قلبك، هذا من الشيطان يحاول أن يقلقك، قالت: قلب الأم لا يخطئ يا أحمد، نظرت إليها فإذا الدموع تترقرق في عينها، وكأنها أدركت استغرابي، فقالت: إنه ابني مثلك تماماً، ألم أربه منذ طفولته.

ظلت أمي جالسة على سجادة الصلاة بعد أن أدت صلاة العشاء ما يقارب ثلاث ساعات والقلق باد عليها ولا تستطيع إخفاءه، حتى سمعت طرق الباب وهو يُغلق، ودخل إبراهيم فهبت إليه صارخة: أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ فأجاب إبراهيم: الحكومة تريد تقريراً خطياً أم شفوياً؟ صرخت مرة أخرى حيث لم يتمكن إبراهيم من تهدئة روعها أسألك أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟ أدرك أن الوضع صعب فأجاب: أحد أصدقائي له مشكلة وذهبنا لحلها واحتجزنا وقتاً حتى أقنعنا والده فرضي، قالت: ألا يصح تأخير ذلك للنهار؟ لا تتأخر هكذا مرة أخرى، هل تفهم؟ فأجابها ممازحاً: السمع والطاعة يا جلالة السلطان، خرجت لتجهز له الطعام فنادى عليها أن تترك ذلك وأقسم عليها ألا تفعل فهو سيجهزه بنفسه.

كنت أراقب ذلك وبداخلي بركان يكاد ينفجر فلا بد أن أصارحه بأنني قرأت الورقة وأوضح له الأمر، لا يصح أن أسكت على ذلك، قد يزعل ويخرج، لا ضير ولكن لا بد أن أخبره.

ذهبت أمي لغرفتها لتنام وخرج هو ليجهز لنفسه العشاء ثم عاد ليتناوله بجواري، فقد كنا ننام سوية في نفس الغرفة، جلس يتناول طعامه ، فسحبت الكرسي وجلست إلى جواره وقد حرصت على الاقتراب منه وقربت فمي من أذنه وقلت له أرجو أن تعذرني فقد وقعت حافظة أوراقك مني، وحين جمعت الأوراق التي تناثرت منها رأيت التقرير المكتوب عن حسن، توقف عن الطعام وقد كادت اللقمة التي في حلقه أن تغصه وتقتله وقال: ماذا؟ قلت: لا تقلق فأنا أحمد وأنت تعرفني، وسرك في بئر هذا ما حدث ثم لم أستطع أن أقاوم الفضول فقرأت الورقة.

بدت الحيرة عليه ولم يعد قادراً على التصرف، كان ذلك أصعب موقف أرى فيه إبراهيم، استطردت قائلاً: اعتبر أن أحداً لم يقرأ ذلك ولم يره، ولم يرد ولم ينطق أي حرف...وأنهى طعامه سريعاً ثم ذهبنا للنوم.

في اليوم التالي رأيت أنه يفضل أن ينتظرني ليرافقني إلى الجامعة، خرجنا للجامعة سوياً، في الطريق قال لي مفتتحاً الحديث، اسمع يا أحمد أنا واثق أنك لن تذكر ذلك لأحد ولكن اعلم أن موضوع حسن يقلقني، وأنا شغلت عدداً من زملائي ليراقبوه حتى أعرف ما يفعل أدركت أنه يحاول ذر الرماد في العيون ليخفي عني حقيقة من جهز التقرير، نظرت إليه نظرة عميقة وقلت: يا إبراهيم العب هذا على غيري، فالتقرير ليس شغل أي أولاد أو أصحاب، هذا شغل ناس تعرف ما تفعل والمعلومات التي فيه معلومات لا يحصل عليها أي ناس، هذه معلومات ناس مختصة، ولكن ليس هذا ما يهمني...ما يهمني هو ماذا ستفعل مع حسن؟! تنهد بعمق وقال: أقسم بالله العظيم أني سأقتله وأريح الناس من شره، وأنا أول من يقتله، ولكن كل شيء في وقته جميل.

كان إبراهيم يدخر مع أمي ما يفيض من حاجته من النقود مما يكسب من عمله في البناء، في ذلك اليوم حين عاد من الجامعة توجه إليها طالباً مبلغ ألف وخمسمائة دينار من تلك المدخرات؛ لأنه يريد أن يشتري سيارة تساعده على التنقل وعلى نقل أدوات العمل، وتوفر عليه الوقت بين العمل والدراسة. كنت مدركاً أنه بدأ يخطط بعمق لينهي أمر أخيه حسن، أعطته أمي النقود وأخبرته أنه يبقى ما يقارب ألف وخمسمائة أخرى، اشترى إبراهيم سيارة بيجو برايفت (٤٠٤) وهو من نوع سيارات مشهور جداً في القطاع ومنتشر انتشاراً واسعاً، وكلها سيارات مستعملة وقديمة بما لا يقل عن خمس عشرة سنة، ولكنها بمعايير المخيم شيء فاخر.

محمد يخرج من الشقة التي يستأجرها هو ومجموعة من الطلاب في بيرزيت متوجهاً إلى الجامعة، يدخل الجامعة ويلاحظ على الفور أن الوضع متوتر غير طبيعي فالطلاب والطالبات يستعدون كعادتهم للصدامات مع جنود الاحتلال.

يحضرون أكوام الحجارة في الزوايا المختلفة ويحضرون اللثامات، ويضعون المتاريس، ثم انتظموا في مظاهرة عارمة خرجت من الجامعة تهتف ضد الاحتلال والاستيطان وتهتف لفلسطين، لم يمر وقت طويل حتى جاءت دوريات الاحتلال، وبدأ الصدام، تمترس الجنود وراء سياراتهم، وتراجع الطلاب ليتمترسوا وراء الجدران الحجرية، انهالت الحجارة على الجنود الذين بدأوا يطلقون النار والغاز المدمع على الطلاب.

كل القوى الطلابية كانت مشاركة في الأحداث. في مثل هذه الأحداث حين تشارك كل القوى الطلابية يكون الصدام أشد وأعنف حيث أن روح التنافس تزكي استعداد الطلاب والطالبات للصدام وتلهب حماسهم. استمرت المواجهات طيلة عدة ساعات اضطر فيها الجنود للانسحاب عدة مرات، وهم يسحبون أحدهم والدم ينزف من رأسه أو من وجهه وقد أصابته الحجارة، وبدأ الجنود يطلقون النار ليس فقط لتفريق المتظاهرين أو إصابتهم، وإنما بهدف القتل الواضح.

خلال دقائق تجندل شهيدان من الطلاب "جواد أبو سلمية" و"صائب ذهب"...وكالعادة جن جنون الطلاب فبدأوا يطاردون الجنود الذين اضطروا للانسحاب إلى أطراف البلدة بعيداً عن الجامعة وعن الطلاب. نقلت الجثث والجرحى إلى مستشفى رام الله وكان الليل قد حل...مع ساعات الصباح كانت أخبار الشهداء والصدامات في بيرزيت قد انتشرت في كل الوطن فعمت التظاهرات كل المناطق وأعلن الإضراب العام وامتدت المواجهات بين المتظاهرين وجنود الاحتلال إلى كل الأنحاء في الجامعة الإسلامية.

خرج الطلاب في مظاهرات عارمة، وصبوا حجارتهم على دوريات الاحتلال وامتدت الأحداث إلى المخيم إلى كل أنحاء المدينة، خاصة حي الشجاعية حيث يسكن الشهيد "صائب ذهب"، كما امتدت إلى جنوب القطاع خاصة خان يونس حيث يسكن الشهيد "جواد أبو سلمية".

ظلت الأحداث تتلاحق خلال الأيام التالية، ومع إلقاء الحجارة على دوريات الاحتلال التي تجثم بجوار الجامعة وتمر بجوارها، حضرت قوات كبيرة من جيش الاحتلال وحاصرت الجامعة، وبدا واضحاً أنهم يريدون أن يؤدبونا كي نصبح أولاداً جيدين وهادئين. مئات الجنود حاصروا الجامعة وحاولوا اقتحامها مراراً وفي كل مرة يرجعون على أدبارهم أمام سيل الحجارة الذي يتدفق فوق رؤوسهم، مر الوقت حتى اقترب المساء بات واضحاً أن المبيت سيكون في الجامعة.

ولكن أقلت سيارة بعض الوجهاء وسمح لها بدخول الجامعة وتفاوضت مع النشطاء من الطلاب ومع مسئولي الجامعة، ثم أخبرتهم أن الحاكم العسكري لا يمانع خروج الطلاب من الجامعة على شكل مجموعات محددة عشرة كل خمسة دقائق، كي لا يحدث تجمع، وتمتد المظاهرات في المدينة وأنه تعهد لهم بألا يمس الجنود أحداً من الطلاب. وافق الجميع على ذلك وبدأنا بالخروج عشرة عشرة والجنود يوجهون السير إلى أحد الشوارع الجانبية، وكلما خرجت مجموعة تلتها الأخرى.

خرجت في إحدى المجموعات وحين وصلنا إلى إحدى التفرعات عن ذلك الشارع وجهنا الجنود للالتفاتات وإذا بمئات الجنود يقفون وبيديهم الهراوات وسياراتهم تغلق الشارع وتحوله إلى معسكر اعتقال، حيث تحت الضرب أجبرونا على الجلوس جثواً على ركبنا وأيدينا فوق رؤوسنا، ووجوهنا إلى الحائط بعد أخذ بطاقاتنا الشخصية للتدقيق، ويبدو أنهم قد كانت لديهم قوائم بأسماء الناشطين حيث كانوا يفرزونهم إلى ساحة قريبة تحت الضرب والركل، ثم يسمحون للباقين بالانصراف بعد أن يعيدوا لهم بطاقاتهم. لم أكن مصنفاً كناشط ولا لأي من القوى الطلابية، أخذت بطاقة هويتي وطرت من المكان فاراً بجلدي...

إبراهيم احتجز مع حوالي مائة طالب آخرين لمدة ثلاثة أيام وقد ضربوا ضرباً مبرحاً ولاقوا من الذل ما يفوق الخيال، وقد ظن الحاكم العسكري أنه أدبنا ولقننا الدرس لنصبح (أولاداً شطاراً).

بعد عدة أيام دخلت الجامعة وبدا من النظرة الأولى أن الحرب ستشتعل هذا اليوم مجموعة من الناشطين على رأسهم إبراهيم يحضرون لمواجهات، بعد تجمع الطلاب، بدأت الحجارة تنهال على الدوريات والسيارات العسكرية التي تمر بجوار الجامعة، خلال نصف ساعة حوصرت الجامعة وبدأت الحافلات العسكرية تحشد مئات الجنود...وبات واضحاً أننا هذه المرة سنلقي من الضرب أضعاف ما كان في المرة السابقة، ولكن لكل حادث حديث، الآن مواجهة فلنواجه كما يجب.

تلثم الغالبية من الطلاب تجنباً للكاميرات والمناظير التي نصبت فوق بناية مرتفعة ومقابلة، وبدأت الحجارة تنهال على الجنود الذين يتمترسون وراء سياراتهم ودروعهم البلاستيكية فيردون بإطلاق النار والغاز المدمع، وكان واضحاً أن الطلاب هذه المرة ينتقمون لما لاقوا قبل أيام، أحضروا مدرعة كبيرة لرش الماء الساخن، تقدمت نحو باب الجامعة والجنود يستترون وراءها اقتلعت الباب ولم توقفها الحجارة وتقدمت نحونا فواجهناها بمطر غزير من الحجارة.

الجنود لم يستطيعوا التقدم معها فتراجعت، وظل الحال بين كر وفر، مرة يهاجموننا ومرة نهاجمهم حتى العصر، وإذا بصوت دبابة عسكرية تدق الأرض دقاً وتقتلع الباب الخلفي للجامعة، صرخ أحد الطلاب بمكبر الصوت: إن دبابة اقتحمت الجامعة من الباب الخلفي!! وإذا بما يزيد عن سبعمائة من الطلاب يستديرون مرة واحدة نحو الدبابة، بدل أن يفروا من وجهها استداروا نحوها وأقدامهم تسابق الريح، منظر أقرب إلى الجنون، كان هناك ما يزيد عن مائة متر بينها وبين جموعنا التي انطلقت نحوها، كان واضحاً لسائق الدبابة ومن فيها أنهم سيقتلون تحت الجنزير عشرات، ولكنهم كانوا واثقين أن هذا الجمع الذي أصبح فوق الدبابة سوف ينهش لحومهم نهشاً.

استدارت الدبابة ثم عادت أدراجها خارجة من الجامعة، وصل الجمع إلى الباب الذي خلع وبدأوا بإغلاقه بكل ما يقع تحت أيديهم من حجارة وكتل إسمنتية وبراميل وجذوع شجر...ثم عادت غالبيتهم بعد أن ظل على السور البعض ليراقبوا تحركات الجنود.

مر الوقت واقترب المغرب، وجاء الوجهاء للوساطة، رفضت وساطتهم وأُسمعوا كلاماً مؤذياً، ووقفنا ننتظر ونتساءل: ثم ماذا بعد؟ وإبراهيم يحاول إخفاء بسمة عريضة تعلو وجهه دون أن ينجح، ساد الهدوء قليلاً وإذا بأصوات عشرات المساجد مكبرات الصوت في كل مساجد مدينة غزة انطلقت في نفس اللحظة تصرخ حيّ على الجهاد... جنود الاحتلال يحاصرون أبناءكم وبناتكم في الجامعة اخرجوا لإنقاذهم الله أكبر...الله أكبر.

وإذا بالأهالي في كل أحياء المدينة يبدأون بالتجمع، وإذا بـالجموع تلـتحم فـي مسيرات ومظاهرات عارمة تنطلق من كل الاتجاهات نحو الجامعة، وإذا بمدينة غزة قـد خرجت كلها عن بكرة أبيها تردد الله أكبر... الله أكبر والموت للاحتلال. حالة الانفـلات الأمني سادت وعلى الفور صدرت الأوامر للقوات التـي حاصـرت الجامعـة بتركهـا والانتشار في أنحاء المدينة لضبط الأمن استدارت القوات وتوزعت فإذا أمامها جحافل من الناس الغاضبة ومن ورائها الآلاف من طلاب وطالبات الجامعة الغاضبين الذين يشعرون بالعزة...خرج إبراهيم بسيارته من باب الجامعة ورآني فوقف ليأخذني معه، وقـال لـي لست ذاهباً للبيت ولكني أريد أن آخذ جولة في المدينة لأرى الأوضاع. المدينة عن بكرة أبيها رجالها ونسائها، أطفالها وشيوخها في الشوارع، إطارات السيارات المشتعلة في كل مكان المتاريس تغلق الطرق وهناك مجموعات من الجنود المذعورين يـدورون حـول أنفسهم لا يدرون ما يجري حولهم.

الابتسامة علي وجه إبراهيم كانت عريضة ولا يحاول إخفاءها الآن، قلت له والله لقد رتبتم الأمور جيداً، واصل الابتسام قائلاً: الحمد لله الحمد لله الناس بخير والحمـد لله الناس بخير وقد رأينا جموعاً من آلاف المواطنين والطلاب يتوجهون نحو مبنى السرايا حيث مقر الحاكم العسكري، يقذفونه بأطنان من الحجارة، والجنود لا يتمكنون من حمايـة رؤوسهم وإطلاق النار دون حساب.

جاء عدد من أصدقاء محمود لزيارته في البيت وكان واضحاً عليهم الاهتمـام جلسوا وبعد قليل أخذت لهم الشاي الذي أعدته زوجة محمود، دخلت أقدمه لهم، فواصلوا الحديث، كانوا يتحدثون عن أحد شباب (فتح) الذي اعتقل حديثاً والذي كان مسئولاً عـن إحدى المجموعات العسكرية النوعية، وأنه في التحقيق اعترف على كل شـيء، تسـاءل محمود وكيف؟ فأنا سمعت أنه شاب قوي وعنيد، أجابه أحدهم: صحيح هو قوي وعنيـد ولكنهم أخذوه إلى العصافير واعترف عندهم.

أجزت لنفسي التدخل متسائلاً: إلى العصافير؟ وما هي العصافير هذه؟!! فأجاب هؤلاء مجموعة كبيرة من الجواسيس الذين يساعدون المخـابرات فـي التحقيـق حيـث يضعونهم في غرف مثل غرف السجن ويأخذون المعتقل عندهم إذا عجزت المخـابرات عن انتزاع الاعتراف منه هؤلاء الجواسيس يمثلون أنهم سجناء وطنيـون فـي السـجن العادي ويبدأون بمحاولة استدراج ذلك المعتقل للحديث إليهم بما لديه من معلومات.

الحجة انهم يريدون إخراجها للمسؤولين خشية اعتقال تلك الخلية، أو بأي حجة أخرى، وأحياناً حيث يرون أن المعتقل يحاول الدفاع عن نفسه أنه محترم وليس عميل وهم يواصلون اتهامه، فالبعض يضطر أن يكشف له أسراره ليثبت له أنه ليس عميلاً، وهكذا من مثل هذه الحيل والخدع.

في الجامعة الإسلامية هناك فصل كامل بين الطلاب والطالبات، وكل فريق يدرس في أقسام خاصة ولا يحدث اختلاط بين الطلاب والطالبات في الجامعة ولكن أثناء ذهاب الطلاب والطالبات إلى الجامعة وإيابهم منها فإنهم يلتقون في الشوارع والطرقات ومواقف السيارات والحافلات والغالبية يراعون آداب الطريق والقواعد العامة بل ويبالغون فيها. رغم أن هناك قلة من الطلاب أو الطالبات إذا خرجوا من الجامعة انطلقوا دون تواعد كما هي العادة في المجتمعات، طالبات الجامعة كلهن يرتدين الحجاب فهذا قانون الجامعة، ولا يسمح لهن الدخول بدونه، غالبية الطالبات وبواقع الطبيعة المحافظة لغالبية أهل القطاع يرتدين الحجاب بجدية ولكن بعضهن يرتدينه فقط عند دخول الجامعة، وفور خروجهن منها وابتعادهن عنها ينزلنه أو بعضهن ينزلن غطاء الرأس للوراء فينكشف جزء من شعورهن.

إحدى الطالبات من بنات الجيران في المخيم كانت تدرس في الجامعة وقد تصادف مراراً أن أكون في طريقي للجامعة أو عائداً منها، فأجدها في طريقي، ولا أغالي حين أقول إنها بحق كفلق البدر، كنت أسترق النظر إليها أحياناً وهي تطرق ناظرة إلى الأرض منطلقة إلى هدفها دون تلفت أو تردد، بدأت نفسي تراودني وتساورني أنني قد أعجب بها لاحقاً، لم أجرؤ أن أقرئها السلام حياءً وخجلاً وخوفاً.

وذات يوم تصادف أن وقع نظري على نظرها فشعرت بقشعريرة تسري في جسدي وبمشاعر جياشة تغزو قلبي، نظرة خاطفة ثم غضت بصرها على الفور، بدأت أقصد أن التقي بها في طريق ذهابها للجامعة أو إيابها ولو لم أنظر إليها أو تنظر إلي مجرد أن تكون في الشارع كان يغمرني بشعور من الراحة، وبدأت أتساءل هل أصبحت أحبها؟ وهل هذا هو الحب؟ الذي كثيراً ما يتحدثون عنه. مرة ثانية تقابلت عيوننا عن بعد، وبدأت أشعر بخفقات قلبي تزداد وتتضاعف كلما رأيتها في الطريق.،وفي المرة الثالثة حين تلاقت العيون ابتسمت فاحمر وجهها حتى كاد أن ينفجر وغضت طرفها وتسارعت خطواتها مبتعدة.

اكتفيت فيما بعد بترقب خروجها للجامعة لأراها من بعيد غير طامح في أكثر من ذلك، ولا حتى في النظرة فيكفيني أنني أحببت ويكفي أنها فهمت ذلك جيداً، وتفهمه كلما أحست بحرصي على رؤيتها كل يوم أو يومين، ولا بد أن أحرص عليها فلا أطمع بالمزيد في هذه المرحلة قبل أن أتخرج من الجامعة وأكون قادراً على التقدم لخطبتها وفق القواعد والأصول كما تربيت منذ طفولتي.

موضوع ابن عمي حسن كان يقلق إبراهيم كثيراً وكان قد ملأ عليه رأسه أكثر من مرة اصطحبني معه لنراقب تحركات حسن للتأكد من صحة ما ورد في التقرير، وقد تأكدنا من أكثر من معلومة مما ورد فلقد رأيناه يذهب لمقابلة "أبو وديع" في مواعيد محددة، يوقف سيارته قريباً من السرايا ثم يترجل منها ويدخل السرايا بعد أن يخرج بطاقة خاصة معه ويريها للجنود الذين يحرسون البوابة، يدخل فيغيب ساعة أو بضع ساعات ثم يخرج، وقد رأيناه يتردد على عدد من المحلات المعروف أصحابها أنهم عملاء مشهورزن ورائحتهم تفوح وتزكم الأنوف.

وقد رأيناه يضايق الفتيات في الشوارع ويلقي بكل سفالة عليهن، وقد رأينا بعض الداعرات يركبن السيارة معه وينطلق بهن إلى أماكن بعيدة، وفي بعض الأحيان يأخذ معه واحدة منهن، ويأخذ شاباً عازباً إلى مكان بعيد مهجور، مما يؤكد أنه يعمل على إسقاط ذلك الشاب، وقد أصبحت الأمور واضحة وضوح الشمس، ولا تحتمل الشك أو التأويل.

أمي كانت لا تسمح لأحدنا بالتأخير كثيراً في الليل وتكون أكثر تشدداً إذا أراد الواحد منا الخروج في وقت متأخر. نظنها نائمة أو مشغولة فإذا اقترب أحدنا من الباب باب الدار قفزت صارخة إلى أين يا أحمد وإلى أين يا إبراهيم، وهات حينها من ينقذنا من بين أسئلتها واستفساراتها.

إبراهيم كان يعرف أنها ستخلق له المشاكل في محاولاته لفعل ما يريد تجاه حسن لذلك اتفق معي على أن نبدأ بالرجوع للبيت مبكرين ندرس ونجتهد ثم ننام مبكرين وعند منتصف الليل أساعده على الخروج من البيت، وانتظر عودته ليدخل بهدوء، وقد بدأنا بتنفيذ الخطة، كل أسبوع يخرج مرة أو مرتين ثم يعود يشكرني ويدخل للنوم، دون أن أسأله عما حدث؟ وأين كان؟ وماذا فعل؟.

في إحدى الليالي رجع إبراهيم مكفهراً وواضح أنه مر بوضع صعب للغاية بدل ملابسه ودخل الفراش ونام دون أن نتبادل أي كلمة، بعد هذه الليلة لم يصطحبني مطلقاً في أي مهمة مراقبة ومطاردة لحسن.

بعد حوالي أسبوع من تلك الليلة قال لي، يا أحمد لا داعي لأن تظل على هـذا البرنامج فخذ راحتك وتصرف كما تريد، استغربت من الأمر ولم أسأله عن الدوافع لذلك.

إحدى الليالي التالية كنت عائداً للبيت في وقت متأخر من الليل، وبينما انحرفت في طريقي إلى إحدى الطرق الفرعية، رأيت سيارة ضابط المخابرات "أبو وديع" واقفـة على جانب الطريق وقد نزل منها بلباسه المدني كعادته يقف إلى جوار حـائط المسـجد وبيده شيء يشير به إلى الحائط، انحرفت إلى زقاق فرعي كي لا أصطدم به، فيسبب لي وجع الرأس وانتظرت حتى انصرف. ثم عدت إلى طريقي ماراً بالمكان الذي كـان أبـو وديع يقف فيه فانتبهت أنه رسم على الجدار إشارات وكتب بعض الأرقام.

حين وصلت إلى البيت ودخلت الغرفة، وجدت إبراهيم يجلس علـى فراشـه، يقرأ في أحد كتبه الجامعية، أخبرته بما كان فتحضر للخروج ثم نظر إلى الساعة، وقال لو لم يكن الوقت متأخراً لخرجت لأرى ذلك لكن الحكومة ستفضحني إن خرجت فـي هـذا الوقت المتأخر، فلننتظر حتى الصباح، عند أذان الفجر انطلقنا للصلاة في المسجد. قبل أن نصل الجدار المقصود بمسافة حذرني ألا أقف أو أشير للجدار بيدي، ولكـن أن أحدثـه بالكلام دون إشارات، حدثته ونبهته للمكان قبل وصولنا إليه، وقد تمكن من رؤيـة ذلـك جيداً.

همس بعد أن تجاوزنا المكان: هناك الكثير من هذه الإشـارات فـي أمـاكن عديدة، وقد أثارت انتباهي من قبل، وظننت أنها إشارات للبلدية للمجاري أو للكهربـاء أو ما شابه، فإذا هي للمخابرات يعني أنها للعملاء، يعني أنها إشارات تحديد مواعيد مقابلات لعملاء سريين جداً وخطيرين جداً، لأنهم لو كانوا محروقين ومعروفين لما لزم هذا الجهد وهذه الغلبة. صلينا الفجر أثناء عودتنا نظرنا إليها مرة أخرى وحـين تجاوزناهـا تمـتم إبراهيم محدثاً نفسه هذا اليوم هذه للساعة وهذه للمكان، سألته ماذا تقول قال لا شيء ولكن سنرى.

عصر ذلك اليوم أخذني معه بالسيارة وطلب مني إخراج دفتر وقلم وأن أكون جاهزاً لتسجيل بعض الأمور، وبدأ يدور بالسيارة في شوارع المخيم، وكلما مررنا بأحـد الجدران خفف السرعة وقال: انظر إلى الجدار إلى يمينك، هذه إشارة شبيهة بإشارة الليلة سجلها في الدفتر ثم إشارة ثانية سجلها في الدفتر، وثالثة ورابعة، وخرجنا من المخيم إلى أحياء أخرى سجل هذه وسجل هذه، جمعنا العشرات من الإشارات. ونزلنا للصلاة في أحد المساجد حيث أذن المغرب ثم عدنا إلى الدار.

دخلت الغرفة أخذ الدفتر مني ووضعه على الطاولة وبدأ يجري مقارنات بين الأرقام ويهمس: ألا ترى هذا التشابه مائة في المائة، هذا الرقم يعني تاريخ اليوم فكل الأرقام تقع بين (١) وحتى (٣١) أليس هذا معقولاً؟ أجبته: صحيح، ثم بدأ بمقارنة الرقم الثاني وقال: هذا يبدو أنه يعني الساعة ألا ترى أنه بين (١) وحتى (٢٤) وعلى عدد ساعات اليوم أليس هذا معقولاً؟ أجبت: صحيح، قال: وهذه الأرقام تدل على الدقائق ألا ترى أنها صغيرة بجوار الأرقام الكبيرة التي تدل على الساعات وهي إما (١٥) أو (٣٠) أو (٤٥) فقط قلت مائة بالمائة.

ابتسم ورفع كفه ليضرب على كفي فمددت كفي فضرب عليه بصوت خافت ثم قال: هذه شيفرة المخابرات مع عملائها يا أحمد حللناها والمهم الآن أن نستفيد منها، وجدت الفرصة مناسبة لأفتح موضوعاً حمت عليه طويلاً، فقلت آه المهم الآن أن نستفيد منها، شغل جهازك الآن عليها، رفع نظره بحدة وغضب قائلاً: عمّ تتحدث؟ قلت عن أولئك الذين أعدوا لك التقرير عن حسن نظر نظرة عتاب، وقال: ألم نتفق أن ننسى هذا الأمر؟ قلت: لا، لم نتفق على النسيان، ولكن اتفقنا على أن لا أحدث به أحد وأنا أتحدث به معك أنت، وليس مع أي شخص آخر، قال بعصبية: وماذا تريد؟ وجدت نفسي في حيرة فأنا لا أعرف ما أريد بالضبط، فأجبت لا أدري لا أدري دعنا ننسى الأمر الآن، ذهبنا للنوم بعد أن أتلف إبراهيم الأوراق جيداً.

الفصل الثامن عشر

كنت غارقاً في النوم عندما استيقظت على صوت صخب رجال في الدار، فركت عيني ونظرت إلى ساعتي كانت عقاربها تشير إلى الثالثة والنصف قبل الفجر، كان صوت أمي يصرخ: ماذا تريدون؟ قبل أن أتمكن أنا وإبراهيم من القيام من فراشنا، كان باب الغرفة قد ضرب ضربة قوية أطارته، وعدد من فوهات البنادق، شهرت ووجهت علينا وجاء صوت "أبو وديع": لا تتحركا ابقيا في مكانكما.

ثم دخل هو وعدد من الجنود وأشار إلى إبراهيم قائلاً: أنت إبراهيم؟ أجاب إبراهيم: نعم أنا إبراهيم ماذا تريد؟ ضحك أبو وديع قائلاً: لماذا أنت مستعجل؟!! تريث يا إبراهيم، ونظر إلي وقال: أنت أحمد؟ قلت: نعم، قال: قوما وتعالا، أخذنا وأوقفنا إلى أحد الجدران، أمر الجنود بالتفتيش فهجموا ينبشون الغرفة نبشاً، وقام هو بنفسه بتفتيشنا شخصياً حيث لم يعثر معنا على أي شيء. قلّب الجنود الغرفة فلم يجدوا أي شيء يبحثون عنه، وكان يقلب أوراق إبراهيم ودفاتره ليقرأ ما فيها، ثم جمع كل ما ارتاب به من أوراق ووضعها في صندوق أحضره أحد الجنود وأمره بأخذه للسيارة.

كانت أمي تصرخ وتقول: ماذا تريدون؟ خربتم الدار الله يهدكم، وقد كان عشرات الجنود يفتشون كل زاوية من زوايا الدار، بعد حوالي ساعتين من التفتيش ربطوا يديّ وراء ظهري، ووضعوا عصبة قماشة على عيني، وكذلك فعلوا مع إبراهيم، وأخذونا من الدار وأمي تصرخ؟ إلى أين تأخذوهما؟ يا مجرمين قاتلكم الله. ألقوا بي في سيارة الجيب كما يلقى كيس البطاطس، ثم شعرت بكيس بطاطس آخر يُرمى فوقي فعرفت أنه إبراهيم.

كنت أرتجف من شدة الخوف والقلق، ويبدو أن إبراهيم قد أحس بذلك فهمس قائلاً: شد حيلك، مابالك يا رجل ترتجف ليس هناك شيء!! كلها أيام ونعود إلى الدار، فنزلت صفعة قوية على قفا رأسه وصوت جندي يصرخ بعبرية مكسرة:اسكت يا حمار، سارت بنا القافلة ثم توقفت قدرنا أننا وصلنا السرايا، أنزلونا دفعاً وركلاً، ثم بدأوا يجرجروننا في أزقة وممرات ضيقة، ثم صعدوا بنا درجاً ضيقاً طويلاً، استلمني واحد يتحدث عربية بشكل أفضل طلب مني الوقوف وعدم التحرك، أوقفني إلى جانب الجدار، وسمعته كذلك يوقف إبراهيم بجوار الجدار ويطلب منه نفس الشيء.

مر وقت طويل دون أن يتحدث معي أحد، وكل ما أسمعه أصوات أبواب تفتح وتغلق، وأصوات تتحدث بالعبرية التي لا افهمها، بعد وقت طويل جرني صاحب ذلك الصوت قائلاً: تعال، ودفعني إلى إحدى الغرف وقد رفع العصبة عن عيني، وجدت نفسي في غرفة صغيرة فيها مكتب يجلس وراءه شاب يلبس الزي المدني يبتسم قائلاً: تفضل اجلس ويشير إلى كرسي أمامه، جلست على الكرسي ويداي لا تزالان مربوطتان وراء ظهري، سأل قائلاً: أين حسن؟ نظرت بدهشة وأجبت: في الدار؟ سأل: أي دار؟ قلت: دارنا، قال بدهشة: حسن في داركم؟!! قلت نعم.

نظر في أوراق أمامه على الطاولة ثم سأل: أي حسن ذلك الذي في داركم؟ قلت: أخي حسن، قال: آه أنا أسألك عن حسن ابن عمك أين هو؟ قلت: لا أدري؟ قال: كيف لا تدري؟ قلت: هو لا يسكن عندنا منذ سنوات طويلة، ونحن لا نعرف أين يذهب وأين يروح قال: متى رأيته آخر مرة؟ قلت: لا أذكر، قال: تقريباً؟ قلت: منذ سنوات طويلة، سأل ومتى ذكرتموه آخر مرة في الدار؟ أجبت قلت: لا أذكر، قال: تقريباً؟ قلت: منذ وقت طويل جداً فنحن نسيناه، سأل: لماذا؟ قلت تسبب لنا في مشاكل كثيرة مع الجيران وطردناه من الدار ولم نعد نهتم به فهو لا يعنينا.

سأل: هل سمعت أنه ضُرب قبل حوالي سنة وظل في المستشفى حوالي شهرين؟ قلت: سمعت، قال: من الذين ضربوه؟ قلت: وما يدريني، قال: ما هو تقديرك؟ قلت:لا أدري ولكن قد يكون أهل إحدى البنات التي يطاردهن أو ناس اختلف معهم على شيء ما، قال مثل من؟ قلت:لا أدري ولكن هذا ما فكرت فيه حينها وهو لا يهمنا أصلاً، قال: يعني أنت لا تعرف أين هو الآن؟ قلت: نعم لا أدري ولا أريد أن أعرف...نادى على الرجل الذي أدخلني وطلب منه أن يخرجني من الغرفة، وضع على رأسي كيس القماش السميك، وسحبني من الغرفة وأوقفني إلى جوار الجدار ثم سمعتهم يسحبون إبراهيم ويدخلونه للغرفة ثم سمعت صوت إغلاق الباب بقوة.

بعد وقت طويل قد يصل للساعة سمعت صوت المحقق ينادي على ذلك الرجل: "أبو جميل" فذهب إليه وسمعته يسحب إبراهيم ويوقفه إلى جوار الجدار، فقدرت أنه سأل نفس الأسئلة. وتساءلت في نفسي ما بال حسن يسألون عنه أين هو؟ فهل هو مفقود؟ أو هارب منهم؟ بقيت على تلك الحالة واقفاً وجهي إلى الحائط تلقيت صفعة أو ركلة أنستني تعبي وإرهاقي.

لم تعد قدماي قادرتين على حملي، فانسبت جالساً على الأرض، جاء الجنود يضربون ويصرخون ويركلون طالبين مني الوقوف، كان التعب والإرهاق بلغ مني مبلغه، فلم أعد أبالي بالضرب والركل، ضربوني وضربوني لأقف فلم أقف بطوع إرادتي، وكلما مسكوني من أكتافي وأوقفوني عدت إلى الانسياب والجلوس، فعاودوا الضرب وعاودوا رفعي فعدت إلى الجلوس حتى جاء المحقق وأمرهم بتركي على الأرض، صحيح أنني دفعت ثمناً باهظاً لجلوسي ولكني أصبحت مرتاحاً للغاية .

دبت الحياة في قسم التحقيق (السلخ) مرة واحدة حيث دخل عشرات المحققين مرة واحدة فقدرت أن النهار وأن هذا يوم عملهم الجديد، بعد وقت أدخلوني إلى إحدى الغرف، وحين رفعوا الكيس عن رأسي وجدت أمامي حوالي سبعة من المحققين، قبل أن أفطن إلى ما حولي تماماً كان أحدهم قد ركل قدميّ للأمام، وأحدهم دفعني في صدري للوراء فانقلبت باتجاه الأرض، وقد التقفوني وأنزلوني إلى الأرض. خرز حديد القيد دخل في ظهري وهجموا عليّ واحدٌ على صدري يخنقني، والآخر وقف على بطني وبدأ يدوس فيه بقدميه، والثالث فصل بين رجليّ والرابع بدأ يضغط على خصيتيّ.

وكلما مرت دقائق من ذلك كله توقفوا معاً وسألني الذي يجلس على صدري أين حسن؟ فأجبت: لا أدري، فيبدأون من جديد، ثم يتوقفون ويسأل نفس السؤال وأجيب نفس الإجابة، فيعاودون الكرة من جديد. ثم يتوقف ويسأل: إبراهيم اعترف بما حدث؟ احك أين حسن؟ فأجبت: لا أدري، وهكذا مرات عديدة حتى تأكدوا أني لا أعرف أين هو فتركوني. ونادوا على الجندي في الخارج ليأخذني، أخذني بجوار الجدار فجلست، حاول سحبي وضربي ولكني كنت قد حسمت أمري منذ الليلة الماضية.

سمعت صراخ إبراهيم وصراخهم عليه، وهم على ما يبدو يستخدمون نفس الأساليب، إبراهيم كان ينفي أي علم له بمكان حسن، ولكنه كان يرد عليهم ردوداً حادة ويسب ويشتم عليهم مما دفعهم لزيادة الضغط عليه، ولكن في النهاية أخرجوه وأوقفوه إلى جوار الجدار. بعد أيام أركبوني إحدى السيارات وأنا معصوب العينين مقيد اليدين خلف الظهر ومقيد الرجلين وانطلقت بنا السيارة حوالي الساعة ثم توقفت وأنزلوني، يسحبونني وأنا أتعثر كلما مررنا بإحدى الدرجات أو الأبواب، أوقفوني لبعض الوقت بجوار أحد الجدران ثم سحبوني مسافة صغيرة سمعت صوت باب حديد يفتح ودفعوني لداخل زنزانة سوداء الجدران وهم يرفعون الكيس عن رأسي.

جلست في الزنزانة، بعد وقت فتح الباب ودفع شاب آخر للزنزانة وقد رفعوا الكيس عن رأسه، جلس بجواري بعد فترة عرّف عن نفسه باسمه وسكنه وأنه في التحقيق منذ شهرين، أحضروا طعام الغداء والعشاء، وبعد أن تناولنا طعامنا، سمعنا صوت ضوضاء، فتح الباب ودفعوا للغرفة خمسة شبان يلبسون ملابس السجن، الأقمص البنية اللون وهم يضربونهم بالهراوات والشباب يدافعون ويردون عن أنفسهم، جلس الشاب وبدأوا يعرفون عن أنفسهم وأحكامهم العالية جداً وأنهم في السجن منذ عشر سنوات وأنهم اكتشفوا أحد العملاء وضربوه بأمواس الحلاقة وجاءت الشرطة وعاقبتهم.

ثم سألوا عن أسمائنا وسبب وجودنا هنا، الشاب الذي كان عندي بدأ يتحدث معهم عن نفسه وقضيتَه وما يخفي وما يعلن، وهم يطلبون منه خفض صوته، ويؤكدون له أنهم سيخرجون هذه المعلومات للثورة خارج السجن ليأخذوا حذرهم، ثم استداروا إلي ليسألوني عن التفاصيل، تذكرت حديث أصدقاء محمود عن العصافير، وتأكدت أنها مصيدة لمعرفة ما لديّ والحقيقة أنه ليس لدي شيء أصلا لأخفيه.

أجبتهم باقتضاب شديد وهم يسألون ويتفحصون إذا كان لدي أي شيء أخفيه، بعد وقت طويل فتح الباب مرة أخرى ونادى السجان عليّ، وضع الكيس على رأسي وسحبني ثم أدخلني في زنزانة أخرى، كنت متأكداً أنهم الآن يقدمون تقريرهم عني لضابط التحقيق.

بعد وقت أخذني الشرطي إلى غرفة التحقيق وجدت فيها أحد المحققين الذي قال لي: إنهم تأكدوا من عدم وجود معلومات لديّ أخفيها، ولكنهم سيحولونني إلى السجن ثلاثة أشهر إداري، وأن التحقيق معي قد انتهى، أخذني السجان وسار بي مسافة، أخذوني لمخزن الملابس وسلموني الأدوات التي يسلمونها لكل سجين بصورة كاملة، ثم أخذوني إلى قسم في السجن فيه عدة غرف وفيه عشرات السجناء.

حياة سجن كاملة وطبيعية تماماً، استقبلني السجناء بالترحاب والحفاوة وتعرفوا عليّ وأدخلوني إحدى الغرف، ورتبوا لي سريري وأغراضي وأعدوا لي الشاي، وجهزوا لي الحمام استحممت وارتحت وتناولت طعامي. وفي المساء جلسوا جميعاً وأنا معهم لنتعارف، احتفلوا بي وأكرموني في نهاية الحفلة جاءني أمير الغرفة وأخبرني أن لا أتحدث في قضيتي مع أي شخص وغداً سيأتي مسئول التنظيم، ومسئول الأمن في التنظيم، ليفهموني كل شيء، وممنوع منعاً قطعياً أن أتحدث مع غيرهم في هذا الأمر.

في اليوم التالي جاء المسئولان، جلسنا معاً في إحدى زوايا الغرفة، تعرفا عليّ وبدآ يذكران أنهما يعرفان أخي محمود وأخي حسن وجارنا عبد الحفيظ، وغير ذلك من المعلومات التي جعلتني مطمئناً لهما مائة بالمائة، ثم بدآ يسألانني عن قضيتي وسبب التحقيق معي وسبب اعتقالي؟ حدثتهما بالأمر بالتفصيل بأنهم اعتقلوني لسبب لا أعرفه ويسألونني عن حسن ابن عمي، وأنا لا أعرف أين هو ولا أدري لماذا هذه الأسئلة؟!! وأن حسناً لا يسكن عندنا. فقد طردناه من الدار منذ سنوات ولا نعرف أين هو ولا نتابع أخباره، أعادوا الأسئلة مراراً وتكراراً ثم شكراني وانصرفا.

بعد أيام جاء السجان ونادى عليّ باسمي أخذني إلى المخزن، أخذوا مني ما سلموني من أغراض وأعادوا لي أغراضي وملابسي وأخبروني أنهم سيطلقون سراحي، أخذوني لباب السجن، وتركوني خارجاً، تنسمت الهواء النقي من جديد وأنا لا أصدق أنني قد أخلي سبيلي ولا زلت أتساءل ما بال حسن؟ ولماذا هذه الأسئلة عنه وهذا التحقيق؟ ولا أجد جواباً.

وصلت الدار وقد سبقتني الأخبار إليها فطارت أمي لاستقبالي والزغاريد تعلو والجيران يهنئون ويحمدون الله على سلامتي،سألت أمي أين إبراهيم؟ قلت: لا أدري كان معي في التحقيق في الأيام الأولى ثم لم أسمع عنه شيئاً وحدثت أهلي بما حدث معي، بعد أسبوع وبينما نحن جلوس في الدار وقت العصر؟ طرق الباب بلهفة وجاء صوت البشير: هذا إبراهيم قد أطلق سراحه، قفزنا نستقبله والزغاريد والتهاني من كل حدب وصوب.

سألني عما حدث معي، فأخبرته وأخبرني بما كان معه في التحقيق، وهو تقريباً ما حدث معي بالضبط. أثناء الليل وحين خلوت معه في غرفتنا سألته عما حدث وما تفسير ذلك؟ قال: لا أدري ولكن يبدو أن حسناً هارباً منهم أو مفقود!! سألته هل تعرف أن الذين دخلوا عليه جواسيس وأنها مصيدة لمعرفة ما عنده؟ ضحك وقال: هذه ليست المصيدة يا أحمد؟ تساءلت بدهشة: ماذا؟ قال هذه المصيدة المعروفة لتقع في المصيدة الحقيقية، تساءلت: كيف؟ لا أفهم؟ قال: هم يعرفون أننا سمعنا عن المصائد وعن الجواسيس في التحقيق لذلك يأخذون الواحد على مصيدة أولى مكشوفة حتى يكتشفها ويحذر منها، وينتفخ فخراً أنه خدعهم، ثم يأخذونه إلى ذلك القسم ليورط هناك، فهذه هي المصيدة الحقيقية، تساءلت: تعني أن القسم ومن فيه جواسيس وأنهم هم....؟ قاطعني قائلاً نعم نعم.

حمدت الله أنني لم يكن لدي معلومات أخفيها أصلاً لأنني كنت سأقولها لهم لأنني لم أشك فيهم.

فأخبرني أنه حين كان عندهم وسألوه فنفى أي علم له بالأمر، كأنهم أحسوا أنه قد شك فيهم فهددوه وقالوا له أنهم يشكون فيه أنه عميل وجاسوس، وأعلنوا ذلك في الغرفة وفرضوا عليه حالة الطوارئ، وبدأوا يتعاملون معه كأنه جاسوس وقد أدرك أنهم بذلك يحاولون أن يخلقوا لديه ردة فعل ليدافع عن نفسه، ولكي يثبت أنه ليس جاسوساً يبدأ بالحديث عما لديه من أسرار وقد أحضروا له أوراقاً موقعة من مسئولين في الحركة وعليها أختام حمراء وغير ذلك يتحدث معهم بالحقيقة ولا يخفي عنهم شيئاً وأنه أكد أنه حدثهم بالحقيقة، وهي أنه لا يخفي عنهم شيئاً مطلقاً، ولو تحدث بأي شيء لما خرج من السجن لسنوات.

فنظرت إليه بإمعان وسألت: لكنك لم تخبرني أين حسن؟ أجاب بلا مبالاة: انس هذا الأمر والمهم أنه لن يضايقنا ولن يسيء لسمعتنا ولن يضايق أحداً بعد الآن، فأدركت أنه قد أبرّ بقسمه، وحمدت الله في نفسي أنني لم أكن شريك سره من قبل أو شريكه فيما يفعل، فلعلني كنت قد تورطت وحدثت أولئك الفدائيين وتورطت وورطت ابن عمي.

مع أول فرصة سنحت لي بعد خروجي من السجن، خرجت مبكراً وانتظرت خروج "انتصار" محبوبتي لأراها ولأجعلها تراني، فإن كانت قد سمعت باعتقالي تطمئن علي وتقر عينها، لمحتها قد أطلت من الزقاق فنظرت إليها، فنظرت إلي نظرة خاطفة وغضت طرفها وتمتمت شفتاها بكلمات صغيرة، اعتقدت أنني قرأتها (الحمد لله) أو قد أكون أوهمت نفسي بذلك إذاً فهي قد عرفت أنني كنت في السجن وها هي تحمد الله على سلامتي، غمرتني سعادة لا توصف وانطلقت أسابقها إلى الجامعة أتقدمها في السير حتى تراني، وتتأكد من سلامتي.

في إحدى الأمسيات بعد الإفراج عن إبراهيم وبينما كنت أجلس معه في الغرفة ندرس في كتبنا الجامعية دخلت أمي الغرفة وقد قرأت علينا السلام، وهي تحمل بين يديها صينية وعليها ثلاثة أكواب زجاجية وإبريق شاي، سحبت الطاولة نحو سرير إبراهيم وجلست على طرف السرير فاستند جالساً إلى جوارها، صبت الشاي وناولت كل واحد منا كوبه وارتشفت رشفات طويلة من كوبها وقالت وهي تتحدث بحديثها لإبراهيم: انظروا ما أجمل أولاد محمود وحسن وفاطمة وتهاني، الابن هو أغلى ما في الكون، ولا تحس بذلك المعنى إلا حين يكون لك ولد، يا سلام ما أجمل أن تصبح أماً أو أباً، هذا أجمل ما في الكون من مشاعر وأحاسيس.

أدركت أنها تمهد لموضوع آخر، فرمقت إبراهيم بطرف خفي، فلاحظ الماكر نظرتي يرد ببسمة خفيفة وكأنه يقول لي: أنا أدرك ما تمهد له أمك.

وكأنها أدركت أنها أطالت المقدمة فقالت: يا إبراهيم أريد أن أزوجك وأفرح بك؟ ضحك ضحكة طويلة وقال: لا عيب يا عمتي الله يخليك لنا يا بركتنا، لكن لا تخافي عليّ فلن أفعل شيئاً ضاراً أو خطيراً ولا زلت صغيراً، وبعد التخرج من الجامعة يكون خيراً إن شاء الله. أجابت بحدة وغضب، سوف أزوجك، يعني سوف أزوجك؟ ولماذا بعد التخرج إن لديك حوالي ألفي دينار معي وهي تكفي لزواجك وزيادة، قاطعها يا عمتي...قاطعته اصمت انتهى الأمر سوف تتزوج يعني سوف تتزوج المهم الآن من التي ستتزوجها؟ أخبرني وأنا أكمل الباقي ولا تناقشني في الأمر، ودفعته عدة دفعات في خاصرته أعتقد أن هذا ليس وقت هذا الأمر، فلا زال هذا مبكراً وسابقاً لأوانه، سألته: هل هناك واحدة بعينها تريدها؟ نظر بدهشة وقال: لا قلت لك لم أفكر في واحدة. وقامت وهي تحمل معها صينية الشاي.

وجدت الفرصة سانحة لأرى موقفه ورأيه في قضية حساسة: ألا تريد أن تتزوج حقيقة؟ فقال: هذا الأمر لم يخطر ببالي قبل دخول أمك الغرفة، ولم أفكر فيه من قبل، قلت: والآن؟ قال: أعتقد أن هذا ليس وقت هذا الأمر، فلا زال هذا مبكراً وسابقاً لأوانه، سألته: هل هناك واحدة بعينها تريدها؟ نظر بدهشة وقال: لا، قلت لك لم أفكر في الأمر، قلت: يعني بصراحة هل هناك واحدة تحبها؟ قال وقد زادت دهشته: واحدة أحبها؟!! عمّ تتحدث يا رجل؟ قلت: يعني تريد أن تقول لي أنك لا تحب!! قال: ومن قال أصلاً أنني أحب حتى أنفي هذا الأمر.

قلت: ولم تحب في أي يوم من الأيام؟ قال: تريد الصراحة قلت: نعم، قال: هذا موضوع شائك وطويل، فقبل حوالي خمس سنوات رأيت فتاة وشعرت أنني أحبها وبدأت أرقب رواحها وغدوها وبدأت أشعر أنني أحبها وأنها تبادلني الحب، لم يتطور الأمر عن ذلك ولكن حين بدأت أصلي والتزم بالمسجد فهمت أن مثل هذه العلاقات ممنوعة قبل التفكير الجدي في الزواج، فكففت عن الوقوف في طريقها لأرقبها، ولكني شعرت أن قلبي لا زال معلقاً بها ويعشقها ولا اعتقد أن في ذلك حرجاً دينياً.

لكن بعد عودة حسن ومكوثه في المخيم والمصائب التي فعلها واندماجي في الحياة السياسية وشعوري بأنني أصبحت جزءاً من الهم الوطني، هم هذه البلد ومقدساتها، فكرت قليلاً وقررت أنني يجب أن أتوقف حتى عن هذا التفكير مجرد التفكير في الحب، يبدو يا أحمد أننا يجب أن نظل محرومين حتى من هذا الشعور...مجرد الشعور.

كان يتحدث من أعماق نفسه وروحه، وكأنه في حالة ولادة بعد المخاض، فتساءلت ألا تعتقد أنك تبالغ في هذا؟ فحسب علمي أن الثوار هم العشاق والأدباء، ضحك وقال: هذا صحيح هذا صحيح يا أحمد ولكن ليس عندنا، ليس في الشعب الفلسطيني هذا صحيح، مع ثوار فيتنام وكوبا والصين الشعبية، لكن يبدو أن قدرنا أن نعيش حباً واحداً فقط، حب هذه الأرض ومقدساتها وترابها وهوائها وبرتقالها، ويبدو أن هذه الأرض ترفض أن ينافسها أي منافس في حب العشاق لها بعشقهم سواها من الصبايا.

ضحكت وقلت: والله لقد اجتمعت فيك الثلاث، ثائر وعاشق وشاعر فما قلته ليس إلا صورة من الشعر، وهي تغزل في معشوقتك الغيور، ولكني لا أعتقد أن هذا يتنافى مع عشق واحدة من الصبايا الجميلات، فعشقهن من عشق الوطن، تنهد وقال: مرة أخرى يا أحمد هل تريد الصراحة؟ قلت لا أريد غيرها، قال: مثلما قال المثل الشعبي (في هالبلاد ولاد الحرام لم يتركوا لاولاد الحلال شيء)، يا أحمد الاحتلال لوث لنا كل شيء لوث أرضنا، لوث هدوءنا، لوث بحرنا، لوث شوارعنا، ولوث نفوسنا، يا أحمد كم قصة سمعت بدأت بحب عنيف في هذا البلد وتحولت إلى سوط يكوي به الاحتلال ظهور المتحابين، يا أحمد حين تستخدم هذه العلاقة الشريفة المقدسة بيد العملاء إلى أوراق ضغط على العشاق لإجبارهم على خيانة معشوقتهم الأولى (القدس)، هل يظل في حياتنا متسع للحب والعشق؟ قلت: أنا متأكد أنك تبالغ وأنك تخلط مفاهيمك الدينية والأحكام الشرعية مع ممارسات الاحتلال وعملائه فتخرج بمزيج ثقيل وحاد من الأفكار. ابتسم قائلاً: ومن قال أنه يمكن فصل المفاهيم الدينية عن واقع الحياة وتفاعلاتها، يا أحمد أنا قررت قطع هذا الحبل بعد أن عشقت بكل روحي وجوارحي فتاة ما، رغم أن علاقتي بها ظلت في دائرة المباح والعفيف، حتى كلمة لم أبادلها، عشقتها من أعماق روحي وحين ألحح علي ذلك الشعور الثقيل والحاد من الأفكار إلى حدّ بعيد سألت نفسي سؤالاً: هل أحبها حقاً؟ وأجبت نفسي:بكل تأكيد. فقلت لنفسي حينها: إذا كان حبك صادقاً ففي مثل قيود حياتنا كفلسطينيين يجب عليك التفاني في الحب يترك كل ما قد يفتح أبواب الفساد والشر، ما قد يخدش صورة المحبوبة أو سمعتها، وحتى يجب أن توقف نسمات الهواء التي قد تمس وجه الحبيب أو تداعب شعوره، نحن لسنا كغيرنا يا أحمد...لسنا كغيرنا، وتصبح على خير.

دخل فراشه وسحب الغطاء عليه، فأجبته: وأنت من أهله، وسحبت غطائي عليّ وأنا أفكر في كل كلمة قالها وأتساءل: هل إنه يبالغ حقاً أو أننا لسنا كغيرنا؟!! قصتنا هذه ليست قصة الايرلنديين أو الخمير الحمر أو الباكستانيين، هذه قصة فلسطينية قصة تربع في عقدتها المسجد الأقصى.

في اليوم التالي كنت في طريق عودتي للبيت من المسجد فاستدعى انتباهي أن إشارات جديدة كتلك التي رأيت ضابط المخابرات يكتبها وحللنا شيفرتها مكتوبة على الجدار، عدت للبيت وانتظرت عودة إبراهيم وأخبرته بالأمر، خرج على الفور ليأتي بتفاصيل ما كتب ثم عاد وفقاً لتحليلاتنا السابقة، فإن موعد اللقاء المحدد في هذه الشيفرة بعد أسبوع، سألت إبراهيم: ما رأيك؟ قال هذه إشارة لعميل لا نعرفه وهو خطير؛ لأنه غير معروف ويجب علينا معرفته سألته: كيف؟ قال: دعني أرتب الأمور، فلا زال معنا أسبوع، كانت الإشارة تشير إلى أن موعد اللقاء هو الساعة (٢٠) أي الساعة الثامنة مساءً.

في اليوم المحدد منذ الصباح قال لي إبراهيم: كن مستعداً اليوم، سنخرج لنحاول معرفة العميل الساعة السادسة سأنتظرك في المسجد، انتظرته في المسجد في الموعد المحدد جاء وأخذني بالسيارة وانطلق خارجاً من المخيم وخارجاً من مدينة غزة متجهاً نحو الشمال، ثم انعطف لأحد الطرق الفرعية المؤدية إلى مجموعة من المستوطنات، وأشار إلى شجيرة صغيرة على جانب الطريق قائلاً: هل ترى الشجيرة هذه؟ قلت: نعم، قال بعد ساعة يكون الظلام قد حل ومن يكمن وراء الشجرة لا يراه أحد، وهو يرى كل من يمر في هذا الطريق خاصة تحت نور المصباح الكهربائي على عامود الكهرباء هناك، قلت:صحيح، قال: حين تعتم الدنيا سأتركك هناك وسر بهدوء وافحص الأجواء حولك، فإن وجدت الجو مناسباً فاختف وراء الشجيرة، أنا سأرقبك إن لم تختف فسآتي لآخذك وإن اختفيت جيداً فراقب الشارع جيداً واعرف من سيأتي هنا، وماذا سيحدث، وابق خلفها حتى آتي لآخذك، تساءلت: وكيف حزمت أن من وضعت له الإشارة سيأتي من هنا وليس لأي مكان آخر في العالم، ضحك وقال: ألا تثق بي؟ اترك لي ترتيب الأمور يا أحمد.

عاد بي في الوقت المحدد أنزلني من السيارة، سرت وتفحصت الأجواء كانت مناسبة حيث أن المكان خال فاختفيت وراء الشجيرة انتظر عقارب الساعة، أبت أن تتحرك الدقيقة وبعد دهور ودهور هذه الساعة تقترب من الثامنة ودقيقة...ودقيقتين...وثلاث ولا شيء يحدث.

قلت لنفسي يبدو أننا نخدع أنفسنا ونظن أنفسنا أذكياء وأنهم بهذه البساطة، يبدو أنني وثقت بإبراهيم أكثر مما يجب، انتزعني من هذه الأفكار صوت سيارة تقف على الطريق العام على بعد عشرات الأمتار مني وشخص يفتح الباب وينزل ويغلق باب السيارة التي تنطلق في طريقها تأكدت أنها سيارة أجرة عمومية.

بدأ هذا الشخص يخطو متجهاً نحوي في الطريق الفرعي، دققت النظر وخفقات قلبي تزداد وترتفع وأخشى أن يسمعها هذا الشخص، فركت عيني لأتأكد من أنني سأراه جيداً، حين أصبح تحت الضوء على بعد عشرة أمتار مني رأيته، كدت أشهق، فتخرج روحي من بين جنبي وكتمت أنفاسي، فهذا "فايز" أحد أصدقاء إبراهيم المقربين وأحد النشطاء. قلت في نفسي لعله جاء بطلب من إبراهيم للمراقبة هو الآخر!! وقبل أن أقلب هذه الفكرة جاءت سيارة مسرعة وانعطفت في الطريق الفرعي، توقفت، فتح بابها الخلفي، ركب فيها فايز وانطلقت كنت متأكداً مائة بالمائة أن هذه سيارة ضابط مخابرات المنطقة "أبو وديع"، وكنت شبه متأكد أن "أبو وديع" كان في السيارة بنسبة لا تقل عن ٩٥%.

تنازعتني الأفكار هل أنا في رؤيا في المنام؟ هل هذا حقيقي؟ أليس هذا فيلماً بوليساً أو جاسوس؟ ماذا أقول لإبراهيم؟ هل أخبره الحقيقة؟ هل أخفي عنه الأمر وأقول له أن شيئاً لم يحدث؟ ظلت الأفكار والتساؤلات تمزقني حتى جاءت سيارة إبراهيم، حين اقترب تفحصت المكان فوجدته خالياً، خرجت من وراء الشجرة، وركبت معه وانطلق مستديراً بالسيارة خارجاً إلى الطريق وهو يتساءل؟ هل حدث شيء هنا؟ هل رأيت أحداً؟ هل جاء ضابط المخابرات؟ وأنا لا أجيب.

انتبه أنني في وضع غير طبيعي فتساءل: ما بالك ما حدث لك؟ قلت: لن تصدق ما حدث، قال يتلهف وماذا حدث؟ قلت: جاء الرجل وجاء "أبو وديع" وأخذه بالسيارة، صرخ: صحيح، ومن الرجل؟ قلت: هذه المشكلة، قال: أي مشكلة؟ من الرجل؟ قلت: فايز، قال: فايز!! من؟ قلت: صاحبك؟ صرخ: ماذا تقول؟ ماذا ؟وليس أحداً سواه؟ قلت: نعم هو بشحمه ولحمه رأيته بعينيّ هاتين مائة بالمائة دون أدنى شك، قال: أبو وديع جاء وأخذه؟ قلت: نعم أبو وديع بسيارته أوقفها بجواره، فتح الباب وصعد فيها، وانطلقت السيارة للمستوطنات.

انعطف إبراهيم إلى جانب الطريق وهو يخفف سرعة سيارته حتى أوقفها وسحب الفرامل اليدوية وأطفأ السيارة وألقى برأسه بين يديه على مقود السيارة قائلاً: يا إلهي ماذا يحدث هنا؟ أنا لا أصدق، هذا غير معقول (مش ممكن... مش ممكن) وظل يرددها مئات المرات، قلت ولماذا مش ممكن؟ صحيح أنه لا يعرف عن ...توقف قاطعاً حديثه ثم واصل قائلاً: يا إلهي يبدو أنني فقدت السيطرة على عقلي دعنا نذهب للبيت، جلست مكانه على كرسي القيادة، وانطلقت إلى البيت دون أن ينطق حرفاً واحداً، حيث اقتربنا من البيت، طلب مني أن أتوجه إلى بيت الشيخ أحمد، وقبل أن نصل طلب مني التوقف، والانتظار بعيداً عن بيت الشيخ حتى عودته.

غاب حوالي نصف ساعة ثم عاد، ركب إلى جواري وانطلقنا إلى البيت لـم ينـبس أحدنا ببنت شفة. أحضرت لنا أختي مريم العشاء بالكاد تناول بضع لقيمات، شربنا الشاي وأمسك كل واحد منا بكتابه ينظر إليه ولا يرى الحروف.

بعد ساعة نظر إليّ وقال: أحمد أعرف أنك لست في حاجة للتذكير ولكن لا بـد أن أذكرك، هذا موضوع مغلق ولا تخبر به أحداً، قلت: دون شك، قال: لا زلنا غير قادرين على الجزم بأن ذلك ليس جملة من الصدف التي اجتمعت ولا بد أن نفحص الأمور لنتأكد مائة بالمائة، قلت: هو كذلك، ولكن كيف؟ قال: سنرى سنرى، تصبح على خيـر (وهـو يسحب غطاءه عليه) ثم التفت وقال لو قابلته يجب أن لا يحس بأي تغير من طرفك، قلت: هو كذلك سحب كل واحد منا غطاءه ووضع رأسه علـى وسـادته ولا أدري كـم مـن الساعات مرت علينا ونحن نتقلب في فراشنا كمن فُرش سريره بالجمر.

عندما قمنا لصلاة الفجر همس في أذني وهو يحاول الابتسام قائلاً: هل يجوز لمثلنا ونحن نعيش هذه الحياة ونرى ما نرى أن نحب ونعشق يا أحمد، حينها قررت أن أنهـي قصة غرامي إذا جاز لنا أن نسميها قصة غرام وأدركت معنى أن قصتنا قصة فلسـطينية مريرة لا مكان فيها لأكثر من حب واحد...وعشق واحد.

الفصل التاسع عشر

لاحظت مع إبراهيم صحيفة عبرية لم أكن أعرف أن إبراهيم يعرف اللغة العبرية جيداً، ولكن يعرف القليل منها، لاحظت أنها صحيفة (يدعوت أحرنوت) سألته: ما هذه الصحيفة؟ وماذا فيها؟ قال هذه صحيفة عبرية (يدعوت أحرنوت)، وفيها مقال عن قطاع غزة، وسحب الصحيفة برفق ومعها ترجمة المقال، وناولني إياها.

كانت مقالة طويلة تصف الواقع في غزة، وتلخص ذلك بأن قطاع غزة تحول إلى مستنقع من العملاء والجواسيس الذين يتعاملون مع جهاز المخابرات الإسرائيلية الشاباك، وأن غزة التي كانت بؤرة القلاقل ووجع الرأس للإسرائيليين في مطلع الاحتلال، لا يمكن أن تقوم لها قائمة، ولا يمكن أن تعود إلى هذه الزاوية مطلقاً وأن معظم ما في هذه المقالة منسوب إلى مصادر استخباراتية وإلى مسئولين في جهاز الشاباك.

قرأت ذلك بقلق بالغ وقد لاحظ إبراهيم قلقي فقال وهو يبتسم: شيء مقلق أليس كذلك؟ قلت: بكل تأكيد، قال: كل هذا كلام فارغ، ألم تر كيف تحولت غزة إلى بركان حين حاصروا الجامعة واستنفرنا الناس من المساجد، قلت: صحيح ولكن...قاطعني قائلاً: لا شك أنهم نجحوا في ضرب المقاومة ضرباً قاسماً وأنهم قد تغلغلوا في أوساط شعبنا بصورة مخيفة، ولكن هذه أرض مباركة، الله بارك فيها وفي أهلها، فإذا أزفت الساعة انطلق المارد من جديد، سيعرف هؤلاء أي منقلب ينقلبون، قلت: مرة أخرى أراك رومانسياً خيالياً ولا اعتقد أنك تبني نظريتك على معلومات صحيحة وإحصائية وإنما هي مجرد أحلام وأمنيات، ابتسم بثقة عالية وقال: سترى يا أحمد سترى.

اجتمع شباب ثلاثة في مطلع العشرينات من عمرهم في إحدى دور مخيم رفح للاجئين على بعد عشرات الأمتار من الحاجز الحدودي مع مصر على فرشة من أقمشة قديمة يتهامسون:

- عبد الحميد: لا بد أن نفعل شيئاً، لا يمكن الانتظار هكذا دون عمل أي شيء.
- سأل خليل: وماذا يمكننا أن نفعل؟
- أجاب فريد: يمكننا أن ندبر بعض السلاح القديم، ونبدأ العمل به.
- انتفض خليل قائلاً: لا...لا يمكن أن نستخدم السلاح الذي يشترى من السوق السوداء فأنتم تعرفون أن غالبيته فاسدة أو مشركة، أو تؤدي للاعتقال الفوري حيث أن من يتاجرون به يفعلون ذلك بعلم من المخابرات لاعتقال من يفكر في العمل ضد الاحتلال.
- تساءل عبد الحميد وقد ضاق ذرعاً: وماذا تفعل؟ لا بد أن نبدأ العمل.
- ابتسم خليل قائلاً: لدي فكرة جيدة، ولا بد أن نجربها.

يوم السبت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، حافلات عديدة تتوقف في ميدان فلسطين في مدينة غزة، وينزل منها المئات من اليهود ذكوراً وإناثاً، حيث يبدأون التجول في المدينة وأسواقها، مجموعات مجموعات، يتمايلون ويتضاحكون ويشترون ما طاب لهم ويأكلون ويشربون، وشارع عمر المختار في المنطقة التجارية المكتظة منه الواصلة بين ميدان فلسطين وميدان الشجاعية يكتظ بهم، يتحدثون اللغة العبرية وأحياناً يتلفظون ببعض الكلمات باللغة العربية بصورة مكسرة، فيتضاحك الباعة ويتضاحكون هم كذلك.

من طرف شارع المختار، من جهة ساحة الشجاعية يسير "خليل" متسكعاً وبيده جريدة القدس مطوية كما هي عادة الكثير من الشبان من أبناء المخيمات وينظر إلى زجاج محلات (فاترينات) العرض في المتاجر، ومتقدماً رويداً رويداً، أصبح إلى جواره أحد أولئك اليهود على متر واحد جعله على يمينه، ليمر هو بجوار الحاجز الحديدي الذي يفصل الرصيف عن الطريق وفجأة سقطت الصحيفة من يده، وإذا بسكين مطبخ حادة النصل في قبضته، طارت يده والسكين فيها باتجاه عنق اليهودي للأمام وللخلف بسرعة البرق لا أكثر ولا أقل، فكانت عنقه قد ذبحت وتدفق الدم منها غزيراً وسقط على الأرض.

كان خليل قد انعطف في شارع جانبي وما أن انتبه الناس وتصايحوا حتى كان قد ركب سيارة تنتظره يقودها عبد الحميد وانطلقت بصورة هادئة مندمجة في حركة المواصلات التي تزخر بها شوارع المدينة، خلال ربع ساعة كانت قوات ضخمة من جنود الاحتلال ومخابراته وشرطته قد حضروا إلى المكان، حاصروه وبدأوا بإجراءات، نقلوا جثة القتيل وتفحصوا المكان وبدأوا بحملة تحقيقات بين أصحاب المحلات والمارة، بعد أيام ليست كثيرة تكرر الحادث في منطقة قريبة.

خليل يرسل سكينة كالبرق إلى أحد المحتلين للأمام وللخلف مرة واحدة ثم تبتلعه أزقة المدينة، ويختفي مع هوائها الناعس وقوات الاحتلال ومخابراته تقيم الدنيا وتقعدها، اعتقالات حجز، تحقيقات...دون جدوى.

في إحدى الأمسيات كنت أجلس في غرفتي أدرس في أحد كتبي سمعت طرقاً على الباب وقمت لأرى الطارق فتحت الباب فإذا فايز أمامي يرد عليّ السلام، لم أكن قادراً على رد السلام، فقد تعثرت الكلمات في حنجرتي ثم تذكرت ما قاله إبراهيم فرددت التحية.

سأل: هل إبراهيم موجود؟ قلت: لا، ولكنه قد يأتي في أي لحظة، قال: لا، سأعود بعد قليل، إذا جاء أخبره أنني سآتي لأراه فلينتظرني. ثم انطلق، عدت إلى دراستي.

بعد حوالي نصف ساعة طرق الباب ثانية ولم يكن إبراهيم قد عاد بعد، كان فايز بالباب قلت له، لم يعد إبراهيم بعد تفضل تفضل، وقد كنت قد استوعبت فكرة الحديث معه، ناديت على الأهل ليخلوا الطريق، ودخل معي إلى غرفتنا حيث جلس على حافة سرير إبراهيم، وبدأت أحاول الحديث معه في موضوع ما، نشغل الوقت للتغلب على التوتر الذي يعتريني.

سألته عن دراسته واستعداداته للامتحانات التي اقتربت فأجاب بأنها جيدة وأن استعداداته على قدم وساق، فالدراسة أصلاً سهلة وليست معقدة، سأل فجأة: حسب علمك هل سيتأخر إبراهيم؟ قلت: لا أعتقد، قال: لا أريد أن أتأخر كثيراً، هل من عادته التأخر في الليل كثيراً؟ قلت: لا ولكنه قد يتأخر أحياناً، سأل: حسب علمك أين يمكن أن يكون الآن فلعلي أذهب إليه هناك، قلت: لا أدري، سأل: ألا يذهب لزيارة أخيه حسن؟ ارتفع صوت دقات قلبي وأجبت: كلا نحن لا نزور حسناً ولا نتعرف عليه ولا ندري ما هي أخباره منذ سنوات طويلة حيث طردناه من الدار لأفعاله السيئة.

قال فايز: ولكن حسناً أخوه والدم لا يصبح ماءً، فلا بد أن يكون مهتماً بأمره قلت: لا... لا، أنا لم أسمعه يذكر اسمه منذ ذلك الوقت، ونحن قد نسيناه ولولا أنك ذكرته ما تذكرناه، وسألت: ولكن لماذا تسأل عن حسن؟ بدا عليه الارتباك للحظة ثم قال: قلت في نفسي قد يكون عنده فأذهب لأراه هناك، ثم سأل: ولكن أين يسكن الآن؟ قلت: لا أدري. ونحن لم نره منذ زمن بعيد، استأذن بالانصراف فأخرجته من البيت، وعدت إلى غرفتي ودراستي التي لم أعد أفهم منها شيئاً وأنا أتساءل: هل أنه مكلف من المخابرات بالبحث معنا حول موضوع حسن؟ وإلا فما هذه الأسئلة الكثيرة عنه!!

عاد إبراهيم بعد قليل، فأخبرته بالأمر ضحك وقال: ممتاز ممتاز، الآن نحن نراه وهو لا يرانا، دعه يقوم بمهمته ونحن سنتأكد من كونه يعمل معهم أو لا، قلت: كيف؟ قال: هناك من يراقبه الآن ويحصي عليه كل حركة وسكنة قلت: ألا ترى؟ أنا متأكد منذ وجدت معك التقرير أن لديكم جهازاً أمنياً يعمل في هذه الموضوعات، نظر إلي غاضباً وقال: يا أحمد ما لزوم هذا الكلام؟ أنت تريد العنب أم تريد مشاجرة الناطور، ضحكت وقلت: المهم أن تضعني في صورة التطورات في هذا الموضوع لأنني كنت من البداية جزءاً أساسياً فيه، قال: لك هذا.

دخلت أمي تحمل العشاء وقد قرأت علينا السلام، فأجبنا بمثله ووضعته على الطاولة وجلست على حافة سرير إبراهيم قائلة: تناولوا عشاءكم، وبينما كنا نأخذ مقاعدنا حول الطاولة تساءلت: ما هي أخبار عريسنا؟ التفت إليها إبراهيم قائلاً: بخير يا عمتي، ولكن لا داعي لعريسنا هذه، ردت بغضب: لماذا؟ ليكن في علمك أنني قد بدأت أبحث لك عن عروس مثل القمر، قال: ألم نتفق أن نؤجل هذا الأمر لحين التخرج، قالت: نعم نعم، ولكني أبحث لك وأول ما أجد العروس المناسبة سنخطبها لك ولو قبل التخرج، قال: يا عمتي...فتدخلت مقاطعاً لعلي أخلصه من المأزق، ما رأيك أنه يريد واحدة محددة وهو يحبها، نظرت إلي ساخرة، اسكت أنت، من طلب منك التدخل؟ ومن عرفك بالرجال؟ إبراهيم يريد واحدة بعينها!! وهو يحبها يا للغباء اسكت يا ولد اسكت، ثم توجّهَت لإبراهيم قائلة: أنا أبحث لك يا إبراهيم وسآخذك قريباً للتعرف عليهم قال: يا عمة، قالت مقاطعة: اسكت أنت الآخر وخرجت من الغرفة.

في مدينة الخليل بعد صلاة المغرب الشيخ جمال يقف بين عدد من الشبان في المسجد يدرسهم شؤون الدين ويزرع فيهم معاني التقوى ويرغبهم في ما عند الله ويزهدهم في الدنيا وفي نفس الوقت في مسجد آخر يجلس عبد الرحمن بين جمع من الشبان يتحدث معهم في نفس المعاني.

نظر الشيخ الذي يجلس بجوار المنبر إلى ساعته وبدأ يستعد للوقوف للأذان، وصدع صوت الآذان لصلاة العشاء من مآذن مساجد الخليل...الله أكبر..الله أكبر، بعد إتمام الصلاة أشار عبد الرحمن لابن أخيه عبد الرحيم بيده أن هيا لنغادر المسجد فانطلق عبد الرحيم ليلتقي بعمه عند باب المسجد وانطلقا وعبد الرحمن يقول: هيا، لا نريد التأخر فليس معنا اليوم سيارة لتوصلنا للبلد انطلقنا في شوارع البلدة القديمة ذات البيوت الحجرية القديمة.

في أحد الأزقة علا الصراخ: الله أكبر يا ناس هذه دارنا وصوت يرد عليه بالعربية المكسرة: هذه ليست داركم هذه داري انصرفوا من هنا، نظر عبد الرحمن وعبد الرحيم في الزقاق فإذا بعشرات الجنود يقفون وقد شهروا أسلحتهم يحمون عدداً من المستوطنين والمستوطنات رجالاً ونساء، وهم يطردون سكان الدار ويلقون بأثاثهم خارج البيت، وكلما حاول سكان الدار العرب العودة لدارهم وجه الجنود سلاحهم إليهم، وبدأ المستوطنون بدفعهم وسحبهم والصراخ عليهم.

توقف عبد الرحيم وقد اندفعت قدمه نحو الزقاق وشعر عمه بذلك فأمسك بيده وسحبه بشدة قائلاً: إلى أين؟ وماذا يمكنك أن تفعل مقابل تلك البنادق؟ نظر إليه عبد الرحيم عاتباً وقال: هكذا نمر دون أن نفعل شيئاً؟!!

فقال: يا عم هذه مشكلة لا تحلها الانفعالات، وردات الفعل السريعة واللحظية وهذه ليست أول دار وآخر دار يستولي عليها المستوطنون، وهذه ليست أول عائلة أو آخر عائلة تطرد من بيتها، وأنت ترى أن العين بصيرة واليد قصيرة، والأمور تحتاج إلى حل جذري.

قال عبد الرحيم وقد ضاقت نفسه ذرعاً: وكيف؟ ومتى؟ فرد عبد الرحمن مهلاً يا بني مهلاً فإن لكل أجل كتاباً وأمر الله آت لا محالة.

مع صباح اليوم التالي يتعالى صياح أولاد القرية فيجري عبد الرحيم نحو الباب ليرى ما يحدث، تنادي عليه خالتي إلى أين يا عبد الرحيم؟ فلا يجيب ويخرج جارياً مع الأولاد نحو الغرب ومن ناحية الغرب يعلو صوت جرافات وسيارات تدك الأرض دكاً.

يطل الأولاد على تلك الآليات وهي تسوّي الأرض وتقتلع الأشجار، وتهدم بعض البيوت الحجرية الصغيرة، صرخ العديد من الأولاد هذه أرضنا يجرفونها وانطلقوا عائدين جرياً للقرية، أصواتهم تتعالى اليهود يجرفون أرضنا، اليهود يقتلعون أشجارنا، ومع أصواتهم تفتح أبواب المنازل، ويطل منها الناس يتساءلون عما يحدث؟ ويخرجون ثم يسيرون نحو الغرب.

أحد الرجال يصرخ وهو يهرول قادماً نحو الجمع: الله أكبر يا ناس...الله أكبر، ماذا جرى ماذا جرى؟ وحين ينظر إلى الجرافات تطحن أشجاره يسقط على الأرض فاقداً الوعي فيجتمع حوله عددٌ من الحضور لإسعافه، وأحدهم ينادي صارخاً أحضروا ماء وبينما ينشغل عددٌ من الناس في إسعافه يتقدم بعض الرجال نحو الجرافات، فيتقدم إليهم بعض الجنود ويدور بينهم حوار أشبه بحوار الطرشان.

الرجال يقولون: هذه أرضنا ولماذا تجرفونها؟ والجنود يطالبونهم بالرجوع ويشهرون البنادق في وجوههم ويكرر الرجال اعتراضهم فيدفعهم الجنود فيسقط أحدهم (رجل كبير في السن) فيساعده آخر للقيام وثالث يدافع الجنود، ويتعالى الصراخ وترتفع الصيحات، ثم يبدأ الجنود بضرب الرجال بالهراوات ومن يسقط على الأرض تتناوله ركلاتهم فيبدأ الجمع بالصراخ والتكبير، فيبدأ الجنود بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع، فيتفرق الجمع، ويبدأ الأولاد برشق الحجارة، ويطلق الجنود النار فوق رؤوس المتظاهرين، تقضم الأرض وتقطع أشجار الزيتون وتطحن تحت جنازير الجرافات وتطحنها طحناً، عبد الرحيم يرشق الجنود بالحجارة، وإطلاق النار والغاز يتواصل وعمل الجرافات يتواصل حتى غروب الشمس، وتنصرف الجرافات والقوات التي تحرسها، وينصرف غالبية الناس إلا بعض الرجال والنساء كبار السن، فقد ارتموا على تراب أراضيهم يقبلونه وينثرونه على رؤوسهم ونحيبهم لا ينقطع.

جاءني إبراهيم قائلاً اليوم إن شاء الله سنحسم موضوع "فايز" وبصورة قاطعة ونهائية قلت: كيف؟ قال: عليك أن تقوم أنت بدورك فقط وهو مراقبته على مدار ستة الساعات التالية هذه مفاتيح السيارة عليك الحذر الشديد أن لا ينتبه إليك وأنت تراقبه، لأن كل الخطة سوف تفسد أخذت المفاتيح قائلاً: لا تقلق للأمر، ذهب وهو يقول: من هذه اللحظة إلى المراقبة، قلت: على الفور وبدأت أجول بعيني، بحثاً عنه بين جموع الطلاب في ساحة الجامعة، وجدته ولدهشتي وجدت أن إبراهيم قد ذهب ليسير معه، بدأ يتحدث معه حديث شكلياً غيرَ جدي ثم سحبه ذاهباً إلى مقصف الجامعة، راقبتهما وقد جلسا حوالي نصف ساعة ثم استأذن إبراهيم منصرفاً.

كان فايز يبدو مرتبكاً ومحتاراً فيما يفعل ثم قام وخرج من المقصف تجول قليلاً في الجامعة ثم انطلق خارجاً منها، أسرعت إلى السيارةِ وانطلقت بها من ورائه عن بعد كي لا ينتبه أنني أراقبه، سار في شارع الثلاثين متجهاً نحو الشرق وهو يلتفت إلى المحال التجارية من حوله متفحصاً شيئاً ما، ثم دخل أحد المحال أسرعت مسرعاً بالسيارة لأمر من أمام المحل لأرى ما يفعله بالداخل فرأيته يتحدث مع صاحب المحل وكأنه يستأذنه في استخدام جهاز التلفون، وقد أذن له فرفع السماعة واتصل بها مكالمة صغيرة، ثم شكر الرجل وخرج.

كنت في انتظاره عن بعد، أشار لإحدى السيارات المارة فتوقفت فركبها وانطلقت انطلقت خلفها حتى وصل إلى ميدان فلسطين نزل من السيارة ودار قليلاً في الميدان ثم توجه إلى أحد مواقف السيارات، تحدث مع السائق ثم ركب السيارة التي انطلقت به خارجاً من الميدان، ثم خرجت خارج غزة إلى الشمال عندما اقتربت السيارة من التفرع الذي كنت قد رأيته عنده يصعد سيارة "أبو وديع" خففت السرعة ثم توقفت ونزل منها واتجه في ذلك الطريق الفرعي، انطلقت بالسيارة نحو الشمال، ثم استدرت وعدت وهكذا أروح وأرجع في الطريق العام وكلما مررت بالطريق الفرعي انظر فيه فأجده لا يزال متجها فيه نحو الغرب.

أثناء إحدى تلك الالتفاتات شاهدت ضابط المخابرات "أبو وديع" منطلقاً بسيارته ثم خفف سرعته وانعطف في ذلك التفرع، سارعت نحو المفرق وعند وصولي كان أبو وديع قد توقف بسيارته وفُتح الباب ثم ركب فايز معه وانطلق بها، لم أدر ما أفعل بعد الآن، فهل عليّ أن أواصل مهمة المراقبة أم أن دوري انتهى. في النهاية انطلقت بالسيارة في ذلك الطريق الفرعي ومن بعيد شاهدت سيارة "أبو وديع" تدخل إحدى المستوطنات، استدرت وعدت إلى الطريق الرئيسي، وانتظرت عند المفرق على بعد خمسين متراً من التفرع استمر انتظاري حوالي (٤٠) دقيقة وفجأة خرجت سيارة "أبو وديع" مسرعة عائدة إلى غزة.

انطلقت ونظرت في الشارع الفرعي، فوجدت فايزاً في طريقه عائداً إلى المفرق استدرت بسرعة ورجعت إلى موقفي السابق، وصل فايز المفرق، وأشار للسيارات المارة حتى توقفت إحداها وركبها. سرت خلفه ونزل في ميدان فلسطين ثم ركب سيارة أخرى إلى المخيم وذهب إلى البيت. أدركت أن مهمتي انتهت وأن عليّ أن أبلغ إبراهيم بما كان.

سارعت إلى الدار لأبحث عنه فلم أجده، سارعت إلى الجامعة، فوجدته أخبرته بما كان فضحك حتى كاد أن يقع على ظهره قائلاً لقد ابتلع الطعم، وتأكدنا الآن من عمالته، لكن يجب أن نكمل المقلب، قلت: أي طعم؟ وأي مقلب؟!! قال: منذ أيام بعد أن رأيته في تلك الليلة وهو لا يترك فرصة يجدني فيها إلا ويسألني عن حسن فأدركت أن هذه مهمته الآن أن يعرف أي معلومات لدي عن حسن، فأخبرته اليوم أنني سأذهب الساعة الثامنة لمقابلة حسن الذي لم أره منذ سنوات وأنه أرسل لي ذلك مع شخص لا أعرفه وأنه يريد رؤيتي لأمر ضروري جداً، وقد كنت واثقاً أنه سيسارع إلى إبلاغهم بتلك المعلومات الهامة التي يبحثون عنها، وقد ابتلع الطعم ويجب الآن أن نكمل الأمر.

سأذهب أنا إلى مكان بعيد وكأنني أنتظر قدوم حسن وقتاً طويلاً وأُظهر أنني مرتبك وفي انتظار وقلق، سأنتظر ساعة وأنا أنظر في كل لحظة في ساعتي كعادة أي شخص قلق، ثم أعود للبيت، سألت بحيرة: وما فائدة ذلك؟ قال: يا أحمد هم اعتقلونا وحققوا معنا وأخذونا إلى المصائد حتى يعرفوا إن كنا قد قتلناه أو نعلم مكانه، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا لنا هذا الخائن لينبش معنا حوله، ولن يتركنا إلا إذا تأكدوا أن لا علاقة لنا بالأمر وأننا حقيقة لا نعرف أين هو وبهذه الطريقة سيكفون عن البحث وراءنا، وبهذا نكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد، تأكدنا من عمالته وخيانته، واستخدمناه لتوصيل معلومة لهم تكف شرهم عنا.

قلت وقد علتني الدهشة: والله إنك مصيبة، ابتسم متمتماً ذلك الفضل من الله، قلت: هل تريد الآن مني شيئاً، نظر إلى ساعته وقال: لا هناك متسع من الوقت لأوصلك للدار ثم أذهب لموعدي، أوصلني للبيت، في الطريق أخبرني أنه قد تم اعتقال مجموعة من الشباب تنتمي للجهاد الإسلامي هي التي وقفت وراء عمليات القتل بالسكين التي حدثت في غزة خلال الفترة الأخيرة، الله أكبر كل خلية تعمل لا يطول عمرها عن شهر ويتم اعتقالها ما هذه المصيبة؟ قال: مادام في شعبنا أمثال هذا الخائن وما دمنا كتنظيمات وكقوى سياسية غير قادرين على معالجة هذه الظاهرة معالجة جذرية فسيظل الوضع على هذه الحال، بل وسيزداد سوءاً، كنا قد وصلنا الدار فنزلت وأنا أقول له لا تتأخر، إن تأخرت عن الساعة العاشرة فسأعرف أنه قد حدث لك مكروه، فانطلق مغادراً ليصل لموعده في الوقت المناسب.

خطيبة أخي محمد كانت تستعد لامتحانات نهاية الفصل الدراسي ونهاية دراستها في الجامعة لذلك فقد حرص محمد على التردد على منزلهم (منزل أهلها) في فترات متقاربة لينظر إذا كان يلزمها بعض العون في الدراسة. وقد صلى العصر في المسجد القريب، ثم انطلق إلى بيتهم طرق الباب فخرج أحد إخوتها ليفتح الباب لاستقباله ثم أدخله البيت، حضر أبوها وأمها وأحسنوا استقباله ثم حضرت هي الأخرى، ومعها كتبها وجلست على الكرسي المجاور.

أمها قامت لتحضير الشاي وأبوها ظل جالساً وبدأت تسأل في موضوعات الدراسة ومحمد يجيبها حتى أذان المغرب. قام يصلي هو ووالدها وهي وأمها يصلين من ورائهما، ثم جلس ليكمل بعض الشرح، بعد حوالي نصف ساعة قال عليّ أن أغادر عائداً للبيت، قالت: أليس الوقت مبكراً بعد، قال: لا فأنتم تعرفون أن الوضع غير مستقر والبلد أصبحت الآن مثل مدينة الأشباح، لا رائح ولا غاديَ، وعلي أن أصل البيت قبل العشاء، لئلا نتورط في إحدى المشاكل مع الجنود أو المستوطنين أو أحد أبناء الحرام.

دفعته بيده في ركبته وكأنها تقول له علام الاستعجال؟ فقال أبوها: صدقت يا محمد وكلامك عين الصواب، كان محمد قد توقف للمغادرة قائلاً: السلام عليكم، فوقف الرجل يودعه حتى الباب وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته مع السلامة، خرج محمد من البيت وقد كان الظلام يعم المكان فانطلق في طريق العودة لشقته، سار في طريق موحش ليس فيه سواه من الأحياء، سوى بعض القطط المشردة والكلاب الضالة في تلك الساعة المبكرة من المساء، كل المحال التجارية مغلقة وكل الخلق قد استتروا في بيوتهم خشية المشاكل ووجع الرأس، حث محمد خطاه عائداً للبيت دون كثير من الالتفاتات والبحث مما يعيق الوصول إلى البيت.

عاد إبراهيم إلى البيت قُبيل الساعة العاشرة، بعد دخوله الغرفة سألته، كيف كان الأمر؟ قال: ابتلعوا الطعم، ويبدو أننا نجحنا مائة بالمائة، قلت: ماذا حدث؟ قال: ذهبت وانتظرت وأظهرت القلق والتوتر ولاحظت أن هناك مراقبة شديدة عليّ، وعلى المكان وحتى أن السيارات مغلقة كانت تقف غير بعيد يبدو أن فيها قوات خاصة للانقضاض على المكان لو حدث فيه شيء، ولما لم يحدث عدت دون أن يعترضني أحد، ولا بد أنهم متأكدون أننا لا نعرف شيئاً عن حسن.

دخلت أمي الغرفة وهي تقول، ألا تريدون أن نتناول العشاء، وكانت تحمل صينية الطعام وتضعها على الطاولة قائلة: السلام عليك، قلنا: عليكم السلام، جلست على حافة سرير إبراهيم ونحن نتقدم لتناول الطعام، قالت: والله يا إبراهيم لقد رأيت لك عروسة مثل القمر وسآخذك غداً لتراها عند أهلها، رفع إبراهيم يده عن الطعام: ماذا تقولين؟ قلت: مثلما سمعت غداً صل العصر وتعال على الفور لتأخذني إلى بيت "أبو حسين" لترى ابنتهم سلوى، بنت مثل القمر خلقاً وديناً، وكل ما تريد وتتمنى، قال: يا عمتي...يا عمتي ألم أقل لك...قاطعته قائلة: بلا يا عمتي بلا يا غيره، انتهى الأمر وأنت عارف أن خطيبة محمد سوف تنهي دراستها خلال أسبوع أو أسبوعين، وسنعقد قرانكما معاً مثلما فعلنا مع محمود وحسن، أوفر وأسرع وأخف، قال: يا عمتي قلت لك من قبل أنني لن أتزوج قبل أن أتخرج، قالت: بقي لك سنة في التخرج ولن أصبر عليك سنة ستتزوج ستتزوج، فقط لك الحق في اختيار العروس،أما أن تتزوج أو لا فليس لك الحق في ذلك ولا تنس أن تأتي غداً بعد العصر فوراً.

سكت سكوت المغلوب على أمره، فقامت أمي وهي تحمل صينية الطعام، جلس في سريره دون كلام بعض الوقت ثم قفز منادياً يا عمتي يا عمتي، خرجت من غرفتها قادمة وهي تقول: ما بالك يا إبراهيم؟ قال: تعالي أريد أن أقول لك شيئاً، جاءت وجلست إلى جواره قائلة: ماذا تريد؟ قال: لن آتي غداً بعد العصر ولن نذهب لدار "أبو حسين" ولن أتزوج ابنته سلوى. نظرت إليه وهي في قمة الدهشة والاستغراب، فليس هذا إبراهيم الذي يتحدث وزمجرت قائلة: ماذا تقول؟ لا لزوم لذلك يا عمتي، قلت: ماذا يعني ذلك هل تريد أن تكسر كلمتي؟ ولا تسمع كلامي؟ ولا تتزوج الآن قال: لا لا سأتزوج يا عمتي كما تريدين وقتما تريدين.

صرخت قائلاً: ألم أقل لك أنه يحب وانه واضع عينه على فتاة محددة نظرت إلي أمي بازدراء وهي تقول: قلت لك اسكت ولا تتدخل، قال: الحق يا عمتي أن في كلامه شيئاً صحيحاً ولكن الأمور ليس بالضبط كما يقول.

قالت وقد ضاقت ذرعاً: أنا لا أفهم شيئاً هل ممكن أن توضح لي ماذا تريد؟ خفض رأسه وهو يقول أريد أن أتزوج مريم يا عمتي قلت: من مريم؟ قال: نعم ابنة عمي مريم، قالت: مريم، قال: نعم مريم وهل سأجد من هي أفضل منها، وهل توافقون على زواجها مني، ترقرقت الدموع في عينيها وقالت: وهل سنجد من هو خير منك يا إبراهيم!! دعني أذهب لأرى مريم ومحموداً وحسناً، وقامت لتخرج فقلت: وأنا لا تريدين رأيي؟ قالت: لا، أنت لا أريد رأيك في هذا الأمر، لأنه صاحبك الروح بالروح ورأيك معروف.

ضحكت وقلت له: مبروك يا إبراهيم، فطأطأ رأسه قائلاً: الله يبارك فيك يا أحمد لكن لنرى رأي الآخرين.

خرجت أمي فنظر إلي وقال: والله لا أدري ماذا أفعل نحن في واد وأمك في واد، ولا أريد أن أغضبها وأخشى أن أورط مريم معي ثم أسجن أو... توقف صامتاً فقلت: أكمل أو ماذا؟ هل تخاف أن تقتل؟ قال سريعاً: لا لا، لكن من يدري ما تخفي لنا الأقدار وما تلد لنا الأيام.

عادت أمي بعد غياب ومحمود وحسن معها وهم يقولون مبروك يا إبراهيم مبروك واستطردت أمي قائلة، لولا أن الدنيا منتصف الليل لزغردت ففرحتي فرحتان لك ولمريم، ولكن غداً إن شاء الله نفعل الواجب والمطلوب ثم نادت: مريم مريم تعالي يا مريم، ولما لم تأت مريم قامت لتحضرها ورجعت وهي تسحبها سحباً ومريم تتلوى حياءً محاولة إخفاء وجهها حتى دخلت الغرفة فدفعتها أمي قائلة: اجلسي بجوار خطيبك ابن عمك، فجلست والحياء يتفجر من وجهها ومن وجهه ولا ينظر أحد للآخر.

فتجرأ إبراهيم سائلاً أمي: هل مريم موافقة أم أنك أرغمتها يا عمتي، فردت أمي: أرغمتها!! ولماذا أرغمها؟ وهل ستجد واحداً أفضل منك؟!! احمر وجهه ثانية وهو يقول: أعوذ بالله وهل سأجد أنا من هي أفضل منها، والله يا عمتي إنني خجلان من أفضالكم عليّ، فردت أمي أفضالنا عليك، يا بني أنت رجل صنعت حياتك بيدك الله يبارك فيك، صمت قليلاً ثم قال: يا عمتي هل مريم موافقة فردت أمي طبعاً طبعاً موافقة، فقال أريد أن أسمع منها ذلك، فقالت أمي: قولي يا مريم هل أنت موافقة فهزت رأسها إيجاباً ثم خرجت وضحكاتنا تلاحقها.

جلسوا قليلاً يتحدثون عن ترتيبات الخطوبة والزواج ثم استأذنوا بالذهاب للنوم لاستيقاظ مبكرين للقيام بالواجبات الكثيرة، حين خرجوا همست ضاحكاً: انبسط يا عم ليوم يوم سعدك من أول النهار وأنت تحقق النجاحات وكل نجاح أكبر من الذي قبله، ضحك قائلاً: اللهم لا حسد تصبح على خير، فرددت تصبح على خير.

هنا في سجن غزة في نفس القسم الذي عاش فيه أخي محمود من قبل في غرفة مجاورة للتي عاش فيها، بعد أن أطفأ السجان الأضواء وذهب للنوم كان أحد السجناء قد تمدد على فرشته بجوار الباب وبيده قطعة صغيرة من مرآة يخرج طرفها من تحت الباب ليراقب تحركات السجان، اقترب السجان فدق بإصبعه ثلاث دقات على الأرض فلزم الجميع فراشهم، كأنهم نيام وسحب هو مرآته.

وصل السجان لباب الغرفة وأضاء مصباح اليد الذي يحمله في الغرفة يتفحص الأوضاع وجد الجميع نياماً فواصل سيره ليتفحص الغرف الأخرى ثم عاد راجعاً بعد أن أتم جولته ماراً بالباب حتى وصل إلى كرسيه في طرف القسم وجلس عليه.

أخرج ذلك السجين طرف مرآته من جديد، نظر فيها ثم قال هامساً هيا مشيراً بيده فقام ثلاثة من السجناء ودخلوا الحمام وبيد أحدهم نصلة منشار حديد يلف طرفها بقطعة قماش كي يتمكن من الإمساك بها جيداً وعلا على ظهر صاحبه وبدأ يقص القضيب الحديدي من جديد طرق الشاب المستلقي على الأرض ثلاث طرقات فخرجوا مسرعين كل إلى فراشه، جال السجان جولته ثم عاد إلى كرسيه فعاودوا إلى مواصلة عملهم .

قبيل أذان الفجر كانت المهمة قد أكملت فقد أصبحت نافذة الحرية مفتوحة. النعاس كان يغالب ذلك السجان الجالس على كرسيه مرتكزاً على الحائط وستة منا الشبان كانوا يعانقون باقي زملائهم ويتدلون من النافذة واحداً تلو الآخر، بعد أن وضعوا في فراشهم بعض الأدوات التي تبدو وكأنهم ينامون فيه، ومع انزلاق آخر واحد منهم خرج من النافذة ارتفع صوت الأذان للفجر الله أكبر الله أكبر، تسللوا خارجين من السجن بعد أن قفزوا من فوق الجدار الخارجي.

عند الساعة السادسة جاء السجانون لإضاءة الأنوار، ومكبر الصوت يعلن عن الاستعداد لإجراء عدد الصباح...جاء ضابط العدّ، فتحوا الغرفة، وبدأ العدّ، هناك نقص، أين الباقون؟ ابتسم الموجودون فاندفع إلى المرحاض، ثم خرج جارياً وعرقه يتصبب وقد رفع جهاز الاتصال يتحدث فيه، وإذا بصوت بوق الإنذار في السجن.

كان قد مضى على مغادرة الشبان ساعتان ونصف وقت كافٍ ليصلوا إلى آخر فلسطين وليس فقط أحد المخابئ الآمنة في أحد أحياء غزة أو ضواحيها، جاءت أعداد كبيرة من السجانين تفتش وتبحث وتخرب كل شيء في الغرف، وانطلق المئات بل الآلاف من جنود الاحتلال يضعون الحواجز ويوقفون الناس ويفحصون كل رائح وغاد، حالة واضحة من الإرباك والهستيريا.

مع حلول أذان العصر كانت كل الترتيبات أصبحت جاهزة، أرسلت أمي من يعتذر لدار "أبو حسين" أننا لن نذهب للخطوبة فالولد لا يريد سوى ابنة عمه، وأرسلت لخالتي، وبلغت معظم الجيران وأرسلتني لاشتري البقلاوة ولأخبر ولأحضر، بعد أذان العصر كانت الدار تموج بالخلق والزغاريد تنطلق والأغاني تتردد، والبقلاوة توزع...وبذلك أصبحت خطوبة إبراهيم لمريم معروفة ومعلنة أمام الخاصة والعامة ولإزالة الإحراج عن مريم أمام الجميع.

الفصل العشرون

شارع الوحدة بمدينة غزة عند مفرق شارع فهمي بك يكتظ بالناس والسيارات، فهذا المكان محور أساسي لحركة الآلاف من أهالي غزة ولحركة المئات من كبار الضباط والمسئولين من الأجهزة العسكرية والمدنية والاستخبارات.

الاحتلال في مبنى السرايا حيث مقر الاحتلال المركزي في قطاع غزة يمتلئ الشارع بالسيارات، وحيث لا توجد إشارات مرور تنظم حركة السير تتداخل وتحدث انسداداً مرورياً صعباً، توجب على الجميع التوقف، وتبدأ السيارات تتقدم سنتيمتراً بعد الآخر، تتقدم إحدى السيارات العسكرية يقودها قائد الشرطة العسكرية الإسرائيلية في قطاع غزة يتقدم بها رويداً رويدا وهو يركز ذراعه على نافذة السيارة وصوت المذياع في السيارة يبث أغنية عبرية بموسيقى شاذة.

من بين الجمع تقدم "محمد" أحد الشبان الذين هربوا من سجن غزة قبل أسابيع، وحين وصل للسيارة، سحب مسدسه وصوبه إلى رأس قائد الشرطة وقلبه، وأطلق عدة طلقات ثم اختفى بين الناس إلى جانب، حيث أخذته سيارة كانت بانتظاره وابتعدت من المكان.

قوات كبيرة من الجيش حاصرت المكان وبدأت باحتجاز الناس وإغلاق المحلات والضرب والركل والتخريب، وضباط المخابرات جاءوا للتحقيق في الحادث وجمع المعلومات التي لا تجدي نفعاً في عملية ضبط الفاعلين.

بعد أيام كانت سيارة جيب عسكرية تقوم بأعمال الدورية الروتينية على أحد الطرق الرئيسية في المدينة، تمشي رويداً رويداً، من وراء أحد القبور القريبة من الطريق أطل أحد الشبان ممن هربوا من السجن قبل أيام وقد سحب مفتاح القنبلة اليدوية وألقاها على السيارة فانفجرت بها، وانطلق هو منسحباً من المكان، بينما صراخ الجنود الجرحى يتعالى.

وبعد أيام عدة بنادق أوتوماتيكية فتحت نيرانها على إحدى السيارات العسكرية وانسحب حاملوها دون أي إشكاليات، وهذه الأخبار ملأت الأراضي المحتلة، وترددت في كل حارة وفي كل دار وكل مجلس، وكان الجميع معجبين بمستوى العمليات وجرأة منفذيها وسعداء بالإرباك الذي حل بقوات الاحتلال، وقد كان هذا موضوع إحدى الجلسات الكثيرة التي تجري في دارنا.

بعد أيام استيقظ القطاع على أخبار سيئة، فقد نجحت قوات الاحتلال ومخابراته في اقتناص اثنين من الشبان الذين هربوا من سجن غزة، ويعتقد أنهم وراء العمليات الأخيرة فصفتهم بآلاف الطلقات في كمين نصبته لهم في أحد الطرق الفرعية شمال مخيم البريج، وصلت الأخبار إلى الجامعة، فعلقنا الدراسة وخرجنا في مظاهرة، اصطدمت مع الجنود، وامتدت التظاهرات إلى أنحاء القطاع.

في (١٩٨٧/١٠/٦) بعد عدة أيام أخرى وبعيد أذان المغرب كانت مجموعة أخرى من أولئك الشبان وعدد من مساعديهم يتحركون بسياراتهم في أحد شوارع حي الشجاعية بغزة فهاجمتهم عدة سيارات مدنية وأطلقت عليهم الرصاص، ثم انضمت إليها قوات عسكرية كبيرة واشتبك معها الشبان حيث قتلوا أحد ضباط المخابرات الذي كان يشرف على العملية والكمين المنصوب للمجاهدين، واستشهد الشبان جميعاً، وقد فرض نظام حظر التجول على الحي.

جاء إبراهيم لي وأخبرني أنهم سيحشدون كل من يمكن حشده في صلاة الجمعة في مسجد عثمان في الشجاعية، ومن هناك ستخرج مظاهرة حاشدة تأبيناً للشهداء وإكراماً لذكراهم وحثني على الذهاب، أعداد ضخمة من الشبان تجمعوا في المسجد وأدّوا صلاة الجمعة فيه الخطبة والصلاة كانت عادية، حيث انتهت الصلاة وبدأ المصلون يخرجون من المسجد، تجمع عدد من النشطاء حول إبراهيم وبدأوا يهتفون: بالروح بالدم نفديك يا فلسطين... بالروح بالدم نفديك يا شهيد تجمع الناس من حولهم في مظاهرة عارمة جابت شوارع الشجاعية مروراً ببيوت أهل الشهداء من الشجاعية، وخيام العزاء التي نصبت عندها، وكلما وصلت إحدى تلك الأماكن توقفت المسيرة وارتفع الهتاف محيياً الشهداء وأهلهم.

بعد حوالي دقائق حضرت قوات كبيرة من الجيش حيث بدأت الصدامات معها بالحجارة والزجاجات الفارغة واستمرت حتى العصر، كانت تلك المرة الأولى التي تخرج فيها مظاهرات جماهيرية في القطاع بهذه الصورة، تأييداً للعمل المسلح، بشكل لا يحتمل التأويل، حتى أن أخي محمود حين اجتمعنا في الدار في مساء ذلك اليوم قال: أنتم مجانين، كيف تخرج مظاهرات بهذه الصورة تأييداً للعمل الفدائي المسلح وبشكل واضح.

أنهت خطيبة محمد دراستها وامتحاناتها وعاد محمد من غزة لترتيب إجراءات الزواج فكان قد استأجر شقة خاصة في رام الله، وجهزها بكل ما يلزم.

أمي أرادت حفل زواج بكل معنى الاحتفالات دون أي نقص، ولكن محمداً وإبراهيم أراداه حفلاً متواضعاً صغيراً وعائلياً فقط، واحتدم الصراع وتصاعدت الخلافات، محمد كان يريد الزواج في رام الله بحيث تذهب العائلة وأقرب الأقارب في سيارتين أو ثلاث إلى رام الله وتجري هناك المراسيم وتنتهي الأمور ببساطة، وإبراهيم أرادها بسيطة جداً في الدار للأقارب والجيران ولتفرح أمي وأخوتي وجاراتنا .

محمود وحسن لم يكن الأمر بالنسبة لهما مهما، والمهم أن يتفقوا فاطمة وتهاني وقفا إلى جانب أمي، وأنا ومريم وقفنا إلى جوار محمد وإبراهيم، وخلص الجميع أن يذهب وفد ليس كبيراً منا إلى رام الله، لعقد قران محمد على عروسه، وأن يتم إحضارها هي ومن يريد من أهلها إلى غزة حيث يتم عقد قران إبراهيم ومريم، ويتم حفل زفاف للنساء كما يردن، وفي اليوم التالي بإمكان محمد وعروسه السفر من جديد إلى رام الله، وقد جرت الأمور كما خطط لها دون أي إشكاليات أو معوقات.

كان عليّ قبل ذلك أن أرحل من غرفتنا المشتركة أنا وإبراهيم، حيث جهزت له ولعروسه، وأن أسكن مؤقتاً في غرفة الضيوف، وبعد الزواج أصبحت أعيش مع أمي في غرفتها، وبات واضحاً أن البيت لا يمكن أن يتسع لثلاثة أزواج من العائلات الشابة وأنا وأمي وقد اقترح الباش مهندس محمود بناء طابق ثان فوق الدار، وبدأ يوضح لنا أن ذلك من الناحية الهندسية ممكن مع شيء من الانتظار والجهد والغلبة علينا في الدار، وقد وافقه إبراهيم على أفكاره انها ممكنة التنفيذ وأنه قادر على تنفيذها، فاتفقوا على تأجيل الأمر حتى بعد شهرين من الزواج.

مساء الثلاثاء الثامن من ديسمبر من نفس العام (١٩٨٧) بينما كانت حافلة تقل عدداً من العمال الفلسطينيين العائدين من عملهم داخل الأراضي المحتلة عام (١٩٤٨) متجهة نحو الجنوب إلى مدينة غزة وقد تجاوزت حاجز ايرز، وعلى الاتجاه الآخر من الطريق كانت قاطرة ضخمة يقودها أحد الصهاينة، تنهب الأرض نهباً، تكاد تطير عن الأرض، متجهة نحو الشمال، وحين أصبحت قريبة من حافلة العمال، انحرفت نحوها فطحنتها طحناً، حيث قتلت عدداً من العمال وأصابت آخرين، نقل القتلى إلى بيوتهم، والجرحى للمستشفيات،وانتشر الخبر في أنحاء القطاع عن حادث متعمد لقتل العمال، فخرج الآلاف إلى الشوارع يتحدثون ويستفسرون.

أحد الشبان انسل إلى بيت الشيخ أحمد ليخبره بالأمر، سائلاً عن المقترح لفعله، ببساطة وجهه الشيخ لتفجير الوضع مع خروج الجنازات إلى مظاهرات عارمة وصدامات عنيفة مع قوات الاحتلال، فانطلق ذلك الشاب لترتيب ما يلزم ومع خروج الجنازات من جباليا إلى مخيم جباليا احتشدت وراءها جماهير عارمة، وبدأت تردد الهتافات والتكبير والتهليل، وجاءت قوات الاحتلال، حيث حدثت صدامات عنيفة، امتدت حتى منتصف الليل.

حين عاد إبراهيم ليلاً إلى الدار همس في أذني أن الجامعة الإسلامية غداً ستكون بؤرة المظاهرات، وأنهم قد رتبوا أمورهم، وعند ساعات الصباح أعلنت الإذاعة الإسرائيلية قرار الحاكم العسكري بغزة إغلاق الجامعة الإسلامية لمدة ثلاثة أيام، فانطلق إبراهيم بسيارته على المناطق المختلفة يخبر النشطاء تغيير الخطة، من تركيز المظاهرات في الجامعة لنقلها إلى كافة المناطق وأن على كل مجموعة من الناشطين أن تفجر الوضع في منطقتها.

وبالفعل فخلال نصف النهار الأول كان قطاع غزة من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه قد اشتعل ناراً في وجه المحتلين، حيث خرج عشرات الآلاف في كل المناطق في تظاهرات عنيفة اشتبكت مع قوات الاحتلال بعنف وغضب، وفي كل المناطق سقط عشرات الجرحى الذين كانوا ينقلون إلى المستشفيات أو العيادات القريبة. ومع سقوط كل جريح جديد يزداد التهاب مشاعر الجماهير ويزداد غضبها وعنفها وقد سقط في مخيم جباليا شهيد الانتفاضة الأول، الشهيد الأول "حاتم السيس" .

في اليوم الثاني الخميس تفجرت الأحداث منذ ساعات الصباح الباكرة حيث خرج عشرات الملثمين يسدون الطرق ويضعون المتاريس، ويوقفون حركة العمال المتوجهين إلى العمل داخل الأراضي المحتلة عام (٤٨)، فهبت قوات الاحتلال تفتح الطرق للعمال، وكلما فتحوا طريقاً من مكان أغلق في مكان آخر، وبدأ الشبان المتلثمون يتصدون لقوات الاحتلال رشقاً بالحجارة والزجاجات الفارغة، ومع ساعات الظهر خرجت المسيرات الحاشدة في كافة أنحاء القطاع، تحمل الأعلام الفلسطينية، تهتف لفلسطين وللشهداء وضد الاستيطان، وتواجه قوات الاحتلال.

رجل عجوز يدخل بيته مهرولاً، ويقتحم غرفة ابنه الذي لا يزال نائماً حتى بعد العاشرة صباحاً وأنت لا تزال نائماً...قم، يستند الشاب ينظر إلى والده مستغرباً ويفرك عينيه بيده متسائلاً في نفسه، من هذا الذي يوقظني لأشارك في المظاهرات والصدامات...أبي؟ أبي الذي كان منذ أيام يرتعد هلعاً حين كان يسمع أن هناك أحداثاً ما ضد الاحتلال، ويغلق علينا الباب ويمنعنا من الدخول!! ماذا جرى في هذا الكون حتى يحدث هذا التحول الخطير؟!!.

كانت مكبرات المسجد القريب تصدع بالنشيد: قسماً بالله الجبار لتعودي يا دار...باسم الدين على فلسطين ليفر الغدار...مشينا الدرب...خضنا الصعب...خطينا الحدود...مهما الشوك...درب المر لتعودي يا دار...لتعودي يا دار.

مئات الشبان عند كل مفترق طرق، أو عند كل طرف زقاق يتلثمون بكوفيات أحضروها معهم، أو حتى بأقمصتهم، يضعون المتاريس، ويشعلون الإطارات ويصادمون قوات الاحتلال، عيونهم تذرف الدمع، وأنوفهم تسيل دون انقطاع بفعل الغاز المدمع، فور سقوطها ليقذفوها مرة أخرى باتجاه جنود الاحتلال الذين قذفوها من قبل، ليذوقوا هم كذلك طعم الغاز ورائحته، يتدافعون بالعشرات ليحملوا أحدهم وقد سقط جريحاً بعد أن أصابته رصاصة غدر وصوت الرصاص من الجنود كما هي في معركة حقيقية وصراخ المتظاهرين هذا يحذر ذلك أو ثالث يطلب المساعدة من رابع، وأصوات مكبرات المسجد تصدع لبث روح الحماس في النفوس.

خرج إبراهيم بسيارته فناديت عليه: أين تأخذ السيارة والطرق كلها مسدودة بالمتاريس؟ ولن تستطيع المرور!! اذهب مشوارك سيراً على الأقدام، فنظر مبتسماً وقال: لا تقلق يا أحمد لا تقلق وانطلق واتبعته بنظري لأرى ما يفعل عند أول المتاريس، وما أن وصل ورآه المتظاهرون والمتمترسون حتى سارعوا يفتحون له الطريق، ويسحبون الإطارات المشتعلة بقضبان حديدية طويلة معقوفة الرأس، أعدوها من قبل لهذا الغرض، فتجاوز الحاجز وتجاوز الحاجز الآخر وكأنه قائد المعركة الأول، ولعله قد كان ذلك.

عند العصر من ذلك اليوم احتشدنا مجموعة من الشبان حوالي ثلاثين، فجاءت دورية من الجنود المحتلين، حوالي عشرين جندياً، توزعنا على الفور على رؤوس الأزقة وحين وصولهم إلى مركز الشارع بيننا، انهالت عليهم الحجارة كالمطر المنهمر، وبدأوا بإطلاق النار دون وعي أو إدراك وفي كل اتجاه.

خرج المئات من الأهالي رجالاً ونساءً على سماع صوت الرصاص وشارك الجميع في رجم المحتلين الذين أصابهم السعار، فأطلقوا النار دون حساب، سقط الجرحى واستمر قذف الحجارة كالمطر، فبدأ الجنود يفرون، بقي جندي لم يتمكن من الفرار، فقد كان يحمل على ظهره جهاز اللاسلكي الثقيل، يتصل به يطلب النجدة، حاول إطلاق المزيد من النار فلم يستطع، ولم تعد قدماه قادرتين على حمله، فانهار ساقطاً على الأرض وهو يستنجد بأمه (إيما) بالعبرية ومعناه أمي يا أماه.

عشرات سيارات الجيب تهرع للنجدة، تصطدم في طريقها بالمتظاهرين من كل زقاق وبعد جهد جهيد يصلون ويخلصون جنودهم من بين الحجارة الغاضبة، عشرات بل مئات من الجرحى يصلون إلى مستشفى دار الشفاء بعضهم بسيارات الإسعاف، وغالبيتهم بسيارات المواطنين التي تطير عن الطريق وأبوابها مفتوحة، والعشرات يتعلقون بها مرافقة للجريح والآلاف يحتشدون عند مدخل المستشفى للتبرع بالدم، يشمرون عن أذرعتهم والطواقم الطبية تدفعهم للوراء، وهم يصرخون أن هذا أكبر بكثير من طاقاتنا وقدرتنا في المستشفى على الاستيعاب لبحر هائج من الناس عند مدخل المستشفى تنشط الحركة بصورة أوتوماتيكية كلما أطلت إحدى السيارات تحمل جريحاً تطلق بوقها، وتشغل أضواءها.

هذا البحر الهائج يهتف بصوت واحد لفلسطين وللشهداء والجرحى، وضد الاحتلال وقادته وممارساته التي لا تخيف ولا تردع.

قوات ضخمة من الجنود تتقدم لمنطقة المستشفى وتبدأ بإطلاق كميات خيالية من الغاز المدمع والرصاص الحي على المتظاهرين وآلاف من الحجارة تنهال على الجنود، فيزداد إطلاق النار فيندفع الحشد للوراء إلى داخل المستشفى، وصوت واحدٌ يصدر هادراً: الله أكبر...الله أكبر خيبر خيبر يا يهود...جيش محمد سوف يعود...بسم الله، الله أكبر...بسم الله قد حانت خيبر فيندفع الجنود وراءهم لمدخل المستشفى فينقض الجميع مرة أخرى للأمام وقد تزود الشبان بالحجارة في أيديهم، وأمام ذلك السيل الهادر يتراجع جنود الاحتلال، فيتعثر أحدهم ويقع على الأرض، يهاجمونه ضرباً وركلاً، ويجردونه من سلاحه وملابسه العسكرية ويتركونه يجري هارباً بملابسه الداخلية، ثم يلقون سلاحه بعد أن حذر أحد العقلاء أن بقاء السلاح سيجعلهم يقتلون ألف واحد منا، ارموا لهم سلاحه.

روح الجماهير المعنوية تطير في السماء وهم يرون أن أسطورة الجيش الإسرائيلي تتحطم أمام حجارة الغضب الفلسطيني العارم، والقصص عن المواجهات والشهداء والجرحى والبطولات تتطاير إلى كل بيت ودار، تذكي في نفوس الشباب والفتيان روح التضحية والفداء.

في المساء التقى إبراهيم بالشيخ أحمد في منزل الشيخ، حيث أملاه الشيخ نص البيان الذي سيتم طبعه وتوزيعه في مساجد القطاع في صلاة الجمعة في اليوم التالي.

انطلق إبراهيم به حيث تم إعداد النسخة الأصلية، ثم بدأت المطبعة التي أخفيت في أحد المحلات الذي يبدو كمخزن لأدوات قديمة، تسحب منه آلاف النسخ، ترزم كل مجموعة منها وتغلق، ثم حملها إبراهيم في شنطة سيارته وانطلق إلى الأمام، على الطريق العام كانت تنتظره سيارة أخرى تسير أمامه كطليعة كي لا يقع فجأة في أحد الحواجز.

أضاءت السيارة الأولى أضواء خاصة موضوعة على الزجاج الخلفي فتراها السيارة الثانية، فتتوقف أو تستدير قبل أن تقع في الحاجز، وأما السيارة الأولى فليس فيها أي شيء ممنوع، لذا فلا مشكلة في وصولها للحاجز، انطلقت السيارتان توزعان المنشورات حيث ينزل إبراهيم رُزمة من المنشورات لأحد المساجد في كل منطقة يخفيها في إحدى زوايا المسجد وينطلق إلى الهدف التالي، فيأتي أحد الشبان بعد وقت ويأخذ المنشورات ليخفيها في مكان يعرفه حتى ظهر اليوم التالي.

مع صلاة الجمعة يوم (١٢/١١) وبينما ينهي المصلون صلاتهم، ويتوجهون لمغادرة المساجد يجدون كومات من المنشورات على الأرض، وقد وضع على كل قطعة من الحجارة فيتناول كل واحد نسخة ليقرأها، وهو منطلق إلى بيته، البيان كان موقعاً باسم حركة المقاومة الإسلامية ومعنوناً بـ (وأنا الغريق فما خوفي من الغرق) يستثير في الناس روح المقاومة والفداء ويحرضهم على المحتل الغاشم الظالم، التف الناس وبدأوا بالاحتشاد والتجمهر، وارتفع صوت الهاتفين فيزداد الحشد والتجمع، ويرفع الصوت الهادر ضد الاحتلال وممارساته وللفلسطينيين الفداء ضد اليهود واغتصابهم للمقدسات وعشرات الآلاف في كل منطقة يزحفون في شوارع المدن والمخيمات.

يومها انطلقنا في مظاهرة من تلك من مسجد المخيم، جابت المظاهرات شوارع المخيمثم زحفت إلى الطريق الرئيسي، وكلما اقتربت من الجنود وأطلقوا النار ازداد الناس حماساً واندفاعاً، فيضطر الجنود للتراجع، حتى اقترب الجمع من السرايا، هناك أخذ إطلاق النار يصبح كثيفاً بصورة غير عادية، وأطلت طائرة مروحية تحلق فوق المتظاهرين وتلقي بسحابات كبيرة من الغازات المدمعة فوق الجماهير، شعرت يومها أن معظم مدينة غزة ومخيمها شبه محرر حيث انحسر وجود قوات الاحتلال في مبنى السرايا وحوله فقط، وكذلك كان الحال في معظم القطاع في نفس الوقت.

اشتعل مخيم بلاطة بالقرب من مدينة نابلس، كان المخيم يعاني طيلة شهور من ممارسات جنود حرس الحدود الذين معظمهم من الدروز العاملين في هذا القطاع من الجنود والذين بدءوا بمضايقات ومعاكسات لفتيات ونساء الحي، وكان المخيم في حالة غليان دائم على مدار الشهور السابقة، فجاءت أحداث غزة لِتصبَّ ا لزيت على النار.

صلى الناس الجمعة ثم انطلقوا في شوارع المخيم في تظاهرة حاشدة توجت بصدامات عنيفة مع قوات الاحتلال، الصورة كذلك كانت في مخيم الدهيشة بالقرب من مدينة بيت لحم.

أغلقت كذلك جامعة بيرزيت بقرار عسكري، فاغتنم محمد وزوجته الفرصة وجاءوا لزيارتنا والمكوث في غزة لعدة أيام، وفي ظل أحوال الإضرابات العامة التي حلت بالمناطق فقد اغتنم الكثيرون الفرصة للتزاور، وقد جاءت أختي فاطمة ومعها ابنها وبنتها، واجتمعوا في البيت.

الدار أصبحت مليئة بالرجال والنساء والأولاد والبنات من نفس العائلة، وتذكرت حينها صورتنا ونحن أطفال، تضمنا غرفة واحدة صغيرة وتزيد علينا، وإذا بعائلتنا الصغيرة خلال سنوات أصبحت مثل الجيش...ذكرت ذلك مازحاً، فصرخت أمي: صلِّ على النبي، فنطق الجميع اللهم صل على سيدنا محمد.

وبينما كنا نتناول طعام الغداء فيما يشبه الوليمة، انفتح نقاش سياسي طويل حول جدوى ما يحدث، وهل يمكن أن يفيد وأنه سيعود على الناس بالضرر فقط، تباينت وجهات النظر بين مؤيد ومعارض أو متخوف وواثق من النتائج وأخي محمود كان يرى أن هذا شيء عبثي سرعان ما يزول بعد أن يفرغ الناس كبتهم وضغطهم وأنه لا يمكن أن يؤدي إلى شيء مفيد إبراهيم تحديداً كان على قناعة أن هذه موجة سرعان ما تنطفئ. في نشرة أخبار المساء في التلفزيون الإسرائيلي باللغة العربية جاءت تصريحات لرئيس الوزراء الإسرائيلي "اسحق شامير" يؤكد فيها أن الشعب الفلسطيني لن يحقق شيئاً بهذا العنف، وأن هذا العنف لن يجدي نفعاً وسيقابل بيد من حديد.

قال محمود موجهاً حديثه لإبراهيم: أرأيت صدق كلامي؟ فضحك إبراهيم وهو يقول: يا أخي الرجل تراجع تراجعه الأول، ألا ترى أنه قد بدأ يعترف بنا أننا الشعب الفلسطيني، هل انتبهت لذلك؟ وهل سبق أن سمعت من شامير أو غيره من قادة اليمين الإسرائيلي من يسمينا الشعب الفلسطيني؟ بالأمس فقط كان شامير يسمينا سكان المناطق أو سكان غزة ويهودا والسامرة، وأما الآن فاسمنا عنده الشعب الفلسطيني ونحن لم نبدأ بعد. تظاهر محمود بالانشغال بابنه كي لا يواصل الحوار أو يظهر الانهزام والتراجع.

أثناء الليل اجتمعت مجموعة من الرجال وعلى رأسهم الشيخ أحمد وقررت المواصة والاستمرار في التصعيد، وبدأ الشيخ أحمد يشرح وجهة نظره بأن هذا الشعب شعب أصيل وهو مستعد للتضحية والفداء بكل غالٍ ونفيس، وقد أثبت من قبل وسيثبت أنه أكثر استعداداً من كل ما هو متوقع منه بعشرات بل بمئات المرات. وأنه يطمع أن تتحول حالة التمرد والانتفاضة هذه إلى حالة دائمة، بحيث تصبح ديدن الشعب الفلسطيني وحياته اليومية فهي المحور الرئيسي في حياتنا، وكل شيء آخر يتكيف مع هذا المحور الرئيسي، ويكيف نفسه مع متطلباته: التعليم، العمل، الصحة وكل شئون الحياة الأخرى حتى تحقيق أهدافنا في دحر الاحتلال وتحرير الديار، وقال: نحن بدأنا على بركة الله بعد سنوات من العمل الصادق في التربية والإعداد لمثل هذه المرحلة، والآن قد بدأنا فيجب ألا نتوقف ويجب ألا نتراجع، نتقدم ولا نتراجع، نزيد من مستوى عملنا ولا ننقص، وتتطور مرحلة بعد مرحلة حتى تحقيق أهداف شعبنا، وسيثبت شعبنا أنه أهل للمهمة وأنه محل بركة الله.

حسن وحسين إخوان يؤديان صلاة العشاء في مسجد الحي، وهما في طريقهما للبيت يقول حسين لأخيه: لا شك بأن الأحداث غداً ستكون مثل اليوم، لا شك بأن المواجهات ستستمر وأن جرحى سيسقطون وأنه سيتم نقلهم إلى مستشفى الشفاء، وسيجتمع عدد هائل من الناس هناك، وستأتي قوات الاحتلال لتفريق الناس، فأجاب حسن مؤكداً ذلك، وقال حسن: إذاً لا بد أن نتجهز لذلك من الآن، سأل حسين باستغراب: وكيف؟ قال حسن: تعال معي، أحضر من البيت جالون بلاستيك كبير، وتوجه إلى محطة الوقود القريبة، واشترى بما معه من نقود بنزين، ثم عاد إلى تلك الساحة الخالية على أطراف الحارة، وجمع عدداً كبيراً من الزجاجات الفارغة، وبدأ يوزع البنزين فيها.

ملأ حوالي أربعين زجاجة، ثم بدأ يقتطع قطع قماش، وأخذ يلف كل شريحة منها ثم يدخلها في فتحة الزجاجة حتى تصل البنزين، وضع الزجاجات في صناديق وحمل هو صندوقاً وحسن صندوقاً آخر، وانطلقا عبر الطريق الجانبية إلى مستشفى دار الشفاء حيث أخفيا الصناديق تحت إحدى شجيرات الزيتون وعادا إلى البيت.

في الصباح اشتعلت المدينة وسقط الجرحى، ونقلوا إلى المستشفى (الشفاء) وبدأت الجماهير تتدفق إلى المستشفى وحناجرها تتفجر بالتكبير وبصياح: خيبر خيبر يا يهود...جيش محمد سوف يعود.

عند ساعات الظهر بدأت تتدفق قوات كبيرة من جنود الاحتلال لتحاصر منطقة المستشفى وتبدأ في مهاجمة المتظاهرين، حسين كان مرابطاً في المستشفى بانتظار قدوم جنود المحتلين، حين بدأت القوات تتجمع، بدأ يتسلل موزعاً الزجاجات إلى وعلى امتداد جدار المستشفى من الداخل وقد جهز برميلاً فارغاً قريباً من الجدار، تقدمت القوات وبدأت تشتبك مع المتظاهرين، نقل حسين البرميل ووضعه إلى جوار الجدار، وتناول إحدى الزجاجات وصعد على البرميل.

أشعل الفتيل ثم ألقى الزجاجة على إحدى سيارات الجيب التي يمترس بها الجنود من سيل الحجارة، انكسرت الزجاجة واشتعلت على سيارة الجيب، وعلا صراخ الجنود فيها وتراجعت القوات للوراء وهي تطلق النار إلى المكان الذي ألقيت منه الزجاجة، كان حسين قد نقل البرميل للوراء وبينما الجنود مشغولون بالحجارة، وبمكان إلقاء الزجاجة، تناول زجاجة ثانية صعد على البرميل، أشعل الفتيل وألقاها باتجاههم، وهكذا مرة من الأمام وأخرى من الخلف، وحجارة الحشد الهائل من الناس تنهال عليهم.

استمرت الاشتباكات حتى بعد غروب الشمس بوقت طويل، أربعون زجاجة حارقة ألقاها حسين وحده في هذا اليوم ودون تنسيق مع أحد سوى مساعدة حسن له أثناء الليل.

صبي أخذ المطرقة التي يستخدمها والده في أعماله وأحضر بعض المسامير، وأخذ يدق في بعض القطع الخشبية الصغيرة المسامير، ثم يثبت تلك الأخشاب في طريق تأتي منه سيارات الجيب العسكرية، حين تبدأ بمطاردة المتظاهرين، بحيث يكون الطرف المدبب من المسمار باتجاه الأعلى. وأخر كان يدق المسامير في جانب إحدى العلب ثم يدفنها في التراب لتعطب إطارات سيارة الاحتلال.

يجلسان من بعيد يرقبان نتائج عملهما، ثم تأتي سيارات الجيب مسرعة لتلتف من وراء المتظاهرين، مما أدى إلى عطب إطارات أربع منها وتتوقف وقد أغلقت الطريق على الأخريات فيضحك الصبيان ويقفزان طرباً وهما يرددان النشيد اليومي الذي عمّ كل القطاع: خيبر خيبر يا يهود...جيش محمد سوف يعود، ولا ينتبهان أن عليهما رفع المسامير التي ظلت وراءهما.

يمر إبراهيم بسيارته في المساء في ذلك الطريق الترابي، فيعطب إحدى إطارات سيارته، وينزل ليتفحص السبب، ويحضر الرافعة ويبدأ في معالجة الإطار المثقوب وهو ينفخ غضباً وغيظاً، وحين يرفع الإطار وينظر إلى المسمار المثبت في قطعة الخشب، ينفجر ضاحكاً وهو يتمتم: شعب جبار شعب جبار، بدل الإطار وطار إلى ورشة حسن، حيث طلب منه تجهيز الآلاف من قطع صغيرة من الأسلاك القوية، يقطع كل قطعة بطول ست سنتيمترات، ويثنيها من الوسط زاوية قائمة ثم يثبت كل قطعتين معاً من الوسط باللحام الكهربائي فتصبح القطعة مثل رجل الطائر كيفما يرميها ، كان أحد أطرافها الأربع للأعلى وهي ترتكز على الأرض بالأطراف الثلاثة الأخرى.

جهز حسن كمية كبيرة منها خلال ساعات، وقد دعا إليه إبراهيم ليأخذها منه وليعيده للبيت، ثم ينطلق ويوزعها على شتى النشطاء في المناطق ليلقوها على الطرق أمام سيارات جنود الاحتلال حين تنطلق لتطارد الملثمين.

في اليوم التالي أينما مرت ووقتما سرت كنت ترى سيارات جنود الاحتلال وقد مالت على أحد جوانبها، بعد انفجار أحد إطاراتها ووجد الجنود أنفسهم في مصيدة فلا يستطيعون التقدم لمطاردة الملثمين والمتظاهرين، ولا يستطيعون التراجع بسياراتهم ولا يستطيعون الاستمرار بهذا الحال، فيطلبون النجدة والتعزيزات التي تأتي، فإما أن تصطدم بمتظاهرين ومتاريس، أو تجد مصير كل من سارعت لنجدته.

كان يوماً ممتعاً ومضحكاً للغاية، وأنت ترى سياراتهم على تلك الحالة، ويبدو أن سياراتهم ذات الإطارات الكاوتشوكية قد تعطل معظمها أو خشوا على تعطل ما تبقى منها فأنزلوا الدبابات ذات الجنزير الحديدي ثقيلة الحركة، فرفع ذلك بروح الناس وهم يرون أن العدو يتخبط ويتصرف بهستيريا، فزاد إقدامهم واستعدادهم.

حين كنا أطفالاً ومع تأثيرات العمل الفدائي في ذلك الحين كانت لدينا لعبة خطيرة، حيث نحضر مفتاحاً من النوع الذي يكون فيه ثقب في آخره، نحشوه بمادة الكبريت الذي نأخذه من أعواد الثقاب، ثم نربط المفتاح بخيط طويل من الطرف البعيد عن الكبريت ونحضر مسماراً نربطه بطرف الخيط الآخر، ويدخل المسمار قليلاً في ثقب المفتاح برفق، ونمسك الخيط من الوسط نلوح بالمفتاح والمسمار مثبت فيه للأمام وللخلف عدة مرات حتى يصبح سريعاً، ثم نضرب ذلك بالحائط، حينها يُطرق المسمار بالجدار ويطرق الكبريت في ثقب المفتاح، فيشتعل الكبريت في ذلك الحيز الضيق ويحدث صوت انفجار قوي جداً.

هذه اللعبة كانت مشهورة لدى أولاد المخيم، كثيراً ما ضرب البعض على ممارسة تلك اللعبة من أولياء أمورهم، لخطورتها وإزعاجها، الفكرة كانت باختصار أن اشتعال كمية من الكبريت في حيز ضيق تحدث انفجاراً. انعدام السلاح النظيف الأمين في المناطق المحتلة، دفع إلى التفكير في تحضير عبوات بسيطة من مواد أولية متوفرة في متناول اليد.

ثلاثة من الشبان في مخيم جباليا أحدهم يعمل (مواسرجي) يعكفون على إعداد عبوات يدوية يعبئوها بالكبريت، وعبر ثقب كان قد جهز من قبل يدخلون شريطاً قابلاً للاشتعال، أعدت العشرات منها بحذر شديد، حيث أن أي خطأ أو احتكاك زائد قد يولد حرارة زائدة تؤدي إلى انفجار العبوة بيدي مجهزيها، ثم انطلقوا ليوزعوها على بعض زملائهم، ليكونوا مستعدين بها لمواجهات اليوم التالي.

في الصباح كالعادة التجمعات والمظاهرات والصدامات، ورشق الحجارة وإطلاق النار والغاز المسيل للدموع من قبل الجنود على المتظاهرين وزجاجات حارقة، وعدد من الشبان يتربصون من راء جدران أو شجيرات أو قبور بجانب الطرق، ومع مرور إحدى سيارات الدورية يُشعل أحدهم الشريط المتدلي من الماسورة ويقدمها باتجاه السيارة فتنفجر محدثة صوتاً مرعباً، وتصيب أحياناً بعض الجنود بجراح.

في إحدى الأمسيات للأيام الأولى للانتفاضة جاء لزيارة أخي محمود عدد من أصدقائه أعرف بعضهم ولا أعرف الكثير منهم، جلسوا في غرفة الضيوف، وكان شكل الوضع يوحي أن هذا شبه اجتماع تنظيمي أو ما شابه، جلسوا عدة ساعات يتناقشون ويتحدثون، ويعلو صوتهم أحياناً حيث إن هناك رأيين أحدهما مع المشاركة في الأحداث بكل قوة، والآخر ضد ذلك، وقد اتفقوا في النهاية على المشاركة ولكن بشرط تشكيل إطار وطني موحد مع الفصائل الوطنية الممثلة في منظمة التحرير والعمل معاً.

بعد أيام جاء جمع آخر من الضيوف، كان خليطاً من الفصائل الوطنية، نعرف بعضهم جلسوا طويلاً وهم يتناقشون ويتحاورون، يدعو إلى تأجيج الانتفاضة في وجه المحتلين، وقد أصبح معروفاً للجميع أن هناك بيانيين سينزلان واحد باسم القيادة الموحدة، والآخر باسم حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، ويحملان روح التصعيد والمواصلة، ولكن كل واحد منهما يطرح برنامجاً مختلفاً للفعاليات: الأول يدعو للإضراب العام يوم الأحد مثلاً، والثاني للإضراب يوم الاثنين الأول يدعو لاعتصامات يوم الأربعاء مثلاً، والثاني يدعو إلى الصوم الجماعي يوم الخميس تضامناً مع الجرحى.

ينزل كل بيان، النشطاء من كل جهة يوزعون بياناتهم محاولين نشره على أوسع نطاق، ويوم كل فعالية ينزل النشطاء ملثمين إلى الشوارع، لفرض التزام الجميع دون خروقات تظهر الضعف أو العجز أو اللامبالاة من المواطنين، الأمر الذي أحدث عدة مرات احتكاكات وخلافات ضبطت في اللحظة الأخيرة من التدحرج إلى مشاجرة وصدام وعلاج ما يطرأ فوراً أولاً بأول.

القيادة الموحدة ترى أنها ممثلة منظمة التحرير الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني، فهي صاحبة الحق في تحديد وتيرة التصعيد، وفرض برنامج الأحداث والفعاليات، وحماس ترى أنها فصيل فاعل وكبير ليس له تمثيله في منظمة التحرير، وهذا لا يمنعها حقها في فرض برنامج فعالياتها وتحديد الوتيرة التي تريدها، وفي النهاية استعدادية الشارع والمواطنين هي الحكم الفاصل.

كثيراً ما تفجرت نقاشات حادة في البيت بين أخي محمود وبين أحد إخوتي حسن أو محمد أو ابن عمي إبراهيم، حيث إن المعروف أن محمود من القيادة الموحدة، وحسن ومحمد وإبراهيم من الطرف الآخر، حيث يدور جدل عنيف حول شرعية عمل هذا الطرف أو شرعية محاولة طرف لتجاوز طرف آخر، وتجاهل وجوده وتأثيره، وكل طرف يسوق الشواهد على أنه صاحب الصلاحيات، وأنه من خطط للانتفاضة أو أنه من فجرها وطور فعالياتها وأداءها.

وفي كل أسبوع تمتد الانتفاضة لتشمل مناطق جديدة لم تكن قد دخلتها من قبل، وفي كل أسبوع تنضم إليها قطاعات جديدة من السكان، حتى بدأت تتحول بالفعل إلى نمط حياة، إلى العمود الفقري لنمط الفلسطيني اليومي، والذي بدأت باقي الفعاليات والأنشطة الحياتية اليومية تتكيف معه، بحيث تحافظ على استمراريتها لضرورتها للحياة وللمجتمع بصورة لا تتعارض مع الانتفاضة المستمرة.

الأولاد يذهبون لمدارسهم، يتعلمون في الفترة الصباحية، وفي الفترة المسائية تشتعل الشوارع وصدامات ومواجهات وتظاهرات، التجار يبيعون ويشترون ويمارسون عملهم في الفترة الصباحية وبعد الظهر يعم الإضراب العام، وهذا يخص القطاعات الأخرى في المجتمع.

كانت في الأشهر الأولى في مدينة الخليل التي تأخرت عن باقي المناطق في اجتماع حضره عدد من قادة التيار الإسلامي في المدينة، وكان من بين الحاضرين جمال وعبد الرحمن احتد النقاش بين مؤيد ومعارض للمشاركة وطال،

في النهاية تم الاتفاق على صيغة توفيقية بالبدء التدريجي للفعاليات وفقط بعدد محدود من المشاركين، ثم تكون عملية تقييم للنتائج، بدأت الفعاليات بالحجم المحدود من المشاركة، فلاقت قبولاً ومشاركة واسعين من عموم السكان، فاتخذ القرار بتشكيل لجنة طوارئ يقف على رأسها جمال لتطوير الفعاليات في اتجاه التصعيد والاستمرارية.

وخلال فترة ليست طويلة كانت الفعاليات قد تطورت والقوى الأخرى كلها قد دخلت الميدان، قطاعات واسعة من الشعب كانت لا تزال لم تحسم أمرها بشأن الانتفاضة مثل قطاع العمال الذين يعملون داخل أراضي (٤٨) المحتلة، فهؤلاء مصلحتهم ورزق عيالهم يعتمد على الهدوء وعلى قدرتهم على التمكن من التوجه لعملهم، وعلى هذا القطاع خاصة أن يتكيف مع الانتفاضة كما تكيفت القطاعات الأخرى؛ لأنه له التزامات مع مشغليه من اليهود في الداخل.

مع تصاعد فعاليات الانتفاضة واستمراريتها وإزعاجها الواضح للاحتلال قرر وزير الدفاع الإسرائيلي "اسحق رابين" البدء بتطبيق سياسة تكسير العظام حيث أن إلقاء حجر على إحدى الدوريات من بين جمع من الناس، يجب أن يقابله عقاب عنيف على كل الجمع كي يتعلم هذا الجمع كيف يمنع من يريد فعل ذلك من بينه.

وبصورة تلقائية يقف شاب بين جمع من العمال عند مرور إحدى الدوريات يرشقها بأحد حجارته، فيتوقف الجنود ويبدأون بمهاجمة الجمع ضرباً وركلاً وفجأة زمجر الجمع هادراً وانحنى الجميع وبصورة جماعية أشبه بالحركة الآلية يلتقطون الحجارة ويقذفونها في وجه المعتدين، وإذا بهذا القطاع الذي كان متردداً يندمج في الانتفاضة ويحاول المزج بين المتناقضات، فيواصل البحث عن قوت أولاده ما أمكنه، ويشارك في هذه الملحمة الشعبية ما أمكنه المشاركة.

الفصل الحادي والعشرون

نظراً للاكتظاظ الكبير في الدار قررت العائلة بناء طابق ثان، وكانت المهمة بأساسها ملقاة على عاتق إبراهيم وعليّ أنا وحسن أن نساعده، وعلى محمود الإرشاد والإشراف الهندسي وإحضار ما يلزمنا من أدوات...وقد قررنا العمل رويداً رويداً وبصورة لا تشل الحياة في الدار، إذ ليس لنا مكان آخر نذهب للعيش فيه.

حدد لنا محمود أماكن للحفر حيث حفرنا بجوار الجدارن وتحت أساسها حفرة كل أربعة أمتار تقريباً كنا نحفر الحفرة، ويكون إبراهيم قد جهز أسياخاً من الحديد على صورة قفص فور انتهاء الحفرة يضع فيها ذلك القفص ونكون قد جهزنا الباطون حيث نقوم بصبه في الحفرة بعد أن يكون إبراهيم قد أخرج من ذلك القفص أسياجاً رأسية وبذلك تمتلئ الحفرة بالباطون بدلاً من الرمل وتمثل إحدى قواعد البناء التي ستحمل الطابق الثاني...بعد يوم يقوم إبراهيم بتجهيز الحديد لعامود الباطون، ويجهز طوبار الخشب، ويثبته في الجدار على الجدار من الخارج، ثم نصب الباطون فيه على ارتفاع أربعة أمتار، في اليوم التالي نفك الخشب ونبدأ بالعمل في القاعدة الثانية، ثم العامود الثاني، وهكذا حتى أنجزنا جميع الأعمدة أربعة وعشرين عاموداً.

استعار محمود كمية من الأخشاب ومواسير الدعم من أصدقائه المقاولين بما يكفي لسقف نصف الدار، وبدأ إبراهيم بتجهيز الطوبار لنصف السقف، بعد أن أزلنا السقف الإسبستي القديم ثم بدأ بمساعدة حسن على تجهيز التسليح الحديدي للسقف مع ترك الزيادات له ليتم وصلها بالجزء الآخر من سقف الدار، الذي سيتم إنجازه لاحقاً ومحمود يشرف عليها، وأنا العامل تحت يديهما ثم استعار محمود خلاطة من أحد المقاولين وأحضروا الإسمنت والرمل والحصى وجاء شباب آخرون من أصدقائنا وجيراننا ليساعدونا حيث أنجزنا تلك المهمة.

في أحد أيام الجمعة قبيل أذان الظهر أنجزنا المهمة، وذهبنا نتجهز للصلاة على اتفاق أن يرجع الجميع للغداء. ظلت العائلة تعيش في ظروف استثنائية أسبوعين في نصف الدار الغربي حتى جف الباطون في النصف الشرقي، وفككنا الأخشاب، وبدأ إبراهيم يكمل الجدران القديمة حتى السقف، ثم يقصرها هي والسقف وكلما جهزت إحدى الغرف عاد صاحبها إليها حتى انتقلت كل العائلة إلى النصف الشرقي وشرعنا بالعمل لإنجاز النصف الغربي.

خلال ثلاثة أسابيع تم إنجازه وبقيت بعض الترتيبات التي تخص رفع الأرضيات وبلاطها...والذي بدأ العمل فيها متزامناً مع بدء العمل في رفع الأعمدة وبناء الجدران الخارجية في الطابق الثاني. كان واضحاً أن علينا أن نجعل مستوى النوافذ مرتفعاً جداً في الطابق الثاني وأعلى من مستوى الرؤوس كيلا تكشف دور الجيران.

كانت فعاليات الانتفاضة تزداد حدة والتهاباً ورغم انشغالنا الكبير بالعمل في الدار، إلا أننا حافظنا على دورنا في تلك الفعاليات، فقد كنت أشارك بين الحين والآخر في الصدامات والمواجهات ضد قوات جيش الاحتلال وكان واضحاً أن محمود وإبراهيم لازالا يمارسان دورهما القيادي البارز كلٌ في تنظيمه، خاصة في قضايا التنظيم للفعاليت والتوجيه والمنشورات وحل ما يطرأ من مشاكل، ويبدو أن القادة الإسرائيليين بعد أن رأوا أن مجرد القمع غير كافٍ لوقف الانتفاضة، التي بدا واضحاً أنها أخذت تتحول إلى ظاهرة مستديمة ومزمنة، قرروا افتتاح معتقل النقب الذي يتسع لعشرات الآلاف من المعتقلين، وجعله تحت مسئولية الجيش مباشرة، بعد أن امتلأت السجون العادية.

وبالفعل فقد أعد الجيش مساحات واسعة في النقب أحاطها بالأسلاك الشائكة والأبراج للحراسة وبدأت حملة اعتقالات واسعة لجمع كل الناشطين أو من يشتبه بدورهم المباشر أو غير المباشر في إذكاء روح الانتفاضة واستمراريتها وإلقائهم في المعتقل.

من الأفواج الأولى للمعتقلين كان أخي محمود وابن عمي إبراهيم، حيث جاءت قوات كبيرة داهمت البيت ليلاً، واعتقلتهما بين صرخات أمي وزوجتيهما والصغار في الدار، صرخات خوف أو غضب أو ارتباك، وفرضوا عليهما فوراً السجن الإداري لمدة ستة أشهر دون محاكمة وبقرار من الحاكم العسكري للمنطقة.

الفوج الأول وصل للمعتقل الذي لازال مجرد مساحات واسعة من الأرض تحيط به الأسلاك الشائكة وتنتشر حولها أبراج الحراسة. استقبلوا بحفاوة بالغة من الضرب والركل والإذلال بفرض الجلوس متربعين على الأرض، والأيدي مشبكة فوق الرأس المطأطئة مع الضرب والركل والشتائم، ثم طلبت من مجموعات منهم النهوض لنصب الخيام العسكرية الكبيرة، ثم شُرع بتسليم كل واحد أربع بطانيات وتوزيعهم على الخيام، في كل خيمة حوالي عشرون معتقلاً وبدأ المعتقلون يتدفقون إلى المعتقل في كل ساعة، المئات ليلاً ونهاراً دون توقف، ومع قدوم كل فوج جديد نفس الاستقبال بالحفاوة والتكريم.

العدد كان يجري أربع مرات في اليوم. يعلن أحد الجنود العدد بمكبر الصوت وعلى الجميع الخروج من الخيام والجلوس في الساحة الواسعة أمام القسم متربعين بصورة منتظمة وفق الأرقام التي أعطيت لهم، ويبدأ العدّ، يقول الضابط الرقم ويقول الأسير اسمه أو يقول الضابط رقم الأول الذي يجب أن يجيب بنعم ثم يبدأ الثاني بقول رقمه وهكذا، وإذا حدث أي خلل تم البدء من جديد، ساعة، ساعتان ثلاث يستمر العدد أحياناً والجمع جلوس على الأرض والبنادق من وراء الأسلاك الشائكة موجهة إليهم والجنود على أبراج الحراسة يوجهون فوهات رشاشاتهم الثقيلة نحو الجمع، وحول الجمع عشرات الجنود يحملون الهراوات.

طعام الخمسة أو السبعة لا يكفي واحداً والملابس متسخة وغير كافية، وليست مناسبة حيث إن معظمها واسعة جداً يضطر الواحد من المعتقلين إلى ربطها بقطعة من القماش كي تثبت على وسطه، والمياه قليلة وشحيحة، الحمام مرة كل أسبوع، وخلال خمس دقائق يجب أن يكون قد أنهى، المراحيض صف متجاور من الأكشاك الخشبية الصغيرة مثبتة فوق حفرة طويلة كخندق، حيث لا يوجد صرف ولا مياه.

لا زيارات أهل، ولا رسائل، ومندوبو الصليب الأحمر الذين يأتون للزيارة لا يفيدون بشيء عملي سوى كتابة التقارير عن الوضع المأساوي من الناحية الإنسانية ورفعها للجهات العليا.

بدأ الأسرى خلال الأسابيع الأولى يحاولون الانتظام وترتيب صفوفهم في محاولة لتحسين ظروف حياتهم وفرض احترامهم على السجانين الأفظاظ. وعلى الفور ثارت مشكلة التمثيل الفصائلي حيث إن الفصائل الممثلة في منظمة التحرير فتح الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وغيرها من التنظيمات الأخرى اجتمعت واتفقت على عدم الإقرار بوجود تنظيمات إسلامية لا حماس ولا جهاد، وأن على الأفراد الذين يأتون للسجن العيش تحت مسئولية أحد تنظيمات منظمة التحرير فقط، ولا يمكنهم العيش بصورة مستقلة.

أعداد الأفراد التابعين لمنظمة التحرير أكبر بكثير، وكان واضحاً أن الأمر يفرض بالقوة وأن من يرفض قد يتعرض لما يكره من العنف والإرغام.كان على القلة من الإسلاميين قبول الأمر الواقع مؤقتاً والعيش بصمت حتى حين، وكان على إبراهيم العيش وفق تلك المعادلة...ينظر إلى محمود نظرات استنكار طويلة، يبتسم محمود رافعاً كفيه مشيراً بهما وكأنه يقول: ما العمل؟ ليس لديك خيار وعليك أن تسلم بالأمر الواقع بالعيش تحت مسئوليتي المباشرة فهز رأسه إبراهيم وكأنه يقول: مهلاً مهلاً...فإن لكل أجل كتاباً.

الصراع الحاد كان مع إدارة المعتقل حيث إن الظروف القاسية لا تسمح بالسكوت عليها وتوجب تحزماً سريعاً، ولكن أي صورة للاحتجاج أو الاعتراض تقابل على الفور بالقمع الشديد والعقابات الجماعية، فيجمع المعتقلون في الساحات جلوساً على الأرض لساعات طويلة ثم يأتي قائد المعتقل ببدلته العسكرية، يضع يديه على خاصرته مستعرضاً متبختراً يدك الأرض بقدميه مهدداً متوعداً باللغة العربية المكسرة.

محمد كان مستقراً في رام الله وكان عليّ أنا وأخي حسن القيام بأعباء العائلة كاملة خاصة إزاء أمي وزوجة أخي محمود وأبنائه وأختي مريم زوجة إبراهيم، وقد توقفت عملية إكمال البناء في الدار وتحولت الدار إلى واقع بئيس من بكاء أمي وزوجة محمود ومريم، إذا وضع الطعام انفجرت أمي باكية ولحقتها الأخريات فبكى الأطفال، ويبدأ حسن وأنا بمحاولة التهدئة وتطييب الخواطر و الدعوة للصبر وأن الفترة ليست طويلة، كلما احتاج أحد الأولاد شيئاً أو سأل أمه متى يعود أبي يا أماه؟ انفجرت أمه باكية ومن ثم كان عليّ أنا وحسن أن نهب للملمة الأوضاع وإعادة الاستقرار.

فجأة... ومرة واحدة وقع ما لم يكن بالحسبان، فقد جاءوا واعتقلوا "حسن" كذلك فوجدت نفسي أمام مأساة إنسانية لا أملك القدرة على احتمالها، حيث انضمت زوجة حسن وأبناؤه لجانب الأسى، وكان عليّ أن أحاول المواساة فأفلح أحياناً وأفقد أعصابي أحياناً أخرى، فأبدأ بالصراخ: ان هذا الحزن والبكاء لا مبرر له وهل أن ستة أشهر من السجن تساوي كل هذا العذاب والبكاء، ويبدو أن الصراخ عليهن كان أجدى لإنهاء الحزن أو لإخفائه حتى تدخل إحداهن غرفتها فلا أدري ما يكون حالها... ولكن بدأت حالة النواح والندب الجماعية تتقلص في الدار ويبدو أنهن قد تكيفن مع الواقع بعد مرور الشهرين الأولين.

بوصول حسن إلى النقب وصل معه المئات من المعتقلين من غزة والضفة، نشطاء من كل القوى والاتجاهات ولكن بات واضحاً أن عدد الإسلاميين يزداد بصورة واضحة، وقد بدأوا يشكلون قوة ملحوظة وواضحة، بعد أيام اجتمع عدد منهم وعلى رأسهم إبراهيم وحسن حيث قرروا وقف حالة الإلغاء لوجودهم كتجمع وفرض التعامل معهم كأفراد، فذهب عدد منهم إلى محمود وعدد من قياديي القوى الوطنية، أخبروهم أن عليهم التعامل معهم كقوة مستقلة لها كيانها وأن عليهم أن يخلوا لهم بعض الخيام ليتمكنوا من العيش معاً أسوة بباقي الفصائل الأخرى وليتمكنوا من مزاولة حياتهم بالصورة التي تناسبهم.

كان الجواب الرفض والتلويح باستخدام القوة وبات واضحاً أن الأمور تتصعد باتجاه الصدام بدأ هؤلاء الشباب يفرضون أموراً يريدونها على أرض الواقع مثل الصلاة الجماعية بإمام منهم، وخطيب الجمعة منهم وعقد جلسات جماعية، وبوصول أعداد جديدة من المعتقلين بينهم بعض الفتوات الذين رفضوا التسليم بالواقع اندلعت مشادات كلامية تطورت إلى مدافعات بالأيدي إلى لكمات وصفعات ثم ضرب بالحجارة ومواسير الخيام وقد وقع عدد من المصابين وجنود الاحتلال يتفرجون دون تدخل حتى انتهت المشاجرة، فدخلوا لسحب المصابين، وتقديم العلاج وأوصلوا ذلك للإعلام بصورة محرجة، فالمعتقلون الفلسطينيون يتشاجرون ويحطمون رؤوس بعضهم البعض والجلاد يداويهم ويقطب جروحهم.

لم تحل المشكلة وظل كل طرف متمسكاً برأيه وموقفه، ويبدو أن بعض الخلافات الشخصية مثل تلك التي كانت بين محمود و(إبراهيم وحسن) من جانب آخر كانت تعكس نفسها وتزيد الخلافات الفكرية والفصائلية حدة وعنفاً...واستمرت الأجواء متوترة من جانب على المستوى الداخلي بين فصائل منظمة التحرير من طرف والإسلاميين من طرف آخر، ومن الجانب الثاني بين مجموع المعتقلين وإدارة المعتقل التي تتعامل معهم بأبشع الصور، حدث صدام آخر لم يكن بحجم الصدام السابق وارتفع صوت العقلاء من الطرفين، أن هذا الحال لا يمكن أن يحتمل وأن يستمر ولا بد من حل يزيل التوتر، وعقدت الجلسات والحوارات، حيث تم تلبية طلبات الإسلاميين بالاعتراف بهم كقوة مستقلة لها الحق كما لأي فصيل آخر وخصصت لهم خيام خاصة.

الانتفاضة كانت تتواصل وتزداد حدة وصداماً وانتشرت خلال الأشهر الأولى لتغطي وجه الأرض الفلسطينية المحتلة كلها فلم تبق مدينة ولا قرية ولا مخيم ولا زقاق إلا وأخذ دوره وأخذت كل شريحة دورها في الفعاليات بما يتناسب مع مقدرتها وظروفها، وقد بدأت تختفي ظواهر الحشود المتظاهرة الضخمة، والتي أخذت تتحول إلى أعداد محددة في كل زقاق وشارع وحي وقرية تشعل الإطارات وتضع الحواجز والمتاريس، فإذا قدمت قوات الاحتلال بدأت عمليات رشق الحجارة والزجاجات الحارقة والعبوات الكبريتية التي اعتاد الفتيان على تسميتها (الأكواع)، لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال أن تمر إحدى الدوريات راجلة أو راكبة إلا وفتح معها صدامات عند رأس كل زقاق أو شارع أو مفرق تمر به.

إلقاء قنابل الغاز المسيل للدموع وإطلاق الرصاص الحي والمطاطي والبلاستيكي والاعتقالات وتكسير العظام من قبل قوات الاحتلال مستمر ومتصاعد وفعاليات المنتفضين تتزايد والتناسب بين الشبان والفتيات يتصاعد. وعند كل زقاق عندما يجتمع الفتية ويجدون وقتاً للحديث، يبدأ كل واحد منهم يظهر آثار الهراوة التي شجت رأسه وآثار الغرز لا تزال بارزة، ومن لم ينل أياً من تلك الأوسمة حاول التهرب بفتح موضوعات أخرى لحديث، أو اقتنص فرصة قدوم سيارة الدورية ليطير إليها وقد التهب حماساً يريد وساماً مثل باقي زملائه وأقرانه، فهو ليس أقل شجاعة، ولا رجولة من أي منهم.

كي تتمكن مخابرات الاحتلال من تحديد الناشطين والفاعلين في تحريك الأحداث فكانت تضطر إلى تشغيل عيونها، ودفعهم ليكونوا قريبين من أماكن الصدام والمواجهات وعند أبواب المساجد. بعض هؤلاء كانوا معروفين من قبل بسوء سمعتهم، وشك الناس فيهم، وقد كان البعض منهم يأتي للقيام بدوره بصورة مكشوفة ومفضوحة، وملفتة للنظر فيراه الشبان فينسحبون من المكان ثم يعودون ملثمين كيلا يعرفهم ويشخصهم، فينقل أسماءهم للمخابرات التي تأتي لاعتقالهم.

في إحدى المرات وبعد سقوط أحد الشهداء وحين أُخذ جسده الطاهر إلى المسجد للانطلاق بمسيرة دفنه، يجتمع حشدٌ هائلٌ من رجال ونساء وأطفال المخيم فيأتي أحد أولئك المشبوهين ويقف على زاوية الشارع المقابل بصورة تثير حفيظة الناس وتقلق النشطاء، فيبدأون بالانسحاب والعودة ملثمين والجمع يحتشد ويزداد، وإذا بأحد الشبان الملثمين يصرخ بالجمع لماذا نظل ساكتين من هؤلاء الخونة، وهم يراقبوننا ويرسلون أسماءنا للمخابرات فيأتي الجيش لاعتقالنا ونضطر للاختفاء أو التلثم (وضع اللثامات) يجب أن يختفوا وأن يخافوا هم، وصرخ بالجمع أن يهاجم ذلك المشبوه المعروف، ودون تردد تدفق الجمع وراء ذلك المشبوه يركلونه ويضربونه، وكادوا يقتلونه فخلصه من بين الأرجل أحد العقلاء صارخاً هل تريدون قتله؟ كفى وسحبه وقد تورمت كل أنحاء جسمه.

ظاهرة ضرب المشبوهين وما يُسمى (بقمعهم) انتشرت كثيراً حيث أن الكثيرين من هؤلاء اعتادوا على مراقبة المتظاهرين أو الملثمون وبصورة حمقاء ومكشوفة وكثيراً ما كان أحدهم يطارد مجموعة من الملثمين مسافات طويلة كي يتعرف عليهم حين يخلع الملثمين أقنعتهم، فكان المتظاهرون أو الملثمون يضربونه ضرباً مبرحاً وكثيراً ما كاد الأمر أن يصل إلى موت أحدهم.

أحد هؤلاء العملاء المعروفين كان يعمل مشرفاً إدارياً في مستشفى دار الشفاء حيث أن المستشفى أصلاً حكومي، أي تشرف عليه دائرة الصحة في الإدارة المدنية، وقد حرصوا حينها أن يوظفوا عملاءهم في مثل هذه الأماكن الحساسة.وقد كانت سيرة الرجل كريهة ومعروفة وعمالته واضحة، حيث رفع سماعة الهاتف مراراً لطلب قدوم الحاكم العسكري أو الجنود لاعتقال شخص مصاب(هذا قبل الانتفاضة).

حين بدأت الانتفاضة حرص هذا العميل على الاختفاء قليلاً حيث يكون الجمع حاشداً وغاضباً. وفي إحدى المرات وقد تجمع حشد هائل قدم عدد من الجرحى لاحظه أحد الشبان فصرخ مذكراً الناس بحقيقته، فانهال عليه الجمع بالحجارة ورجموه كإبليس، ثم انكب عليه الحشد ركلاً وضرباً بالأحذية والأيدي حتى تورم جسمه، ونجا من الناس بأعجوبة، حين داهمت المكان قوات كبيرة من جيش الاحتلال.

خفت حدة ظهور العملاء المشهورين قليلاً ولكن كلما لاح أحدهم ووقع تحت أيدي الحشود أذاقته ما عانته سنوات القهر من الاحتلال وعملائه. يبدو أن المخابرات قد بدأت تلجأ إلى تشغيل أذكى لعملائها، ولكن تجربة المنتفضين كانت تتطور بالمقابل.

فكثيراً ما ضبط أحد العملاء متلبساً وهو يسجل أسماء المتظاهرين، أو ضبط آخر وهو يصور المنتظمين بكاميرا صغيرة على شكل ولاعة أو ما شابه، أو ضبط آخر وهو يسجل خطبة الجمعة في أحد المساجد بأحد المسجلات الصغيرة، التي تزود المخابرات عملاءها بمثله لمثل هذه المهمات. فانهال الحشد على رأس هذا أو ذاك بالنعال، ولأن قوات الاحتلال بزيها الرسمي وخوذها وأسلحتها كانت تصطدم كلما تحركت بالمتظاهرين الذين يشلون حركتها وهي في طريقها لأحد الأهداف، حيث أنه كلما ظهرت دورية هاجمها الشباب وعطلوا تقدمها. فقد بدأت قوات الاحتلال بتطوير أساليب عملها، فقد ركب على زجاج السيارات بصورة عامة (أسلاك) شباك حديدي لمنع تحطم الزجاج، حيث يقيه ذلك الشبك من الحجارة الملقاة عليه، ثم بدأوا يستخدمون القوات الخاصة: وهم جنود يلبسون الزي المدني مثل أي فلسطيني يسير أحياناً مشياً على الأقدام وأحياناً يتحركون بسيارات ذات لوحات ترخيص محلية خاصة بهم، أو يصادرونها من أصحابها على الطرقات، ينطلقون بهذه الصورة أو تلك دون أن يشك بهم أحد وهم يخفون أسلحتهم، فإذا وصل أحد الملثمين أو الناشطين المتظاهرين سحبوا أسلحتهم وشهروها وهم يلقون القبض على ذلك الشخص، ثم أخذوا يطلقون النار على الأشخاص المحيطين ممن يتدخلون لنجدته، وتكون قوات عسكرية كبيرة قريبة منهم مثلاً في شارع قريب مواز تنطلق بسرعة إليهم لتؤازرهم وتخلصهم من أيدي وحجارة الحشود التي تسارع إلى المكان أحياناً أفراد هذه القوات كانوا يقتربون من المتظاهرين أو الملثمين ويطلقون النار عليهم لإصابتهم، وأحياناً بهدف القتل في بداية الأمر.

حققت تلك القوات أهدافها بالاعتقالات أو بالجرح والتصفية من ناحية، وكذلك بإثارة نزعة الخوف لدى العامة من ظاهرة الملثمين، ولكن لم يكن من الصعب بعد قليل من التجربة أن تعتاد الجماهير على ذلك، وتصبح لديها القدرة على اكتشافه.

وفي مرات عديدة تورط أفراد هذه القوات بين حشود هائلة أو بين أعداد كبيرة من الملثمين حيث أذاقوهم مرار الكأس الذي طالما أشربوه لهؤلاء الشباب وهذه الجماهير، وأحياناً كانت تحدث بعض الإرباكات حين تشك الجماهير في مجموعة من الملثمين من شبان الانتفاضة فتحاول مهاجمتهم فيضطرون للكشف عن هوياتهم الشخصية خشية أن ينالهم العقاب.

وقد سرت إشاعات واسعة لدى الجماهير أن بعض العملاء يشاركون في القوات الخاصة التي تهاجم الشباب، حيث نجح بعض المتظاهرين في أكثر من مرة حين هاجمه أفراد هذه القوات في نزع اللثام عن أحدهم، فعرفه أو عرفه الناس الذين هبوا لنجدته، لذا فقد زادت النقمة على العملاء فإذا ضبط أحدهم نال أضعاف سابقيه ممن ضبطوا من قبل.

أعداد المعتقلين في معتقل النقب زادت وبلغت بالآلاف، وأصبح المعتقل مقسماً إلى أقسام لها أرقام تعرف بها، وظلت سياسة إدارته على نفس الأسلوب من القمع والعنف، على أي شيء يتم استخدام العنف والضرب، ويغرق القسم المعني ببحر من الغاز المسيل للدموع، أو يأتي قائد المعتقل حيث يهدد ويتوعد ويرغي ويزبد.

في إحدى المرات طال وقت الجلوس في انتظار العدّ، حين جاء العدّ أخطأ الضباط عدة مرات، وكلما أخطأ عاد وبدأ من جديد، حتى تعب الجلوس، فحدثت ململة واضحة من الذي تحدث؟ لا أحد يجيب، من الذي تحدث؟ لا أحد يجيب لأنه لم يكن حديث من شخص محدد، توتر الجو وحشدت قوات كبيرة، وجاء قائد المعتقل يهدد ويتوعد ويتهم الموجودين بالجبن، وانه لا يوجد فيهم رجال، ثم يسأل من الذي تحدث؟ وقف أحد الشباب واقفاً صارخاً اعتبرني أنا الذي تحدثت، وليكن في علمك أننا كلنا رجال، وجنودك الجبناء فأنتم ترتعدون والسلاح بأيديكم، رفع قائد المعتقل سلاحه تجاه الشاب الذي لم يتردد لحظة واحدة ولم ترف له عين وظل واقفاً فأطلق عليه رصاصة واحدة بين عينيه فسقط شهيداً.

صوت الرصاصة وسقوط "أسعد" كان إشارة بدء لثورة عارمة في المعتقل، فقفز جميع الموجودين يلتقطون كل ما تقع عليه أيديهم فيقذفونه على جنود الاحتلال من حراس المعتقل الذين بدأوا بإطلاق النيران بغزارة والجنود من الأبراج فتحوا نيران رشاشاتهم الثقيلة.

أغرق المعتقل بالغاز، وبدأ المعتقلون باقتلاع الخيام، وهجموا على الأسلاك الشائكة التي تحيط بأقسام المعتقل يهزونها ويحاولون اقتلاعها، وبات واضحاً أن الأمور خرجت عن حدود سيطرة القوات المخصصة، فتم استدعاء قوات كبيرة من أحد المعسكرات العسكرية القريبة التي جاءت بالدبابات تحاصر المعتقل، وتنصب الرشاشات الثقيلة، خشية أن يفلح المعتقلون في اقتلاع الأسلاك الشائكة والإفلات من المعتقل، وبات واضحاً أن العنف لن يحل المشكلة.

وهنا بدأ قادة عسكريون كبار يحاولون فتح قناة حوار مع بعض القيادات من المعتقلين ليهدئوا الأوضاع وبدأت المفاوضات من جانب والعنف لا يزال مستمراً، حتى اتفق على إقالة ذلك القائد وتغيير منطق التعاون مع المعتقلين من أساسه، تغيير أسلوب العدّ، وجعله بصورة محترمة، تحسين الطعام شراء الكنتينة، حصانة المسئولين من التفتيشات، وفتح حرية تحرك وتجمع في المعتقل، فبدأ الوضع يهدأ ويستقر، وخلال أيام بدأ الوضع يتحسن في المعتقل تدريجيا، بدأ المعتقل يتحول إلى أكاديمية تدرس ثقافة وفنون الانتفاضة، في هذه الخيمة جلسة تدرس تاريخ القضية الفلسطينية، وفي الأخرى جلسة تدرس علوم الأمن وأساليب التحقيق، وفي الثالثة جلسة تدرس فقه الجهاد والشهادة، وفي الرابعة وفي الخامسة...هنا دورة محو أمية وهناك دورة في قواعد الخط العربي، يأتي الشاب إلى المعتقل أمياً فيخرج يجيد القراءة والكتابة خلال ستة أشهر من السجن الإداري مع عدد من الدورات في شتى المجالات التي تلزمه.

يجتمع عدد من الأصدقاء في هذه الحارة أو ذلك المسجد يتفقون على العمل حين يخرجون ويتعاهدون على مواصلة الانتفاضة وتطويرها، ولأن أكبر حشد للناشطين الفلسطينيين من كافة القوى الوطنية والإسلامية أصبح موجوداً في معتقل النقب، فقد بدأت مخابرات الاحتلال بالاهتمام بهذا التجمع من خلال دفع العشرات من عملائها إلى هذا التجمع، حيث تتظاهر باعتقالهم لسبب أو لآخر وزجهم في السجن، حيث يطلب منهم جمع المعلومات عن الناشطين ونواياهم وأقوالهم وأنشطتهم والتقرب منهم عسى أن يتم دمجهم في النشاط والفعاليات حين يخرجون من المعتقل، فيتم كشفها وإحباطها مبكراً.

بعض هؤلاء كان من الشخصيات المعروفة والمحروقة للنشطاء من القوى المختلفة وبعضهم كان غير معروف، وكأصحاب تجربة قرر المعتقلون بدء نشاط عمل أمني من المعتقل حيث يرصدون ويسجلون ويصنعون ويتابعون ويستجوبون...وقد تطورت الأمور إلى تحقيقات مع بعض هؤلاء العملاء أو المشبوهين وقد أفرط في مرات عديدة في استخدام العنف والضغط الجسدي الذي أودى أحياناً إلى حالات وفاة غير مقصودة، أو إلى أضرار جسدية لدى بعض من اخضعوا للتحقيق، ولكن رغم سلبيات هذه الظاهرة فقد كشفت الكثير من مخططات وبرامج المخابرات لضرب الانتفاضة، وأحياناً لتصفية بعض النشطاء جسدياً. والشيء المهم أن معتقل النقب الذي ضم عشرات الآلاف من المعتقلين تحول إلى أكاديمية حقيقية دخل إليه أفواج من الشباب، وتخرج منه أفواج كلها تدرس وتكتسب التجربة وتتبادل الخبرات.

بدأت ظاهرة مطاردة العملاء تمتد إلى شوارع الوطن حيث تشكلت مجموعات من كافة الفصائل بدأت تطارد المشهورين من هؤلاء العملاء وتعتقلهم أو تخطفهم، تأخذهم إلى البيارات أو إلى أماكن مهجورة نائية، تخضعهم للتحقيق طيلة أيام أحياناً تستخدم العنف وأحياناً حتى العنف المفرط، ثم تقوم بعض هذه المجموعات بقتل هؤلاء العملاء وإلقاء جثثهم على المزابل أو في الميادين العامة، ليتحقق عامل التخويف والردع، وأحياناً يؤتى بأحد العملاء إلى أحد الميادين العامة، حيث يحتشد الناس، يربط إلى أحد أعمدة الكهرباء، ويجلد أو تقطع يده أو رجله، أو تطلق عليه النار...ازدادت هذه الظاهرة وأصبحت مجال تنافس بين بعض المجموعات حيث برزت مظاهر مقززة من العنف ومثيرة للاشمئزاز.

لا شك بأن الخطوط الحمراء قد تداخلت في بعض الحالات، فتحت المبالغة في تفخيم بعض الصغائر، مما أوقع ظلماً في هذه القضية أو تلك ولكن بات واضحاً أن ظاهرة العمالة مع الاحتلال قد ضُعفت وضُربت بصورة واضحة حيث تحقق عامل الردع، فاختفى الكثيرون من العملاء وهربوا إلى الاحتلال، أو سافروا إلى الخارج.

ومن شدة الضغط على العملاء وهروب أعداد كبيرة منهم في بعض الحالات مع عائلاتهم فقد افتتحت مخابرات العدو مركزاً لتجميعهم في قطاع غزة في منطقة تسمى (الدهينية)، وفي مركز في الضفة الغربية يسمى (مخمه)...في كثير من الحالات لم تكن قوات الاحتلال تتدخل لحماية عملائها وهم يُقتلون أو يُعذبون، حيث أن تدخلها لذلك يجبرها للدخول إلى وسط التجمعات السكانية مما يعرضها للخطر، حيث ستنهال عليها الحجارة والزجاجات الحارقة والعبوات اليدوية التي بدأت تملأ الأزقة، وتتواجد بأيدي الفتيان في كل مكان، وهؤلاء العملاء جُندوا أصلاً لخدمة العدو وليس العكس.

أحياناً ولإنقاذ أحد العملاء الكبار (وهذه في حالات نادرة جداً) نزلت طائرة مروحية مع قوات لتخليصه وعائلته من داره قبل أن تداهمه الحشود الزاحفة، ولكن الظاهرة تقلصت والخوف من العملاء وتقاريرهم خفت حدته، والظواهر المكشوفة لحركتهم ومراقبتهم أخذت بالزوال والانتهاء. في المخيم كل يوم عائلات تحتفل بإطلاق سراح أبنائها من المعتقلات بعد قضاء محكوميتهم وعائلات أخرى تبكي وتعول لاعتقال أبنائها أثناء الليل، فالإفراجات والإعتقالات يومية لا تتوقف.

أطلق سراح محمود وإبراهيم، واحتفلنا بذلك وجاءنا المهنئون من الجيران والأقارب وعاد كل واحد منهما إلى مهامه في عمله أو دراسته وفي شغله ودوره في فعاليات الانتفاضة ولكن بمزيد من الحيطة والحذر، وعدنا لنكمل إتمام بناء الطابق الثاني...

فور إطلاق سراح إبراهيم أكثر "فايز" من التردد عليه وعلى دارنا وبدأ يلازم إبراهيم كظله، لا يكاد يفارقه طبعاً، نحن استغللنا ذلك جيداً في عدة اتجاهات فقد كنا نلقي عليه المهام الثقيلة والمتعبة في أعمال البناء في الدار من أعمال العتالة والنقل، وهو يحرص على إظهار التفاني، فيعمل بكل طاقته ونرتاح، وكان إبراهيم يسمعه بعض الكلام عن ضرورة الابتعاد عن الأحداث العنيفة من فعاليات الانتفاضة ليصل ذلك إلى المخابرات فيبتعدوا عن فكرة اعتقاله مرة أخرى، ولم يكن من الصعب علينا أن نرتب تملصاً منطقياً ومعقولاً لإبراهيم من ظله فايز،إذا أراد الذهاب لإنجاز مهمة هامة وحساسة، لا نريد أن يعرفها فايز.

تناقشت مع إبراهيم عدة مرات حول فايز وكيف يصح السكوت عليه بهذه الصورة بعد التأكد من خيانته وتعامله مع مخابرات الاحتلال فكان دوماً يدعوني إلى الاطمئنان وأن كل شيء في وقته ممتاز، وأنه لا يريد أن يحدث له شيء تحمله هو المخابرات مسئوليته، وأنه سيتم ترتيب شيء معقول له يبدو أنه أمر عادي، وقد كان لإبراهيم قدرة عالية على إظهار الأمور بصورة طبيعية وأن يخفي ما بداخله، وان يكتم انفعالاته، وأن يتنكر بصورة بعيدة حتى أن زوجته أختي مريم قلما أحست بتحركاته غير العادية أثناء قيامه بواجباته ومهامه من فعاليات الانتفاضة، رغم أنه كان يعتبر أحد الشخصيات المركزية في جماعته ويقع على كاهله عبئ كبير.

أمي كانت تحس بذلك بقلبها دون أن تضبط عليه مماسك وأدلة واضحة، فتأتي إليه بين الحين والآخر: يا إبراهيم يا إبراهيم كفاك كفاك، لا تتورط وتضيع نفسك وزوجتك وطفلك الذي تحمله زوجتك وقد اقترب ميعاد ولادته، فيضحك ويمازح ويهدئ مظهراً أنه لا يفعل شيئاً يدعو للقلق وأنه أهدأ شاب في المخيم، وأنه لن يعود إلى السجن، فتسكت

أمي حيث لا تتمكن من محاججته، وليس لديها أي دليل على صدق مخاوفها وهواجسها، وهو لديه قدرة عجيبة على التملص وتحويل الحديث إلى مزاح وضحك حيث يميع الأمور ويبدأ وجه مريم الذي كان عند بدء حديث أمي مصفراً، يتفصد عرقاً من الانفراج والابتسام حتى ينفجر ضحكها ويهدأ روعها.

أمي كانت مطمئنة من جهة أخي محمود أنه لن يتورط في قضايا خطيرة فهو كبير ومجرب وعاقل وقد يشارك في بعض الأمور، ولكنه لن يمسك الحجر بيديه، وهي تعرفه جيداً لذا فقلقها عليه كان قليلاً جداً، قلقها على حسن كان أكثر منه على محمود ولكنه أضعف بعشرات المرات منه على زوج ابنتها إبراهيم، أما عليّ فيبدو أنها لم تكن قلقة مطلقاً، فهي تعرف أن إقبالي على المشاركة في فعاليات الانتفاضة محدودٌ جداً، خاصة وأنني ليس لي أي انتماء سياسي أو فكري أما أخي محمد فقد كان بطبيعته هادئاً ومنشغلاً بعمله في جامعته بيرزيت وتحضيره لرسالة الماجستير.

تعبيرات قلقها كانت بانتظار عودة كل واحد منا إلى البيت ومراقبة مواعيد الخروج والعودة، خاصة التأخر في الليل، وكانت كثيراً ما تقوم بحملات تفتيش في غرفة محمود أو غرفة حسن وخاصة لغرفة إبراهيم، حيث تجمع نساءهم الثلاثة وتدخل الغرفة وهن برفقتها وتبدأ بتفتيش الأدراج والرفوف وتطلب من إحداهن قراءة كل ورقة خشية أن يكون فيها شيء ممنوع سقط من أحدهم، فيأتي جنود الاحتلال ومخابراته للتفتيش أو الاعتقال فتعثر على تلك الورقة فيقع المحظور.

لم تعثر في أي مرة على أي شيء وراء إبراهيم، فقد كان دقيقاً وينظف كل شيء وراءه جيداً ضبطت وراء محمود أوراقاً أحياناً مثل مسودة بيان للقيادة الموحدة، حين يعود إلى البيت تجري له (زفة) وتعقد له محكمة عسكرية.

في إحدى المرات رأيتها تُجري تفتيشاً شاملاً وجذرياً في سيارة إبراهيم، وكأنها عثرت على شيء ما، دخلت مثل قوة اقتحام عليه وهو يتناول طعامه، طردت زوجته من الغرفة وأغلقت الباب، وكان صوتها يعلو أحياناً بكلام عام يحمل معنى التقريع، ثم يخفت حين تتحدث عما ضبطته في سيارته، وكان واضحاً أنه يحاول استخدام طريقته المعتادة بتمييع الموقف بالمزاح والضحك ولكنه غير قادر على النجاح هذه المرة، ويبدو أنها ضبطته متلبساً بجريمة نكراء.

استمرت إجراءات التحقيق والمحاكمة المغلقة لإبراهيم ما يزيد على نصف ساعة وحين فُتح الباب وخرجت، استرقت النظر لأرى حالة إبراهيم فكان كمن انهال عليه عشرة محققين في واحدة من أشد جولات التحقيق قسوة من مسلخ التحقيق في سجن غزة المركزي، فابتسمت شامتاً فرد ذلك بنظرة غاضبة، كأنه يقول لي سأخرج ذلك على جلدك بدل جلد أمك...حاولت جاهداً معرفة ما ضبط، منه ومنها ومن مريم.

مريم لم تكن تعرف بحق، لأنها لو عرفت لما استطاعت إخفاء ذلك عني، ولكنه وأمي كانا يتعاملان معي بمنتهى المكر والسرية، ويزجرانني كلما نبشت الموضوع لأعرف ما حدث بعد سنوات عرفت أنها عثرت على رصاصة مسدس عيار (٩مم) على أرضية السيارة في منطقة جلوس السائق، فتأكدت أن لديه سلاحاً يخفيه، وهذا خطر ومصيبة، ولكن الأخطر الذي استحق تلك الإجراءات المشددة إهماله بسقوط تلك الرصاصة منه وبقاؤها هناك دون أن ينتبه لها ويزيلها.

مرت فترة طويلة وأحداث الانتفاضة تتوالى وتتصاعد وتستمر، وقد امتدت حتى شملت كل الوطن، وأصبح معروفاً أن اسم هذه الأحداث هو الانتفاضة، حتى أن هذا الاسم دخل كما هو في اللغات الأخرى، حين تستمع إلى نشرات الأخبار في الراديو أو التلفاز الإسرائيلي تتكرر كلمة الانتفاضة، وكذلك حين تستمع إلى نشرات الأخبار في المحطات الأجنبية.

جلس إبراهيم مرة مع فايز بحضوري، وبدأ يتحدث معه لإقناعه بتخفيف تردده علينا وتقليص علاقاته مع إبراهيم، لأنه يخشى أن يلتفت أحد العملاء لتلك العلاقة ويوصلها للمخابرات فتقوم باعتقالهما لشكهما في أنهما ينويان عمل شيء معين، فايز حاول تخفيف مخاوف إبراهيم وأنه لا داعي لها ولكن إبراهيم حشره في الزاوية وفرض عليه ذلك، وبالفعل فقد قلص فايز تردده على البيت لكنه لم ينقطع.

في أحد الأيام وقد حلت ذكرى الإسراء والمعراج، وقد كان بيان حماس الذي وزع مسبقاً قد دعا إلى فعاليات ومواجهات في هذا اليوم لإحياء ذكرى الإسراء للمسجد الأقصى المبارك والعروج منه إلى السماء، منذ الصباح بدأ الشبان يضعون الحواجز ويشعلون الإطارات ويلقون فيها بعض العبوات اليدوية الصغيرة لتصدر منها أصوات الانفجارات لإشاعة جو من الجدية على الإضراب الذي دعت إليه الحركة، ولاستفزاز قوات الاحتلال للمجيء بحثاً عن الانفجارات ليتم الصدام معها.وعند رؤوس عدد من الأزقة كان ينجح عدد من الملثمين.

حين جاءت قوات الاحتلال ألقت عليها الحجارة والزجاجات الحارقة، فبدأت بإطلاق النار، فألقيت عليها العديد من العبوات اليدوية، وحدثت حالة ارتباك كبيرة بين قوات الاحتلال التي كثفت نيرانها نحو المتظاهرين الذين كانوا يحسنون الاختفاء وراء السواتر والجدران.

سقط عدد من الجرحى وقتل يومها "فايز"، صرخ إبراهيم الذي كان بجواره لقد أصيب فايز، فتدفق نحوهما شبان آخرون، وحين تفحصوه تأكدوا أنه مات، فصرخ أحدهم لقد استشهد أصابته الرصاصة في رأسه، فأمرهم إبراهيم بحمل جثته بعيداً كيلا تذهب إلى المستشفى، حيث أنه كان يعرف أن قوات الاحتلال قد تطلع على التقارير الطبية، هاج المخيم وهيّج بقصد فخرجت الجماهير غاضبة، وحمل فايز إلى قبره والجماهير تهتف صارخة متوعدة، ولم يكن لدي شك أنه لم يقتل برصاص قوات الاحتلال، ولكني لم أكن أجرؤ على الحديث في ذلك مع إبراهيم، الذي لم يكن ليسمح لي بالحديث في ذلك بالقطع، ولكن العيون كانت تقول ما لا تريد الألسنة قوله.

تتالت قرارات الإغلاق للجامعات الفلسطينية الصادرة من الحكام العسكريين للمناطق بهدف منع تجمع تلك الأعداد الكبيرة من الطلاب التي يشكل تجمعها نقاط احتكاك وتفجيراً وإرهاقاً، وقد بات واضحاً أن الأمور ستطول وتطول.

ولكن لا بد للمسيرة العلمية أن تستمر، وتم البحث عن حل معقول، وقد وجدوا ذلك بتحويل قاعات الدراسة إلى المساجد والمؤسسات العامة، حيث حددت ا لجامعة الإسلامية مثلاً مكتباً لها ومن خلاله يتم الإعلان أن محاضرات المساق رقم كذا ستتم في مسجد العباس بمدينة غزة، ومحاضرات مساق كذا ستتم في مسجد فلسطين وتحدد اليوم والساعة، فيجتمع الطلاب في المسجد، ويأتي إليهم المحاضر، وهكذا استمرت المسيرة التعليمية بشيء من الصعوبة والمشاكل ولكنها تكيفت مع الواقع الجديد تكيف غيرها.

كان علينا أنا وإبراهيم أن نذهب للمحاضرات والامتحانات، وكان إبراهيم في عامه الأخير، وكان لا يزال أمامي عام آخر، رغم كل الإغلاقات والحصارات ومنع التجول إلا أن المسيرة استمرت وتخرج إبراهيم وحصل على شهادة البكالوريوس في تخصص (علوم الأحياء) وقدم أوراقه للعمل في وكالة الغوث، وانتظر قرار الموافقة.

أمي ضغطت عليه بكل قوتها للسفر للخارج ليقدم أوراقه إلى الوظيفة في السعودية أو في إحدى دول الخليج، فلم تجد إلا أذناً صماء واحدة ملئت بالطين والأخرى بالعجين، فقد كان حسم أمره أنه لن يغادر الوطن خاصة في هذه المرحلة الحاسمة والخطرة.

قلب أمي كان يقول لها إن هذا الشاب يجب أن يترك البلد لأن بقاءه فيها سيكون ثمنه باهظاً وكانت تصرح بذلك، وقد بدأت تغير أسلوبها معه، حيث أنها أمام إصراره على البقاء بدأت تتوسل إليه، وترجوه للسفر للخارج، ولو لعدة سنوات اثنتين أو ثلاثة على أقل اعتبار، ولا تجد إلا قراراً واحداً نهائياً وقاطعاً لن أخرج من البلد ولو للحظة واحدة.

محمد استمر في عمله في بيرزيت مع ما في ذلك من صعوبات، في معمل الكيمياء في كلية العلوم في جامعة بيرزيت، كان يراقب الطلاب وهم يقومون بعمل التجارب الكيميائية ويوجههم أحد أولئك الطلاب طالب هادئ الطبع، كريم الأخلاق حسن العشرة، يعمل بجد واجتهاد على إنجاز تجربته والنجاح فيها، فيثير انتباه محمد بصورة خاصة، يعجبه ذلك النشاط والجد.

ينهي الطالب عمله بنجاح، فيقف محمد إلى جواره ليتعرف عليه، حيث لاحظ أنه شاب متدين، ويثني على عمله واجتهاده، ويسأله أين تسكن وعن شركائه في السكن الطلابي، ويدعوه لزيارته في البيت وأنه مستعد لمساعدته في أي صعوبات يجدها في دراسته في مادة الكيمياء.

الفصل الثاني والعشرون

عادت أمي تضغط على إبراهيم ليخرج إلى الأردن، حيث يقدم أوراقه للسفارة السعودية أو أي سفارة عربية خليجية أخرى، حيث الأرجح أنه سيتم قبوله للوظيفة هناك، فيأخذ زوجته ويخرج للعمل بعيداً عن المشاكل والمخاطر التي تكمن له في كل زقاق في غزة، فكان يبتسم ويرد عليها: أن ذلك مستحيل فقد حسم أمره أنه لن يغادر غزة ولو عاش فيها على الخبز وحده. وانتظر رد وكالة الغوث على طلب الوظيفة الذي قدمه ليتم توظيفه في القطاع، وبعد حين جاء الرد سلباً، فعدد المتقدمين في تخصصه أكبر من عدد الأماكن الشاغرة، فلم يدركه الدور.

وجدت أمي الفرصة سانحة مرة أخرى للضغط عليه للسفر للخارج ولكنه ذكرها بأنه لديه حرفة البناء وأنه يكسب من خلالها الرزق الوفير، وأنه ليس في حاجة للوظيفة أصلاً، ويمكنه الآن بعد أن انتهى من الدراسة أن يوسع عمله ويطوره وسيدخل عليه ذلك رزقاً كبيراً جداً.

وقد وضعت مريم حملها الأول حيث أنجبت بنتاً أسماها إبراهيم "إسراء" وحين تساءلت عن سبب هذه التسمية قال: حتى تذكرني كلما رأيتها بواجبي تجاه أرض الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى، وبما أن الأولاد هم أحد أسباب تقاعس الناس عن الجهاد، فإن تسميتها إسراء يجعل هذاسبباً لدفعي لواجبي، بدلاً من أن تكون سبباً لتقاعسي، وقد ذكرني بتلك اللحظات الجميلة التي قضيناها أثناء رباطنا في المسجد الأقصى المبارك، حين هدد اليهود باقتحامه، وقد ترقرق الدمع في عينه.

في نفس الوقت واصلنا إتمام بناء الدار الطابق الثاني، حيث أنجزنا بناء الغرف وسقفناها بالإسبست، سقف الدار القديم الذي كان للطابق الأرضي من قبل، ولقد رأيت موقفاً لإبراهيم أدركت معه حب هذا الإنسان للناس من حوله، فحين كنا نسوي سقف الطابق الثاني كنا قد جعلنا ميل السقف كما كان من قبل باتجاه الغرب، وحين بدأنا وضع الإسبست، توقف إبراهيم عن العمل فجأة، وقال لا يصح لنا أن نعمل بهذه الصورة، تساءلت أي صورة؟ قال أن نجعل ميل السقف للغرب، قلت: لماذا؟ قال لأن ماء المطر الذي يتجمع فوق سقفنا سينزل فوق سقف الجيران، قلت: وماذا في ذلك؟ فقد كان هكذا من قبل، ضحك وقال: لا يا أحمد الوضع اختلف الآن، فمن قبل لم يكن سقفنا يرتفع عن سقف الجيران ثلاثة أمتار ونصف، وحين ينزل المطر غزيراً فإن الماء الذي ينزل على سقف الجيران من هذه المسافة سيكون صوته مزعجاً للغاية ولن يتمكنوا من العيش مع ذلك.

وجدت أن الكلام صحيحاً، تساءلت: ولكن ما العمل؟ قال نعيد العمل ونجعل ميل السقف للشرق، فينزل الماء على الشارع، وبدأ بهدم الجزء العلوي من الجدار الذي يزيل ذلك الميل، ثم بدأنا ببنائها من جديد بصورة عكسية، ثم وضعنا السقف، ووضعنا فوقه الحجارة الثقيلة، كي لا يطير من هبوب الريح.

خلال فترة قصيرة أنجزنا العمل في الدار وأصبحت الدار أربعَ شقق، لكل شقة شيء من الاستقلالية، عشت مع أمي في واحدة على أساس أن محمداً حين يعود من رام الله يسكن معنا فيها، وكل من محمود وحسن وإبراهيم استقر في إحدى الشقق الأخرى، فأصبح بإمكان كل واحدة من نسائهم العيش بحرية أكثر، فلا تظل طيلة النهار تلبس منديلها على رأسها لتغطي شعرها به، وتظل تشعر بالحرج من إخوة زوجها.

من خلال العمل مع إبراهيم في بناء البيت، تعلمت الكثير من فنون البناء، وبدأت مشاركته فاقترح عليّ أن انضم إليه في العمل، حيث خلال أشهر قليلة يمكن أن أصبح بنّاءً محترفاً، حيث سيعمل على تعليمي ويمكن أن نعمل معاً كشركاء، خاصة أن فرص الوظائف قليلة، فوجدت أن رأيه معقول، وليس هناك ما أخسره فبدأت أعمل معه في الورشات والمقاولات التي يأخذ على عاتقه إنجازها.

وقد بدأ عمله يتوسع، كان يعمل معنا عدد من العمال، الملفت للنظر أنه كثيراً ما كان يطلب منا إنجاز أجزاء معينة من العمل، ويقول إنه سيصل مشواراً سريعاً، يخرج من العمل ويركب سيارته وينطلق بها، فيغيب أوقاتاً طويلة أو قصيرة ثم يعود ليواصل العمل، وكنت أتساءل في نفسي أين يذهب ويترك عمله؟ وحين أسأله عن ذلك يقول: عمل، البحث عن عمل يا أحمد، فقبل إنهاء الورشة التي بأيدينا يجب أن تكون ورشة أخرى بانتظارنا، فأنظر في عينيه وأنا أؤكد أنه يكون في عمل من نوع آخر، (يبحث عن عمل من نوع آخر، ليس له علاقة بشغل البناء والإعمار).

في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، قرب مكان يسمى صرفند، يقع أحد معسكرات الجيش الإسرائيلي الكبرى، مئات الجنود يأتون للموقع في الصباح، ويغادرون في المساء إلى بيوتهم ينتظرون في مواقف السيارات مرور أي سيارة تنقلهم إلى بيوتهم ويشيرون بأيديهم للسيارات الرائحة والغادية على الطريق العام، كي تتوقف وتنقلهم في ذلك المساء البارد.

بعضهم يبدأ بالسير على جانب الطريق، وكلما اقتربت إحدى السيارات أشار إليها بعض السيارات تقل هذا الجندي أو ذاك، بضعة كيلومترات عند أول نقطة تفترق فيها أهدافهما وعليه أن يبحث عن وسيلة مواصلات أخرى تكمل له (التوصيلة).

على الطريق تنطلق سيارة سبارو بيضاء حديثة، تحمل لوحة ترخيص صفراء (إسرائيلية) يقودها شاب يبدو أنه من أصل أوروبي...أبيض البشرة، أشقر الشعر، أزرق العينيين، وإلى جواره يجلس شاب يبدو أنه من أصل عراقي، وفي الكرسي الخلفي يجلس شاب يبدو أنه من أصل يمني...المذياع في السيارة مفتوح على أغنية عبرية هادئة الموسيقى.

أحد الجنود أشار للسيارة بالتوقف بإلحاح، فتوقفت السيارة فيفتح الجندي بابها الخلفي ويلقي نفسه على الكرسي قائلاً للمسمية (باللغة العبرية لمسمية) فيرد عليه السائق لا بأس (بالعبرية بسيدر) وتنطلق السيارة من جديد بعد أن تقطع مسافة، يلتفت إلى الشاب الجالس إلى جوار السائق وقد شهر موساً صغيراً طالباً منه عدم إبداء أي حركة (بالعبرية شوم تنوعاه) ويقول للجالس على الكرسي الخلفي باللغة العربية: خذ بندقيته، فيأخذها منه، ويرتجف الجندي ويبدأ بالبكاء، وهو يستنجد بأمه (بالعبرية ايماما) ويسيل بوله ليبلل بنطاله.

فيبدأ محمد بالصراخ عليه أنتم تأتون لتقتلونا في غزة والضفة، وقد اغتصبتم أرضنا من قبل، هناك حين تكونون تشهرون السلاح وتطلقون الرصاص على الأطفال، تظنون أنفسكم رجالاً، وهنا تريد أمك وتبول في ثيابك. ويطلق عليه رصاصة واحدة في القلب، تنعطف السيارة في طريق جانبي، ينزل الشبان الثلاثة يخرجون أدوات حفر من السيارة ويحفرون حفرة ثم يدفنونه، بعد أن أخذوا سلاحه ومستنداته، صرخ أحدهم وهو ينظر في المستندات والسيارة تنطلق مسرعة تغادر المنطقة، يا ويلاه هذا الجندي من القوات الخاصة التابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، والتي تنفذ أخطر عمليات الكوماندو الخاصة جداً ومعه وسام شرف.

بعد أيام اختطفت نفس المجموعة جندياً آخر، واستولت منه على بندقية أخرى من نوع جاليلي أثناء عودتهما من قطاع غزة وبعد دفن الجندي في منطقة أخرى، وبينما هي تحاول اجتياز الأسلاك الحدودية التي تفصل قطاع غزة عن أراضي الداخل، لاحظها أحد الحراس فاتصل بالقوات التي تحرس المنطقة،وبدأت مطاردتها، أدت بعد قليل إلى اعتقال بعض أفرادها، وهرب آخرون واختفوا ثم هربوا عبر الحدود إلى مصر.

جرت تحقيقات وأدت إلى اعتقالات، ولما كان الجنديان وسلاحهما لا زالا مفقودين ولا أحد من المعتقلين يعرف مكانهما، فرض حظر التجول على قطاع غزة كاملاً، وبدأت حملة اعتقالات واسعة.

صفوف حماس لم يبق من عليه ظل من شك أنه ينتمي للحركة إلا وقد اعتقل وبالطبع فقد طالت الاعتقالات أخي حسن وابن عمي إبراهيم، لم يثبت عليهما شيء من التحقيقات فحولا إلى الاعتقال الإداري لمدة ثلاثة شهور، ونقلا إلى معتقل النقب الصحراوي.

بعد أيام اعتقل محمود كذلك إدارياً لمدة ثلاثة شهور، وهناك في النقب التقى بحسن وإبراهيم اللذين كان رأساهما يطاولان العنان ويدقان الأرض دقاً بأقدامهما، وهما ينظران إلى محمود الذي كثيراً ما تساءل مستنكراً: أين دوركم في المقاومة المسلحة؟!!

ومع أول فرصة للحديث على حدة قال له إبراهيم: الآن بدأ دورنا في المقاومة المسلحة يا محمود، وهذه البدايات وما سيأتي بعون الله سيتحدث عن نفسه فتمتم محمود بكلمات باكر باكر...فرد حسن ليس المهم متى، المهم أنها البداية، والمهم ما سيأتي، والآن دورك أنت لتجيب أين دوركم في القيام بالواجب، فضحك محمود قائلاً: لم تفعلوا شيئاً يذكر بعد، وتسأل عن دورنا، دورنا معروف يا حسن على مدار ثلاثين عاماً ونحن رواد العمل الفدائي المسلح، ونحن من فجر الثورة، ونحن من نفذ عشرات الآلاف من العمليات الفدائية فقاطعه إبراهيم نحن أبناء اليوم والمهم الآن من يأخذ الراية ويكون قادراً على حملها، ودفع ضريبتها، فرد محمود: صحيح صحيح وسنرى، وعلى كل حال فأهلاً وسهلاً بكم في خندق المقاومة، الآن تحتلون مواقعكم برضى واحترام.

قاطع حديثهم عدد من الشبان جاءوا إلى مكان وقوفهم إلى جوار تلك الخيمة وهم يلقون التحية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردوا السلام واستأذن محمود بالانصراف، ووقف الشبان يتعرفون، أنا إبراهيم من مخيم الشاطئ، أنا أخوكم ياسر من مخيم خانيونس، أنا أخوكم عماد من مخيم جباليا، وأنا محمود من مخيم البريج، وأنا عز الدين من الشجاعية، جلسوا وبدأوا الحديث عن تلك العمليات البطولية التي نفذها إخوانهم، وكيف أنها وضعت المحتلين أمام معادلات صعبة حيث أن جنوداً بزيهم العسكري

وبسلاحهم، جنوداً يمثلون رمز الأمن، وهم من يحمون الدولة ويحرسونها، يُخطفون ويختفون، ولا تستطيع أجهزة أمن الدولة، رغم كل ممارساتها وأساليبها وبطشها، حل هذه المعضلة، ثم يحمدون الله أن باب المعركة من خلال الجهاد والمقاومة المسلحة رسمياً قد فتح وأن الغد سيكون مشرقاً علينا ومليئاً بالخير إن شاء الله.

انتهت الشهور الثلاثة سريعاً وعاد حسن وإبراهيم للدار وبعدها بأيام عاد محمود، وكالعادة وافق ذلك الفرح والاحتفال والتهاني من الجيران والأهل.

في هذه الفترة اجتاحت القوات العراقية الكويت، وبدأت الحشود الأمريكية والغربية في المنطقة لحرب العراق وتقلصت فعاليات الانتفاضة إلى حد كبير في انتظار وترقب ما ستنجلي عنه الأيام. الشيء الذي كان يجمع عليه الفلسطينيون هو انتظار أن يحقق صدام حسين وعوده بإزالة نصف إسرائيل، ورغم الإشفاق على الشعب العراقي من آلة الحرب الغربية التي بدأت تتجمع، كنا ننتظر على أحر من الجمر بدء تلك الحرب لنرى الصواريخ تسحق دولة البغي والعدوان، ومما كان يزيد التلهف لتلك الحرب، هو ما يبديه الإسرائيليون قيادة وشعباً من رعب وهلع مما سيحل بهم، خاصة تخوفهم من الأسلحة الكيماوية التي يتم الحديث عن امتلاك العراق لها.

وبدأ الجميع يتابع الأخبار بعصبية وتلهف، حيث أعلنت الأخبار بداية الهجوم على العراق، بدأ الجميع ينظرون إلى السماء لرؤية الصواريخ القادمة من العراق بالكيماوي لمسح الكيان الزنيم وحين ضربت صفارات الإنذار لأول مرة في إسرائيل وهرعوا يلبسون الأقنعة الواقية من الغازات ويختفون في الملاجئ، خرجت الجماهير في شتى المناطق تهتف: (بالروح بالدم نفديك يا صدام...يا صدام يا حبيب اضرب اضرب تل أبيب)، حيث أنه من يضرب تل أبيب يصبح معشوق هذا الشعب المقهور الذي يعاني الويل منذ عقود.

أعلن المذياع رفع حالة الطوارئ، وأنه بإمكان سكان أغلبية المناطق رفع الأقنعة والخروج من الملاجئ، وأن الصواريخ تنزل في منطقة محدودة، ويتم فحصها الآن، هل كانت تحمل مواد كيماوية أم لا؟ سادت لحظات من الصمت الرهيب علينا، ونحن نجلس في ذلك الليل البهيم في انتظار النتائج، بعد وقت أعلن أنها متفجرات عادية ولا يوجد أي سلاح كيماوي وطلب من سكان المنطقة نزع الأقنعة، كنا كمن صب علينا الماء المثلج، وأطبق الصمت وطال، كسره محمود قائلاً لعلها عملية تمويه كي يطمئنوا

ولا يلبسوا الأقنعة، فتأتي الضربة الساحقة، فرددنا إن شاء الله إن شاء الله.
قال حسن بثقة غريبة، يا ناس ليس لدى صدام كيماوي، فلن يضربه على إسرائيل ولو ضربه على إسرائيل فلن يمسحها، فرد عليه محمود بعصبية ولماذا هذه التصورات الكدرة أجاب حسن بثقة: لأنه من سيزيل إسرائيل لا بد أن تتوفر فيه صفات معروفة وهي ليست موجودة في...قاطعه محمود صارخاً يا أخي أنا لا أعرف من أين تأتون بهذه الأفكار والأقوال، فتدخل إبراهيم محاولاً التوفيق، على كل حال إن شاء الله يكون عنده كيماوي ويضربه عليهم، ولازال هناك متسع من الوقت، ومن السابق لأوانه الحكم على الأمور الآن.

مع استمرار الحرب واستمرار سقوط الصواريخ العراقية على إسرائيل كانت سعادة الناس في قمتها، صحيح أن إسرائيل لم تمسح عن الأرض، ولكنها تضرب للمرة الأولى في عمقها، وكلهم يدخلون إلى ملاجئهم كالفئران المذعورة أو يلبسون الأقنعة التي تقتلهم وبعضهم مات فقط من الرعب، حين سمع صوت صفارات الإنذار، هذا وحده كان يكفي لأن تخرج الجماهير وحسب ترى الصواريخ تمد نحو كيان الإغتصاب، تخرج الجماهير تهتف وتزغرد وتغني رغم أن النتيجة كانت شبه معروفة للكثيرين، إلا أن خيبة الأمل قد أصابت العديدين حين انتهت المعركة إلى ما انتهت إليه.

حالة الإحباط وخيبة الأمل هذه من نتائج الحرب على العراق صبت الزيت على الهشيم المشتعل أصلاً، ولعل صورة الهلع الذي هز عمق الكيان المغتصب قد زادت قناعة الناس بهشاشة هذا العدو، فمع انتهاء وتوقف الحرب، تفجرت أحداث وفعاليات الانتفاضة بصورة أحد وأشرس وبات واضحاً أن التوجه لدى قطاعات واسعة من القوى الفاعلة في المناطق لاستخدام السلاح ضد قوات الاحتلال قد زاد، خاصة وأن عدد الشهداء خلال الفترة السابقة منذ اندلاع الانتفاضة قد ارتفع بصورة كبيرة، ناهيك عن الأعداد الخيالية من الجرحى.

لكن المناطق كانت خالية تماماً من السلاح، فالاحتلال على مدار قرابة عقدين ونصف من احتلاله لغزة والضفة كان يعمل بمنهجية على تفريغ المناطق من السلاح والذخائر وإغلاق كل الأبواب التي قد يتم جلبها من خلالها، ومعاقبة كل من يشتغل في هذا المجال عقوبات شديدة جداً، وباتت الناس لا تعرف كيف تستخدم السلاح لو وجدته. لذا لجأ النشطاء إلى استخدام الأسلحة البيضاء من سكاكين وخناجر وبلطات وسيوف، بالإضافة إلى الهراوات، ومن النادر جداً أن ترى مسدساً أو بندقية كارلوستاف قديمة.

أمي لم تتوقف عن حملات التفتيش لدى محمود وحسن وإبراهيم، عن أي ممنوعات يهملون في إخفائها، أو تسقط منهم، في إحدى حملاتها على غرفة نوم إبراهيم، وأثناء التفتيش سحبت درج الخزانة وفتشته، لم تجد فيه شيئاً، وأثناء إعادتها له خطرت لها أن تسحبه كاملاً فسحبته حتى أخرجته من الفراغ (التجويف) وإذا بعلبة كرتون صغيرة مثبتة عليه من الداخل، فتحت العلبة فوجدت فيها مسدساً، كادت أن يغمى عليها، ولكنها تداركت الأمور، ولملمت عزمها، وأخفت المسدس كيلا تراه مريم.

إبراهيم لم يكن في البيت، فبدأت تحقيقاً ميدانياً مع زوجته، أين يخفي زوجها أغراضه؟ وأين وأين وكيف؟ ومريم لا تعرف شيئاً وتبدي استغرابها من طريقة أمي في التعامل معها.

حين عاد إبراهيم للدار لم تتحدث معه عن ذلك وتعاملت بصورة طبيعية، وفي المساء سمعنا صوت صراخ على مريم، دون أن نميز ما يحدث، ولكنها حين سمعت ذلك خرجت تجري صاعدة السلالم للطابق الثاني، حين دخلت عليهما وهما يتصارخان، التفتت إليها مريم صارخة، أنا لا أدري ما يحدث هنا، أول النهار تحقق معي أمي على شيء لا أعرفه وآخر النهار يحقق معي زوجي على شيء لا أعرفه، وأنا مثل الأطرش في الزفة، هل يمكن أن أفهم ما يحدث في غرفتي؟ انفجرت باكية.

بكاؤها كان طاقة الفرج التي فتحت على إبراهيم، فقد أخذ ذلك جزءاً كبيراً من اهتمام أمي لإرضائها ومصالحتها، وقد أدرك إبراهيم أنها هي (أمي) التي ضبطت مخبأه، فظل صامتاً في انتظار ما تبدأ به هي، التفتت إليه قائلة: ألم أقل لك أنك يجب أن تسافر من البلد للخارج؟ قلبي كان يحدثني طيلة الوقت أنك ستلقي بنفسك وبزوجتك وببنتك في الجحيم!!

ابتسم إبراهيم قائلاً: يا عمتي يبدو أنه عليّ أن أقول الآن ما حاولت طيلة سنوات ألا أقوله، اسمعي انت كذلك يا مريم وكنت قد وصلت وكان الباب مفتوحاً فناداني، فقال واسمع أنت كذلك يا أحمد، أنا اخترت طريقي وليس من اليوم بل من سنوات، اخترت طريقي من اليوم الذي سمعت فيه أن أخي "حسن" تزوج يهوديه ويسكن معها في تل أبيب، اخترت طريقي إلى طريق الجهاد والمقاومة، وسرت فيه وسأواصل السير فيه، ولن يمنعني من ذلك شيء، لذلك اخترت أن أدرس في الجامعة الإسلامية، وليس في أي جامعة أخرى، وغضب مني محمود يومها واخترت العمل في البناء في غزة على أن أذهب للوظيفة في السعودية أو الكويت، وتضايقت مني عمتي.

اخترت طريقي ولن أتخلى عنه، والله يشهد أني أحبكم، وأحبكم أكثر شيء في هذه الدنيا، ولكن إن أردتم منعي عن مواصلة طريقي فسأتخلى عن حبي لكم جميعاً وحتى عن مريم وعن إسراء وأرحل عنكم لأواصل طريقي وأقوم بواجبي.

كانت الدموع تترقرق في عينيه وصوت إسراء يعلو بالبكاء من سريرها الصغير وتدفق الدمع من عيون مريم وعيون أمي، ولم أتمالك نفسي، فانحدرت دمعات ساخنة على وجنتي، قالت أمي وهي تغالب دموعها: أنت حر يا إبراهيم، ولن يمنعك أحد من فعل ما تريد (الله يحميك الله يحميك) ثم أخذت بيده ونزلت معه السلالم وأعطته مسدسه ملفوفاً بقطعة قماش.

في أحد بيوت مدينة الخليل تجتمع لجنة الطوارئ لحماس يترأسها جمال، ويجلس على يمينه عبد الرحمن حيث يخططون ويرتبون تصعيد الانتفاضة والمواجهات في المدينة وفي البلدات والقرى المحيطة بها، ويتفقون على العمل من اتجاهين: الأول تفعيل جناح الفعاليات والأحداث للانتفاضة والثاني البدء لتأسيس مجموعات وخلايا مسلحة وجمع السلاح لها.

ينطلق أحد المتواجدين ليلتقي بثلاثة من الشبان ليعلن لهم تشكيل نواة العمل المسلح وأنه عليهم البدء بالبحث عن السلاح وإعداد المخابئ والملاجئ وترشيح أسماء المستعدين للعمل في هذا الميدان، في نفس الوقت يتحرك عشرات النشطاء في شتى الاتجاهات، لتحريك الأفراد والأنصار لتوزيع المنشورات وكتابة الشعارات على الجدران ووضع المتاريس على الطرقات لعرقلة حركة جنود الاحتلال والمستوطنين، واستدراجهم إلى أماكن مناسبة لرشقهم بالحجارة بحيث يسهل على الشبان الاستتار والانسحاب والمناورة...

عبد الرحيم الذي كان في مطلع شبابه يلتقي اثنين من أصدقائه في مسجد بلدة صوريف يجلسون ويرتبون لفعاليات الغد في البلدة، قبيل بزوغ نور الصبح يخرجون ليوزعوا المنشورات بين بيوت البلدة، ومحلاتها التجارية، ويكتبون الشعارات على الجدارن، ثم يبدأون بوضع المتاريس ويشعلون الإطارات حيث أنه اليوم هو يوم إضراب حسب ما أعلن بيان المقاومة، وهم يقومون بذلك وهم ملثمون.

جاء يجري وراءهم أحد زملائهم ليأتوا ويروا ما يحدث، تساءلوا: وماذا يحدث؟ قال تعالوا لتروا!! فوجدوا أن ما كتبت من شعارات قد شطبت وأن اسم حماس مشطوب ومكتوب تحته احذروا العملاء حماس عميلة للاحتلال، تساءلوا من يفعل ذلك؟ قال: تعالوا، جروا وراءه فرأوا ثلاثة من الشبان اليساريين يقومون بذلك، تعاركوا بالأيدي وخشية أن ينفضح أمرهم وتنكشف الأقنعه أخذوا معهم العصي والبلطات وخرجوا نحو هدفهم, وجدوهم هناك صفعوا كل واحد منهم عده صفعات, فهرب الثلاثة فطاردوهم إلى حاراتهم، وحاصروا الحارة في صورة مثيرة يترقبون خروج أحدهم، فخرج كبار العائلة وصالحوا الشباب شريطة أن لا يفعل أبناؤهم ذلك ثانية.

من بلدة صوريف كانت تخرج يومياً حافلتان مليئتان بالعمال الذين يعملون في بلدية القدس في النظافة، في البستنة، في الترميمات وغير ذلك من الأعمال. الحافلتان إسرائيليتان قرر الشباب اعتبارهم هدفاً. في الصباح كمنوا لهم، ومع وصولهم أمطروهما بالحجارة فكسروا زجاجهما واضطرتا للعودة بدون العمال.

لما تكرر الأمر عدة أيام ولم يكن لبلدية القدس غنى عن العمال، جاء مع الحافلتين سيارتا جيب عسكريتان لحراستهما واحدة من الأمام، والأخرى من الخلف، وقد أصبحت الفرصة مواتية أكثر بذلك للشبان لمهاجمة الجنود.

وهكذا يومياً تبدأ المواجهات من الساعة السادسة وتمتد أحياناً لساعات، أخيراً يبدو أن الشركة الإسرائيلية التي تشغل الحافلات، رفضت مواصلة العمل بعد حرق حافلتين لها، تم استئجار حافلتين من شركة عربية واستمر رشق الحجارة، فاضطروا لإحضار الحراسة العسكرية، لأن البلدية في حاجة للعمل، واستمرت المواجهات.

أحياناً حين لا يكتفي عبد الرحيم وأخوانه بذلك، يتوجهون للطريق العام الواصل إلى بلدة بيت شيمش، حيث يبدأون برشق السيارات الإسرائيلية بالحجارة، فيكسرون زجاجها، ويعطلون حركة السير، على الطريق تأتي قوات جيش الاحتلال فيهاجمونها بالحجارة ثم يفرون إلى الجبال التي يعرفونها كما يعرف الواحد منهم بيته، ويقضون باقي يومهم في اللعب والجري هناك.

المواجهات تتزايد والفعاليات تتصاعد، والشهداء يتساقطون ويزداد عددهم والجرحى يفوقون كل خيال، والاحتلال لا يردع، والعالم لا يتحرك.

في إحدى التظاهرات التي حدثت في المسجد الأقصى، تهاجم قوات الاحتلال المتظاهرين مستخدمة الرشاشات الثقيلة، ومستعينة بالمروحيات فيسقط عشرات الشهداء ومئات الجرحى ويفرض حظر التجول على المناطق خشية ردة الفعل العارمة.

أثناء فترة منع التجول ينعقد العزم في قلب شاب فتى لم يبلغ العشرين من عمره على الانتقام، بحد شفرة سكينه، وينتظر، وفي أول يوم يرفع فيه حظر التجول يأخذ سكينة بين طعامه ويستقل الحافلة كعادته حين يخرج للعمل في القدس، ينزل بعيداً عن مكان العمل ليبحث عن هدف مناسب تقوده قدماه إلى أحد الكنس، وفيه عدد من المصلين اليهود، فيخطر بباله للوهلة الأولى أن الرد هنا هو أنسب رد، على مذبحة الأقصى، ضد المصلين، ولكنه يتراجع عن ذلك، فليس هو من يقتحم مكان العبادة، ليقتل من المتعبدين.

يسير للأمام فيجد رجلاً يسحب سكينه ويطعنه عدة طعنات، فيرتمي قتيلاً، يتقدم فيجد مجندة تلبس زيها العسكري يطعنها عدة طعنات، فتخر صريعة، ويتقدم وقد انتبه عليه الناس وبدأوا يحتشدون ويصرخون مستنجدين. جندي يلبس زي القوات الخاصة يحمل سلاحه، يشهر مسدسه في وجهه، ويصرخ عليه طالباً منه التوقف، وإلقاء السكين ولكنه يظل متقدماً نحوه ترتجف يده التي تحمل المسدس، فيمسك بكلتا يديه وترتجفان ويطلق الرصاص فيصيبه في رجليه، وقد صوب إلى صدره ويستمر في التقدم نحوه. وتصبح قدماه ثقيلتان فقد أصيبت كل واحدة بثلاث طلقات، ونزف منهما دم غزير، ولكنه استمر في التقدم، أما الجندي بسلاحه وبزته فلم تعد قدماه قادرتين على حمله، فيهوي.

بقيت خطوتان أو ثلاث حتى يصله عامر، يدفع رجليه وكأنها مغروسة في الأرض ويخطو بها، ويحاول أن يخطو الثانية كي يصله فلا يستطيع، وذاك يرتجف ويرتعد، وحين تأكد عامر أنه لن يتمكن من التقدم شيئاً، ألقى بكل ثقله للأمام وطعن الجندي طعنة وطعنة وثالثة، فيخر ذلك قتيلاً رغم سلاحه الذي يثقله، ويعتقل عامر رافع الرأس.

شابان في مطلع العشرينات من عمريهما يأتيان لمسجد المخيم بحثاً عن إبراهيم يجلسان معه في إحدى زوايا المسجد يتحدثان بشكل هادئ بضع الوقت ثم يفارقانه في الصباح الباكر ينتظرهما بسيارته، لحملهما حتى موقف السيارات المتوجهة للعمل في الداخل، ويناول كل واحد منهما كيساً فيه طعامه وينزل ليودعهما، وهو يوصيهما بأن يأخذا حذرهما، ركب الشابان سيارة أخرى من السيارات التي تقل العمال لداخل الأراضي المحتلة عام (٤٨) حتى يافا المحتلة يصلون إلى بوابة الورشة التي يعمل فيها أحدهما ويجلسان في انتظار صاحب الورشة والعاملين الآخرين معه، حضر أحدهما فتح البوابة

ودخل، دخلا وراءه، وسحبا سكينهما وبدآ بطعنه قدمت العاملة الثانية فقتلوها، قدم صاحب الورشة فقتلوه، وقرروا الانسحاب من المكان، ليس قبل أن يكتب أحدهما على الجدار من الداخل مستخدماً رشاش الدهان (اسبريه) بمناسبة ذكرى انطلاقة حماس وإهداء إلى أرواح شهداء شعبنا البطل، وانصرفا من المكان.

شاب يتفق مع أحد أبناء عمومته ممن يسرقون السيارات من اليهود، حيث يتم تقطيعها وبيعها قطع غيار، أن يحضر له سيارة كبيرة وثقيلة، يستلمها منه بعد صلاة الفجر، وينطلق بها إلى الداخل، منطقة تل أبيب، أمام مستشفى تل هشومير، يقف عدد كبير من الجنود في إحدى محطات الركاب الخاصة بالجنود، ويزيد سرعة الشاحنة، لأقصى ما يمكن، ثم ينعطف بها إلى المحطة، فيقتل ثلاثة جنود ويجرح العشرات وتتكرر هذه الحالات.

شاب يهاجم بسكينه عدداً من الجالسين في إحدى محطات الحافلات فيقتل أربعة وآخر يهاجم طلاباً يخرجون من مدرستهم، بساطور فيقتل واحداً ويصيب العديدين، وثالث ورابع...عشرات الحالات ، حتى بدأ الساسة والعسكريون الأمنيون الإسرائيليون يتحدثون عن حرب السكاكين واصبح الشارع عندهم في حالة هلع ورعب، واستطاع أفراد قلائل من هؤلاء نقل المعركة إلى داخل تجمعات العدو السكنية، ولإيقاع قتلى من بين أفراده، وليس الاكتفاء بأن يدفعوا هم الشهداء في انتظار صحوة ضمير العالم الذي تراكمت عليه الأوحال. السعي للحصول على السلاح لم يتوقف، وأصبح الشغل الشاغل للكثيرين.

أحد الشبان أوصل معلومة لإبراهيم أن أحد العملاء الذين لم يرحلوا ويعيش في أطراف إحدى البلدات لديه سلاح، ويخرج ويعود به يومياً في مواعيد ثابتة، ويقترح أن يتم مهاجمته بالأسلحة البيضاء وقتله، والاستيلاء على سلاحه، ويوضح أنه يمكن أن يوضع له كمين وهو يمكنه فعل ذلك وأن الشباب مستعدون لفعل ذلك.

إبراهيم يطلب منه الانتظار حتى يوفر له مسدساً حيث إن مجموعة أخرى أخذت المسدس لتنفيذ إحدى العمليات. يخرج سبعة من الشباب بالأسلحة البيضاء ملثمين ويكمنون لذلك العميل عند مروره بسيارته من الموقع المحدد، تعترض طريقه سيارة، توقفه وفي نفس اللحظة ينقض عليه عدد منهم بسكاكينهم، فيصيبونه بجراح، ولكنه يتحرك بسرعة، يسحب بندقية العوزي التي معه بإحدى يديه، ويبدأ بإطلاق النار على الشباب، ويقود سيارته باليد الأخرى بشكل جنوني، مستديراً بها منطلقاً بعيداً عن الكمين والمهاجمين. أحد الشبان يسقط شهيداً. ويعود "عماد" -الذي كان إبراهيم قد تعرف

عليه في معتقل النقب- إلى إبراهيم ليخبره بما كان، تسقط من عينه الدمعة، ويقسم أن لا ينام الليلة، إلا وقد أحضر لهم سلاحاً.

يركب سيارته ويطير إلى رفح، حيث يلتقي أحد الشبان، يسأله عن آخر، ويأخذه هذا الثالث، يطلب منه الانتظار، ويعود بعد ساعة ومعه شيء ملفوف بكيس من الخيش، يدخل به السيارة وحين يفك عنه الغلاف يجد بندقية كلاشنكوف، يقبله من بين عينيه، وينطلق عائداً حيث يجد عماداً في انتظاره، يسلمه كيس الخيش قائلاً: الآن تستطيعون العمل بأمان، يأخذها عماد ويطير لا تكاد قدماه تلامسان الأرض إلى أصحابه، يأخذون الكلاشنكوف إلى منطقة نائية وخالية لتجربته، ومعرفة كيفية استخدامه، فهذه المرة الأولى التي يمسكون بها بندقية، يحاولون ويحاولون دون جدوى، يرجع عماد إلى إبراهيم ويشتكي أن البندقية غير صالحة، أخذها إبراهيم واستقل سيارته، مسافراً إلى أحد الشباب الذين يعرفون السلاح، ولديهم خبرة به، تفحص الشاب البندقية مرة ومرتين، وفككها ثم قال لإبراهيم: صحيح إن البندقية معطوبة حيث أن إبرتها منحوتة، وهي تحتاج لإبرة جديدة، تساءل إبراهيم: ومن أين نحضر لها إبرة؟ أجاب الشاب: تحتاجون لورشة خراطة وبرادة، لصنع واحدة جديدة، شكره إبراهيم وانطلق؛ لأن الحل سهل حيث إن "حسن" له ورشة يمكن أن تقوم بالأمر.

أخذ حسن إلى الورشة بعد أن أخفوا البندقية وأخذ منها الجزء المطلوب إصلاحه، وبعد جهد وتعب، أعدت الإبرة البديلة، أخذت للتجربة، وثبت أنها لم تزل غير مناسبة تماماً، الوقت كان متأخراً، والذهاب للورشة مرة أخرى قد يثير الشك، ويخلق المشاكل فلننتظر للغد.

وفي اليوم التالي محاولة أخرى وتجربة، والحاجة إلى تعديل، وهكذا من الورشة إلى مكان التجريب، عشرات المرات، حتى أصبحت مناسبة. مشكلة جديدة تطل، الرصاصات الموجودة أقل من أن تصلح للتدريب أو الخروج بها في عملية، وهي البندقية الوحيدة، تبادلتها عشرات الأيدي من خلال عدة مجموعات في مناطق مختلفة في جنوب القطاع، ووسطه وشماله.

بالمسدس الوحيد الذي بحوزة إبراهيم، يخرج شابان أحدهما يقود سيارة بيجو(٤٠٤) من النوع المنتشر في القطاع، والآخر يجلس إلى جواره على الطريق العام في وسط قطاع غزة، بالغرب من مدخل بلدة دير البلح، حيث مستوطنة كفار داروم. أحد كبار المستوطنين يستقل سيارته ليتفحص الأرض الزراعية التابعة للمستوطنة، يتوقف عند إحدى إشارات المرور، فيطير نحوه ويتوقف إلى جواره، وعن بعد ثلاثين سنتيمتراً، يطلق عليه صاحبه النار، طلقة واحدة في الرأس، فيلقى حتفه، وتنطلق السيارة .

وعلى الجهة المقابلة تأتي عشرات سيارات الجيب العسكرية لمحاصرة المكان، دون أن تنتبه إلى أن الفاعلين مروا من بينهم قبل لحظات..!!

إبراهيم وغيره يبحثون عن أي طرف خبر يقول إن فلاناً لديه، أو هناك احتمال أنه كان لديه قطعة سلاح، مهما كانت قديمة، يصلهم خبر أن رجلاً عجوزاً كان لديه بندقية كارلوستاف وأخفاها من يوم الاحتلال الإسرائيلي للقطاع، ذهبوا إليه يرجونه بكل الرجاء، وإبراهيم يقبل رأسه ويديه، ويعرض عليه أي مبلغ يريده، والرجل ينكر أن لديه أي شيء من ذلك.

يقومون بالانصراف فينادي عليهم الرجل للعودة، ويقوم معهم إلى إحدى البيارات القريبة، يحفر الأرض تحت إحدى الأشجار، ويخرج ماسورة إسمنتية مملوءة بالتراب، يفرغ التراب، ويخرج منه شيئاً مغلفاً بالنايلون، يمزق النايلون، تحته كيس خيش، يرفع الخيش، تحته قماش، يرفع القماش، تحته لفافة عصبت البندقية بشريط قماش طويل، وقد غلفت بمادة الشحمة لمنع وصول الصدأ أو الرطوبة إليها، ورغم ذلك حين يرفع كل ذلك كان الصدأ قد بدأ ينخرها بعدما يزيد على عقدين ونصف في الأرض، ولكنها جيدة...بل ممتازة، ماذا تريد مقابلها؟ أي ثمن تطلب يا حاج؟ ينظر إليهما الرجل قائلاً: ثمنها مرتفع جداً!!! يقول إبراهيم وقد ضاق ذرعاً: كم تطلب؟ تترقرق دمعة العجوز وهو يقول: أن تستعمل بحق الله في مقاومة الاحتلال فقد دفعت ثمن الحفاظ عليها وعدم تسليمها للمخابرات أشهراً طويلة في التحقيق اللعين وسنوات في السجن. انكب إبراهيم على رأسه يقبله ويعده أنهم بإذن الله سيفعلون ذلك، ويطلب منه الدعاء لهم، وينطلقون، والرجل يرفع نظره للسماء: اللهم انصرهم وسدد رميهم.

وتبدأ جولة جديدة للبحث عن الذخيرة من شخص لشخص، يوصل لثالث ثم رابع إلى خامس، ليجدوا عند السادس عدة طلقات، لا تتجاوز العشرة، ومن شخص لآخر لثالث لرابع ليجدوا خمس طلقات، وهكذا جمعت ذخيرة تكفي لتعبئة مخزن ونصف.

ثم بدأت جولة البحث والتعرف على من يعرف كيفية استخدام السلاح بصورة جيدة وتنتهي الجولة بأحد الشباب الذي كان قد عاد قبل وقت قصير من الدراسة في الخارج، وأثناء ذلك تلقى دورة تدريب عسكري. أبدى استعداده للتدريب والمشاركة، اتفق مع إبراهيم على ملاقاته في اليوم الثاني في شارع عمر المختار، عند نصب الجندي المجهول، أخذه إبراهيم من هناك، ونقله إلى إحدى البيارات، حيث كان أربعة شبان في الانتظار للتدريب، وقف يشرح لهم وضعيات إطلاق النار وما شابه.

عماد كان يمسك الكارلوستاف يقلبه بين يديه ولا تكاد الدنيا تسعه، تقدم الشاب ليضع لهم إشارة على جذع إحدى أشجار الليمون، ليتم التصويب عليها، وعماد يمسك البندقية، ويصوبها فأفلتت منه عدة رصاصات مرت بجوار رأس المدرب الشاب وكادت تقتله حدث إرباك وتوترت الأجواء، وبعد وقت عاد الهدوء، ورجع المدرب لتدريبهم مع أخذ الاحتياطات، طلقة واحدة يطلقها كل واحد فقط، فالطلقات محدودة، وقد خسرنا عدة رصاصات منها حين أفلتت، ولكن لا بأس فالتدريب العملي سيكون في الميدان، والخروج الآن ضمن مجموعة تحمل السكاكين وأحدهما يحمل بندقية رشاشة لاستخدامها وقت الطوارئ، مما يجعل الأمور قد قفزت قفزة نوعية.

عدد من الشباب من نفس المجموعات يعكفون على قص رؤوس أعواد الثقاب، بمقصات الأظافر ويكومونها في علبة، آخر يحضر علبة حديدية جديدة، ولكنه يخططها بالمنشار الحديدي طولاً وعرضاً، يحاول التغلغل بالمنشار فيها، كي يضعف تماسكها، ويحولها إلى قطع وشظايا سهلة التناثر حين يحدث الانفجار، يملأونها برؤوس أعواد الثقاب، ويضعون بداخلها سلك الاشتعال (التنجستين) من لمبة كهربائية، كسروا زجاجها بحذر، ويغلقونها بعد أن أخرجوا منه طرفي السلك الكهربائي المشبوك بسلك الاشتعال، ويخرجون لزراعتها في إحدى الطرق الترابية في الانتظار، وبيد أحدهم طرفا السلك وبطارية كهربائية.

الآخرون يشعلون عدداً من الإطارات، ويبدأون بوضع المتاريس، أمام موقع العبوة بعشرات الأمتار. تحضر سيارة الدورية، ويبدأون بمصادمتها ورشقها بالحجارة وتطلق عليهم الرصاص، يبدأون بالانسحاب وتتقدم الدورية حتى تصل إلى موقع العبوة، فيضع عماد السلكين على قطبي البطارية، صوت انفجار هائل ودخان كثيف وصراخ الجنود يتعالى، والشبان ينسحبون من المنطقة حيث تأتي تعزيزات كبيرة معها سيارات إسعاف لنقل المصابين الذين تعالى عويلهم ونواحهم.

الفصل الثالث والعشرون

بعد اللحظات الأولى لرؤية إسراء ابنة إبراهيم ومريم نور الحياة، لاحظت أن أمي تخصها بحب خاص وعناية خاصة أكثر بكثير مما كانت تخص به أولاد محمود وحسن، لم أدر ما هو السبب وراء ذلك الحب الخاص، ولعله نابع من عاطفتها الخاصة تجاه إبراهيم، منذ أن ألقي في حجرها لتتولى هي تربيته، مثل أي واحد منا، وزاد ذلك الحب أنها كذلك حفيدتها من ابنتها، فكأنها حازت حبين مما حازه أي من الأحفاد الآخرين، لذلك حاز الواجد حباً كونه ابن ابنها، أو ابن ابنتها. ولكن إسراء كانت ابنة ابنتها وابنة ابنها كذلك، وللحق فلولا حبي الخاص واحترامي الفائق لإبراهيم، وقناعتي أنه يستحق ذلك الحب لحسدته على ما توليه له أمي من حب وحرص، رغم أنه ليس ابنها مثلي.

كانت كثيراً ما تأخذها بين ذراعيها، وتبدأ تهزها وتلاعبها، وهي ترتجل الغناء الذي اعتادت النسوة على ترديده، وهن يهززن سرر الأطفال، ليناموا أو ليكفوا عن البكاء، وكثيراً ما كانت تردد الازمة، (هاتي منديلي يا واقفة على الباب...هاتي منديلي، لارجع عابلادي يا واقفة على الباب...لارجع عابلادي...واشوف حبابي ياواقف على الباب...واشوف حبابي) وتستمر في الارتجال على هذا الوزن والغناء.

ولكن بعد ذلك الموقف الذي كان مع إبراهيم، استبدلت كلمة منديلي في غنائها بكلمة البارودي فصارت تغني دوماً بلازمة (هاتي البارودي يا واقفة على الباب... هاتي البارودي، أحرر بلادي يا واقفة على الباب...أحرر بلادي، يا عز احبابي يا واقفة على الباب...يا عز احبابي).

كنت أحب تلك الأهازيج التي تغنيها أمي، وكنت أشعر أنها تنفث من خلال آمالها وأحلامها وآمالنا وأحلامنا جميعاً، فكنت كثيراً ما أصعد للطابق الثاني بعد أن أجد المبرر وأحضر لها إسراء، لتبدأ بنشيدها وأنا أتسمع لها، وأدع الكلمات تداعب روحي، وخاطري متظاهراً بالانشغال بشيء أفعله أو كتاب أقرأه.

إبراهيم يجلس مع عدد من الشبان بينهم عماد، يخططون لمهاجمة أحد مصانع تعبئة الخضراوات وتغليف الفواكه شرق الشجاعية، هناك يعمل ا لعشرات من العمال العرب تحت إمرة صاحبي المكان اليهوديين اللذين يشعران بالأمان والطمأنينة.

ركب الشباب سيارة البيجو (٥٠٤) البيضاء، أحدهم يحمل بندقية الكارلوستاف، وفي مخزنها بضع رصاصات معدودات، ليس هناك سواها، واثنان يحملان سكاكين الكوماندو، والرابع يقود السيارة التي تنطلق بهم نحو الشجاعية، ويتجاوزها حتى تصل إلى باب المصنع، حيث بالداخل ساحة كبيرة، تمتلئ بالعمال والبضائع، اقتحمت السيارة المكان، وتوقفت فجأة حيث قفز منها الثلاثة، أحدهم يشهر البندقية ويطالب العمال العرب بالوقوف جانباً، وعدم التدخل ويصرخ عليهم ليفعلوا ما يأمرهم به فينصاعون له والاثنان الآخران ينكبان على اليهوديين بالسكاكين طعناً، وقد علا عويلهما، واستجداؤهما للرحمة، أنجزت المهمة خلال دقيقتين أو ثلاث، استقلوا سيارتهم وانطلقت بهم سريعاً بعد وقت قصير جاءت قوات كبيرة لتمشيط المنطقة (المكان) والتحقيق مع المتواجدين، وبعد ساعات نزل البيان، يعلن أن العملية هدية لرئيس هيئة الأركان الإسرائيلي الجديد "إيهود باراك" احتفالاً بتوليه المنصب.

بعد أيام وصلت معلومات جديدة لإبراهيم أن هناك يهودياً يأتي لجمع الخضراوات، من المنطقة الزراعية شمال مدينة غزة، يتم التأكد من الأمر، ثم تخرج تلك المجموعة لاقتناصه مسلحة بكل السلاح الناري المتوفر، بندقية الكارلوستاف والمسدس، ينتظرون حتى قدومه في الموعد، يتوقف على الطريق، انتظاراً لقدوم المزارعين، ليشتري منهم منتوجاتهم، بأبخس الأثمان، تقدم منه أحد الشباب وناداه باسمه "كوهين" التفت قائلاً بعربية ضعيفة: نعم، فاخترقت رأسه ثلاث رصاصات قضت عليه. استقل الشاب السيارة التي انطلقت تغادر المكان، وبعد ان قطعت مسافة طويلة مبتعدة، قابلتها على الاتجاه الآخر من الطريق عشرات السيارات العسكرية تنهب الأرض في طريقها لمكان الحادث وحادثة شبيهة وحادثه رابعة، وأخبار تتطاير في أنحاء الوطن الذبيح، فتخرج الحشود هاتفة تحية للكتائب كتائب عز الدين...كتائب كتائب...كتائب كتائب.

ويجتمع قادة العدو وقد جن جنونهم، فقد بدأوا يدفعون أثماناً باهظة في الأرواح، وهذا شيء يفقد عقولهم، كل واحد منهم يدق على الطاولة صارخاً على من هو دونه، أنه يجب ضبط هؤلاء أو قتلهم، ووقف ما يجري، وبطبيعة المنطقة وطبيعة الصراع فإن المسئولية كلها في ذلك تقع على جهاز المخابرات الذي عليه أن يبحث عن هؤلاء الشباب، وسط هذا الشعب المتلاحم، كما يبحث عن إبرة في كومة قش، ويبدأون بتحريك وتوجيه عملائهم لجمع أي معلومة، تُشكل طرف خيط يمكن من خلاله، الوصول إليهم أو إلى بعضهم.

عشرات المركبات العسكرية المكتظة بجنود الاحتلال، تنهب الأرض نهباً إلى حي الصبرة في مدينة غزة تحاصر أحد المنازل، وتخلي المنطقة من السكان، وتبدأ بالنداء عبر مكبرات الصوت على المتواجدين في البيت المغادرة فوراً، والطائرة المروحية تحلق فوق المكان، في البيت يختفي ثلاثة من الشبان المطلوبين لقوات الاحتلال في إحدى الغرف، وفي باقي البيت تعيش أسرة فلسطينية حياتها العادية.

جاء رب البيت جرياً إليهم ما العمل؟ فبادر أحدهم: اخرجوا من البيت أنتم، ونحن سنتدبر الأمور فصرخ الرجل: وكيف نخرج وأنتم هنا؟ ابتسم الشباب الثلاثة، وقال أحدهم: لا تخف علينا وقد أمسك كل واحد منهم بعبوة يدوية من تلك التي صنعوها من المواسير وحشوها برؤوس أعواد الثقاب، وبيد أحدهم كذلك مسدسٌ، اخرجوا أنتم لئلا يصاب الأطفال والنساء اخرجوا ونحن سنتدبر الأمر، وبدأوا بدفعه من الغرفة، فخرج وأخرج أطفاله وأهل بيته وحنجرته تردد اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم يقرأ ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾[1]، خرجوا من البيت فتلقفتهم أيدي جنود الاحتلال وبنادقهم مشهرة في وجوههم، أخذوا الكبار للتحقيق بالجوار، واحتجزوا الأطفال في مكان آخر.

داخل البيت توزع الشباب الثلاثة أحدهم يمسك مسدسه، والآخران يمسك كل واحد منهما عبوة الثقاب بيد والولاعة بيده الأخرى، في انتظار الاقتحام، وفي الخارج يستعد العشرات من الجنود المدججين بالسلاح لاقتحام البيت، يفتحون الباب عنوة، ويدخل الأوائل منهم، فيشعل أحد الشباب عبوته، ويلقيها على مدخل البيت، فتنفجر مصدرة صوتاً قوياً، ويعلو صراخ الجنود، ويتراجع من ظل منهم دون إصابات، ويستمر عويل من أصيب، ثم يقتحمون مرة أخرى، تحت نيران كثيفة، يسحبون الجريح، ويقتحمون تحت غزارة الرصاص، ثم يتوقفون عن إطلاق النار، ويصدر صوت طلقة واحدة مميزة، فهي طلقة مسدس، تقتل أحد الجنود، حيث تنفتح عشرات البنادق على مطلق النار، تلقى عبوة ثانية، تنفجر، يتعالى الصراخ ثم يتعالى صوت الرصاص، وبعد وقت يخرج الجنود وهم يحملون مصابين آخرين، ثم جثث الشهداء، وأخذوا معهم رب البيت للاعتقال.

---

[1] سورة يس آية (٩)

بعد وقت انطلقت سيارة البيجو (٥٠٤) البيضاء مسرعة من أمام مدخل مقر الشرطة الإسرائيلية في مدينة غزة، حيث ألقيت منها عبوة ناسفة على مدخل المقر، وأطلقت زخة رصاص من بندقية الكارلوستاف، وعدة طلقات من المسدس، وتعالى صراخ الحرس، ثم انطلق الرصاص غزيراً وراء السيارة التي كانت تغادر المكان.

كثفت مخابرات الاحتلال وقواته نشاطها في مطاردة المجاهدين، ونجحت في حملة أخرى من الاغتيالات والتصفيات التي لم يكن هناك شك بأنها اعتمدت بالأساس على نشاط استخباري مكثف، وقع غالبيته على عاتق الجواسيس، كما تمت عمليات واسعة من الاعتقالات لكل من يشتبه بأدنى علاقة له بالعمل ومنفذيه، أو من يشتبه بتقديم المساعدات لهم، فلا تجد إلا القوات الكبيرة من الجنود المحتلين تحاصر إحدى الحارات لتداهم أحد البيوت، حيث يختفي بعض أولئك المجاهدين، أو تجد قوة خاصة تكمن بين الأزقة أو في البساتين، لتغتال أحد أولئك المجاهدين، وقد بات من الواضح أن من المستحيل أن يستمر الوضع على ما هو عليه من نقص السلاح من جانب، ومن مضايقة ومطاردة قوات الاحتلال لهم من جانب آخر.

في إحدى اللقاءات التي ضمت إبراهيم مع بعض أولئك المجاهدين اقترح أحدهم أن يخرج من يستطيع منهم عبر الحدود إلى مصر تهريباً، حيث أن البقاء في البلد يشبه الانتحار اعترض إبراهيم وغالبية الموجودين على فكرة الخروج من الأرض المحتلة.

وأمام الضغط للبحث عن خيار آخر اقترح إبراهيم أن يخرج أكبر عدد منهم إلى الضفة الغربية، هناك يمكن أن ينشطوا العمل، ويمكن أن يأخذوا راحة، يعودون بعدها للقطاع من جديد، ويمكن البحث هناك عن السلاح، فقد يكون متوفراً أكثر منه في غزة، وأمام إصرار البعض على فكرة الخروج إلى مصر، اتفق أن من لديه الرغبة في الخروج فليخرج إن تيسرت السبل.

تم تزييف عدة بطاقات شخصية لبعض المجاهدين الذين بدأوا يستخدمونها للخروج من قطاع غزة إلى الضفة الغربية، حيث خرج ثمانية من الشخصيات المعروفة، والمطلوبة لقوات الاحتلال إلى منطقة رام الله، هناك ساعدهم طلبة الجامعات والمعاهد لاستئجار شقق على أنهم طلاب في تلك الجامعات، كي يسهل تواجدهم في هذه الشقق، دون أن يثير ذلك الريبة والفضول.

آخرون اجتهدوا للخروج إلى مصر عبر الحدود، حيث يتم تهريبهم إلى داخل الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وهناك يأخذهم أحد البدو كدليل ليوغل بهم شرقاً في صحراء النقب، حيث تقل التشديدات الأمنية على الحدود مع مصر، وهناك يهربهم إلى مصر، وقد نجح البعض في الإفلات إلى مصر، حيث ضبطوا على أيدي قوات الأمن المصرية، ونقلوا إلى أحد السجون، وبعد وقت تم إطلاق سراحهم شريطة أن يغادروا مصر، وقد غادروا إلى السودان.

الذين خرجوا إلى الضفة الغربية بدأوا بمساعدة الطلاب هناك في محاولة الاتصال بالمجاهدين في أنحاء الضفة الغربية، من واحد لآخر لثالث ولرابع. التقى عماد وبشار ومحمد بعدد من طلبة جامعة الخليل ذات الوجوه المشهورة، التي كانت تجلس في حلقات الدرس، التي كان يلقيها جمال أو عبد الرحمن، يوسف ويعقوب وعابد وسيف، حيث كان هؤلاء يتجهزون وينتظمون لبدء العمل المسلح في جنوب الضفة الغربية، سأل عماد فوراً ومن بداية اللقاء الأول: هل يوجد هنا سلاح؟ ابتسم الشباب وقالوا: ليس من الصعب تدبر أمر السلاح، صرخ عماد: إذاً فنحن نريده فوراً، ضحك أحدهم وقال: رويدك رويدك، صحيح أن دمكم يا أهل غزة ساخن.

كان الشباب من مخيمات القطاع يتجولون في شوارع رام الله أو شوارع الخليل ولا يكادون يصدقون ما يرون بيوتاً حجرية فاخرة، مثل القصور ويقول أحدهم الله أكبر، إن هذه الصخور التي تزين هذا القصر تطعم مخيمنا ستة شهور، فيضحك يعقوب قائلاً: الناس هنا بخير، والأوضاع الاقتصادية ممتازة، وتمر سيارة مرسيدس سوداء اللون موديل (١٩٩٢) ينظر إليها عماد ولا يكاد يرى سائقها فتى صغير، يختفي وراء عجلة القيادة، ويتساءل: كيف يسمح له أبوه بقيادة سيارته دون أن يكون معه...؟!! فيبتسم يعقوب قائل:أ هذه ليست سيارة والده، بل سيارته هو فيصرخ عماد الله أكبر بثمن هذه السيارة يمكن أن نشتري عشر بنادق كلاشينكوف ونقلب بها الدنيا، فيقول يعقوب: أتدرون أنه يوجد هنا العشرات من أصحاب الملايين، ومنهم من لا يدري كم لديه منها!! قال عماد: آه لو أنه يجوز أن ننزل على واحد منهم لنأخذ منه بعض ما عنده لشراء السلاح، فيضحك يعقوب: أنت لا تفكر إلا في شراء السلاح!!، فيجيب عماد: أنت لا تعرف ماذا حدث مع إخواننا، حيث هاجمتهم قوات الاحتلال مرات عديدة، وليس بأيديهم السلاح ليدافعوا به عن أنفسهم، والله لو كان بيد الواحد منهم بندقية رشاشة، لقتل العشرات قبل أن يموت.

بعد أيام عند أبواب الحرم الإبراهيمي الشريف يقف جنديان من المحتلين يحرسان المكان والمستوطنين، الذين يأتون للصلاة، يُطل عماد ويعقوب وبيد كل واحد منهما بندقية رشاشة أوتوماتيكية، يطلقان زخات الرصاص على الجنديين فيرديانهما، وينسحبان بهدوء وسلام، ويختفيان تأتي التعزيزات العسكرية ويفرض نظام منع التجول على المدينة عدة أيام.

بعد فترة يستقل عدد من الشبان سيارتهم بينهم عماد ومعهم عدد من البنادق التي تم شراؤها من بعض سماسرة السلاح، الذين يشترون من تجار وجنود يهود طمعاً في المال وينطلقون خارجين في إحدى الطرق المؤدية إلى خارج الخليل، بحثاً عن سيارة مستوطنين أو جنود لإطلاق النار على من فيها، وإذ بسيارة جيب عسكرية تسير في الاتجاه المعاكس، استدار السائق خلفها، دخلت المدينة ودخلوا خلفها، ثم انطلقوا خلفها مسرعين، وأثناء عملية التجاوز انفتحت على من فيها نيران ثلاث بنادق أوتوماتيكية، فأردت من فيها. ومرة ثالثة يجدون إحدى سيارات الضباط العسكريين، يطلقون عليها النار أثناء التجاوز، فتقلب على جانب الطريق، بعد قتل أو إصابة من فيها.

اشتعلت مدينة الخليل وأصبحت شوكة في حلق المحتلين، بعد سنوات من الغرق في النوم العميق وتبدأ حملات الاعتقالات العشوائية بصورة جنونية، ويدفع الشبان إلى السجون والمعتقلات. عماد وبعض إخوانه غير المكشوفين للاحتلال، ينتقل عائداً إلى غزة ولكن بيده بندقية أوتوماتيكية (أم ١٦) وعدة خزنات من الرصاص، ثم يعود أحد الشباب للخليل، ويعود ببندقية أخرى. الآن يمكن أن يتحول العمل في غزة إلى مقاومة بحق.

إبراهيم يرصد الشباب لرصد أي أهداف إسرائيلية مناسبة فتأتيه الأخبار عن سيارة جيب عسكرية تقوم بالدورية على الطريق العام شرقي حي الشجاعية والذي يسافر عليه مئات بل ألوف العمال للعمل في الداخل، الدورية تتحرك على هذا الطريق ذهاباً وإياباً لتحرس الطريق قبيل أذان الفجر. تتحرك سيارة الجيب على الطريق وفيها ثلاثة جنود، أحدهم السائق، الثاني يجلس وراء رشاش من العيار الثقيل، والثالث يجلس وراء كشاف كهربائي قوي يسلطه على عيون العمال والسائقين على الطريق وعلى جانب الطريق لاستكشافها، ومن ورائه تتقدم سيارة بيجو (٤٠٤) بيضاء اللون، فيها ثلاثة من الشبان، السائق وعماد وجميل، وبيد الآخرين بندقيتا (إم ١٦) وحين أصبحت سيارة البيجو بمحاذاة سيارة الجيب، انفتحت نيران البندقيتين على الجنود الثلاثة فأردتهم على الفور، وارتطمت سيارتهم بجانب الطريق. انسحب المجاهدون بسهولة ويسر، ففقد كانوا قد رسموا خط الانسحاب.

قدمت التعزيزيات حاصرت اعتقلت حققت، ونزلت صحافة العدو في اليوم التالي تتحدث عن الجرأة التي لم يسبق لها مثيل، وعن الجنود الذين يجلسون في غزة مثل شاخصات التدريب.

وبعد أيام خرج المجاهدون لهدف جديد، حافلة إسرائيلية تعود بالعاملين من عبور جمارك رفح على الحدود المصرية، مروا بجوارها وأطلقوا عليها زخات رصاصهم، وبعد أيام على سيارة جيب عسكرية أخرى، يفرض حظر التجول، تجري الاعتقالات والتحقيقات دون جدوى، ومع أول فرصة بعد رفع حظر التجول، يترقب المجاهدون أحد الأهداف ويطلقون عليه النار. وبدأ المحللون الإسرائيليون يؤكدون أن غزة تحولت إلى ثقب أسود في رأس إسرائيل، وتجرأ بعض الساسة، فطالبوا بالانسحاب غير المشروط من غزة، وتفكيك ما فيها من مستوطنات، وإنشاء جدار فاصل حولها وتركها وشأنها.

المجاهدون يستقلون سيارتهم في شارع عمر المختار بغزة، ويبدو أن سيارتين من حرس الحدود تطاردانهم، طلب عماد من السائق الانعطاف من الشارع والتحول إلى شارع الوحدة، افترقت سيارتا حرس الحدود، واحدة ظلت وراءها، والأخرى ذهبت للالتفاف، واضحاً أنها مطاردة مقصودة، ارتبك السائق وارتطمت عجلات السيارة بالرصيف، توقفت سيارة جيب حرس الحدود على بعد أمتار، ونزل منها جنديان يشهران بنادقهما ويناديان على من في السيارة الخروج منها رافعي الأيدي، عماد يجلس في الكرسي الأمامي بسرعة خاطفة، يسحب بندقية، ومن خلال الزجاج الخلفي للسيارة يفتح النار على الجنديين وعلى السيارة، ومن فيها من فوق رؤوس صاحبيه، اللذين يبدآن كذلك بإطلاق النار، بتوقف إطلاق النار بعد أن انطلق السائق بالسيارة من جديد، وأفلت المجاهدون من موت محقق.

ثلاثة من المجاهدين في ظلمة الليل يزحفون وبأيديهم بنادقهم على الرمال الصفراء الناعمة والباردة، في تلك الساعة المبكرة التي تحيط بمستوطنة (عنمي طال) شمال مدينة خان يونس يصلون ويبدأون الحفر في الرمال تحت الأسلاك الشائكة قبيل الفجر باتجاه الأسلاك الشائكة ويزحفون من تحت الأسلاك، حيث يختفون بين الدفيئات الزراعية في انتظار الهدف بعد دقائق تطل سيارة جيب عسكرية تراقب محيط المستوطنة، وعليها كشاف كهربائي، ما إن وصلت حتى فتحت عليها النيران، ظلت السيارة منعطفة للأمام، بضعة أمتار أخرى، ثم توقفت وسار الشبان للتأكد من الإجهاز على الجنود وسحب سلاحهم، والانسحاب من المكان إلى السيارة التي تنتظرهم.

في القدس المحتلة يلتقي أربعة من الشبان من البلدات المحيطة، يخططون لعملية مميزة، ينطلقون بسياراتهم ومعهم بعض الأسلحة البيضاء، والحبال إلى مدينة اللد المحتلة، قبيل الفجر أحد جنود حرس الحدود في طريقه من البيت إلى قاعدته، يسير على جانب الطريق يسرع السائق بالسيارة وينعطف قليلاً ليضرب الجندي بطرف السيارة، فيسقط على الأرض، يتوقف فينزل الآخرون يحملونه للسيارة حيث يخفونه بها، يغلقونها وينطلقون لإكمال مهمتهم، حيث يلقون في مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر رسالة فيها بيان إعلامي، موجه للحكومة الإسرائيلية، يمهلها أربعاً وعشرين ساعة لإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين وسجناء آخرين مقابل إطلاق سراح الجندي "نسيم طوليدانو" بضمانة دبلوماسيين أوروبيين.

جن جنون "اسحق رابين" رئيس الحكومة الإسرائيلية، وقادة جيشه ومخابراته، وانطلق آلاف الجنود يفتشون ويمشطون ويضعون الحواجز ويفحصون كل رائح وغاد، وبصورة هستيرية، عند مرور الأربع والعشرين ساعة دون تنفيذ حكومة رابين ما طلب منها، اعدم الشاب الجندي وألقوا جثته في أحد الأودية القريبة، كي يفهم رابين أنهم إذا هددوا نفذوا. اجتمعت الحكومة الإسرائيلية بحضور كبار القادة العسكريين والأمنيين لتناقش التطورات الأمنية الخطيرة التي طرأت على الواقع، حيث العمليات الفدائية تزداد وتتصاعد والخسائر البشرية لديهم تتضاعف يوماً بعد يوم، تناقشوا وتحاوروا وقدموا الاقتراحات.

تحت جنح الليل وفي كل أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة، في كل مدينة وبلدة وقرية، آلاف الضباط ورجال المخابرات، وعشرات آلاف الجنود معهم مئات المركبات والسيارات والحافلات، في حملة اعتقالات ضخمة لجميع نشطاء التيار الإسلامي من حركة المقاومة الإسلامية حماس والجهاد الإسلامي، حيث يتم جمع أربعمائة وخمسة عشر شخصاً من القياديين والناشطين، يحملون في حافلات معصوبي الأعين مقيدي الأيدي، وتنطلق بهم الحافلات شمالاً ساعات من السفر المتواصل حتى الحدود اللبنانية.

هناك يتم إنزالهم حيث يحملون في شاحنات لبنانية تابعة لجيش جنوب لبنان، ويتم الانطلاق بهم من جديد إلى أعماق الجنوب اللبناني، حتى الشريط الأمني، يتم إنزالهم على الحدود ويؤمرون بالسير للأمام وإلا أطلقت عليهم النيران، يتوقف الجميع على الطرف الآخر ويقررون من هنا لن نتزحزح إلا عودة إلى ديارنا، فقد فهموا أنها عملية إبعاد وطرد جماعي جلسوا هناك في البرد، وتحت المطر والجوع لا يتزحزحون، وبدأوا معركتهم الإعلامية والسياسية، لخلق حملة من الضغط على إسرائيل لإرجاعهم، وقد تقاطر مع مرور الوقت الخيرون من أهالي لبنان، منظمات وجمعيات وأحزاباً وأفراداً لدعمهم، وتوفير احتياجاتهم حتى العودة.

أخي حسن كان من بينهم، وقد كانوا يريدون إبعاد إبراهيم، لكنه لم يكن في البيت فنجا من الإبعاد والاعتقال، وخلال أيام قليلة كان خبر المبعدين إلى مرج الزهور في لبنان حديث كل بيت فلسطيني، وحديث كل مجلس، وعلى الفور بدأت خلايا جديدة من المجاهدين تجهز لعمليات فدائية فورية، كي تثبت للحكومة الإسرائيلية وللقادة العسكريين فشل خطتهم، وأن المجاهدين لازالوا يملأون دروب الوطن.

عماد وإخوانه يخرجون بسياراتهم إلى الطريق الشرقي، شرق حي الشجاعية، حيث تتحرك الكثير من المركبات العسكرية الإسرائيلية، حيث أطلقوا نيران بنادقهم على ضابط إسرائيلي يستقل سيارته، وتركوها تتدحرج إلى جانب الطريق، ثم حافلة إسرائيلية توقفت بعد عشرات الأمتار، وألقوا خزنة بندقية فارغة، وضعوا فيها بياناً لرابين، يهدد ويتوعد بالمزيد من العمليات الفدائية، ويؤكد له أن أساليبه لن تزيد المقاومة إلا اشتعالاً.

عدد من الشبان الذين حاولت قوات الاحتلال اعتقالهم في شمال الضفة الغربية، هربوا منها واختفوا في الجبال، تجمعوا معاً وبدأوا يبحثون عن السلاح، وجدوا بعضه بعد مشقة وعناء وأعدوا كميناً على أحد الطرق الجبلية الوعرة، حيث تضطر السيارات إلى تخفيف سرعتها عند قرية برقين، جاءت سيارة الدورية العسكرية، فتحوا عليها نيران بنادقهم، فارتطمت بالسلسلة الجبلية، وقد قتل من فيها من الجنود وانسحب المجاهدون بسلام.

في نابلس إحدى دوريات الحراسة والمراقبة التي تحتل سقف إحدى البنايات العالية تمت مراقبتها طويلاً، وتم معرفة وقت تغيير جنودها، حيث يأتي ثلاثة جنود، فينزل الثلاثة الذين في نقطة المراقبة فوق البناية، ويصعد الثلاثة الجدد. اختفى ثلاثة من الشبان بالسكاكين والأسلحة البيضاء في البناية، وانتظروا التغيير، جاءت الدورية الجديدة فنزل الجنود من الموقع، واستقلوا السيارة مغادرين، وبدأ الثلاثة الجدد بصعود السلالم داخل البناية للسقف، فانقض عليهم المجاهدون طعناً وضرباً، أردوهم واستولوا على أسلحتهم.

القوة الخاصة التي سبق واختطفت الجندي "طوليدانو" ، انطلقت بسيارتها من القدس معها بندقية عوزي ومسدس إلى داخل الأرض المحتلة بالقرب من مدينة الخضيرة، بعد منتصف الليل سيارة شرطة إسرائيلية تقف للحراسة، والدورية على جانب الطريق تحت أعمدة الإنارة تتقدم سيارة المجاهدين منها، وتتوقف بجوارها، ويطلق المجاهدون النار على الشرطيين فيردونهما، ويأخذون مسدسيهما، ويغادرون المكان بهدوء عائدين إلى بيوتهم.

أصبح بأيدي المجاهدين عدة قطع سلاح، ولكنها ظلت محدودة، وأقل بكثير من المطلوب، وكان المجاهدون مستعدين للسفر لآخر الكون لجلب السلاح، ولدفع كل شيء مقابل شرائه. عماد يسمع أن لدى أحد الرجال بندقية كلاشينكوف، يبحث عمن يعرفه، ليرسله وسيطاً لشرائها منه، ويذهب الشاب للوساطة، حيث يعرف الرجل أن الوسيط من طريق عماد الذي أصبح رمزاً للجهاد والمقاومة، وغدا اسمه علماً في فلسطين، واستعد على الفور لبيع البندقية عاد الوسيط ليخبر عماداً باستعداد الرجل لبيع الكلاشينكوف، بسعر شرائه، دون أن يأخذ مليماً واحداً زيادة خمسة آلاف دينار أردني، الآن يجب تدبير المبلغ فوراً، إبراهيم يتوجه لمريم زوجته ليقترض منها حليها، ويجمع كل ما لديه من مدخرات، وكذلك آخرون يجمعون المبلغ، ويسلمونه للوسيط الذي يذهب به ويعود بالكلاشينكوف، فيحتضنه المجاهدون واحداً تلو الآخر، وكأنه معشوقة كل واحد منهم، ومعشوقتهم جميعاً.

بعد أيام وبمحض الصدفة يلتقي عماد بأحد الرجال أثناء عودته من إحدى عملياته الفدائية ومطاردة قوات الاحتلال له ولإخوانه المجاهدين، يأخذهم الرجل يؤويهم حتى يزول الخطر أثناء جلوسهم عنده يتعرف على عماد من خلال تعرفه على البندقية (الكلاشينكوف) التي بيده فيعرف عماد انه من باعهم البندقية، ومن خلال الحديث يدرك عماد أن هناك مشكلة، فإما أن الوسيط الذي توسط لشراء البندقية من هذا الرجل قد سلب ألف وخمسمائة دينار من المجاهدين، أو أن هذا الرجل الذي باع البندقية لهم كاذب، وعلى الفور أرسل أحد معاونيه لجلب ذلك الوسيط، أدخله إحدى الغرف ودخل عليه الغرفة، وبيده الخيزرانة يهزها في الهواء سائلاً: كم دفعت للرجل ثمن الكلاشينكوف؟ فيتعلثم ولا يدري ما يجيب، يصرخ عماد: كم دفعت للرجل؟ فلا يجيب فيهوي عليه بالخيزرانة، فيقول بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، فيسأل: وماذا عن باقي المبلغ؟ فيقول: كنت مضطراً إليه وأخذته، وتتضح الحقيقة، فالرجل الذي باع البندقية كان قد اشتراها بأربعة الآف دينار، وحين علم أنها للمجاهدين ولعماد خاصة، باعها بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، بخسارة خمسمائة دينار، حباً وكرامة للجهاد والمجاهدين، ثم يأتي هذا الانتهازي لمجرد عمل ساعة في الوساطة يقتنص ألفاً وخمسمائة دينار من ثمن حليب رضاعة إسراء ومثيلاتها، الذي اقتطعه آباؤهن عن أفواههن ليدعموا الجهاد ومقاومة الاحتلال. طبعاً نال الرجل عدة ضربات بالخيزرانة، وحماماً ساخناً من التوبيخ والتحقير، وأعطى مهلة أسبوعين لإرجاع المبلغ، وإلا فسيسلخ جلده.

من خلال تكثيف حملات المطاردة والتفتيش عن المجاهدين والتحقيقات وراءهم كانوا يضطرون لتغيير أماكن اختفائهم بين الحين والآخر، لذا فقد كان بعض المساعدين يحصرون مهمتهم في البحث عن بيوت مستعدة لهؤلاء المطاردين لإيوائهم لليلة أو أسبوع أو أكثر، عثر أحد المساعدين على أحد الإخوة ممن أبدى استعداده لإيوائهم، فانتقلوا إلى بيته الذي يقع إلى جوار بيوت إخوانه الثلاثة، مشدداً ذلك الرجل على أهل بيته ألا يجعلوا أحداً يشعر بوجود المجاهدين؛ لأن ذلك قد يعرضهم للخطر، ومن خلال هذا البيت يخرج المجاهدون لإحدى عملياتهم، حيث يكمنون على جانب الطريق لدورية، يطلقون عليها النار ثم ينسحبون بهدوء وبشيء من التمويه يدخلون إلى البيت الذي يأويهم.

بعد دخولهم بساعة يأتي أبو العائلة الكبير لبيت ابنه، ويحس بوجود غرباء في البيت، ويدرك ابنه ذلك فيتدارك الأمر، ويخبره أن لديه ضيوفاً لوقت قصير جداً، يجلس الرجل وبعد دقائق ترتسم على شفتيه بسمة عريضة، ويمد أصابعة ليبرم شاربه ويقول فجأة: خذوا راحتكم أيها الشباب، فحقيقتكم لا تخفى على مثلي!!! ارتبك الشباب ونظر بعضهم إلى بعض دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، فواصل الشيخ مختصراً عليهم الحرج رائحة البارود على ثيابكم فقد كنتم تطلقون النار قبل ساعة إلى ساعتين، صعق الشباب وغاص كل واحد في نفسه لا يدري ما يقول، فواصل الشيخ: لا تشعروا بالحرج، فو الله إنكم أحب إليّ من كل شيء في هذا الكون، ثم نظر إلى عماد وقال: لا بد أنك عماد؟ البطل الذي يتحدثون عنه أن له سبعة أرواح، وأنّه دوّخ المحتلين، غرق عماد في عرق خجله وغمغم: أنا عماد يا حج ولكن...قاطعه الشيخ لا لكن ولا غيره، لقد سمع الجميع عن بطولاتك، أنت وإخوانك، سلم الله أيديكم، خذوا راحتكم يا أبطال...خذوا راحتكم، شعر الشباب أن الأمور مكشوفة بحق، وطمأنهم كلام الشيخ، فبادر عماد بالسؤال: ولكن كيف عرفت يا حاج كل ذلك عنا؟ قال الشيخ بعد أن تبسم: إن من يذوق طعم الجهاد، ويتنشق طعم البارود في ساحات الرجولة، لا ينساها يا أبنائي وقد شرفني الله بذلك قبيل ضياع بلادنا، وقد شممت رائحة البارود على ثيابكم، وكان الجدير بكم أن تغيروها فور وصولكم وتلقوها لزوجة محمد كي تغسلها على الفور، افعلوا ذلك في المرات القادمة، تساءل عماد وهو يبتسم: ولكن كيف عرفت أني عماد؟ أجاب الرجل: سمعت ما يقال عن عملياتكم من الأولاد وفي الأخبار، فتصورت بخيالي عيون ذلك المجاهد، حيث رأيتكم وشممت رائحة البارود عرفتك من عيونك، فالعيون لا تكذب يا عماد، العيون لا تكذب يا بني.

في هذه اللحظة دخل محمد قائلاً: هناك إشارة أن قوات الاحتلال تقترب من الحي نهض المجاهدون بسرعة قائلين: هات سلاحنا ولنغادر المكان، قفز الشيخ صارخاً: إلى أين؟ إلى أين؟ فقال عماد: لنختفي بعيداً لئلا يلحقوا الضرر بالأولاد والمباني، عبس الشيخ وانقبض وجهه وصرخ: وهل الأولاد والمباني أغلى منكم؟ لا والله لن تغادروا المكان، وإذا ثبت أنهم في طريقهم إلى هنا، فليصعد كل واحد منكم إلى إحدى بنايات أبنائي الأربعة تمترسوا بها ونحن فيها ولا تستسلموا، وأطلقوا عليهم كل ما معكم من رصاص، ولن يكون إلا ما قدر الله وقضى قاطعة عماد: يا حج لكن...صرخ الشيخ: كفى يا عماد كفى، والله لن تخرجوا من هذا البيت ما دمت حياً في لحظة خطر، ثم إننا لم نزل لا نعرف هل جاءوا علينا ويقصدوننا أم أنها دورية روتينية اجلسوا اجلسوا حتى نرى، وخرج من البيت ليتفحص الأمور بنفسه، وبينما يستعد المجاهدون للمواجهة، عاد الحاج قائلاً: لقد انصرفوا هي دورية عادية، ولا علاقة لها بكم، اجلسوا اجلسوا وحدثوني عن عملياتكم، تعال يا عماد إلى جواري هنا.

أخي محمد لاحظ أن طالبه في مادة الكيمياء ينقب في كتبه عن شيء محدد يشغله وتوجه إليه سائلاً عما يبحث، ظهر الارتباك على ذلك الشاب، ورد متلعثماً: لا شيء لا شيء ابتسم محمد وقال: يا رجل لا تقل لا شيء، وقل لا تريد مساعدتي، فإنك تبحث عن شيء يقلقك ويأخذ بالك، ينظر إليه الشاب مرة أخرى، وقال: الحقيقة أنك صادق، وأنني أبحث عن شيء محدد، ولكن لا عليك، فإنني سأتدبر أمري، ابتسم محمد وقال: دعني أثقل عليك، أنت تبحث عن معادلة معينة وهي موجودة في صفحة رقم (١٣١) من الكتاب، بهت الشاب ونظر إليه باستغراب، وهو يقلب صفحات الكتاب: وما أدراك عما أبحث؟ أجاب محمد وهو يبتسم: افتح على الصفحة وانظر هل عرفت عمّ تبحث بحق أم لا؟ قلب الشاب الصفحات، وفتح على الصفحة المذكورة، ونظر فها فازدادت دهشته ولم يتمكن من إخفائها، وتساءل: كيف عرفت بالله عليك؟ أجاب محمد: شاب مثلك يبحث باجتهاد عن مسألة معينة، ويرتبك حين أسأله، ويخفي أنه يبحث عن شيء، لو كنت تبحث عن شيء عادي لأجبت دون ارتباك، ثم إن العيون لا تكذب يا يحيى، العيون لا تكذب عيونك تخبر بما بين ضلوعك، رغم ما يبدو عليك من هدوء وسكون، قد يظن البعض أن القطة تأكل طعامك لشدة هدوئك، ولكن بداخلك غضب عاصف، ابتسم يحيى وهو يغمغم: صدقني أنني لست كما...ضحك محمد وقال: صدقتك صدقتك.

الفصل الرابع والعشرون

تخرجت من الجامعة وقد حزت على شهادة البكالوريوس في الجيولوجيا من كلية العلوم، تقدمت للوكالة بطلب وظيفة، وانتظرت الرد على الطلب، بينما كنت أزاول أعمال البناء شريكاً كاملاً لإبراهيم، الذي كان يبذل وقتاً في العمل أقل مما أبذل، لكن في الوقت القليل الذي يبذله ينتج الكثير مما يعادل ما أبذل من جهد، وقد كنت راضياً بشراكته من أعماق نفسي، وليس فقط لأنه ابن عمي وصديق طفولتي وزوج أختي، وليس فقط لأنني أعلم أنه يغيب عن العمل لقيامه بدور وطني ممتاز في الترتيب والتخطيط والدعم للمقاومين، وإنما فوق ذلك كله لأنه كان مخلصاً في عمله إلى أبعد الحدود. فحين يأتي للعمل ينتج في الساعة الواحدة ما أعجز عن إنتاجه في ساعات، خاصة وأنه يقوم بالعمل الفني والصعب الذي يجعل الأمور بعده سهلة عليّ وعلى العمال الذين يعملون معنا.

الوظيفة لم تكن تهمني كثيراً، فإن العمل في مجال البناء كان جيداً، وما أحصله من دخل من ورائه ممتاز، ولكن مشكلته الوحيدة أنه يحتاج إلى جهد بدني أكبر، وصورته أنه عمل من لا يحصلون على شهادات جامعية، ولكن كوني حاصلاً على شهادة البكالوريوس في الجيولوجيا بتقدير جيد جداً، كان يُسهل عليّ هذا الأمر.

عاد أخي حسن من إبعاد مرج الزهور بعد أن قضى فيه حوالي عام، حيث تم الاتفاق على تقسيم المبعدين إلى دفعتين: الأولى تعود بعد حوالي عام، والثانية بعد عامين، وقد كان حسن من المجموعة الأولى وقد استقبلناه في البيت وجاءنا المهنئون والمباركون أفواجاً أفواجاً. وكان الكثيرون منهم من أصدقائه من شباب المسجد الذين كانوا يسلمون عليه بالأيدي سلاماً حاراً ثم يبدأوا باحتضانه، حيث يضم كل واحد منهم الآخر إلى صدره بحرارة بالغة عدة مرات وأطفاله يلعبون حوله طيلة الوقت، وهم في فرحة كبيرة بعودة أبيهم بحبورهم ووجودهم في أذياله، وتزداد سعادته حين يبدأ أحد أصدقائه بملاعبة أحد أولاده.

بعد أيام من عودة حسن حدث اشتباك بين مجموعة من المجاهدين وقوات الاحتلال، في شارع النصر بمدينة غزة، الأمر المهم في ذلك هو استشهاد أحد المجاهدين في ذلك الاشتباك، والأهم أن ذلك المجاهد هو صديق إبراهيم ياسر الذي بدأ معه عمل البناء.

لا أدري كيف أصف مشاعري ومشاعر إبراهيم، ومشاعرنا جميعاً في المخيم، كان خليطاً من الفرح والحزن والرضا والغضب والسعادة، والغم.

كنا في فرح على فوز رجل اختار طريقه وقام بواجبه، ففاز بأعلى وأثمن ما يتمناه الرجال ممن في مثل حال شعبنا، وكنا في حزن على فراق رجل نشعر أن فراقه قد ترك فراغاً ليس من السهل أن تملأه أو يملؤه غيره.

فور سماعنا الخبر سقطت دمعة حادة على وجنة إبراهيم، مسحها سريعاً وهو يحاول إخفاء ذلك ثم قال: الحمد لله الذي أكرمه بالشهادة، والله إن ياسراً يستحقها، نسأل الله أن يتقبله في الصالحيين والشهداء، ثم خرجنا مسرعين لنقوم بواجبه، فنقف مع أهله، أقمنا عريشاً كبيراً مغطى (بالشادر) وأحضرنا الكراسي وجلسنا مع عدد من أهله وجيرانه لاستقبال وفود المعزين. رأيت أمه وزوجته في حالة غريبة كذلك، يغالبهما البكاء وأمي إلى جوارها وهما تحاولان أن تواسياها بدلاً من أن تفعل هي ذلك، وتقول إحداهما: الحمد لله لقد نال أسمى ما تمنى...الحمد لله، وقد كان يشدد علينا ألا نبكي عليه قائلاً: الشهداء لا يبكى عليهم ولا يتم العزاء فيهم، وإنما يودعون بالزغاريد، ويبارك لأهلهم باستشهادهم، فتنطلق زغاريد النساء، فلا أمتلك القدرة على حبس دموعي، وأنا أعجب لهذه الحالة التي هي بها، فقد اعتاد شعبنا أن يبكي الشهداء، أما الآن فبالزغاريد يودعون، والأعجب أنهم كانوا يوزعون البقلاوة على الذين جاءوا للعزاء، فيرتبك المعزون هل يرددون كلمات العزاء أم كلمات التهنئة والمباركة.

وبينما نحن في خيمة العزاء جاءت قافلة كبيرة من سيارات ومركبات الاحتلال، داهمت المكان، واقتحمت بعض المركبات الخيمة، فهدتها وكسرت بعض الكراسي، فانفتحت مواجهات عنيفة بين الحشد وبين قوات الاحتلال، بعد انصرافهم أعدنا نصب الخيمة، وعاد تدفق وفود المعزين كما كان دون توقف.

يومها وزعت صور ملونة كبيرة للشهيد وقد تنافس الناس على أن تنالهم إحداها، وألصق الكثير منها على جدران الأزقة في المخيم، فلا تسير في زقاق إلا وصورته أمامك، وصنع الكثيرون لها إطارات وعلقوها على واجهة غرفة الضيوف عندهم. أما إبراهيم فلم يعلق الصورة، وحين سألته لم لا يُعلق صورة صديقه الحميم، قال هي معلقة في أعماق روحي يا أحمد، وقد كانت زوجته حاملاً فقال: لئن رزقت ولداً سأسميه ياسراً إن شاء الله.

يحيى يترك بيرزيت في عطلة نهاية الأسبوع، عائداً إلى قريته، وبعد رؤية أهله خرج لصلاة العصر في المسجد هناك، التقى بأحد أصدقائه وخرج معه للالتقاء ببعض المطاردين من المجاهدين الذين يقيمون في القرية.

جلسوا في تلك الغرفة في (تسوية) أحد البيوت، وبدأ يحيى يشرح لهم أنه بعد البحث فقد عثر على طريقة يمكنه أن يحضر من خلالها نوعاً من المتفجرات... فصرخوا إعجاباً ودهشة وتقديراً وحتى أن بعضهم لم يكن مصدقاً، واصل يحيى بأن المواد الأساسية التي يتم التحضير منها، مواد متوفرة ويسهل الحصول عليها وهي نوع من السماد الكيماوي، ومادة الأسيتون، وعلى الفور انطلق البعض لإحضار ما يلزم. عكف يحيى واثنان من إخوانه على تحضير المادة، يخلطون المواد برفق، فتتصاعد منها أبخرة ذات تأثير قوي، فيضغط أحدهم للخروج للهواء الطلق، ويحيى عاكف لا يفارق.

بعد تجهيز المواد يتم تعبئتها في اسطوانة حديدية، وحملها الثلاثة إلى منطقة خلوية بين الجبال، حيث كسر زجاج لمبة كهربائية، وأدخلوا داخل المادة الحشوة في الأسطوانة ومددوا فيها سلكاً كهربائياً، حيث ابتعدوا عنها عشرات الأمتار، وخفضوا رؤوسهم، وضعوا أصابعهم في آذانهم، ووضع يحيى طرفي السلكين على قطبي البطارية، ولكن شيئاً لم يحدث، لا انفجار كبير ولا صغير.

نظر مرافقاه كل للآخر وإليه كأنهما يقولان: ماذا حدث ولِمَ لَم يحدث الانفجار الذي أوجعت رؤوسنا بالحديث عنه، وقام أحدهما يجري نحو العبوة ليركلها بقدمه، فصرخ عليه يحيى أفهمه مدى جدية الأمر بالعودة وعدم التهور، فصل الأسلاك عن البطارية، وأحضر غصناً طويلاً جرده من الأوراق، واقترب زاحفاً وعرقه يتصبب على جبينه وهو يدفعها بالعصا عدة مرات وهو لا يزال منبطحاً على بطنه لا يرفع رأسه، دفعها عدة مرات حتى تأكد من عدم جاهزيتها للانفجار. فاستندت جالساً.

حينها جاء زميلاه وجلسا إلى جواره لتفحص الأمر، فوجدوا أن سلك الاشتعال (التنجستين) قد كان مقطوعاً، ابتسم يحيى قائلاً: ألم أقل لكما...إذاً فالخلل مجرد خلل فني، وطار أحد زميليه إلى البلدة ليجهز هذه المرة لمبتين كبيرتين، كسروا زجاجهما ووضعوا السلكين بحيث إذا حدث خلل في أحدهما قام الآخر بالدور المطلوب. شبكوا السلك وابتعدوا وانبطحوا وهم يختفون وراء كتلة صخرية، ابتسم يحيى وهو يقول: الآن أغلقا آذانكما، وما أن أغلقا آذانهما وضع طرفي السلك على قطبي البطارية، فجاء صوت الانفجار مزلزلاً، وقد لحقته شظايا صخرية تطايرت من مكان الانفجار، فقام الثلاثة يجرون لمغادرة المكان، قبل أن تأتي قوات الاحتلال ومخابراته على صوت الانفجار، وزميلاه يقبلانه ويحتضنانه، وزهدي يقول الآن سنحضر عبوات كثيرة ونضعها في طريق الدوريات لنريهم الويل.

ابتسم يحيى قائلاً: لا لن نضعها في طريق الدوريات!!، فنظر إليه زهدي مندهشاً إذاً فأين سنضعها؟ ولماذا أجهدنا أنفسنا كل هذا الجهد، إذا كنا لن نستخدمها في عملياتنا ضد الاحتلال، ابتسم يحيى ثانية وقال: إن هذا المحتل الذي يقتل فينا على مدار سنوات منذ بداية الانتفاضة دون أي رحمة أو اعتبار لدم الشهداء رجالاً أو نساءً، كباراً أو صغاراً، وحتى لم يرحم الأطفال أو الرضع، يجب أن يدفع أبهظ ثمن يمكن تحصيله، يجب أن يفهم الآن أننا قادرون على ضرب عمقه، يجب أن نوجه له الضربات تحت الحزام البطن والوجه وليس فقط على الأطراف المحصنة والمدرعة، سأل زهدي: هل تقصد أن نقوم بعمليات في الداخل، أجاب يحيى مبتسماً: نعم، عمليات نوعية انتقائية، قوية جداً توازن عمليات القتل التي ارتكبها المحتلون، طيلة السنوات، حين كنا لا نمتلك إلا الحجر والعصا.

انكب يحيى على تحضير المواد، وانطلق زهدي يبحث عن الهدف، فوجد بعض الشباب ممن يعرفون أحد الملاهي، حيث يجتمع فيه المئات من الإسرائيليين مساء الجمعة، وقد عاد الكثيرون منهم من وحداتهم العسكرية التي تخدم في المناطق، أعدت العبوات وحملت على إحدى السيارات وانطلق بها اثنان من الشباب، لنقلها إلى موقع الهدف، حين اقتربا من الهدف كان في المكان حادث طرق وحركة غير عادية للشرطة، ارتبك السائق ظناً منه أنه المقصود بتلك الحركة، وظهر بعد ذلك رجال الشرطة، وبدأت عملية مطاردة في الشوارع، وصرخ عبد الرؤوف حينها آه لو كانت العبوات جاهزة للتفجير ونحن هنا، فصرخ صاحبه المهم أن ننجو الآن، أو ينجو أحدنا، ثم صرخ عن الالتفافة الأولى سأخفف السرعة، افتح الباب وألق بنفسك خارج السيارة، وتظاهر أنك كنت تسير على جانب الطريق، وصرخ عبد الرؤوف: وأنت! المهم انج أنت، وأنا أحاول، أقلها ينجو أحدنا.

غصت السجون والمعتقلات بالأسرى والمعتقلين، واضطرت سلطات الاحتلال لفتح المزيد منها. أحد هذه المعتقلات كان معتقل الظاهرية، تحيط به الأسلاك الشائكة والأبراج، والبنادق والرشاشات الثقيلة، وخيامه تضج بمن فيها من المعتقلين، الذين يتحرقون للحرية والانطلاق بهم من جديد للانتفاضة والمقاومة خارج المعتقل.

وعلى بعد ليس كبيراً منه ينزوي أحد الشبان وراء أحد السواتر ويخرج من جيبه قطاعة أسلاك ويربطها بحبل رفيع، لكنه متين بطول حوالي متر، يمسك بطرف الحبل وقد تدلت القطاعة من الطرف الآخر ويبدأ يلفها بقوة على طريقة لف المقلاع (النبيطة) وحين تزداد سرعتها وهي في اتجاه اندفاع نحو المعتقل، يفلت الطرف الذي بيده فتطير لتقع داخل الساحة المقابلة...

من داخل إحدى الخيام عينان ترقبان الاتجاه بكل حذر وإرادة في انتظار الإشارة من الخارج بإنجاز المهمة. وفي الظلام الدامس يلمع ضوء خفيف جداً مرتين، فتمتد يد صاحب العينين إلى فمه تغطيه، وهو يردد بصوت حالم: الحمد لله الحمد لله.

مع بزوغ الفجر كان جهاد جالساً في فراشه، فلم ينم طيلة الليل، وإن تظاهر بالنوم ولكن عينيه لم تفارقا تلك الساحة، مع انتهاء العد وانطلاق الشبان للساحة لقضاء الحاجة وغسل وجوههم، كان الأول ممن وصلوا الساحة، وجالت عيناه تمشطان الساحة، ثم انحنى يلتقط القطاعة عن الأرض، ويخفيها في ثيابه، وينخرط داخل الجمع في تلك الساحة، مع حلول ظلام المساء ودخول الليل، زحف نحو الأسلاك من إحدى النقاط المنزوية، والتي لا تنكشف جيداً للبرج القريب.

مد يده وأخرج القطاعة من حزامه وقطع السلك الشائك عدة قطعات محدثاً فجوة فيه وانسل منها للخارج، وبهدوء وخفة انسل وراءه أربعة آخرون من المعتقلين، ثوان محدودة وصلت بينهم وبين الحرية، استمروا بالزحف حتى ابتعدوا عن جدار المعتقل، وعند أول ساتر يقفز الواحد منهم واقفاً على قدميه معانقاً أصحابه، منطلقاً إلى الحرية الواسعة.

قبل طلوع الفجر كان ثلاثة من هؤلاء الشبان قد وصلوا أطراف مدينة الخليل وعثروا على أحد معارفهم الذي سيرسلهم إلى مكان الاختفاء، ويؤمن بعض الطعام والشراب والغطاء وتركهم منطلقاً ليبحث لهم عن زملائهم الذين اختفوا بعد محاولات قوات الاحتلال اعتقالهم، ومع المساء كان أولئك الأخوة قد حضروا إلى المكان، مخبأ أصحابهم وبأيديهم بنادقهم...عانق أحدهما الآخر بحرارة وعانقوا البنادق بحرارة أشد، وجلسوا يستعدون للغد.

تواصلت ظاهرة قتل العملاء، أو المشبوهين بالعمالة مع مخابرات الاحتلال، ففي كل فترة يتم قتل أحدهم وإلقاء جثته أو صلبها، وأحياناً يتم جلد أحدهم، حيث يصلب في أحد الميادين و يجلد أو يعدم.

بدأت ترتفع أصوات من المثقفين تدعو إلى إعادة النظر في هذه القضية وتقييمها ووقفها، ورغم أن العاملين في ميدان المقاومة من المجاهدين والمقاومين كانوا على قناعة بصحة استمرارية ذلك، وضرورتها لاعتبارات مبررة، حيث أن من يتعاون مع الاحتلال يجب قتله أو لاعتبارات مصلحية حيث أن استمرارية المقاومة ونجاحها يعتمد بدرجة كبيرة على تنظيف المجتمع من العملاء، أو بمصطلح أدق فإن نجاح المقاومة واستمراريتها يعتمد بدرجة كبيرة على اقتلاع عيون المحتل التي يرانا بها من الداخل.

جدل كبير ثار في كافة المحافل حول هذه القضية...الطرف المؤيد يطرح الاعتبارين السابقين أما المعارض فيرى أن هناك مبالغة كبيرة في ذلك، وأنها عملية تأكل داخلنا ويجب أن تتوقف. ولما كانت هناك أصوات تتعالى بضرورة وقف الانتفاضة، فلم يكن من السهل التمييز بين هذين الصوتين، وبدوا كأنهما نفس الصوت، ويبدو أن البعض كان يتبنى وجهة النظر في نفس الوقت بوقف الانتفاضة، ووقف ظاهرة القتل بدعوى العمالة مع الاحتلال.

كثيراً ما كان مثل هذا الجدل يثور في لقاءات أخي محمود مع أصدقائه التي تجري في غرفة الضيوف في دارنا، وللحق فقد كان هناك إفراط واضح في هذه الظاهرة، والأخطر في الأمر أنه لم يكن هناك مرجعية وطنية، وحتى لم يكن في الغالب مرجعيات تنظيمية لإصدار القرار في ذلك، وظلت القرارات بأيدي مجموعات من الشبان المتحمسين في الغالب، دون أي رقابة من جهات عليا مسؤولة، كما أن أي رقابة ذات طابع قضائي أو قانوني أو حقوقي كانت غائبة تماماً عن الأمر...وقد كان بعض العارفين والمطلعين على الأمور أمثال محمود يطرحون مثل هذه الأفكار، ولكن كان من الواضح أن تطبيق ذلك أقرب إلى المستحيل، لاعتبارات ذاتية في المقاومة، فصائلها وخلاياها واختلافاتها واعتبارات موضوعية في الظروف التي يفرضها الاحتلال، وما يواكب ذلك من اعتقالات واغتيالات، وتغييب لأصحاب الرأي في السجون أو بالإبعاد، ولكن مما لا شك فيه فقد كان من الواضح أن الاستمرار في الظاهرة دون ضبط هو خطأ كبير، ومما لا شك فيه أن الجهد لم يبذل من المسئولين والمثقفين والقانونيين، في محاولة إيجاد الحل الأمثل لذلك بالاستمرار المضبوط لعلاج الظاهرة مع أقل درجة ممكنة من عمليات القتل، وباجتناب الصورة البشعة والمنفرة منه.

اسم عماد أصبح على كل لسان، وصار رمزاً للبطولة والمقاومة، حتى أن وسائل الإعلام الإسرائيلية بدأت تهتم به بصورة خاصة، ورئيس الوزراء الإسرائيلي رابين أسماه (الشبح) وأخذ يضغط على قادته العسكريين والأمنيين، بضرورة جلب رأسه.

بالمقابل فقد بدأت قوات الاحتلال تتخذ إجراءات أمنية جديدة للحفاظ على أمنها وسلامتها، تم الإعلان عن منع تجاوز أي سيارة يسوقها عربي لأي سيارة عسكرية إسرائيلية أو الاقتراب منها بحيث أنها يجب أن تبعد عنها ما لا يقل عن خمسين متراً...وإذا حاولت السيارات العربية الاقتراب، أو التجاوز شهر عليها السلاح، وأطلق عليها النار، منعت أي سيارة إسرائيلية من التحرك في قطاع غزة بدون مرافقة عسكرية،

ثم منع تحرك أي سيارة عسكرية بشكل منفرد، وأقل تحرك يجب أن يكون بسيارتين عسكريتين، إلى غير ذلك من التضييق على المواطنين والاعتقالات والمداهمات، وعمليات إطلاق النار بمجرد الشبهة وأقل من الشبهة.

وصلت المعلومات عن دورية عسكرية من سيارتي جيب، تتحركان في مخيم جباليا بجوار المقبرة إلى معسكر الجيش في المخيم، في وقت قريب من أول الليل، خطط عماد وإخوانه للعملية، وكمنوا لسيارات الجيب في أزقة المخيم، واحد منهم في زقاق متقدم باتجاه القافلة، واثنان في زقاق متأخر، والزقاقان يطلان على الطريق الذي تتحرك عليه السيارتان في العادة تركوا السيارة الأولى تمر، وتتجاوز مدخل الزقاقين، وقبل أن تصل السيارة الثانية مدخل الزقاق الثاني خرج الثلاثة، الأول المنفرد يطلق النار على ظهر الجيب الأول، والاثنان الآخران يطلقان النار على الجيب الثاني وجهاً لوجه، حيث نزلا للطريق وبدآ بإطلاق النار، كان على بعد ثلاثة أمتار فقط من سيارة الجيب، لم يتمكن الجنود من الرد ولو بطلقة واحدة، قتل الجنود الثلاثة في السيارة الثانية التي خرجت عن الطريق، وأصيب جنود السيارة الأولى، انسحب الثلاثة عبر الأزقة الضيقة إلى سيارة تنتظرهم، على الجانب الآخر، انطلقت بهم لتغادر المخيم.

التعزيزات منع التجول، الاعتقالات، التحقيقات كما هي العادة دون جدوى، وقد اضطر رابين لقطع زيارته لواشنطن، وعاد فور سماعه خبر العملية، انسحب المجاهدون إلى طريق شارع النصر في غزة، حيث كان إبراهيم بانتظارهم بسيارته، ركبوا سيارته بعد أن أخفوا السيارة التي نفذوا بها العملية، وانطلق بهم إلى بيت جديد سيأوون إليه في حي الشجاعية، شرق مدينة غزة، نزل إبراهيم وطرق الباب، فتح الباب لهم فتىً في مقتبل العمر، حين رأى إبراهيم سأل: هل جاءوا معك؟ فأجاب إبراهيم نعم، فدخل الفتى يجري للبيت ثم عاد بعد دقيقة قائلاً: تفضلوا...تفضلوا أهلاً وسهلاً أهلاً وسهلاً، واحمرار وجهه لا يخف مع مرور الوقت...ثم خرج يجري وعاد يجري ويرحب من جديد، كان واضحاً أنه لا يدري ما يفعل من شدة الانفعال وإبراهيم ينظر إلى إخوانه ويبتسم فيبتسمون.

جلس الفتى إلى جوارهم على ذلك الفراش الذي فرش على الأرض، وقال: أنا نضال أهلاً وسهلاً بكم، شرفتمونا، رد إبراهيم: زاد الله شرفكم، تعرف أنا إبراهيم، وهذا أحمد وهذا خالد وهذا عماد، انفعل الفتى من جديد وقال: أنت عماد أهلاً وسهلاً أهلاً وسهلاً، أمي الآن تحضر لكم العشاء، خذوا راحتكم، تمددوا خذوا راحتكم. ثم قام وخرج يجري ليتفحص ما حدث مع العشاء. عاد يجري أطل من الباب وقال: أمي وأبي يريدان

أن تأتيا ليتعرفا عليكم، نظر المجاهدون إلى إبراهيم، فهو من يعرف الناس وهو صاحب القرار، فهز رأسه بالايجاب، ذهب نضال يجري ثم عاد وخلفه أبوه وأمه، الرجل طويل ضخم، تبدو علامات الطيبة على وجهه قرأ السلام ودخل يسلم على الشباب ويصافحهم، والأم وقفت لدى الباب تلفها ثيابها البيضاء وتغطي رأسها، والوقار يجللها، لم تصافح بيدها، وانطلقت منها كلمات الترحاب بدون حدود.

بدأ نضال يعرفها على الضيوف، وهو يكاد يطير فخراً بضيوفه المميزين، رحب الوالدان بالضيوف كل الترحيب، خطت أم نضال للوراء لتخرج قائلة أنا سأذهب لأكمل تجهيز العشاء، خذوا راحتكم يا أولادي، اعتبروا أنفسكم في بيوتكم، وكل ما يخطر ببالكم من طعام أو شراب فقط اطلبوا...الله يحميكم ويرعاكم وخرجت. أبو نضال جلس يرحب بالشباب ويتعرف عليهم.

أم نضال عادت بعد بعض الوقت تحمل صينية طعام، وفوق الرز بعض (الزغاليل) أفراخ الحمام الصغيرة، فقفز نضال يتناول منها الطعام ويضعه أمام الشباب، وهو يقول: تفضلوا تفضلوا، خرجت أم نضال وهي تقول صحتان وعافية وبدأ الموجودون بتناول الطعام، وكان الطعام ليس لذيذاً فقط، بل يقطر بالحب الذي يعمر قلوب هذه العائلة الفلسطينية متوسطة الحال كما هو شأن باقي العائلات تجاه المقاومة ورجالها، وكلما أظهر أحد الشباب نية التوقف عن الطعام ناوله أبو نضال لقمة جديدة ضاغطاً عليه لتناول المزيد، ثم المزيد. شبعوا وقاموا يغسلون أيديهم، ونضال يحمل الصينية خارجاً فيها ليضعها أمام إخوته وأمه الذين جلسوا في غرفة أخرى يتناولون عشاءهم كذلك.

زنازين التحقيق في مقر التحقيق في المسكوبية في القدس يضج بالمعتقلين والسجانون يسحبون هذا لغرفة التحقيق ويرجعون ثانياً من غرفة ثانية، والمحققون يسألون ويضربون ويعذبون ويهددون للوصول إلى كل معلومة عن أحد المقاومين، أو نشطاء الانتفاضة أو أي قطعة سلاح.

في إحدى الغرف ضابط التحقيق يساوم أحد الشبان بأنه إذا وافق على التعامل معهم فإنه سيتم إطلاق سراحه من السجن فوراً، وسيسقطون عنه السجن الذي ستفرضه عليه المحكمة إذا ذهب إليها، وبعد اعتراف إخوانه عليه، قد يحكم عشر سنوات، وسيبدأ بالضغط عليه مرة بالترهيب وأخرى بالترغيب، ووجه الشاب يحمر ويزداد احمراراً. شاب في مقتبل عمره بتجربة محدودة في الحياة يمكن الطمع في تجنيده كعميل للمخابرات الإسرائيلية، والشاب يرفض وضابط المخابرات يضغط عليه، في النهاية أعلن الشاب موافقته. فقام رجل المخابرات يصافحه، ويؤكد له أنهما الآن صديقان.

ويخرج ليحضر أطباق الفاكهة والحلوى، فيضعها أمام الشاب ويدعوه لتناول الطعام مع صديقه الحميم، بينما صديق ثالث يصور الشاب وهو يتناول الفاكهة إلى جوار الضابط الذي يمازحه ويضاحكه، ثم قال له أنه بعد عدة أيام سيخرج للمحكمة، ومن هناك سيقرر القاضي الإفراج عنه، كي تبدو الأمور منطقية، ولا يثير ذلك الشبهات حوله.

يعطيه رقم التلفون للاتصال به عند الضرورة واللزوم، ويعرفه بعنوان شقة في القدس، ليأتي إليها في مطلع الشهر القادم الساعة العاشرة صباحاً، فقط يطرق باب الشقة وسيجده هناك في انتظاره ليتفاهم معه على ما يريد من معلومات، وعلى طريقة الاتصال وما شابه يطلق سراح "ماهر"، فيعود إلى بيته في مخيم عايدة قرب بيت لحم، يأتي الأهل والأقارب والجيران والأصحاب، يسلمون عليه ويهنئونه على سلامته.

ما أن تنتهي تلك السلامات والتهنئات حتى يذهب إلى شيخه ومربيه في المسجد فيخبره بالأمر مؤكداً له أنه ما فعل ذلك إلا ليلقن ذلك الغبي درساً لا ينساه، هو وجهازه وقيادته وأنه سيقتله، يهز الشيخ رأسه موافقاً، فيخرج ماهر إلى ابن عمه ناصر ومحمود ليخبرهما بالأمر، ويطلب مساعدتهما في تنفيذ المهمة، يسألانه عن المكان والزمان، والتفاصيل اللازمة ويعقد الثلاثة العزم على فعل ذلك. في الموعد المحدد يخرج الثلاثة، بيد ماهر مطرقة (شاكوش) عادية، وبأيدي الآخرين سكاكين مطبخ، يخفونها داخل ملابسهم، وينطلقون للقدس، يصلون إلى البناية ويدخلون حتى باب الشقة، يقف ماهر مقابل الباب، وناصر عن اليمين ومحمود عن اليسار، يضغط ماهر على الجرس، فيفتح رجل المخابرات الباب مبتسماً، ويقول ادخل ادخل، ويتلفت داخلاً وهو يقول: أغلق الباب وراءك، يخرج ماهر المطرقة من ملابسه وراء ظهره، ويضربه في مؤخر رأسه فيخر على الأرض، وينقض عليه الثلاثة ضرباً وطعناً.

ثم يغادرون المكان بهدوء وكأن شيئاً لم يكن. ماهر طار بعيداً عن البيت لأنه يدرك أنهم سيأتون لاعتقاله، مع المساء حوصر المخيم وبدأت حملة اعتقالات وأعلن عن موت رجل المخابرات.

قوات كبيرة من جيش الاحتلال على رأسها عدد من ضباط المخابرات، تداهم قرية رافات وتحاصر بيت "أبو يحيى"، وتقتحمه وهم يصرخون: أين يحيى...أين يحيى؟ يحيى لم يكن بالبيت فبعد سماعه بأخبار ما حدث مع السيارة التي كانت تحمل العبوات التي جهزها، لم يعد يبيت في الدار، ولا يزورها إلا نادراً ودون أن يراه أحد، يغادرها سريعاً وقد كان يختفي عند بعض أصدقائه، فتش الجنود الدار وقلبوها رأساً على عقب، صادروا كل كتبه وأوراقه وأدواته وخرجوا بها، واعتقلوا والده للتحقيق معه.

بعد أيام من التحقيق أطلقوا سراحه، أما يحيى فقد انتقل إلى نابلس، واختفى فيها عند بعض إخوانه، حتى تهدأ العاصفة، ثم بدأ بالاتصال بالعديد من الشبان حيث يضمهم إلى خلايا فدائية، ليبدأ العمل في مدن وبلدات شمال الضفة الغربية مجموعة في نابلس، وأخرى في عنبتا وثالثة في طوباس ورابعة في جنين.

ولأنه مطلوب لقوات الاحتلال، يتفق مع مسئولي المجموعات كلاً على حدة أن يتصلوا به عن طريق نقاط ميتة، حيث يتفق مع كل واحد منهم على مكان محدد ليتم من خلاله تبادل الرسائل المكتوبة، حيث ينقلها له شاب غير معروف وغير مطلوب لقوات الاحتلال.

جنوب الضفة الغربية مخيم العروب على الطريق العام الواصل بين بيت لحم إلى الخليل، شباب المخيم يأتون لبيت أحد شباب المخيم... "محمد"، ليباركوا له الإفراج عنه بعد فترة من الاعتقال في معتقل النقب، يهنئون ويباركون، ما إن ينصرف المهنئون وتخلو الدار، وتخف حركة الناس في المخيم، محمد يلبس سترته الشتوية ويغطي رأسه بكوفية حمراء ويتسلل خارجاً من الدار فور خروجه من الدار يريد إخفاء وجهه كيلا يعرفه أحد إن لاقاه في الطريق، يصل إلى أحد البيوت، يطرق الباب طرقاً خفيفاً بصورة منتظمة، يفتح الباب ويخرج "خالد" شاب في مطلع العشرينات من عمره، تغطي وجهه لحية خفيفة، تضفي عليه أناقة فوق أناقة، يسأل خالد هل أخرج السيارة، فيجيب محمد: نعم، بسرعة، ليس لدينا وقت كثير، يخرج خالد سيارته يجلس محمد إلى جواره، وتنطلق السيارة بهما متجهة جنوباً نحو الخليل، وتمر من مركز الخليل وتواصل السير نحو الغرب، خارجة من الخليل إلى بلدة بيت عوا.

يتوقف خالد عند أحد البيوت وينزل مترجلاً إلى باب بيته يطرقه، فيفتح الباب شاب يتحدث معه خالد بضع كلمات، ويرد على الشاب، يخرج من البيت رجل يسلم على خالد، يتحدث خالد معه، ثم يعود بالسيارة برفقة الرجل يصعدان السيارة، وينطلق خالد والرجل ويوجهه إلى الطريق التي عليه أن يسلكها، ثم يشير لبيت قريب قائلاً، هنا توقف، وترجل من السيارة قائلاً: انتظر هنا قليلاً حتى أرى وينزل إلى البيت، وهو يحاول تفحص المكان من حوله، يطرق الباب، يُفتح ويطل منه شخص يتحدث معه ثم يعود للسيارة، طالباً من خالد ومحمد النزول ومرافقته للبيت، يدخلون البيت إلى إحدى الغرف، حيث يجلس خمسة من الشباب، اثنان منهما ممن هربوا قبل وقت من سجن معتقل مجدو، حين يرون محمداً يقفزون على أرجلهم ترحيباً ومعانقة، ويجلس الجميع، يسأل أحدهم: متى أفرج عنك، فيجيب خالد: اليوم، فيضحكون جميعاً ويقول أحدهم محمد كالنار، لم يستطع الانتظار حتى الغد فابتسم محمد قائلاً: كيف أستطيع الصبر، والله لولا حبي للناس،

وتقديري لهم ولمجيئهم للسلام عليّ، لتركتهم في البيت وجئت فور السلام على والدي وإخواني...فيضحك الشباب ويقول أحدهم رويدك رويدك يا أبا رشدي، فيقول محمد: المهم أنني الحمد لله عثرت عليكم فوراً، ما هي الأخبار؟ ماذا لديكم؟ كم من المجاهدين عندنا؟ ما هي أخبار الذخيرة؟ الملاجئ؟ ما هو استعداد الناس لإيوائكم، هل هناك أهداف مرصودة لاستهدافها؟ ماذا هل كيف متى؟ والشباب يبتسمون في انتظار توقفه علن الأسئلة.

يقول احد الشباب والبسمة لا تفارق شفتيه، وضعنا جيد أيها القائد، وضعنا جيد كنا في انتظار انضمامك فقط، ويبدأ يشرح آخر ما لديهم من أخبار.

جاءني القبول للوظيفة في المدرسة الإعدادية للاجئين، حيث بدأت الدوام فيها، وبدأت أمي على الفور تحدثني عن الزواج، على الفور عبرت إلى ذاكرتي صورة تلك الفتاة التي كنت قد بدأت أحبها، وأرقبها على طريق الجامعة، وانقطعت عن ذلك منذ كلام إبراهيم معي عن الحب الواحد والوحيد، وتساءلت في نفسي: هل أنها لا تزال موجودة لم تتزوج، ولم يخطبها أحد إن عليّ أن أتفحص ذلك فإن كانت لا تزال على ما كانت عليه فقد تحقق ما أريد، ودعوت الله في نفسي أن يجعلها من نصيبي.

كنا قد بدأنا نقضي بداية ليلنا في غرفة والدتي، كل من كان متفرغاً منا ومتواجداً بالبيت في ساعات المساء، يأتي إلى غرفة الوالدة، يأتي هو وزوجته، وقد غطت رأسها طبعاً ما عدا مريم فهي ببيت زوجها وإخوتها، ويأتي معهم أولادهم وبناتهم، نجتمع أحياناً جميعاً، وأحياناً يأتي بعضنا فقط، نجلس نتحدث ونرى الأخبار على التلفاز، نتحدث حولها، نتسلى على بذور البطيخ، أحياناً يحضر أحدهم بعض الفواكه أو الحلويات، تقوم إحداهن لتعد لنا الشاي أو السحلب، نجلس نمضي سهرتنا معاً، نتناقش نتشاجر أحياناً، نختلف أحياناً أخرى، وقليلاً ما نتفق على نفس الموقف من نفس القضية في ظل التناقضات الفكرية في البيت، وبعد مرور شيء من الوقت ينصرف كل منا إلى شقته، وفي العادة وهم يحملون أطفالهم الذين يكون النوم قد غلبهم على أيدي آبائهم أو في حجور وأحضان أمهاتهم.

قوات كبيرة من الجيش وعلى رأسها ضباط مخابرات الخليل، تأتي لإغلاق بيوت الخلية التي سبق اعتقالها في الخليل على خلفية العمليات العسكرية ضد جنود الاحتلال، ويأتون إلى بيت أم جميل يقتحمونه ويبدأون بطرد أهله وإلقاء بعض الأغراض للخارج، بينما بعض الجنود يلحمون النوافذ والأبواب، ضابط المخابرات يدفع أم جميل التي تحاول التثبت ببيتها رافضة الخروج فيدفعها بقوة، فتقع على الأرض، فترفع يدها للسماء وتقول بصوت يسمعه الله يجعلها أيام حياتك الأخيرة، وإن شاء الله شباب الكتائب يقتلونك.

بعد أيام ينطلق ضابط المخابرات بسيارته الحديثة تنهب الأرض نهباً، ومن ورائه سيارة مسرعة، تحاول تجاوزه وفيها عدد من المجاهدين وبنادقهم جاهزة لتصب الجحيم على رأسه ومع تقدم السيارة الثانية، انفتحت منها نيران ثلاث بنادق رشاشة، جعلت السيارة ومن فيها كعصف مأكول.

بعد أيام أخرى يكمن المجاهدون لسيارة حاخام المستوطنات الواقعة في الخليل وحولها، ومع قدومها يرشونها بالنار، فتنقلب في الوادي فيقتل هو ويصاب مرافقه، وينطلق المجاهدون للاختفاء.

تتواصل عمليات المجاهدين في منطقة الخليل والقرى المحيطة بها، فلا تصل إليهم معلومات عن وجود هدف للجيش المحتل أو للمستوطنين إلا انطلقوا يكمنون له وراء الصخور المترامية على جوانب الطرق، أو بالإسراع بسيارة متجاوزة، تمر على بعد عشرات السنتيمترات منه، فتحوله إلى كتلة من لهب وموت وعذاب. هاجموا العديد من سيارات الجيب العسكرية، والعديد من سيارات المستوطنين العادية، والعديد من الحافلات التي تنقل المستوطنين أو الجنود بين مستوطنات المنطقة، ومنها إلى القدس.

في كل يوم عمليات إطلاق نار وقتلى، ولا تمر عدة أيام دون أن يتلقى الاحتلال ضربة هنا أو ضربة هناك، يضرب في الجنوب فيستنفر قواته للجنوب، ويغلق ويحاصر ويعتقل، ويفرض حظر التجول، فتأتيه الضربة في الشمال، فيهب للشمال، فتأتيه في الشرق أو في الغرب، عشرات عشرات العمليات وعشرات من القتلى وقد انقسم المجاهدون إلى فرقتين: إحداهما في الخليل والقرى الجنوبية، والثانية في الخليل والقرى الشمالية، وتأتي الضربات متتالية ومتلاحقة وكل فريق يكمل في عمله، عمل إخوانه في الفريق الآخر.

هناك في مخيم مرج الزهور في الجنوب اللبناني يستلقي جمال على فراشه، ويضع إحدى رجليه فوق رجله الأخرى، وقد نصبها ورجله تهتز طرباً وهو يستمع للأخبار، ويضحك ضحكة خفيفة واثقة، ويقول مخاطباً صديقه عبد الرحمن: ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ فيسأله عبد الرحمن ماذا قلت يا شيخ جمال؟ فيقول: أتذكر تلك القصة التي حدثتكم بها على سفح الجبل في صوريف يوم جئنا لزيارتك، وجاء أخوك الأكبر، وأحضر لنا الطعام وجلس يتحدث معنا؟ أجاب عبد الرحمن:أذكر الموقف بشكل عام، ولكني لا أذكر قصته، أو ما ذكرته أنت حينها، ما هي القصة وماذا قلت؟ قال جمال مبتسماً، القصة التي أخبرتك يومها أنني حين كنت طفلاً، واحتل اليهود الخليل عام ١٩٦٧ وبدأوا يتحركون في المدينة بسهولة، ودون أي معترض، أو دون أي مواجهة، أخذت حجراً على الأرض وألقيته على أحد اليهود وهربت وراء أشجار التفاح.

وبعد وقت سمعت واحداً من أبناء الجيران، ينادي عليّ طالباً مني الخروج، وبأن اليهودي قد ذهب من المكان، وحين خرجت وجدت...قاطعه عبد الرحمن آه...تذكرت، وحين خرجت وجدت اليهودي يشهر مسدسه، وقد هددك وخوفك، فأجاب جمال بالضبط.

فسأل عبد الرحمن وما الذي ذكرك بهذا؟ فأجاب ذكرني بهذا ما تشهده الخليل هذه الأيام من عمليات فدائية متتالية لا تكاد تتوقف رغم الشهداء والحصار، وحظر التجول والعقوبات الجماعية.

خليل اليوم ليست خليل قبل خمس وعشرين سنة، تلك خليل أرادت العيش بهدوء وكسب الرزق، وبناء الثروات، وحرصت على ألا نتصادم مع الاحتلال، ولا مع المستوطنين رغم أنهم لم يتركوا واحداً منا وشأنه، أما خليل اليوم فهي خليل الجهاد والمقاومة والاستشهاد...فيتنهد قائلاً: أرأيت يا جمال كيف أن العمل الهادي، وطول النفس والنار الخفيفة تنضج الأمور وتحدث التغيير، فيبتسم عبد الرحمن قائلاً: صدقت، والحمد لله أن جهدنا لم يذهب هدراً. بل أتشاهد الجيل المقاتل والمستعد للتفاني، الحمد لله، فيبتسم جمال قائلاً: وماذا بعد يا عبد الرحمن؟ وماذا رأيت بعد؟ فإن هذه البداية وسيأتي بإذن الله أعظم بكثير والله إني لأرى الأيام القادمة، وقد اشتعلت أرضنا كلها ناراً تحت أقدام المحتلين، وإني لأراهم يلعنون اليوم الذي نزلوا فيه أرضنا، واحتلوا فيه مقدساتنا.

الفصل الخامس والعشرون

في إحدى الأمسيات، بينما كنا نتسامر في غرفة أمي، قال إبراهيم: أفكر في الذهاب أنا ومريم والأولاد لأسبوع إلى رام الله، لزيارة محمد ولتغيير الأجواء!! أجابت زوجتا محمود وحسن معاً بأن الفكرة ممتازة، وظل محمود وحسن صامتين، أما أمي فكانت تنظر من طرف خفي لملامح وجه إبراهيم، محاولة أن تقرأ من وجهه ما لم تصرح به كلماته، وكأنه أدرك هواجسها فقال موجهاً لها الحديث: ما رأيك يا عمتي؟ وما رأيك أن تأتي معنا، نزورهم لعدة أيام تنفسح في رام الله والضفة الغربية ثم نعود. وكأنها اطمأنت حين دعاها للذهاب فقالت: أنا كبرت ولم أعد قادرة على السفر، فاذهبوا أنتم إن شئتم، فقالت مريم: اذهبي يا أمي فليس هناك تعب فالسيارة ستأخذك من باب البيت هنا إلى باب البيت هناك، والتفتت إلى إبراهيم متسائلة: سنذهب بسيارتنا يا إبراهيم أليس كذلك؟ فأجاب إبراهيم: متى شئت غداً إن شئت أو في أي وقت تشائين بعد يومين بعد أسبوع، فردت دعني أفكر حتى الصباح، وغداً سأرد عليك.

في اليوم التالي اعتذرت أمي عن الذهاب، ودعت لهما بالتوفيق في سفرهما، حيث انطلق إبراهيم بزوجته وابنته إلى رام الله، أثناء الطريق كان يُعرف مريم وإسراء على المناطق التي يمرون بها، وقد توقف في الطريق، حيث نزلوا من السيارة وهو يحمل ياسر، ويخاطبه وهو وأمه وأخته أن هذه أرض بلدنا التي هجر منها جدي وأبي وعمي، أرض بلدتنا الفالوجة، مكثوا بعض الوقت ثم انطلقوا بسيارتهم من جديد، حتى وصلوا رام الله واستقبلهم محمد وزوجته أحسن استقبال وقضوا أول ليلهم في السمر، ثم ذهبوا للنوم، في الصباح ذهب إبراهيم ليوصل محمداً إلى الجامعة، ورغم محاولات محمد ثنيه عن ذلك فقد أصر إلا أن يوصله للجامعة، مبرراً ذلك أنه سيجد في ذلك فرصة للتعرف على الجامعة ورؤيتها.

نزل محمد من السيارة ليذهب إلى عمله،وأوقف إبراهيم السيارة وأغلقها ونزل يتمشى بين الطلاب ليفحص الوجوه، حين وجد أحد الشباب، حيث توسم فيه أنه سيدله إلى من يريد توجه إليه سائلاً إياه عن مبتغاه، فأرشده الطالب لجهة معينة، انطلق إليها، دخل أحد المقاصف وتوجه نحو طاولة يجلس عليها بعض الشبان، بعضهم ملتحون، رد عليهم السلام، وسألهم عن مبتغاه فقام أحدهم ليدله، سار إبراهيم وراءه، حتى أوصله إلى أحد الشبان، واضح أن إبراهيم كان يعرفه من قبل، حيث إنه منذ أن رآه شكر الشاب وتقدم وحده لذلك الشاب "صلاح" الذي استقبله بحرارة بالغة، تحدثا سوياً بعض الوقت، وافترقا على أمل أن يأتيه الشاب بعد قليل إلى سيارته وعاد إبراهيم إلى سيارته، حيث جلس فيها منتظراً.

بعد قليل عاد صلاح وبرفقته شاب آخر، دخلا السيارة، صلاح إلى جواره والآخر في الخلف، انطلقت السيارة بسرعة خفيفة، حيث إن الحديث داخلها كان المقصود، وليس السفر لمكان محدد. بعدما يقارب نصف ساعة من الحديث، ناول إبراهيم الشاب الجديد "مؤمن" رزمة من النقود، أخذها مؤمن وأخفاها في جيبه ثم استدار إبراهيم بسيارته، عائداً صوب الجامعة، حيث أنزل الشابين، ثم انطلق عائداً إلى رام الله، تجول بها حتى ساعة عودة محمد من الجامعة ثم عاد إلى البيت.

مؤمن أنهى يومه الدراسي واستقل السيارة عائداً إلى بيته في بلدة بيت حنينا القريبة من القدس وفي المساء توجه للمسجد ليصلي المغرب، حيث التقى بأحد أصدقائه، تحدث معه على انفراد حديثاً يبدو جدياً للغاية، ثم تركه وتوجه إلى بيت صديق آخر، طرق باب البيت، فخرج إليه ذلك الصديق، وسارا معاً في الشارع الهادئ، يحدثه مؤمن بجدية واهتمام، وصاحبه يسمع له باهتمام كبير، ويهز رأسه موافقاً.

في اليوم التالي يتوجه مؤمن للجامعة، حيث التقى بصلاح ويخبره أنه جاهز، حيث إن الخلية الآن مستعدة للعمل، فقد تأكد من استعدادية صاحبيه للعمل، صلاح يتوجه إلى رام الله حيث يلتقي إبراهيم ويخبره بالأمر، فيخرج إبراهيم معه في السيارة إلى بيرزيت، حيث يلتقيان مؤمناً، ويسلم إبراهيم مؤمناً علبة صغيرة، ويشد على يديه داعياً له بالتوفيق والنجاح.

في المساء يخرج مؤمن وأخويه بسيارة أحداهما التي تتبع للشركة التي يعمل فيها بالقدس وهي شركة إسرائيلية، وعليها كتابات بالعبرية، ويخرجون في جولة استطلاع، على الطرق العامة حول مدينة القدس. اليوم الأول يخرجون تجاه الشمال، واليوم الثاني تجاه الجنوب وهم يتفحصون مستوى الاحتياطات الأمنية لقوات الاحتلال والشرطة، ومستوى حركة السيارات والمارة، ووجود الجنود المنفردين على جانب الطريق، وفي محطات الركاب، وكلما انتبه أحدهم لشيء على جانبي الطريق ينبه صاحبه إليه.

بعد أيام انطلقت السيارة بالثلاثة، مؤمن يجلس في الكرسي الخلفي، وأحد صاحبيه خلف عجلة القيادة، والآخر إلى جواره من المقعد الأمامي، تنطلق بهم السيارة من بيت حنينا نحو الجنوب بعد أن تبتعد عن المنطقة العربية، يخرج كل واحد منهم من جيبه طاقية صغيرة، يضعها اليهود والمتدينون على رؤوسهم، يضعونها على رؤوسهم، وينطلقون بحثاً عن هدف مناسب على جانب الطريق يقف أحد الجنود ببدلته العسكرية

ومعه بندقية، يشير للسيارات المارة لتأخذه إحداها في طريقها، يضع مؤمن رأسه مستنداً على الكرسي، وكأنه نائم من التعب.

تتوقف السيارة فيتقدم الجندي مطلاً من النافذة الأمامية سائلاً السائق بالعبرية إلى المسمية (لتسوبت سميه) فيجيبه حسن بالعبرية اصعد (تعليه) يفتح الباب الخلفي ويصعد للسيارة، بعد انطلاق السيارة بعدة دقائق، وبينما المذياع في السيارة، يبث الأغاني العبرية، شهر مؤمن مسدسه في وجه الجندي، وقد وضع يده على سلاحه، ليمنعه من استخدامه، ويلتفت عبد الكريم نحوه يشهر في وجهه سكينة، يطالبانه بعدم التحرك حرصاً على أمنه وسلامته، ولكنه يحاول التفلت، ويحاول سحب البندقية، يطلق عليه مؤمن عدة طلقات، ويطعنه عبد الكريم عدة طعنات، يأخذون بندقيته الأوتوماتيكية (أم ١٦) ويضعون على وسطه ورقة كبيرة تعلن مسؤولية الكتائب عن خطفه وقتله ويلقونه على جانب الطريق، فيتدحرج في أحد الأودية.

تعرف عبد الرحيم على محمد أبو رشدي، قائد الكتائب في جنوب الضفة الغربية (منطقة الخليل، بيت لحم وقراها) ذهب عبد الرحيم إلى بلدته صوريف، وهو يشعر أن الدنيا لم تعد تتسع له، وهو يعد الساعات والدقائق لمرور هذا الأسبوع، حتى يصبح هناك معنىً عملي لانضمامه لصفوف المجاهدين.

في اليوم التالي حدثت صدامات ومواجهات في البلدة مع قوات الاحتلال التي جاءت لاعتقال أحد الشبان، فتصدى لها أهل البلدة بالحجارة، وأصابوا العديد من الجنود بحجارتهم بجراح، عندما خيم ظلام تلك الليلة وأسدل ستائره على البلدة، قدمت قوات كبيرة من جيش الاحتلال، ومخابراته وبدأت بحملة اعتقالات واسعة بين شبان البلدة، داهمت قوة كبيرة من الجيش بيت خالتي واعتقلت عبد الرحيم، بعد أن أجرت تفتيشاً دقيقاً في البيت، ولم تعثر على شيء سوى بعض الأوراق والبيانات التي يسهل تبرير وجودها، وأنه عثر عليها في الشارع، مثله مثل الكثير من الناس.

جن جنون خالتي فتحية على اعتقال فلذة كبدها وقرة عينها، وكل تشبثها أثناء إخراجهم له من الدار لم يجد نفعاً ولكن ما كان يواسيها بعض الشيء أن عبد الرحيم قد غدا رجلاً ولن تخاف عليه، فقد كان حين اعتقلوه رابط الجأش، رجلاً بكل معنى الكلمة، وظلت كلماته التي قالها لها وهو عند عتبة الباب خارج معهم، يا أماه لا تخافي عليّ فقد أصبحت رجلاً ظلت كلماته هذه تتردد في سمعها فتواسيها،وهي تدعو الله له بالحماية والسلامة والعودة القريبة.

أخذ عبد الرحيم إلى معتقل النقب، حيث حكم عليه بالسجن الإداري لمدة ستة شهور تعرف خلالها على الكثيرين من الشباب والمشايخ والدعاة، واستفاد من وجوده هناك استفادة كبيرة، حيث المجلات الثقافية والتربوية، وحيث القراءة

أبو رشدي وإخوانه شددوا هجماتهم على دوريات قوات الاحتلال ومستوطنيه في المنطقة، فلم يكد يمر يوم إلا وهاجموا إحدى تلك الدوريات أو المستوطنين. مرات يهاجمون باستخدام أسلوب السيارة المتجاوزة، وأحياناً أخرى يكمنون لأهدافهم على جانب الطريق، وراء تلك الصخور التي تترامى على سفح الجبال وبطون الأودية، فلا يجد المحتلون إلا ونيران المجاهدين تنهمر عليهم غزيرة تحصد أرواحهم، قتيلٌ هنا قتيلٌ هناك، وإصابات هنا وقتلى وإصابات هناك.

بعد اعتقال بعض المجاهدين بعد نشاط مكثف لمخابرات العدو وجيشه في المنطقة أصبح اسم (أبو رشدي) وبعض إخوانه الأساسيين معروفاً لقوات الاحتلال، وقد قامت تلك القوات، وعلى رأسها ضباط المخابرات بعدة هجمات لبيت أهله لاعتقاله دون جدوى، حيث أنه فور اعتقال أولئك الأخوة قد ودع أهله، وأخبرهم أنه لن يعود للبيت إلا نادراً، وقد تطول فترة غيابه، وبدأ يتحرك في الجبال القريبة، أو في القرى متخفياً، حيث يبيت عند بعض الأصدقاء أو ا لطيبين ممن يسارعون إلى تلقف رجال المقاومة لإيوائهم، وتقديم العون والمساعدة لهم، ونيل الفضل والأجر بذلك.

كنا نجلس في غرفة أمي في إحدى الأمسيات، نرتشف الشاي ونتسلى على بذور البطيخ، ونتحدث في أمور شتى، جاء وقت الأخبار، فأدار محمد التلفاز على نشرة الأخبار، فإذا بنشرة الأخبار تتحدث عن أن أخباراً تسربت تفيد أن مفاوضات سرية تجري منذ وقت طويل بين الفلسطينيين ممثلين بمندوبين عن منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، في إحدى العواصم الأوروبية، وهناك اقتراب من صيغة اتفاق بين الطرفين.

نادت فائزة "حسن" وبدأ بالتهكم على المفاوضين وهو يستنكر حدوث مثل هذا الأمر حيث إنه يرى أنه لا يجوز التفاوض مع اليهود ولا بأي حال من الأحوال، فالتفاوض معهم يعني الاعتراف بإسرائيل، وحقها في الوجود على أرض فلسطين، وأنه لا يجوز لفلسطيني أياً كان أن يفعل ذلك.

محمود كان يبدي استهجانه لهذا الموقف من حسن، ويستغرب من حشر الدين في مثل هذا الأمر فهذا أمر سياسي، وليس للدين علاقة به، والسياسيون يقدرون الأمور ويتخذون ما يلزم، ويتساءل عن هدف حسن والتيار الإسلامي من هذه الانتفاضة، وما يواكبها من فعاليات ومن شهداء، وتضحيات، هل هذا الجهد جهد عبثي؟ لا هدف له ولا غاية، فقط الموت لأجل الموت!! أم من أجل هدف محدد؟ ويخلص إلى أن الانتفاضة يجب أن تكون لها أهداف سياسية واضحة ومحددة ومعقولة، وان البندقية غير المسيسة هي عملية انتحار وجهد عبثي. فيتساءل إبراهيم: وما هي الأهداف الواضحة والمعقولة حسب رأيك؟ فيجيبه محمود: تطبيق قرارات الشرعية الدولية والتي تنص على قيام دولة فلسطين في الأراضي التي احتلت عام (١٩٦٩)، فيصرخ حسن: يعني أن نعترف بحق إسرائيل فيما يزيد عن (٧٥%) من أراضي فلسطين التاريخية مقابل انسحابها من الضفة الغربية، وقطاع غزة وقيام دولة فلسطينية فيها؟ فيجيبه محمود: نعم، وهل تريد أكثر من ذلك؟ فيصرخ حسن: نعم أريد أكثر من ذلك فإسرائيل دولة مغتصبة قامت على أرضنا، ويجب أن تزول، فيبتسم محمود قائلاً: ومن قال أن إسرائيل يجب ألا تزول، نحن يا أخي لا نتحدث الآن عن شعارات رنانة، نحن نتحدث عن الواقع ومعطيات المرحلة السياسية التي نمر بها...الواقع يقول أن العالم غير جدي في حل قضيتنا حلاً عادلاً، يحقق لنا أهدافنا، والعرب غير قادرين على فعل شيء حاسم، ونحن كفلسطينيين ليس لدينا القدرة على...فقاطعه حسن بغضب وعصبية: ومن قال أنه ليس لدينا القدرة، ألا ترى أننا خلال سنتين قد قتلنا منهم المئات، قاطعه محمود ضاحكاً: وماذا يعني قتل المئات؟ فهم كذلك قتلوا منا أضعاف ذلك، صرخ حسن: المهم أنهم أصبحوا مستعدين لتغيير موقفهم، ألم تسمع تصريحات السياسيين عندهم خلال الفترة الأخيرة عن استعدادهم لترك غزة؟ أجاب محمود: قد سمعت وهذا ما سيحدث يرحلون من غزة والضفة، ونقيم فيها الدولة الفلسطينية، تدخل إبراهيم قائلاً: المشكلة يا محمود ليست في قيام الدولة الفلسطينية، فليس هناك فلسطيني واحد لا يريد قيام الدولة الفلسطينية، ولكن المشكلة في الثمن الذي سندفعه كشعب فلسطيني مقابل قيام الدولة الفلسطينية، تبسم محمود بصورة تهكمية قائلاً: يعني يا فيلسوف المرحلة، هل تعتقد أنه يمكن إقامة دولة بدون الاعتراف بإسرائيل؟ ابتسم إبراهيم قائلاً: نعم، فصرخ محمود: وكيف؟ ومن الذي...قاطعه إبراهيم قائلاً: واضح أن استمرار المقاومة والفعاليات العسكرية التي تلحق بالاحتلال الخسائر البشرية بالإضافة إلى الانتفاضة الشعبية التي تلحق به الضرر السياسي والإعلامي ستجبره على الانسحاب من قطاع غزة والضفة الغربية، وعندها يمكننا إقامة الدولة على أي شبر أرض ينسحب منه العدو، فابتسم محمود مرة أخرى متهكماً قائلاً: وما الفرق يا فيلسوف؟ صرخت مريم: ولماذا تتحدث معه بهذا الشكل؟ قبل أن يرد محمود أشار لها إبراهيم بالهدوء قائلاً: لا تغضبي يا مريم من محمود ودعيه يتصرف بالشكل الذي يحبه، فهو مثل (أبونا) جميعاً.

وأبعد محمود نظرة خجل وقال: المهم ما هو الفرق يا إبراهيم؟ فأجاب إبراهيم: الفرق بين خروج إسرائيل من الضفة وغزة أو أي جزء منها باتفاق أو بدون اتفاق...إذا خرجت باتفاق فذلك يعني أننا سنلتزم كفلسطينيين من طرفنا بالتزامات أقلها الاعتراف بحقهم على أرضنا الباقية، أما إذا خرجوا بدون اتفاق تحت ضغط المقاومة فذلك يعني أننا لم نلتزم بشيء وأن الباب لا زال مفتوحاً أمامنا للمواصلة حالاً وفوراً، أو بعد وقت...حين نجد أن الوقت مناسب لذلك، وهنا هو قاطعه محمود قائلاً: هكذا تعتقدون أن الأمور تسير، هذا قصور نظر سياسي، فأنتم لا تفهمون شيئاً في السياسة ولا في الواقع الذي يحيط بنا وبقضيتنا، وبالواقع العربي الكامل ولا تعرفون شيئاً عن ظروفنا الذاتية، أو الموضوعية.

تدخل حسن محتداً: هكذا أنت يا محمود دائماً، تتهجم وتعمم وتبدأ باستخدام المصطلحات الكبيرة في غير محلها، ظروفنا الذاتية والموضوعية والدراماتيكية والبطيخية ضحك محمود قائلاً: هذا ما قلت وما أقوله دائماً أنكم جاهلون سياسياً، وتحسبون الأمور على بساطتها، صرخ حسن: لا تقل جاهلين ولا تتهجم وناقش باحترام دون تهجمات، حينها تدخلت أمي قائلةً: يكفيكم هذه الليلة قوموا إلى دوركم، فأنا أريد أن أنام، وقد فتحتم لنا رؤوسنا بأحاديثكم في السياسة.

يحيى يختفي عند أحد الأصدقاء في بلدة (قراوة بني حسان) شمال الضفة الغربية وأثناء اختفائه يجهز بعض العبوات حيث ينقلها بعض مساعديه إلى تلك المجموعات التي نظمها واتفق معها على العمل، حيث تقوم تلك المجموعات بنصبها على طريق الدوريات أو المستوطنين الأمر الذي حقق بعض النجاحات المحدودة، ولكنه أدخل دون شك مركباً جديداً في أدوات المعركة، وفي نفس الوقت ظلت قوات الاحتلال بين الحين والآخر تداهم بيت العائلة باحثة عن يحيى، دون جدوى فتقوم بقلب كل ما في الدار من أثاث، تخرب وتكسر وتحطم، وتحقق مع الأم والأب الذين ليس لديهم ما يقولان عن ابنهما.

وفي الأوقات العادية بعيداً على زاوية الشارع المطل على البيت، فيقف أحد الفتيان وقفة مشبوهة، حيث يراقب الدار معظم الوقت، متظاهراً بالتشاغل عما حوله، وبصورة مفضوحة... وقد يأتي يحيى متسللاً من الجهة الخلفية، داخلاً الدار من النافذة، فيقبل يدي والديه ورأسيهما ويقبل طفله الرضيع، يسلم على زوجته، ويتحمم ويغير ملابسه، ثم ينطلق عائداً إلى مخبئه وعمله.

في غزة يلتقي إبراهيم مع عماد واثنين آخرين من المجاهدين .في بيت أبو نضال، يجلسون وحدهم في الغرفة، حيث أحضر لهم نضال الشاي، وغادر الغرفة ليتمكنوا من الحديث في أمورهم الخاصة.

إبراهيم ينقل تقريراً عن دورية مزدوجة من قوات الاحتلال تتكون من سيارتي جيب تتحرك بين الساعة السادسة صباحاً والسابعة صباحاً يومياً على شارع النصر بالقرب من مخيم الشاطئ، ويضع ورقة على الحصيرة أمامهم فيها مخطط تقريبي للشارع والتفرعات عنه، وأخذ يشير بالقلم: هذا الفرع مسدود ببراميل الباطون التي وضعتها قوات الاحتلال، وهذا تفرع يمكن أن تنسحب منه السيارة، وهذا تفرع ترابي، لا يناسب السيارات الدوريات في العادة تأتي من الشمال، وتتجه نحو الشمال، وتتجه نحو الجنوب ولكنها أحياناً تسير باتجاه معاكس، أخذ عمار القلم من يد إبراهيم وقال: يجب أن يكون هناك شخص يعطي إشارة وصول الدورية، واتجاهها نحن نقسم قسمين: القسم الأول يكون هنا مشيراً بالقلم إلى إحدى التفرعات عن الشارع نحو الغرب، والقسم الثاني يكون هنا، مشيراً إلى تفرع آخر جنوب الأول، شخص الإشارة يتحرك على الطريق العام بين التفرعين، منتبهاً لقدوم الدورية واتجاهها لينقل ذلك فوراً للمجموعتين خاصة الثانية، الأبعد عن نقطة قدوم الدورية، وينضم إليها فوراً المجموعة الأولى التي تمر الدورية من أمامها، تتركها تمر، تترك السيارة الأولى منها تمر وبعد تجاوز الثانية تفتح عليها النار، حينها ستكون السيارة الأولى قد وصلت المجموعة الأولى فتقوم بمهاجمتها، وبذلك نوقع السيارتين في الكمين، ولا نمكن إحداهما من مساندة الأخرى، حيث ستغرق كل واحدة منها في النيران التي سنفتحها عليها.

اليوم نخرج لاستطلاع المكان ورؤية طرق الانسحاب، وغداً صباحاً نخرج لذلك إن شاء الله، فيردون إن شاء الله. إبراهيم يواصل: عماد غداً يجب أن أشترك معكم فلم يعد عندي صبر على العمل الاستخباري فقط، ولا بد أن أشارككم في بعض العمليات، يجيب أحد الموجودين لكن...يقاطعه عماد: لا بأس يا إبراهيم لا بأس، مُر علينا الساعة الخامسة والنصف صباح غد.

في الصباح وفي الموعد المحدد يكمن اثنان في التفرع الأول، واثنان في الثاني، وشاب يتمشى على الطريق العام، متظاهراً بانتظاره سيارة تقله إلى عمله، وفي نهاية كل من التفرعين سيارة يجلس سائقها على مقعده خلف عجلة القيادة ومحركها شغال في انتظار الانطلاق، أعلن شاب الإشارة أن الدورية جاءت وأنها تأتي من الشمال،

وانضم للمجموعة المتأخرة، وأصبحت خمس بنادق رشاشة جاهزة، مرت سيارة الجيب الأولى، أمام التفرع الأول، وحين وصلت الثانية اندفع المجاهدان جرياً لرأس التفرع وفتحا نيران بندقيتهما وهما يجربان خلف السيارة.

في نفس الوقت تقدم الثلاثة من التفرع الآخر إلى الشارع الرئيسي حيث قابلوا الدورية الأولى وفتحوا عليها نيران بنادقهم الثلاثة، بدل كل واحد من الخمسة مخزن بندقيته، وأطلق المخزن الثاني طلقات معدودة صدرت من الدوريتين وبصورة غير مركزة، وارتطمت السيارتان بالجدار، وبينما يغرق جنود الاحتلال بدمائهم، انطلق المجاهدون عائدين إلى سياراتهم التي انطلقت تتبختر من المكان.

تعزيزات وقوات كبيرة معاً حضرت للمكان حيث وقف الجنود والضباط ورجال المخابرات والمسعفون في الشارع لفحص الأمور، وتحت شجيرة صغيرة في بستان مجاور للشارع، مد أحد الشبان يده ملقياً قنبلتين يدويتين انفجرتا وأوقعتا عدداً من الجرحى كذلك.

جُن جنون القادة السياسيون والعسكريون والأمنيون الإسرائيليون، ودق أحدهم على الطاولة لمن هو دونه في الرتبة، أنه يريد رأس عماد وبأسرع وقت، فلا يصح الانتظار، ولا بد من تركيز الجهد، ولا بد من مضاعفة ساعات العمل، ومضاعفة الطواقم العاملة، مطلوب تشغيل أكبر عدد من العملاء لقطع رأس عماد عقل.

إبراهيم يذهب إلى ورشة عمله في البناء، في أحد البيوت مع العمال الذين يعملون معه، وبصورة عادية وكأنه لم يكن قبل قليل في تلك المعركة، وينهي عمله عند العصر ويعود إلى البيت، فيغتسل ويبدل ملابسه ويتناول طعامه، ويجلس يلاعب ابنه وابنته، يخرج من البيت لصلاة المغرب في المسجد، ثم يركب سيارته مبتعداً ويعود للبيت بعد العشاء ببعض الوقت، يلتحق هنا في غرفة المؤتمرات الوطنية عند أمي، حيث كان الحديث يدور عن العملية الفدائية التي حدثت صباح اليوم، وأن الحديث يدور أن عماداً كان على رأس منفذيها، والجرأة والشجاعة التي يتمتع بها المنفذون. إبراهيم لم يتدخل وكأن الأمر لا يعنيه مطلقاً، حين أدار محمود التلفاز على نشرة الأخبار، أخذ الحديث عن العملية حيزاً ممتازاً، وجاءت تصريحات بعض القادة الإسرائيليين بعضهم يهدد ويتوعد، وآخرون يدعون للخروج من غزة وتركها وما فيها من مصائب.

ثم جاء الخبر التالي وهو أن الأخبار عن المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية أصبحت مؤكدة حيث صرحت مصادر مطلعة، رفضت الكشف عن اسمها، أن اتفاقاً بين الطرفين شبه جاهز للتوقيع، وأن المفاوضات جرت في العاصمة النرويجية أوسلو تحت غطاء من السرية وأن هناك اتفاقاً مرحلياً سيتم التوقيع عليه قريباً، فقال إبراهيم: ألا ترى أنك مستعجل ومتفائل كثيراً دعنا نرى الاتفاق أولاً حتى نستطيع أن نقيمه، ونقول رأينا فيه.

رد محمود: إن موقفكم معروف من البداية فإنكم ترفضون كل شيء لاعتبارات الصواب أو الخطأ، فإن هذا موقفكم من البداية منذ نشأتكم، تعترضون على كل شيء وترفضون كل شيء، وأنا متوقع رفضكم لأي شيء ولأي اتفاق، فأنتم لا تجيدون سوى المعارضة.

حين تحدثت الأخبار عن اتفاقية أوسلو التي سيتم توقيعها قريباً، والتي عرفت باسم غزة أريحا أولاً، انقسم الشارع الفلسطيني بين مؤيد ومعارض وخرجت في المخيم مظاهرتان على رأس المظاهرة المؤيدة أخي محمود وأصدقاؤه، وعلى رأس المعارضة أخي حسن وأصدقاؤه، والمظاهرتان كانتا حاشدتين والمؤيدون كانوا يهتفون: غزة أريحا البداية...وفي القدس النهاية، وأما المعارضون فكانوا يهتفون: غزة أريحا فضيحة، طلعت منها الريحة.

المظاهرتان سارتا في اتجاهين متعارضين، حيث مرت الأولى بدوريات جيش الاحتلال التي وقفت ترقب ما يجري في المخيم، قام المتظاهرون بإلقاء أغصان الزيتون على دوريات الجيب بينما جنود الاحتلال يشهرون بنادقهم نحو المتظاهرين خشية أن يكون أحد المعارضين قد اندس في هذه المظاهرة، وقد يلقي عليهم قنبلة أو عبوة، أو يطلق عليهم النار وحين مرت المظاهرة الثانية رشق المتظاهرون الدوريات بالحجارة، وقد تصاعد هتافهم حينها: بالروح بالدم نفديك يا فلسطين...القدس لنا لا للظلمة...الويل لهم في الملحمة.

فرد الجنود بإطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع والطلقات المطاطية والبلاستيكية، حين التقت المظاهرتان، كان محمود محمولاً على الأكتاف في هذه، وحسن محمولاً على الأكتاف في الأخرى، وكل يردد شعاراته، هذا يؤيد وهذا يعارض، وللحظة التقت عيونهما فاحتد الهتاف وعلا الصوت وحدثت بعض الاحتكاكات والصدامات الخفيفة، بين بعض المتظاهرين من هنا وهناك. صور القادة كانت تبث على شاشات التلفاز وهم يوقعون الاتفاقية في أوسلو.

وعلى سقف مسجد مصعب بن عمير في حي الزيتون بغزة، كان يكمن فتى لم يبلغ العشرين من عمره يرقب الطريق، وفي بيت مهجور بالقرب من المسجد كان عماد وإبراهيم يكمنان في انتظار صفير الفتى، في يد عماد بندقية (أم ١٦) قصيرة، وفي يد إبراهيم بندقية كلاشينكوف، وعلى جنب كل واحد منهما خزنات إضافية من الرصاص، ومن بعيد أطلت سيارة جيب لدورية من جيش الاحتلال فيها ثلاثة جنود، صفر الفتى صفرته الأولى، فاستعد عماد وإبراهيم، ثم صفر صفرته الثانية، كانت سيارة الجيب قد أصبحت أمام البيت المهجور تركاها تتقدم متراً إضافياً ثم انطلقا يطلقان عليها نيراناً أوتوماتيكية.

انكفأ الجنود الثلاثة على وجوههم، وظلت السيارة مندفعة إلى الأمام حتى ارتطمت بأحد الأبواب لمخازن مقابلة، وعماد وإبراهيم يجريان وراءها وهما يغيران خزانات بنادقهما للمرة الثانية، ويواصلان إطلاق النار، حين ارتطمت السيارة وتوقفت، كان عماد وإبراهيم قد وصلاها، عماد يسحب الجندي من السيارة إلى الأرض، يضع قدمه على رقبته، ويطلق طلقة أخيرة على رأسه، إبراهيم يصور المشهد، ثلاثة مشاهد مع ثلاث صور، حمل عماد وإبراهيم ثلاث بنادق جديدة، كانت سيارة الانسحاب قد وصلت، ركباها وانطلقت بهما.

في نفس الوقت على الطريق العام بين الخليل وبيت لحم كان أربعة من المجاهدين على رأسهم أبو رشدي يكمنون خلف الصخور على جانب الطريق، وفي يد كل واحد منهم بندقية رشاشة أوتوماتيكية...في انتظار مرور أي مركبة إسرائيلية، مرت حافلة تقل عدداً كبيراً من الجنود حين أصبحت قبالتهم انفتحت عليها نيران البنادق الأربعة حمم من الجحيم، اندفعت الحافلة للأمام عشرات الأمتار، ثم توقفت تدريجياً على جانب الطريق، في نفس الوقت وصلت سيارة الانسحاب استقلها المجاهدون، وطارت بهم في إحدى الطرق الفرعية الترابية بين الجبال، سارت السيارة مسافة طويلة مبتعدة عن مكان العملية، وعند إحدى الالتفافات في الطريق المتعرج، وعلى بعد عشرات معدودة من الأمتار كان هناك حاجز للجيش، أربعة جنود من جيش الاحتلال يقفون على جانب الطريق يشهرون أسلحتهم ويشيرون للسيارة بالتوقف سأل خالد السائق ماذا أفعل؟ أجاب أبو رشدي بصوت صارم: تظاهر بأنك تريد التوقف، وحين تصل انطلق بسرعة وكل واحد منا يطلق النار على الجنود الذين يقفون على اتجاهه، نرفع البنادق ونبدأ في نفس اللحظة على بعد خمسة أمتار منهم...جاهزون؟ فرددوا: جاهزون بعون الله.

خففت السيارة سيرها كان يرفرف عليها علم فلسطين، وبجواره غصن من الزيتون للإيهام، ابتسم خالد وهو ينظر للجنود، فابتسموا فصرخ أبو رشدي الآن، فارتفعت أربع بنادق وانفتحت منها النيران كالجحيم على الجنود الذين خروا على الأرض، دون أن يجيبوا (يردوا) برصاصة واحدة، وانطلق خالد بالسيارة مسرعاً، كانت إحدى البنادق قد ارتفعت وانطلق منها الرصاص من فوق رأسه، بعد أن تقدمت السيارة مئات الأمتار، صرخ أبو رشدي: التف وارجع لتتأكد من موتهم، ونأخذ السلاح، فهناك أربع بنادق، خطف خالد مقود السيارة بسرعة وكانت تنطلق بسرعة كبيرة، فالتفت وفقدت توازنها ثم انقلبت على جانبها وتدحرجت في الوادي، انطبق الحديد على رجل أبو رشدي، وأصيب الآخرون برضوض وجروح في رؤوسهم وأنحاء أجسامهم.

صوت الحشود والتعزيزات من قوات الاحتلال بدأ يعلو وصوت طائرة مروحية بدأ يدوي في الجو، ويزداد ارتفاعاً، أفاق المجاهدون من الحادث وبدأوا يحاولون تخليص أنفسهم من السيارة ثم بدأوا بصعوبة قصوى يحاولون إخراج قائدهم وأخيهم، بصعوبة أخرجوه، وبدأ يتكئ على اثنين منهما في التقدم للأمام، صوت الحشود المروحية يرتفع، وواضح أن عملية تمشيط كبرى ستجري في المنطقة، توقف أبو رشدي عن التقدم مع زميله قائلاً: أعطوني ما لديكم من ذخيرة وانطلقوا في الاتجاه الآخر (مشيراً إلى سفح الجبل المجاور) وواصل: أنا سأختبئ وراء صخور هذا الجبل، وسأشتبك معهم أطول فترة يقدرني الله عليها، أنتم انطلقوا في الاتجاه الآخر، هيا، ولكنهم لا يتحركون، ويجيبون بصوت واحد، وكيف نتركك يا أبا رشدي؟ هذا لن يكون، فإما أن ننجو جميعاً أو نستشهد جميعاً، يضحك أبو رشدي قائلاً: ويحكم إن أمامكم عملاً كثيراً، هيا انطلقوا، هاتوا الذخيرة وانطلقوا، هات هات هذا أمر لا يجوز لكم المخالفة انطلقوا هيا هيا...يعطونه الذخيرة ويودعونه وهم يبكون مر البكاء، وينطلقون.

يهتف خالد ليذهب كل واحد منا باتجاه مختلف، فلو ضبط أحدنا نجا الآخران. قوات كبيرة من جنود الاحتلال وصلت وبدأت تحاصر المكان، وبدأ أبو رشدي يطلق عليها النار، من وراء الصخور، ويحاول التنقل من وراء صخرة إلى أخرى محاولاً تغيير اتجاهات إطلاق النار، كي يعتقدوا أن من يطلق النار عدد كبير وليس شخصاً واحداً، وهكذا انشغلت به قوات الاحتلال ما يزيد عن ساعة ونصف، وهو يناوشها حتى شخصت المروحية مكانه وتصفيه بعدة صواريخ، فارتفعت روحه الزكية إلى بارئها إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

خالد وصل إلى طرف قرية قريبة فالتقى أحد سكانها، وأخفاه في بيته، وسارع لتضميد جراحه، وتقديم الطعام والشراب، محفوفاً بالحب والدفء، عبد الرحمن وصل إلى إحدى المستوطنات في المنطقة حيث هناك أدوات بناء، فتمدد على الأرض وقلب عليه الحوض الذي يخلطون به الإسمنت، بعد أن اسند طرفه بقطعة من الحجر كي يتمكن من التنفس ومراقبة ما يحدث، ومحمد تسلق شجرة زيتون معمرة وتمدد فوق أحد أغصانها الغليظة، واستمر اشتباك قوات الاحتلال مع أبي رشدي.

وبعد قصف موقع تحصنه تم تمشيط الجبل فلم يعثروا على أحد سواه فبدأوا يمشطون من جديد، بصورة أدق في الاتجاهات الأخرى، وقف الجنود تحت الشجرة التي تمدد محمد فوق غصنها دون أن يروه، وقد أعمى الله أبصارهم، ولم يقتربوا من طرق المستوطنة، فلا أحد يمكنه الافتراض أن أحد المجاهدين يمكنه الهروب لهذا المكان، والاختفاء به.

ساد التوتر أجواء دارنا خلال الأيام التالية كلها، فقد تجنب كل من محمود وحسن الالتقاء في الدار، ولم يأتيا للجلوس والسمر في غرفة أمي لعدة أيام، وكانا إذا التقيا أشاح كل منهما وجهه عن الآخر، وإذا اضطر أحدهما أن يلقي التحية على الآخر، تمتم بكلمات غير مفهومة، فرد الآخر بكلمات مبهمة غامضة.

أنا وإبراهيم واصلنا الجلوس عند الوالدة، وتابعنا الأخبار والأحداث، وقد أبديت دهشتي وانفعالي بالعمليات الفدائية التي نفذت، حين جاء ذكرها بالأخبار، أما إبراهيم فقد حافظ على وجهه جامداً كالصخر، ولم يتفوه بكلمة تعليق على ذلك، ولكنه انتقد الموقعين على اتفاق أوسلو دون التهجم والشتائم.

أحد أصدقاء أخي محمود ممن جاءوا من الخارج لدخول قوات السلطة لقطاع غزة، جاء لزيارتنا وهو يحمل خبرين: الخبر- أن لنا أخوين من أبينا، ماجداً وخالداً، سيأتيان مع القوات التي ستأتي من الخارج للقطاع، صرخ محمود حين سمع ذلك، صوت آخر هيا نجري لسماعه لي أخوان لا أعرفهما ماجد وخالد، وسيأتيان مع القوات ، يعني أنهما كبيران، نعم إنهم في مطلع العشرينات من أعمارهم، فصرخ محمود وأبي؟ ما هي أخبار أبي؟ فرد الضيف: هذا هو الخبر السيئ فيبدو أنه قد توفي في الأردن بعد ولادة أخويك، من الصدامات التي حدثت هناك. أمي حين سمعت ذلك سقطت على الأرض مغشياً عليها، ونحن قد بدأنا نحاول إفاقتها بتقريب زجاجة الكالونيا من أنفها، كنا كمن ضرب على قفا رأسه بمطرقة.

الفصل السادس والعشرون

الأخبار الجديدة عن وفاة أبي في الأردن وعن أخويّ الشابين اللذين لم نسمع بهما من قبل أخذت وقتاً كبيراً منا ومن أحاديثنا، ومن اهتمامنا في البيت.

أصبح واضحاً أن أبي حين احتلت الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧ خرج منها حياً إلى مصر، ومن مصر استقر في الأردن، حيث تزوج امرأة فلسطينية في مخيم البقعة وأنجبت له توأمين ماجداً وخالداً، وبعد ذلك بأيام استشهد أبي في الصدامات التي حدثت هناك وكبر خالد وماجد مع أمهما في الأردن، وقد توفيت أمهما قبل سنوات، وسوف يأتيان مع القوات الفلسطينية التي سيسمح لها بالدخول إلى غزة وأريحا ضمن الاتفاق.

لم نكن قبل هذه الأيام قد سمعنا شيئاً عن أبينا منذ الاحتلال، واعتقدنا أنه قد استشهد ومرة واحدة نجد أن لنا أخوين شابين وأنهما سيأتيان إلى غزة، وذلك يعني أنهما سينضمان إلى العائلة بصورة أو أخرى. أمي ظلت في حالة ما يشبه الهستيريا إلى عدة أيام، وبدت وكأنها تعيش صدمة نفسية وعصبية، يصعب تجاوزها، وقد انصب كل جهدنا أن نواسيها، وأن نحاول التخفيف عنها، فرغم غياب أبي طيلة تلك السنوات قرابة ثلاثة عقود، إلا أنها ظلت على أمل أن تجده في أحد الأيام حيا يدخل علينا الدار، أما أن يأتي لها خبر زواجه بأخرى وعدم اتصاله بنا لفترة حوالي أربع سنوات منذ مغادرته وحتى وفاته، وأن يصبح له أولاد من زوجة أخرى، وأن يأتي خبر وفاته، وبهذه الصورة، فقد كان من الصعب عليها احتماله.

حاولنا أن نقنعها أن تلك السنوات الأولى بعد الحرب كانت صعبة ولم يكن بالتأكيد قادراً على الاتصال بنا، على كل حال يرحمه الله، فقد أفضى إلى ما قدم، وحجته معه عند ربه ونحن الحمد لله كما ترين أصبحنا رجالاً، وها نحن نملأ سمعها وبصرها، ولا ينقصها شيء ونأتي لها بالقصص ومآسي الآخرين، ونقارن لها حالنا بحال الآخرين وأننا بألف خير، حتى بدأت حالتها بالتحسن والاستقامة بعض الشيء، ولكن كان من الواضح أنها قد ضربت الضربة القاسمة حيث أنها لم تعد بالنشاط والحيوية والقوة التي كانت عليها.

أحد الموضوعات الذي أخذ جزءاً من اهتمامنا في الدار واهتمام الشارع الفلسطيني في هذه الأيام هو كون الجنود الثلاثة الذين قتلوا في عملية حي الزيتون الأخيرة بغزة من الدروز، حيث إن عدداً كبيراً من الشباب الدروز قد التحقوا بحرس الحدود أو الشرطة أو مديرية السجون الإسرائيلية، وهم في عملهم يقومون بواجباتهم على خير ما يقوم به اليهود.

وكثيراً ما قام الجنود من الدروز بممارسات عنيفة وسيئة ضد المتظاهرين أو ضد المجاهدين، أو حتى أن بعضهم قد تجاوز حدود الأدب والخلق، فاعترضوا النساء والصبايا وحاولوا الاعتداء على الأعراض، الأمر الذي خلق أجواء من النقمة، ومشاعر من الغضب اتجاههم.

لكن ذلك لم يصل بأي حال ولا في يوم من الأيام إلى أن يضع المجاهدون المقاومون على قائمة أهدافهم أي استهداف لهؤلاء الجنود الدروز بصورة خاصة، فالشعور بأنهم جزء من شعبنا العربي الفلسطيني ظل يرافق الجميع ولا زال، رغم كل ما حصل منهم، وقد جاءت عملية الزيتون دون أن يكون معروفاً أنهم دروز، فالهدف الواضح والمحدد كان استهداف جنود الاحتلال، دورية من دوريات الاحتلال في سيارة جيب عسكرية رسمية، فيها جنود يلبسون زي جنود الاحتلال ويحملون سلاحهم ويتحدثون لغتهم، ويقومون بمهامهم، وبكل ما يقومون به بالتمام والكمال دون نقص أو محاباة، وهذا ما تم استهدافه.

حين كانت تذكر حقيقة أنهم دروز، كنت أرى معاني الحسرة والألم في عينيّ إبراهيم، ولا شك بأنه كان يقول في أعماق نفسه: آه لو أنهم كانوا يهود!! وحين شاهدنا صور النساء من زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم يبكين موتهم على شاشات التلفاز، لم يستطع إبراهيم كتم زفرة حارقة خرجت من صدره على شكل تأوه حارق ومؤلم، وفي نفس الوقت فقد تعالت أصوات الكثيرين من المثقفين الدروز الوطنيين التي تطالب بضرورة إقناع الشباب الدرزي بالابتعاد عن الخدمة في جيش الاحتلال والعمل ضد الأهل في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتبلورت بعض التجمعات التي تدعو لذلك.

الحوار في هذه القضية ذكّر بجانب آخر منها وهو قضية خدمة الكثير من الشباب البدو والشركس في الجيش الإسرائيلي، حيث يعمل البدو كقصاصي أثر في الجيش الإسرائيلي ويقدمون خدمات كبيرة، ويقومون بمهام خطيرة ضد المقاومة في فلسطين، وفي جنوب لبنان ولا شك بأن قضية البدو أكثر حساسية من قضية الدروز، وأنها تخلق أزمات كبيرة لدى رجال المقاومة حين يجدون أن عمليتهم قد حصدت عدداً منهم بدلاً من حصدها لأرواح الجنود اليهود المحتلين الغاصبين.

كثيراً ما كانت تدور الحوارات التي تحمل وجهات نظر متناقضة بيننا ونحن نتناول هذه القضايا في النقاش إثر ورود خبر يحمل شيئاً من ذلك، لكن الجميع في النهاية كان

يخلص إلى الحقيقة بأن كل من يلبس زيّ الجيش الإسرائيلي، ويحمل سلاحه، ويقوم بمهامه، فإنه لا حرج من استهدافه بعمليات المقاومة.

ومما كان يزيد المعضلة تعقيداً أن التناقض كان كبيراً في مجتمع البدو في الأراضي المحتلة عام (٤٨)، فقد كان أئمة المساجد يرفضون الصلاة على هؤلاء القتلى وتشييع جثامينهم أو الدعاء لهم، والكثير من العائلات كانت ترفض لف توابيت أبنائها بالعلم الإسرائيلي أو أن تجري لها جنازات عسكرية رسمية. وإزاء كل ذلك كان إبراهيم يردد جملته المعتادة: انظروا إلى أي حد نجح اليهود في تجنيد جزء من أبناء شعبنا لحراسة أمنه.

مرة أخرى يطير عقل القادة الإسرائيليين من الجرأة والقوة التي يعمل بها عماد ومن الحرج الشديد الذي يسببه لهم، والذي سيظهرهم بمظهر الهاربين من غزة هروباً من المقاومة وليس خروجاً وفقاً لاتفاق سياسي مع جهة رسمية، قائد المنطقة الجنوبية يجمع ضباطه من الجيش ومن المخابرات ويدق لهم على الطاولة قائلاً: أريد رأس عماد، كل العمل يجب أن يتركز على ذلك فينطلق الجميع ليقوموا بدورهم في ذلك.

آلاف الصور لعماد، بلحية وبدون لحية، بكوفية وبدون كوفية، بشعر طويل وبشعر قصير، بنظارات وبدون نظارات، يتم توزيعها على الجنود الذين ينشرون مئات الحواجز في كل أنحاء القطاع، يفتشون وينقبون ويداهمون البيوت، وعلى رأسهم رجال المخابرات. رجال المخابرات من جانب آخر يتصلون بعملائهم، منهم من يستدعونهم إلى مكاتبهم، ومنهم من يقابلونهم بطريقة التقائهم على جوانب الطرق النائية، يرون صور عماد المختلفة ويطلبون منهم مراقبة النشطاء ممن يعتقد أن يكون له علاقة معهم، أو تردد عليهم والتبليغ الفوري عن كل حركة أو معلومة.

الكثير من النشطاء أصبحوا تحت المراقبة شبه الدائمة وقد لاحظنا أن اثنين كانا يتبادلان مراقبة باب الدار، والكثير من الدور والبيوت التي يعتقد أو يفترض أن عماداً قد يتردد عليه وُضعت تحت المراقبة.

أحد العملاء كان يراقب بيت "أبو نضال" في الشجاعية، فيبدو أنهم اشتبهوا بالبيت أو أفلتت كلمة من أحد الأولاد الصغار في الدار لصديق له، يتباهى بقدوم عماد لبيتهم، وفي مساء أحد الأيام انسل عماد بهدوء إلى دار "أبو نضال"، فاستقبلته العائلة بالحب والوفاء كما هي العادة،وسارعت أم نضال تجهز له الطعام، فقد كان يومها صائماً، ارتفع صوت أذان المغرب ورفع عماد إبريق الماء الفخاري إلى فمه، ليرتشف منه بعض

قطرات وهو يقول: اللهم لك صمت، وعلى رزقك..ففاجأه صوت نضال الذي دخل جارياً: الحارة حوصرت، قوات كبيرة من الجيش تحاصر المنطقة.رد عماد الإبريق دون أن يذوق طعم الماء قائلاً: لا رادّ لأمر الله قد يكون ذلك أمراً روتينياً، ولكن دعونا ننتظر ونرى دون أن نرتبك، وصعد ليرقب المكان من عال.

القوات الخاصة لجيش الاحتلال بدأت تحاصر البيت بصورة خاصة، ومئات فوّهات البنادق تشهر وتوجّه نحوهم، ومن ورائهم مئات ومئات أخرى من الجنود وارتفع صوت مكبر الصوت منادياً على عماد أن يسلم نفسه فقد كشف أمره، ولا داعي للمقاومة، ابتسم عماد مردداً:

أيّ يوميّ من الموت أفِر | يــوم لا يقدر أم يــوم قُدر
يــوم لا يقــدر لا أرهبه | ومن المقدور لا ينجو الحَذِر

وسحب مسدسه عن جنبه وجهزه لإطلاق النار، وظل كامناً على السطح يرقب تقدمهم حين أبصر أحد الجنود يقترب من البيت بصورة جعلته في مدى إطلاق النار، وجّه مسدسه إليه وأطلق عليه رصاصة، أصابته بين عينيه، فانفتحت على المكان الذي أطلقت منه النار مئات البنادق الرشاشة ثم ساد هدوء مطبق، ظن الجميع أن عماداً قد انتقل إلى الرفيق الأعلى.

تقدموا مرة أخرى فقفز عن سطح البيت، وهو يطلق النار ويصرخ مكبراً: الله أكبر الله أكبر، ومرة أخرى انفتحت عليه النيران منهم، فتضرج جسده الطاهر بالدماء الزكية وانفتحت أبواب السماء لاستقبال أحد أبرز رموز المقاومة الفلسطينية في التسعينات من القرن العشرين وظل الجنود يرقبونه عن بعد لا يجرؤون على التقدم ولو بخطوة واحدة، وجاء الصوت من مكبر الصوت منادياً على "أبو نضال" أن يخرج من البيت فخرج، أمروه أن يرفع يديه لأعلى فلم يفعل، أمروه أن يتقدم نحو عماد الممدد على الأرض ليتفحصه، فاقترب وانحنى عليه والدموع تنهمر من عينيه والبنادق موجهة نحوه والأنوار الكاشفة تجعل المكان مثل نور النهار، قلب أبو نضال جثة عماد الطاهرة، والتي كان الرصاص قد جعلها كالعصف المأكول، ووجد دمه الطاهر الزكي ينهمر ويروي الأرض تحت شجرة الزيتون التي تدلت أغصانها عليه بحنو وحب، تحاول حمايته من نسمات الليل وظلمته وهوائه وقسوة العدو المجرم الآثم.

سرى الخبر في الوطن سريان النار في الهشيم، وخرج الناس إلى الأزقة والشوارع والساحات يتظاهرون ويهتفون، بالروح بالدم نفديك يا فلسطين، بالروح بالدم نفديك يا شهيد، بالروح بالدم نفديك يا عماد، وفتحت كل ساحات الوطن في مواجهة عارمة مع قوات الاحتلال وداعاً لروح المجاهد البطل عماد حسين عقل.

وصلنا الخبر في البيت، كما وصل كل البيوت في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم والجميع منا ترقرق الدمع في عينيه، إلا إبراهيم الذي تجمدت عيناه وتغيّر وجهه وانتفض واقفاً، كانت أختي مريم تقف على باب الغرفة، وقد ترقرق الدمع في عينيها، وعلى يديها ياسر وإلى جوارها تقف إسراء وهي تنظر إلى زوجها، الذي صرخ بها قائلاً: هات السلاح يا مريم كلماته كانت كالصاعقة فهذه المرة الأولى التي يظهر إبراهيم حقيقة أمره بهذا الوضوح، ناولتني مريم ابنها ياسر وصعدت السلالم سريعة وعادت وبيدها بندقية كلاشينكوف، وبضعة مخازن مليئة بالرصاص وناولتها لإبراهيم، وهي تمسح دمعها بطرف منديلها وتبتسم.

تناول إبراهيم البندقية، وانحنى يقبل رأس إسراء ثم قبل رأس ياسر، ومسح دمعة أخرى عن وجنة مريم وانطلق خارجاً من الدار وقلوبنا تدعو له أن يحميه الله ويرعاه ويسدد خطاه، تذكرت حينها أمي وهي تهز سرير إسراء وتردد: هاتي منديلي يا واقفة على الباب...هاتي منديلي، هاتي لي سلاحي يا واقفة على الباب...هاتي لي سلاحي، ثم تذكرت صورتها وأنا أحبو إلى جوارها وهي تهز سرير أختي مريم، وتردد نفس الكلمات، وأدركت كم تعني تلك الكلمات التي كنا نرضعها مع حليب أمهاتنا ونحن نسمع كلمات تنغرس في أعماق نفوسنا، وتتجبل مع كريات دمنا، تذكرت ذلك وأنا أرى مريم تلك الريحانة التي كنا نخشى عليها أن تتقصف من نسائم الصبا، تمسح دموعها وهي تفارق فارس أحلامها ورجلها وأبا أبنائها، تناوله السلاح وهي تمسح الدموع دون أن ترتجف لها جفن، ودون أن تلفظ كلمة تردد أو خوف أو تحسب، وتأكدت حينها أننا شعب قوي عظيم لا يمكن أن ينكسر أو يتراجع، أو أن روحاً غريبة لا أدري كنهها تسري في كياننا، فتبث فينا ذلك الاستعداد الغريب للتضحية والفداء بأغلى ما نملك، ويظل صوت أمي يتردد في سمعي (هاتي لي سلاحي يا واقفة على الباب...هاتي لي سلاحي، أبداً ما أرتاحي يا مهجة الفؤاد..أبداً ما أرتاحي، لاحمل سلاحي واقتل سفاحي واصنع نجاحي بدمي والنار...هاتي سلاحي، هاتي سلاحي يا واقفة على الباب...هاتي سلاحي).

كانت سيارات كبار الضباط ورجال المخابرات والإداريين لقوات الاحتلال في قطاع غزة قد غيرت طريق دخولها وخروجها إلى غزة، فبدلاً من أن تسلك الطريق الوسط من المدينة نحو الشرق، والذي يمر من وسط الكثافة السكانية واكتظاظ الحركة في قلب المدينة وشرقها، بدأت تتحرك نحو الغرب مروراً بشارع النصر حتى مفرق السودانية، تتجه غرباً إلى طريق البحر، وقد وصلت لإبراهيم معلومات عن تحرك أحد قادة قوات الاحتلال على هذا الطريق في ساعة محددة من أول الليل بصورة دورية، فقرر استهدافه كرد أولي وسريع انتقاماً لاستشهاد عماد.

في آخر شارع النصر حيث يتفرع طريق يتجه شرقاً إلى جباليا، وغرباً إلى نقطة السودانية على شاطئ البحر، وضعت قوات الاحتلال عدداً من الكتل الإسمنتية التي تجبر السيارات المارة على التوقف لتعطي الأولوية لدوريات الاحتلال، وقد هدموا جدران وسياجات البيارات التي تحيط بالمفرق، وكان نظام منع التجول يسري منذ أول الليل. سيارات قوات الاحتلال كانت إما أن تأتي من الجنوب وحين تصل المفرق تخفف سرعتها ثم تتجه إلى الغرب، أو تأتي من الغرب وحين تصل المفرق تخفف سرعتها كذلك، وتتجه نحو الجنوب _ شارع النصر إلى قلب المدينة وراء الأشجار والبرتقال كانت تلمع ست عشرة عيناً من وراء جذع كل شجرة، تلمع عينان لأحد المجاهدين، صف واحد من العيون في تلك الظلمة من وراء ثماني فوهات البنادق الرشاشة من كلاشينكوفات (أم ١٦) وقد انبطحوا على بطونهم على الأرض، وأصابعهم على الزناد، في انتظار قدوم الهدف المنشود.

سائق سيارة جيب عسكرية للدورية يأتي من الغرب يخفف سرعته وينعطف نحو الجنوب يُسلط أضواء كشافة على الأشجار التي يختفي المجاهدون وراءها، فتحيل المكان إلى نهار،وترفع دقات قلوب المجاهدين، حتى تسمع عن بعد، فهذا ليس هو الهدف ولو انتبه الجنود لبريق عيون أحد المجاهدين أو بريق فوّهة أحد البنادق، فسيفتحون النار على الأشجار، والأهم أن المهمة والعملية ستفسد ولن يتم تنفيذها، ولكن الله سلم، انعطفت سيارة الدورية ثم طارت مبتعدة عن المكان، بعد دقائق سمعت أصوات سيارات تنهب الأرض نهباً، وبدأ صوت الفرامل يكبح اندفاع سيارتي الجيب عند اقترابهما من المفرق.

السيارة جيب عسكري حديث ممن يركبها كبار القادة العسكريين، ومن ورائها جيب عادي للحراسة، خففت السيارتان سرعتهما وجاء صوت إبراهيم قائلاً: الله أكبر بسم الله... الله أكبر، وإذا بالبنادق الثمانية تفتح مرة واحدة كنيران جهنم على السيارتين.

بدأ المجاهدون الثمانية يغيرون خزانات بنادقهم وهم يقفون ويتقدمون جرياً نحو السيارتين ليفرغوها مرة أخرى، ارتطم الجيب الأول بالكتل الإسمنتية، وتوقف ثم ارتطم الجيب الثاني بالسيارة الأولى وتوقف، وكل ما كان منهم من رد أن أحد الجنود في الجيب الثاني، فتح الباب الخلفي وأطل برأسه وبندقيته دون أن يتمكن من إطلاق رصاصة واحدة، انقسم المجاهدون لمجموعتين: الأولى انطلقت شمالاً في طريق زراعي فرعي حيث استقل أفرادها سيارة كانت بانتظارهم وانطلقوا نحو جباليا البلد، عند أحد الانعطافات في الطريق وعلى بعد عشرات الأمتار للأمام توقفت سيارة جيب للدورية، وبدأ أفرادها يضعون الحاجز ويشيرون للسيارة المتقدمة للتوقف.

صرخ إبراهيم على السائق: تظاهر بأنك تريد التوقف، وحين تصل انطلق بأقصى سرعة لديك، وأنتم أطلقوا النار على الدورية، وما إن اقتربت السيارة من الدورية، حتى كانت فوهات البنادق قد أطلت من زجاج السيارة الذي تحطم تحت وابل الرصاص، الذي انهال نحو جنود الدورية الذين تعالت صيحات الذعر والرعب منهم، وتساقطوا على الأرض قتلى وجرحى وانطلقت السيارة بأقصى سرعة.

أحد الجنود كان مختفياً خلف سيارة الجيب، حين تجاوزته السيارة فتح نيران بندقيته عليها، حيث حطم الرصاص الزجاج الخلفي للسيارة، فخفض الجميع رؤوسهم. إحدى الرصاصات مست رأس إبراهيم وحرقت شعره، انعطف السائق في إحدى الشوارع الفرعية فإذا بالشارع مسدود بالبراميل الإسمنتية، ارتبك السائق يريد التراجع، وصرخ إبراهيم: توقف وانزلوا لنتجاوز الحاجز، وننطلق على أقدامنا، نزلوا وتسلقوا البراميل، وقفزوا للجانب الآخر عند أحد الأبواب لأحد البيوت الفاخرة، توقفت سيارة حديثة، ترجل منها رجل عجوز وامرأته تقدم المجاهدون منهم، طالبين مفاتيح السيارة وهم يعدون بإرجاعها، الرجل كان يرتجف أمام أربعة مسلحين، اختطف السائق المفاتيح من يده وانطلق داخلها، وانطلقت السيارة بهم، والعجوز لم تعد قدماه تحملانه فانهار على الأرض.

قال أحد المجاهدين بعد مسافة هذه حقيبة سمسونيت ثقيلة، وقد وضعها على ركبته فإذا هي بعد أن فتحها مليئة بالرزم من الدولارات، عشرات الرُزم، مبلغ يقدر بمليون دولار ضحك إبراهيم قائلاً: لن نستطيع العودة الآن، فلا شك أن قوات الاحتلال ستصل للمكان، وعلى الرجل الانتظار حتى النهار، ومع إشراقة أول خيوط لأشعة الشمس، انطلق أحد الشبان، عائداً لبيت الرجلِ ، دق جرس الباب، فخرجَ الرجلِ، حيّاه الشاب بالسلام وناوله مفتاح السيارة قائلاً: يشكرك المجاهدون شكراً جزيلاً، ويعتذرون عن سوء التصرف، فقد كانوا مضطرين لذلك، الحقيبة كما هي في السيارة، اخرج واستلمها وأحص ما فيها.

الرجل لا يصدق ما يحدث ويغمغم الحمد للرب في السماء، من أنتم من أنتم؟ حماكم الله ووفقكم، والله إنكم تستحقون بأن ينصركم الله، انتظر يا بني انتظر، والشاب ينطلق مغادراً لا يلوي على شيء.

مع ساعات النهار الأولى نزل البيان يعلق على ما حدث، من عملية الانتقام لروح الشهيد البطل، وأعلنت أخبار الراديو عن مقتل عدد من جنود الاحتلال، بينهم قائد القوات الخاصة في جيش الاحتلال في قطاع غزة العقيد "مئير فيتز" فانطلقت الحشود تهتف: تحية للكتائب... كتائب عز الدين.

ثلاثة من مجاهدي الجهاد الإسلامي، يزرعون عبوة ناسفة في الطريق، التي تمر عليها قوات الاحتلال ومستوطنوه، في الضفة الغربية قرب قرية عنزة ويختفون في الظلام بانتظار مرور هدفهم، تأتي سيارة (G.M.C) مارة بالمكان، فيضغط عصام على السلك الكهربائي على قطب البطارية، فيدوي الانفجار عالياً، ويشتعل خزان الوقود، يقتل ثلاثة من المحتلين وينسحب المجاهدون، وبعد أيام توصل التحقيقات إلى معرفة المنفذين، فيعتقل اثنان منهم، ويفلت عصام الذي كان يواصل عملياته وأنشطته.

بعد فترة تصل قوات الاحتلال معلومات عن مكان اختفائه فتهرع قوات كبيرة لمحاصرة المكان، تدعوه للاستسلام، دون مجيب وتبدأ باقتحام المكان، فيطلق النار على القوة المقتحمة، فيقتل ويجرح منهم، ينسحبون وهم يجرون قتلاهم وجرحاهم، ثم يبدأون بقصف المكان حتى يدمروه ويتقدمون من جديد للاقتحام ويفتح عليهم نيرانه من جديد، فينسحبون وتبدأ عملية تدمير كاملة للبيت وتصعد روح "عصام براهنة" الطاهرة لجنات النعيم.

ثلاثة من المجاهدين يستقلون إحدى الحافلات في القدس وهي مكتظة بالركاب الإسرائيليين يشهرون أسلحتهم وعبواتهم، ويعلنون للركاب أن الحافلة مختطفة، كان الهدف هو التفاوض لتحرير الأسرى الفلسطينيين من سجون الاحتلال، انطلقت إحدى الرصاصات من مصدر غير معروف، فأصاب أحد المجاهدين وسقط على أرضية الحافلة، حدث ارتباك وفوضى واصطدمت الحافلة بأحد أعمدة الكهرباء، أطلق المجاهدان النيران، قتلا البعض وأصابا آخرين، ثم نزلا من الحافلة وأوقفا سيارة مارّة واستقلاها مع سائقها، وطلبا منه الانطلاق نحو الجنوب عند الحاجز العسكري، المنصوب عند الخروج من القدس نحو بيت جالا وبيت لحم، قصف الجنود المحتلون السيارة بالصواريخ على كل من فيها.

إبراهيم يُدبر طريقة للسفر والوصول إلى رام الله، هناك التقى ببعض إخوانه المجاهدين، وعلى الفور خرج برفقة اثنين منهم بسيارة إلى منطقة معسكر عوفر العسكري قرب رام الله، لاحظوا سيارة من المستوطنين، تجاوزوها بسرعة وهم يطلقون النار، فقتلوا راكبيها، وانسحبوا للاختفاء حيث هرعت قوات الاحتلال، تحاصر وتفتش دون جدوى.

بعد أيام انطلقوا على طريق القدس- رام الله بحثاً عن هدف جديد، كانت سيارة للمستوطنين قد توقفت إثر عطب أصاب أحد إطاراتها، ونزل ركابها الثلاثة لتبديل الإطار، مرّوا بهم سريعاً وهم يطلقون النار عليهم فقتلوا الثلاثة، وانسحبوا مسرعين لمغادرة المنطقة التي فرض عليها حظر التجول، وقد جنّ جنون مخابرات الاحتلال، فقامت بحملة اعتقالات واسعة في صفوف الناشطين في المنطقة، علها تجد طرف خيط يقود إلى الفاعلين.

أحد المعتقلين كان "عبد المنعم" شاب في مطلع العشرينات من العمر، ناشط وفاعل في الانتفاضة، تعرف في الأيام الأخيرة على إبراهيم وإخوانه المجاهدين ودربوه على السلاح على أمل أن يبدأ العمل الجهادي خلال الأيام القادمة، بعض زملائه الشبان ممن اعتقلوا، خدعوا عند مصائد الجواسيس في التحقيق واعترفوا على أنفسهم، وعليه بفعاليات وأنشطة قد يحاكمون عليها ما لا يقل عن عشر سنوات، اشتد التحقيق على عبد المنعم حول اعترافات أصحابه وهو ينكر ذلك، أخذوه للعصافير فلم يفلحوا في خداعه، جمعوه مع أصحابه ووضعوا لهم أجهزة التنصت والتسجيل دون جدوى، وقد كان حذراً من كل ذلك، وكان فور حديث أحد أصحابه معه حول شيء ما، كان يصرخ عليه زاجراً منكراً معرفته له.

اشتد التحقيق عليه دون جدوى، أحد المحققين دخل عليه وبدأ يساومه على حريته موضحاً أنه يعرف أن عبد المنعم يرفض الاعتراف؛ لأنه لا يريد أن يبقى في السجن، ولكن أصحابه اعترفوا عليه، وسيبقى في السجن خمس عشرة سنة، سواء اعترف أم لا يعترف، وبدأ يساومه، بحيث أنه إذا وافق على التعامل معهم فإنهم حينها سيطلقون سراحه، وتركه يفكر في الأمر ويتخذ قراره، جلس عبد المنعم في زنزانته وحيداً يفكر، الله أكبر قد حانت لحظة حمل السلاح والبدء بالجهاد المسلح، وأداء الواجب وإشفاء الغليل، وقبل أن أفعل شيئاً، تأتي هذه الحبسة على غير موعد في أسوأ توقيت، يا الله يا الله ماذا يحدث لي؟ هل أوافق على التعامل معهم كي أفلت من السجن؟ وبالطبع سأسرع إلى شق طريقي الذي اخترت؟ فكر مرة ومرة ومرات واتخذ قراره.

حين جاء المحقق مرة أخرى ليسأله عن رأيه، أعلن موافقته، فأفهمه ذلك المحقق الذي بدأ يتودد إليه مظهراً الصداقة أنه سيتم عرضه بعد أيام على المحكمة العسكرية التي ستقرر الإفراج عنه، كي لا يثور الشك حوله، وكي يستطيع أن يقوم بعمله، بعد أيام انفتح باب السجن ووقف عبد المنعم خارجه، تنسم الهواء الطلق ويقسم بالله يميناً أنه لن يخون ولن يهون ولن يساوم، انطلق إلى أحد البيوت ليخبر صاحبه أنه يريد رؤية أحد المجاهدين بأسرع وقت لأمر ضروري جداً.

وبعد ساعات جاء الرجل ليخبره أن عليه الانتظار في شارع محدد في ساعة من المساء، انتظر هناك، حيث جاءت سيارة فيها إبراهيم وعبد الرحمن وانطلقت، أخبرهما بما كان وأن هناك موعداً له مع ضابط المخابرات، حيث سيأتي يوم الأربعاء الساعة الخامسة مساءً في شارع محدد في بيتونيا ليأخذه من هناك،

سيتفاهم معه على العمل المطلوب منه إنجازه، واقترح أن ينصبوا له كميناً هناك، حيث تطلق عليه النار وعلى مرافقيه.

في الموعد المحدد كان عبد المنعم يسير على الشارع، جيئة وذهاباً وراء سور حديقة غير مرتفع ببيت مهجور، كمن إبراهيم وعبد الرحمن وبيد كل واحد منهما بندقية كلاشينكوف بانتظار قدوم سيارة المخابرات، وعلى الشارع الخلفي المقابل، كانت سيارة تنتظر بسائقها للانسحاب الفوري من المكان، أطلت سيارة مرسيدس تحمل لوحة ترخيص عربية من بداية الشارع، فحث عبد المنعم خطاه كي تدركه السيارة، مقابل الكمين الذي أعدّه وإخوانه، توقفت السيارة قبالته، وفتح بابها ليدخل إليها، وتقدم عبد المنعم إلى السيارة، الخطة أنه حين تتوقف السيارة ويصل إلى جوارها فإن عليه الانحناء على الأرض، حيث ستفتح على السيارة نيران بندقيتي كلاشن، لكنه لم يرتم وواصل السير، حتى وصل السيارة، ومد يده إلى حزامه، وسحب مسدسه وأطلق النار مباشرة إلى رأس ضابط المخابرات فحطمه، وصوب نحو مرافقه، لكن السائق انطلق بالسيارة بأقصى سرعة، حينها فتح عليه إبراهيم وعبد الرحمن نيران رشاشيهما ثم انطلق الثلاثة يسارعون لمغادرة المكان بالسيارة، التي انطلقت مسرعة لتغادر المكان.

عبد المنعم اختفى في قرية قريبة، وإبراهيم وعبد الرحمن انطلقا للابتعاد إلى الخليل ومحيطها جن جنون مخابرات الاحتلال نتيجة الصفعة التي تلقتها، والتي هزت صورتها ومست كبرياءها وطار رجالها يعملون كل ما يمكن لضبط أو قتل عبد المنعم ومن شاركوه.

عبد المنعم كان اسماً معروفاً ومحدداً عندهم، وزعوا صورته على جنودهم وحواجزهم وعملائهم وبدأت عملية البحث والتنقيب عنه، وقد نجح أحد العملاء في تشخيصه في بلدة قريبة، فاتصل بمشغليه من رجال المخابرات الذين طاروا ليصطادوا فريستهم، انطلقت سيارة شحن متوسطة الحجم تحمل الخضراوات يقودها رجل يلبس الملابس العربية المشهورة، ويغطي رأسه بالكوفية السوداء، وإلى جواره يجلس شخص آخر يلبس نفس الملابس وراء الحافلة التي استقلها عبد المنعم وصديقه زهير، توقفت الحافلة عند أحد المحطات في بلدة الرام، وترجل منها عبد المنعم ومرافقه، توقفت الشاحنة فجأة، ومن وراء صناديق الخضراوات قفز قرابة عشرة الجنود من أفراد القوات الخاصة الذين شهروا أسلحتهم مطالبين عبد المنعم ومرافقه بالاستسلام، ورفع الأيدي، وبدلاً من ذلك أشهرا سلاحهما وبدآ بإطلاق النار، فعاجلتهما رصاصات قوات الاحتلال وسقطا شهيدين، وارتفعت روحهما إلى جنات الخلد في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، في هذا الوقت كان إبراهيم برفقه المجاهدين في الخليل، يحضرون لتنفيذ عمليه

فدائية أخرى، عندما سمعوا الأخبار استقلوا سيارتهم وانطلقوا إلى طريق يؤدي للقدس، حيث تكثر حركة سيارات المستوطنين ودوريات الاحتلال تحديداً بالقرب من مفرق تلة خارصينا التي تؤدي إلى كريات أربع.

على الطريق أوقف أحد المستوطنين سيارته، ونزل هو وأولاده في انتظار إحدى السيارات المسافرة للقدس، لتأخذ أحد أولاده للمعهد الديني، الذي يدرس فيه في القدس، انطلقت سيارة المجاهدين لتمر عن المستوطنين، حيث فتح المجاهدون النار عليهم من بنادقهم فسقطوا يغرقون بدمائهم، قتل المستوطن واثنان آخران، وأصيب آخران، وانطلق المجاهدون ليغادروا المكان إلى إحدى القرى القريبة للاختباء بها حتى تهدأ حملة التفتيشات.

هرعت قوات الاحتلال للمكان تحاصره وتفرض حظر التجول. الخليل لم تهدأ خلال هذه الفترة فكلما رفع نظام حظر التجول وتمكن المجاهدون من الحركة، رصدوا أهدافاً جديدة وخرجوا للانقضاض عليها فلا يمر أسبوع أو أسبوعان إلا قتلوا وجرحوا من جنود المحتلين ومستوطنيه.

الفصل السابع والعشرون

هل هلال شهر رمضان، وانتشرت مع حلوله روح الطهارة والعبادة، حيث يكثر عدد المترددين على المساجد بصورة خاصة، وتحديداً في صلاة الفجر، حيث يخرج الناس للصلاة، بعد أن يكونوا تناولوا طعام سحورهم.

أعداد كبيرة من المصلين تتوافد إلى الحرم الإبراهيمي، يجتمعون في الحرم، يصطفون استعداداً للصلاة، ينهي المؤذن رفع الآذان، فيقف المصلون ليؤدوا صلاة ركعتي سنة الفجر، وينتظر المؤذن بعض الوقت، ثم يقوم الإمام، فيقوم المؤذن يقيم الصلاة ويقف الناس يصححون صفوفهم ويتراصون بين يدي الله، يكبر الإمام تكبيرة الإحرام فيكبر المصلون، ويبدأ صوت الإمام يتلو الفاتحة: ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1] فيأتي صوت الجمع هادراً آمين، فيسود صمت مطبق ثم يبدأ الإمام بقراءة آيات من مطلع سورة الإسراء: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا**﴾ [1] ثم يكبر الإمام ويركع ويرفع من الركوع ويكبر ويسجد، وبينما جميع المصلين سجّداً بين يدي الله، يتسلل أحد المستوطنين طويل القامة بلحيته الشعثاء ويقف على باب المسجد، يرفع بندقيته ويبدأ بإطلاق النار على رؤوس وظهور المصلين وهم سجد بين يدي الله تعالى، ويبدل الخزنة مرة ومرتين وثلاثاً، وصوت الرصاص يتعالى والعشرات من المصلين يلقون ربهم، وهم سجود، حيث ترتفع أرواحهم الطاهرة إلى الملأ الأعلى من حالة السجود بين يدي الله والعشرات يتضرجون جرحى بدمائهم.

يفيق بعض الشبان من هول الصدمة فيقفزون إلى أنبوبة الإطفاء الحديدية، حيث يحملها أحدهم، ويطير بها نحو القاتل الأثيم، ويهوي بها على رأسه ليحطم جمجمته ويهشم رأسه، وترتفع أصوات التكبير، وتبدأ عملية إخلاء الجرحى والشهداء.

يعلن الوطن كل الوطن الحداد على شهداء الحرم الإبراهيمي الشريف وتخرج الجماهير للتظاهر احتجاجاً على المجزرة البشعة، فلا تجد إلا رصاص قوات الاحتلال لها بالمرصاد في كل أزقة وشوارع الوطن.

---

[1] سورة الفاتحة آية (٧)

[1] سورة الإسراء آية (٤)

وكان جيش الاحتلال قد نسي أن حكومته وقعت اتفاقية مع الجانب الفلسطيني قبل أسابيع معدودة، تقضي ببدء انسحابها من غزة وأريحا كمقدمة لاتفاقات سلام، ويحصد رصاص جيش الاحتلال أرواح العشرات، كما يتسبب بإصابة المئات ويخيم السواد على فلسطين التي أثخنتها الجراح والآلام.

وفي نفس الوقت، في أحد بيوت قرية يعبد القسام وفي أحد بيوت بلدة قباطية، في كل واحد من البيتين يلتقي ثلاثة من الشبان، يضعون أيديهم على المصحف ويتعاهدون ويقسمون إلا يهدأ لهم بال ولا يستقر لهم حال حتى ينتقموا لدم الشهداء في حرم إبراهيم الخليل، وبعد أيام معدودة تقترب سيارة خاصة من إحدى الحافلات المليئة بالركاب في مدينة العفولة، داخل الخط الأخضر تصطدم بها بقوة، وحينها تنفجر السيارة انفجاراً هائلاً يؤدي إلى تحطيم الحافلة، ومقتل خمسة من ركابها وإصابة العشرات منهم وفي المارة، وإحداث أضرار بالغة في المكان.

وبعد أيام أخرى يقترب شاب يحمل على وسطه حزاماً ناسفاً من موقف للحافلات في مدينة الخضيرة، ويفجر نفسه بين الوقوف، حيث يقتل عدداً منهم، ويجرح العشرات ويحدث أضراراً بالغة، وتنزل البيانات تؤكد أن هذا جزء من الرد على مجزرة الحرم الإبراهيمي، وقتل المصلين الساجدين بين يدي الله تعالى، وأن البقية ستأتي.

في مدينة الخليل ينسحب عدد من المجاهدين بعد أن كمنوا لإحدى سيارات المستوطنين، وأطلقوا عليها النار، ينسحبون للاختفاء في إحدى الشقق في بناية سكنية كبيرة بمدينة الخليل، وقد كانت قوات الاحتلال ومخابراته في حالة استنفار بعد الضربات الشديدة والمتلاحقة التي شنها عليها المجاهدون، وقد شاهد أحد العملاء المجاهدين وهم يدخلون البناية خلال لحظات كان مئات الجنود من قوات الاحتلال وعلى رأسهم كبار القادة والعسكريين والأمنيين يحاصرون البناية وآلاف الجنود ينتشرون في المدينة وبدأت مكبرات الصوت تنادي طالبة من المجاهدين الخروج من البناية والاستسلام دون جدوى.

طالبت قوات الاحتلال السكان إخلاء البناية، وأثناء خروجهم دققت هوية كل الخارجين واحتجزت البعض منهم ثم نادت مرة أخرى تطالب المجاهدين في البناية للخروج دون مجيب، تقدمت قوات راجلة لتقوم بتمشيط البناية، فتحت عليهم نيران رشاش كثيفة، فعلا صراخ الجنود، وقد أصيب بعضهم وجاء الرد بإطلاق النار المكثف من مئات فوهات البنادق المصوبة نحو البناية، ثم ساد الصمت.

انتظرت قوات الاحتلال بعض الوقت ثم تقدمت وحدة أخرى نحو المبنى، ففتحت عليها النار من جديد، وعلا الصراخ وردوا على النار بنيران جهنمية ثم ساد الصمت، واستدعت قوات الاحتلال إحدى جرافاتها الضخمة، حيث تقدمت نحو البيت للبدء بهدمه، بعد عملية قصف مكثف، تقدمت الجرافة وبدأت تطحن الجدران، وفجأة وبسرعة البرق أطل أحد المجاهدين من بين الحطام وهو يصوب بندقيته نحو سائق الجرافة وأطلق النار على رأسه، فتوقفت الجرافة وقبل أن ينتبه الجنود وقادتهم لما حدث، كانت الأرض قد انشقت وابتلعته.

انفتحت النيران الرشاشة والقذائف الصاروخية على المبنى من جديد، استمر الحصار وعمليات الكر والفر ثلاثة أيام بلياليهن، وكلما اقتربت قوات الاحتلال من المبنى، انفتحت عليهم النار من جديد، وفي نهاية الأمر دمروا البناية تدميراً كاملاً، حيث لم يبق حجر قائم على حجر آخر، ثم جاءت الجرافات للبحث عن جثث المجاهدين للتأكد من وفاتهم.

عاد إبراهيم إلى غزة في الأيام الأخيرة قبيل تسلم السلطة الرسمي للقطاع حيث تقلص وجود القوات الإسرائيلية، وباتت غزة شبه خالية من وجود المحتلين وقواتهم ومؤسساتهم، حيثإن الوضع الأمني أصبح أكثر استقراراً، والخشية في مطاردة قواتهم ورقابة عملائهم قد انخفضت بصورة كبيرة، وقد استقبلناه في الدار بالأحضان والعيون الدامعة من الفرحة بعودته سالماً.

عند عودة إبراهيم كانت مريم شخصاً آخر، غير مريم التي ودعته، وكأنها كانت قد اختزنت رقتها وعواطفها ومشاعرها لحين عودته، فانفجرت بالبكاء، ولم تعد قدماها قادرة على حملها فحاولت الاستناد إلى الجدران، ثم انسابت عليه قاعدة على الأرض، أمي كسرت عزلتها وصمتها وخرجت جارية لاستقبال إبراهيم، تقبله وتتحسس جسده وهو ينكب على يديها ليقبلها.

ومن هذه الليلة عاودنا الجلوس في غرفة أمي، والاجتماع لديها وبصورة طبيعية، فقد ناقشنا تلك الليلة عودة أخوينا ماجد وخالد، وأين وكيف سنستقبلهما؟ وقد كنا في حرج من طرح ذلك أمام أمي، ولكنها كانت المرة الأولى التي نجتمع فيها بهذه الصورة منذ جاءنا الخبر كنا في حرج لذا فقد كان حديثنا في ذلك متقطعاً، وأحدنا لم يتمكن من قول فكرة مكتملة وواضحة ابتسمت أمي قائلة: كأنكم تعتقدون أنني لا أريدهما في الدار عندنا، أنا لا مانع لدي من استقبالهما هنا، وأن يمكثا معنا على الرحب والسعة، فهما عندي مثل أي واحد منكم، وهذه الدار واسعة.

كلمات أمي هذه أزاحت عن صدورنا ثقلاً لا يعلم به إلا الله، فقد كنا نخشى أنها سترفض ذلك وأن جزءاً من عزلتها ناشئ من شعورها بأن أبناء ضرتها الذين أطلوا فجأة سيجلسون لها في دارها وبين أبنائها، وافقنا على أن نفرغ لهما غرفتي مؤقتاً، وأسكن أنا مع أمي في غرفتها حتى نتدبر الأمور بشكل أفضل، كما ناقشنا موضوع السلطة وقدومها وصلاحيتها وطبيعة التعامل معها من قبل القوى المعارضة.

وبالطبع فقد كان محمود يتبنى نظرة واضحة وحاسمة، أن هذه السلطة هي إفراز عن منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ومعنى ذلك أنه يجب أن تكون هناك سلطة واحدة يخضع لها الجميع، وقراراتها وسياساتها واتفاقياتها تلزم الجميع. وهنا كان حسن يحتد وهو يناقش بأن مشروع أوسلو مرفوض من قبل قطاعات وقوى كثيرة في الشعب الفلسطيني، وهو تفريط بالثوابت الوطنية الفلسطينية، وأنه لا يلزم أحداً غير من يريد الالتزام به، أما المقاومة فهي حِل من أمرها، فأحد لم يشاور فصائل المعارضة في ذلك، ولم تتم انتخابات أو استفتاء شعبي عام للفلسطينيين في الداخل والخارج على مثل هذا الاتفاق، وأين يمكن لمحمود أن يطالب قوى وقطاعات ترى في الاتفاق تفريطاً بالحقوق والثوابت أن تحترم هذا الاتفاق، وتلتزم به.

فيقاطعه محمود بأن اتفاق أوسلو هو اتفاق مرحلي وأن غزة وأريحا هي البداية وأن هذا الاتفاق عليه شهود دوليون، وليس من صالحنا كفلسطينيين ونحن نسعى لكسب الاحترام والتعاطف الدولي، أن نظهر وكأننا لا نحترم الاتفاقيات ولا نلتزم بها.

فيهب حسن مقاطعاً بأن من وقع الاتفاق يمكنه احترامه والالتزام به، أما من لم يوقع، ولم يسأل عن رأيه، فليس هناك ما يمكن أن يجبره على الالتزام. فيبتسم محمود وهو يقول: بأن الأيام ستفرض عليكم الالتزام والاحترام للسلطة وللاتفاقيات التي وقعتها، فيصرح حسن أن أحداً لا يمكن أن يفرض علينا ذلك، فيضحك محمود قائلاً: إن لم يلتزم بعصا موسى، فسيلتزم بعصا فرعون غداً، حين يأتي عشرات آلاف المقاتلين من الخارج، ويتم تسليم عشرات آلاف آخرين في الداخل، سنرى من يستطيع أن يخرج على القرارات، فيصرخ حسن : إذاً سيأتي من سيأتي من الخارج لقمع المقاومة ووقف العمليات ضد إسرائيل.

يضحك محمود قائلاً: تستطيع أن تسمي الأمور كيفما شئت أن تسميها نحن نسميها، إن هناك مصلحة وطنية عليا وفرصة تاريخية ليصبح لنا كفلسطينيين كيان سياسي بعد عشرات من سنوات الاحتلال، هذه الفرصة وهذه المصلحة العليا يجب علينا أن نحميها، وأن نفرضها ولو كان البعض من المتحمسين الذين لا يرون أبعد من أطراف أنوفهم، سيتاجرون بهذه الفرصة، ويخاطرون بهذه المصلحة، فسنجد المبرر الأخلاقي والقدرة المادية على ضبطهم ومنعهم من ذلك، فيقول حسن: يا خسارة...يا خسارة ها هي إسرائيل تنجح في تفتيت صفنا الفلسطيني من جديد ، بعد سنوات من الوحدة في ظل الانتفاضة.

فيصرخ محمود: أنتم من تريدون تفتيت وحدة صفنا الفلسطيني، فلماذا لا تعطون القيادة فرصة في هذا المشروع...فيقاطعه حسن: وأي فرصة وفرصة لماذا؟ فرصة لأن يفلت اليهود من ضغط المقاومة التي بدأت تجبره على دفع أثمان باهظة كل يوم من أرواح جنوده ومستوطنيه، وأن ننقسم داخلياً...قاطع محمود: وإلى متى ستستمر هذه المقاومة إلى متى؟ فيجيبه إبراهيم بهدوء وثقة: حتى يضطر الاحتلال للخروج والرحيل دون شروط، ودون التزامات من طرفنا يا محمود، دون أن نصبح شركاء للمحتلين في اتفاقيات تعترف بشرعية وحقيقة وجودهم على أرضنا، فيصرخ محمود: هذا كله مؤقت ولا يلزمنا حين تتغير موازين القوى...فيقاطعه إبراهيم بصوت هادئ: ولكن ما الحاجة إلى الاتفاقيات أنت تدرك وأنا أدرك، وكل مراقب ومتابع يدرك أن إسرائيل إذا لم تجد طرفاً تتفق معه ليستلم المسئولية في قطاع غزة والضفة الغربية ومع استمرار المقاومة والأثمان الباهظة التي يكلفها البقاء هنا، فستخرج مهرولة إذاً، فماذا الاتفاق معها؟ ولماذا إعطاؤها سلم النزول؟ والأهم لماذا هذه القيود التي توضع على السلطة التعاون، الأمن، التنسيق المشترك والدوريات المشتركة، والتنسيق والارتباط؟ لماذا كل هذا وبإمكاننا فرض قواعد أخرى للمعادلة؟ يخرجون هم هروباً تحت ضربات المقاومة، ونحن نظل محررين من كل الالتزامات ومن كل هذه التشكيلات والمسميات والتعقيدات.

يقول محمود حينها: ألا يكفي أن الاتفاقية ستسمح بعودة عشرات آلاف اللاجئين من قوات المقاومة وعائلاتهم، يرد إبراهيم: هذا شيء جيد، وأنت تعرف أن كل فلسطيني يسر بعودة كل لاجئ إلى أرض الوطن، ونحن سنضع كل واحد منهم في مآقي العيون، ونقطع لقمة العيش من أفواهنا لنوفر لهم فرصة الحياة على أرض الوطن، ولكن هذا لا يمكن أن يكون المقابل لذلك الثمن الباهظ وبتوفير سلم النزول للاحتلال بخروج مشرق، وفق اتفاقية بدل الهروب الذليل تحت ضربات المقاومة وبالاتفاقيات الموقعة والتي عليها شهود دوليون التي تعترف بالكيان الصهيوني وحقه على الجزء الأكبر من ترابنا.

فيقول محمود: ولكن هذا كله مجرد بداية، وخلال فترة ستتم المفاوضات على الحل الدائم، وأنت تعرف أن أي اتفاقيات توقع عليها اليوم من موطن الضعف لا يمكن أن تلزمنا في المستقبل حين تتغير معادلة موازين القوى.

تقوم حينها مريم وهي تقول الحمد لله أن اجتمع شملنا من جديد عندك يا أمي، كي نسمع نقاشاتكم السياسية من جديد، دعوني أذهب لأعد لكم الشاي، حينها يقول حسن: يا أخي أنا غير قادر أن أفهم قضية واحدة وهي لماذا تصرون على الحديث عن المفاوضات، حتى أنكم تتحدثون عن مفاوضات الحل الدائم، وهذا يعني أنكم ستتفاوضون مع اليهود فقط، بل في أن التفاوض سيكون على تطبيق القرار (٢٤٢).

يعني أن اليهود قد ضمنوا حدود دولتهم لما قبل الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ وأنهم سيبدءون بمفاوضات على تطبيق القرار، يعني أنهم سيفاوضوننا على القدس الشريف وعلى عودة اللاجئين، وعلى تفكيك المستوطنات، وعلى خط الحدود يعني أنهم ضمنوا أكثر من ٧٥% من أراضي فلسطين التاريخية، وسيبدأون بمنازعتنا على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة...قاطع محمود: لا هذا غير صحيح، فهذا كله منصوص عليه في القرار (٢٤٢) وهو مضمون وحتى هذا كله فهو مؤقت، حتى تتغير موازين القوى...قاطع إبراهيم: صحيح الله يفتح عليك، والانتفاضة والمقاومة كفيلة أن تجبر إسرائيل على الانسحاب دون التزامات منا لا بالاعتراف بها ولا بالتعاون الأمني والتنسيق والارتباط، ولا بتحويل المعركة من معركتنا كفلسطينيين معها إلى معركتنا الداخلية.

يقول محمود:هذا كله الآن لن يجدي نفعاً والمطلوب الآن من الجميع أن يلتزم بوحدانية السلطة أن نعطي الفرصة لما حدث، كي نرى النتائج، ضحك إبراهيم وقال: وكأن مصير الشعب ومستقبل القضية هي حقل تجارب، نعطي الفرصة وننتظر لنرى النتائج،الأمور لا تسير بهذا الشكل، نحن بهذه الطريقة نقامر بتضحيات ودم الشهداء في مقامرة نتائجها معروفة ومحسومة، واليهود لا يمكن أن يعطونا شيئاً إلا وأحذيتنا على رقابهم، وبنادق المقاومة تحصدهم، صرخ محمود قائلاً: ماذا تقول يا رجل؟ إذا كانت الحسابات بهذه الصورة فإن إسرائيل قادرة على سحقنا في دقائق، ضحك إبراهيم قائلاً: إذاً فلماذا لم تسحقنا إن مُركّبات المعادلة ليست مُركّبات قوة عسكرية مادية بحتة يا محمود، فإسرائيل تدرك أن وراءنا أمة عربية وإسلامية، صحيح أنها مفككة، ولكنها لو استخدمت ضدنا القوة بصورة زائدة فإن موازين الكون ستنقلب، إسرائيل غير قادرة على سحقنا؛ لأنها تدرك أنها محكومة بمعادلات كثيرة، وكسر أي معادلة منها تعني أنها ستسحق هي الأخرى كذلك.

بدأت أفواج القادمين من الخارج من رجال المقاومة والثورة الفلسطينية تدخل قطاع غزة، خاصة عن طريق المعبر الحدودي مع مصر، وقد أنست فرحة الجميع بعودة القادمين خلافاتهم السياسية والفكرية، وانطلقت الزغاريد في الكثير من البيوت الفلسطينية بعودة الآباء والأبناء بعد سنوات طويلة في غربة الشتات والترحال بين الدول والأقطار، وشاركنا الجيران فرحتهم بعودة أبنائهم، وانتظرنا عودة أخوينا ماجد وخالد، فقد كانا مِن آخر مَن سيقدمون.

هيأنا الدار لاستقبالهما، حيث نقلت أغراضي لغرفة أمي، وجهزنا لهما سريرين وما يلزم من أدوات وملابس ضرورية، ثم خرجنا لاستقبالهما في الموعد المحدد على الجانب الفلسطيني في نقطة الحدود مع مصر، انتظرنا خروجهما ولم نكن نعرف من ننتظر بالضبط حيث لا صورة عندنا لهما، ولكنا شخصناهما بسرعة من خلال نافذة الحافلة التي أقلتهما، فكونهما توأمين جعلنا نعتقد بالتشابه بينهما، بالإضافة إلى الملامح التي تميزنا جميعاً، وتجعل بيننا قاسماً مشتركاً من التشابه.

صَرخت حين لمحتهما: خالد، ماجد، فالتقينا، ورفعت يدي ملوحاً، صَرخت على إخوتي وإبراهيم ها هما وانطلقت نحو الحافلة، وأنا أتشبث بهما، ومن خلفي محمود وحسن وإبراهيم، ونحن نمد أيدينا لنسلم عليهما، وهما يتدليان من النوافذ، وعيونهما تترقرقان بالدمع فأخيراً بعد سنوات من التشرد واليتم والقطيعة، ها هي عائلتهم تستقبلهما بكل حب ومودة. قلبي كان يخفق بقوة وتلاحق وللحظات كنت أشعر أنني أكاد أسقط مغمى علي وأنا أهتف أنا أحمد وكل واحد من الآخرين يعرف على نفسه، أنا محمود، أنا حسن، أنا محمد، أنا ابن عمك إبراهيم وقبل أن تنطلق الحافلة بسرعة صرخ إبراهيم: سنسبقكما بالسيارة وأول وصولكما إلى السرايا سنكون عندكما إن شاء الله، لوحا بأيديهما وسارعنا إلى السيارة لنلحق بالحافلة.

من يدخل إلى شقته يحمل منها فراشاً وأغطية وطعاماً وشراباً، ويخرج بهما طالباً من إبراهيم أن يوصله إلى مبنى السرايا ليوصل ذلك للمقاومين الجدد من قوات السلطة، يمكن سيمكثون في السرايا للدوام أو من ليس لهم أهل ليعودوا إلى بيوتهم، يدخل إبراهيم كذلك لشقته ويخرج محملاً ويخرج محمود محملاً يحملون ذلك كله على سيارة إبراهيم التي تنطلق إلى السرايا.هناك عند السرايا المئات بل الآلاف من المواطنين، يحملون الفراش والأغطية والأطعمة، ويدخلون ليسلموها للرجال الذين انبهرت عيونهم مما يرون من كرم شعبهم، ففاضت عيونهم بالدمع.

بدأت السلطة الفلسطينية تستلم زمام الأمور في قطاع غزة، وترتب شؤونها تدريجياً، وبدأت إسرائيل تطلق سراح عدد من السجناء الفلسطينيين المحتجزين في سجونها منذ سنوات، ولكن الأعداد أقل بكثير من المتوقع، ثم إن السلطات الإسرائيلية بدأت تتحدث عن تصنيف الأسرى إلى مجموعات مختلفة، فهؤلاء من تنظيم مؤيد لعملية واتفاقية أوسلو، وهؤلاء من تنظيم معارض والمعارضون لن يطلق سراح واحد منهم، وهؤلاء على أيديهم دم، وأولئك ليس على أيديهم دم، ومن على يديه دماء، فلن يطلق سراحه.

هذه التصنيفات أصبحت على لسان كل مواطن فلسطيني فما من بيت فلسطيني إلا وله أسير أو سجين في سجون الاحتلال، وقد أمِل الجميع أن يتم إطلاق سراح ابنهم عند توقيع الاتفاقيات ولكن الأعداد التي أطلقت محدودة.

إبراهيم يتفق مع "صلاح" الذي لازال يدرس في جامعة بيرزيت على خطة عمل لمحاولة حل جزء من هذه المشكلة، صلاح يخرج للضفة الغربية إلى نابلس، حيث يلتقي بالمجاهدين المختفين هناك، وعلى رأسهم يحيى، والاثنان الذين نجوا من اشتباك مدينة القدس قبل أشهر، ويناقش معهم الخطة، أحدهما "حسن" يجد أن تطبيق الخطة ممكن، ويطلب استدعاء اثنين من معارفه من مدينة القدس، للاستعانة بخدماتهما فيأتيان بعد ساعات، أحدهما "زكي" يؤكد أن لديه (فيلة) بعيدة عن العيون ومناسبة لاحتجاز الجندي الذي سيخطف، ومن سيلازمونه أثناء احتجازه، ويؤكد إمكانية تردده على البيت دون إثارة أي شبهة لتزويدهم بالطعام والأخبار ومجاهد يؤكد سهولة إمكانية حصوله على سيارة للقيام بعملية الخطف، وأنه مستعد لقيادتها، أثناء المهمة، وسهولة حصوله على سيارة لنقلهم إلى منطقة القدس، حيث (الفيلا) التي سيعرفه عليها زكي، ويغادر زكي ومجاهد مساء السبت، لأخذهم إلى تلك (الفيلا).

وبالفعل فعند مساء السبت حضر مجاهد وهو يقود شاحنة نقل، حيث أخذ المجاهدين الثلاثة "صلاح حسن وعبد الكريم"، ومعهم أسلحتهم وبعض أمتعتهم وانطلق بهم نحو القدس في بلدة بيرنبالا، الهادئة الوادعة الساكنة في (فيلا) نائية، أنزلهم بعد أن زودهم بما يحتاجون إليه وافترق معهم على أمل العودة في الغد للقيام بالمهمة.

يوم الأحد العصر عاد إليهم بسيارته حيث اصطحبهم وأسلحتهم الخفيفة، وانطلق بهم إلى القدس القريبة، في الطريق يقف أحد الجنود يشير للسيارات المارة، طالباً نقله إلى حي مسكنه، توقفت السيارة، سأل هل هم متوجهون لمنطقة سكناه، فأجابوه باللغة العبرية

بالإيجاب ودعوه للركوب فصعد إلى السيارة.بعد عدة أمتار من الانطلاق، شُهر في وجهه أكثر من مسدس، وطلب منه التزام الصمت حرصاً على حياته، فليس الهدف قتله، ولكنهم يريدونه حياً لتبديله بالأسرى فلا يتصرف بغوغائية، فيتسبب بقتل نفسه.

التفت السيارة بعد أن تم شد وثاقه وتغطية رأسه إلى بيرنبالا، حيث دخلت إلى المرآب الخاص بالبيت. تم إنزال الجندي إلى إحدى الغرف في الطابق الثاني، حيث غطيت النوافذ بالستائر السميكة، وقد تم تصويره بكاميرا فيديو، وأحد المجاهدين يقف وراءه وهو يطالب حكومته بالاستجابة لمطالب الخاطفين، مجاهد أخذ الشريط، وأخذ بندقية الجندي، وبطاقة هويته إلى مدينة غزة، وفي مكان متفق عليه من قبل وضعها، حيث أخذها إبراهيم من هناك، وتم تصوير شريط فيديو لأحد المجاهدين الملثمين يعرض فيه بندقية الجندي وبطاقة هويته الشخصية ويطالب فيه بإطلاق سراح خمسمائة من السجناء الفلسطينيين في سجون الاحتلال، على رأسهم الشيخ أحمد ياسين، وتم إيصال الشريط إلى أحد الصحفيين الذي وزعه على وكالات الأنباء.

وخلال ساعة كانت شبكات التلفزة والأخبار تبث ذلك. في اليوم التالي تم توزيع الشريط الثاني الذي يحمل صورة الجندي والذي يمهل الحكومة الإسرائيلية حتى مساء الجمعة لتنفيذ المطلوب وإلا فسيتم قتل الجندي، بدأت أجهزة الأمن وقوات الاحتلال في حملات محمومة من التفتيشات والمداهمات، بالإضافة إلى العمل الاستخباري المكثف، ولأن الأشرطة المصورة صدرت في غزة فقد توجهت الحكومة الإسرائيلية إلى السلطة الفلسطينية، طالبت منها الوفاء بالتزاماتها والاتفاقيات التي وقعت عليها، والعمل على البحث عن الجندي وإعادته حياً ومعاقبة خاطفيه، بعد قيام أجهزة أمن السلطة بالتحقيقات والتفتيشات المطلوبة توجهت للحكومة الإسرائيلية مؤكدة بشكل قاطع، بأن الجندي لا يحتجز في أماكن سيطرتها.

يوم الخميس بعد حلول الظلام، ودخول الليل، داهمت قوات كبيرة بيت مجاهد، في بلدة (بيت حنينا) واعتقلته حيث تم نقله إلى معسكر للجيش قرب رام الله، وهناك أخضع لتحقيقات قاسية جداً يظهر مدى قسوتها أن رئيس جاهز الشاباك آنذاك توجه إلى الجهات القضائية المسئولة لاستصدار إذن منها، يسمح باستخدام كافة أساليب التعذيب الجسدي والنفسي والعصبي ضد المعتقل، لإجباره على الاعتراف. وانفتح الجحيم على رأس مجاهد، يريدون الجواب على سؤال واحد، أين وضعتم الجندي، والأمر غير قابل للإنكار أو الحوار أين الجندي؟ بعد الفجر وبعد ساعات طويلة انتزعوا منه الاعتراف عن مكان إخفاء الجندي.

بعد غروب شمس يوم الجمعة، وبعد أن أدى صلاة المغرب في المسجد الأقصى انطلق "زكي" بسيارة حيث توقفت لشراء بعض الكنافة المقدسية، وأخذها معه وانطلق بسيارته إلى بيرنبالا، حين دخل البيت حاملاً معه علبة الكنافة، أكل منها المجاهدون وأطعموا الجندي المحتجز معهم سألهم زكي عن احتياجاتهم فأجابوا بالنفي فغادرهم مُسَلّماً انطلق بسيارته ومن خلفه انطلقت سيارة تحمل عدداً من أفراد القوات الخاصة، عندما توقفت عند حاجز الرام للفحص انقض عليه جنود القوى الخاصة، يشهرون السلاح وينتشلونه من سيارته، ويقلبون كل شيء فيها، مفتشين عن أي شيء يخدمهم.

قبيل الساعة الثامنة بدقائق معدودة، بدأ عدد كبير من أفراد القوات الخاصة بالزحف نحو البيت انقسموا قسمين: الفريق الأول بدأ التسلق إلى الشرفة التي تتصل بمطبخ الطابق الثاني، ليقتحموا منها إلى الداخل، والفريق الثاني يحدث الانفجارات في نفس اللحظة، واستعد عشرات الجنود المدججين بالسلاح للاقتحام، في نفس الوقت من الاتجاهين حدثت الانفجارات واندفع الجنود جرياً للأمام.

من اقتحموا من باب المطبخ كانوا الأقرب للغرفة التي احتجز فيها الجندي ويجلس فيها المجاهدون، مع دخولهم انفتحت عليهم نيران رشاشة كثيفة من بنادق المجاهدين، كما انفتحت النيران على الفريق الثاني الذي اقتحم الطابق الأرضي، قتل على الفور قائد وحدة الاقتحام، وأصيب ثلاثة عشر من أفرادها، وقتل الجندي المخطوف، ومن كثافة النيران والقصف داخل المبنى استشهد المجاهدون الثلاثة.

بعد أيام معدودة "يحيى" يجهز حزاماً ناسفاً، يضعه صالح حول وسطه، وينطلق برفقة أحد أعوانه عاصم ليوصله إلى قلب تل أبيب، يستقلان الحافلة التي تنقلهما إلى تل أبيب من المحطة المركزية في تل أبيب يستقل الحافلة رقم (٥) التي تنطلق إلى وسط تل أبيب وعندما يصبح في وسط شارع ديزنكوف، يضغط صالح على الزر الكهربائي، المتصل بالحزام على وسطه فيدوي الانفجار محولاً الحافلة إلى قطعة من الصاج الملتهب، حيث يقتل ما يزيد عن العشرين، ويصيب العشرات ويحدث دماراً كبيراً في المنطقة.

أجهزة التلفزة نقلت صوراً حية ومباشرة في ساحة العملية بعد حدوثها بوقت ليس طويلاً، الرعب الحقيقي في العيون ومئات حالات الهلع وانهيارات عصبية، فلم يكن أحد من المحتلين يحلم أن يرى مثل هذا الموت والدمار في وسط تل أبيب وكانوا يظنون أنهم قادرون على زراعة الرعب والموت ونشره في مدننا وقرانا ومخيماتنا، فإذا بالسحر ينقلب على الساحر ومن يزرع شوكاً لا يحصد إلا شوكاً.

التحقيقات والاعتقالات التي جرت عقب عملية ديزينكوف، طرحت اسم يحيى من جديد، وأصبح اسمه رمزاً للرعب لدى المواطن الإسرائيلي، كما هو رمزٌ للقلق والخوف لدى القادة السياسيين والعسكريين والأمنيين، وبدأت المداهمات لبيت أهله تتزايد والمراقبة على قريته وعلى كل من يعتقد أنه على علاقة بمن له علاقة بيحيى تتكثف، وأصبح واضحاً أن إمكانية استمرار وجوده في الضفة الغربية التي لا تزال تحت الاحتلال الإسرائيلي صعبة وشبه مستحيلة، لذا قرر يحيى الانتقال إلى غزة لفترة، حتى يختفي فيها عن العيون في مكان آمن، ثم يعود بعد حين، تعرفت عليه عند إبراهيم حين كان يأتي للشقة عنده، بعد أن يحل الظلام الذي يستره، فلا يتمكن أحد من تشخيصه.

في أحد الأيام صعدت إلى شقة إبراهيم لأراه في حاجة، فطرقت الباب ودخلت فوجدت عنده شاباً هادئاً صامتاً خجولاً، قليلاً ما يتكلم، وإذا تكلم اقتضب في كلامه إلى أقل ما يمكن. لكن لم يكن من الصعب عليّ أن أشخص أنه من الضفة الغربية، وليس من غزة من لهجته، حيث إننا في قطاع غزة ننطق حرف القاف بطريقتين، إما مثل حرف الجيم المصري وهذا نطق غالبية أهل قطاع غزة، وإما ننطقه كعادة المدنيين أهل المدن الأساسية كالهمزة، أما غالبية أهل الضفة الغربية ينطقونه مثل حرف الكاف، وعلى الفور ومنذ نطقه لأول حرف قاف في الحديث، شخصته أنه من الضفة الغربية، ولم أشأ أن أحرجه أو أحرج إبراهيم بالسؤال عن اسمه، ومكان سكنه، ولكني عرفت يومها أنه من الضفة الغربية، فيما بعد رأيته كثيراً ما يتردد على إبراهيم، ويبيت عنده، وبعد فترة حضرت زوجته وابنه، حيث كانوا يستقرون عند إبراهيم لبعض الأيام، ثم يغادرون لفترة ثم يعودون. إبراهيم كان يفسر ذلك بأنه صديقه من الضفة الغربية يعمل هنا في غزة، ولتوفير السفر والجهد والمال، يضطر للمبيت أحياناً عنده حتى يتدبر أمور سكنه الجديد.

استدعى أحد مسئولي جهاز الأمن الوقائي إبراهيم لمكتبه ليحاوره في بعض الأمور التي تتعلق بطبيعة التصرف والسلوك في ظل وجود السلطة الفلسطينية في غزة.

عاد الرجل وكرر عشرات المرات أن الواقع الآن يختلف عنه إبان فترة الاحتلال، الآن يوجد سلطة فلسطينية وهي صاحبة الصلاحيات، وهي ملتزمة وموقعة على اتفاقيات عليها شهود دوليون ورقابة دولية ولا يجوز تجاوزها، ثم يؤكد أنهم يعرفون أن إبراهيم ناشط وأنه معارض لاتفاقية أوسلو، وأن له آراء حادة تجاهها وتجاه السلطة، وهم يعرفون كل ذلك عنه، وأنه تحت مراقبة الجهاز، وفي بؤرة اهتمامه وهم لا يريدون منه أي حركات أو أفعال تحرج السلطة وتجعلها تبدو كمن خرق الاتفاقيات.

أجابه إبراهيم بأنه لا يخفي حقيقة معارضته لاتفاقية أوسلو، وكل ما نتج عنها، وأنه يعتبر ذلك عجزاً في قدرة الاستثمار السياسي للأحداث وأنه على قناعة بأن خطراً استراتيجياً ارتكب بالتوقيع على اتفاقية أوسلو، والخطر في ذلك هو الاعتراف بإسرائيل مقابل ثمن كانت ستدفعه أصلاً بدون أن تقبض منا أي شيء، فقط كان المطلوب منا الاستمرار في المقاومة، سيضطر الاحتلال للهروب من مناطقنا دون أي ثمن سوى الهروب من ضغط المقاومة.

قاطعه الرجل لسنا بصدد الحوار السياسي في صحة التوقيع على الاتفاقية أو عدم صحته فهذه ليست مهمتي، أنا مهمتي الآن هي أن تفهم أنك يجب ألا تخرج على شرعية السلطة، وألا تدخل السلطة في حرج حين تظهر بأنها غير ملتزمة بتحقيق الأمن وضبط الأمور في المناطق التي تسيطر عليها.

ابتسم إبراهيم وقال: أرأيت؟ مقابل شيء كانت إسرائيل ستدفعه بصورة تلقائية تحت وقع المقاومة، مطلوب منا أن ننقسم إلى فريقين: فريق يريد أن يواصل المقاومة، وفريق يريد أن يوقف المقاومة حرصاً على الوفاء بالالتزامات والاتفاقيات التي وقع عليها...قاطعه الرجل قائلاً بعصبية: الآن ليس هناك فريقان، هنا سلطة هي المسئولة وهي الشرعية، وهناك مواطنون يجب أن يلتزموا بما تقرره السلطة؛ لأن فيه المصلحة الوطنية العليا للشعب الفلسطيني، ويجب على الجميع...قاطعه إبراهيم قائلاً وهو يبتسم: هون عليك، لم العصبية نحن نتحدث ونتحاور ابتسم الرجل قائلاً: نعم نعم، ولكنك تعرف أننا الآن في بداية طريقنا نحو تحقيق أهدافنا الوطنية بإقامة دولتنا المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، ويجب علينا أن نحرص على تحقيق هذه الأهداف وألا نتصرف بشكل يُؤثر علينا في طريقنا لتحقيق هذه الأهداف.

ابتسم إبراهيم قائلاً: آمل أن تتحقق أهدافنا التي ذكرت، وأهدافنا الأخرى كلها، وإن كنت على قناعة تامة بأنها لن تتحقق بالصورة التي طرحت، أي من خلال التفاوض فقط، يمكن تحقيق ذلك من خلال فوهة البندقية فأعداؤنا لا يفهمون غير لغة البارود والنار، وستثبت لك الأيام خطأ السير في هذا الطريق، ولن تطول الأمور حتى حصول ذلك، نأتي عقب التفاوض على الحل النهائي...وحينها قاطعه الرجل قائلاً: حينها يخلق الله ما لا تعلمون، أما الآن فأرجو أن تكون قد فهمت هدف طلب حضورك، وأرجو منك الالتزام، وألا توقعنا أنت وأصدقاؤك في الحرج بين نيران خرق الاتفاقيات التي وقعت عليها السلطة، وبين الاضطرار لاعتقالكم وإيداعكم في السجون، ابتسم إبراهيم وهو يقوم هاماً بالمغادرة...وهو يغمغم: الله يقدر الخير الله يقدر الخير.

شاب من الجهاد الإسلامي يلبس الزي العسكري لجيش الاحتلال يحمل حقيبة ناسفة على ظهره يتقدم بخطىً ثابتة نحو المقصف الذي يتجمع عنده عشرات الجنود، عند مفرق بيت ليد، يخترق جمع الجنود حتى يصبح وسطهم، يضغط على الزر الكهربائي، فتنفجر حقيبته انفجاراً هائلاً يوقع عدداً من القتلى، وأعداداً من الجرحى، ويرتفع الصراخ والعويل، بعد دقائق يتدفق الجنود والمسعفون، ورجال الأمن، والشرطة والمحققون، ويجتمعون في المكان، حينها يسارع شاب آخر من الجهاد الإسلامي كذلك يلبس الزي العسكري لجيش الاحتلال كذلك ويحمل حقيبة ناسفة يسارع إلى الجمع، وكأنه أحد المسعفين أو الجنود الذين سارعوا للمكان، يصبح بين الجمع، ويفجر حقيبته هو الآخر، فيدوي الانفجار يَصم الآذان فيقتل المزيد ويجرح الكثيرون ويلحق الدمار بدمار آخر ومن بعيد يقف المسعفون والجنود ورجال الأمن والشرطة يرتجفون وينظر كل واحد منهم للآخر، بخوف وشك حيث قتل خمسة وعشرون جندياً وجرح الكثيرون.

الفصل الثامن والعشرون

مع خروج أمي من عزلتها وعودتها للسمر بغرفتها، عادت من جديد إلى إثارة قصة زواجي وقد كنت انشغلت عن الأمر، ومع إلحاحها وتكرار إثادتها وذكرها للأمر، وافقت أن تبحث لي عن الفتاة التي تعجبها، وبالفعل فقد كانت كلما مرّت عدة أيام تعرض عليّ ما رأيك ببنت فلان وببنت علان وأنا لا أعرف تلك الفتيات ثم تجيب هي، لا بنت فلان قصيرة قليلاً، ولا بنت علان بشرتها تميل للسواد قليلاً، ثم تعاود البحث والخروج شبه اليومي، لمعاودة البحث والتنقيب، وأخيراً اهتدت إلى فتاة نالت إعجابها، وعرضت عليّ الأمر، وقمت معها بزيارة بيت أهلها، فأعجبتني وخلال فترة بسيطة أقمنا الخطبة وعقد القران والزواج.

بعد أن عرض إبراهيم عليّ أن أقتسم معه شقته في هذه الفترة تقلص تردد ذلك الشاب الضفاوي "يحيى" علينا، وحين كنت أسأل إبراهيم عنه، كان يجيبني بأنه استأجر بيتاً واستقر فيه، ولم يعد بحاجة للسكن عند إبراهيم، ولكن كان يتردد ضيفاً لبعض الساعات.

في هذه الفترة تردد شاب اسمه "عبد الواحد" من نابلس على الجامعة الإسلامية حيث التقى بإبراهيم وبيحيى، وقد قام يحيى بتدريبه على طريقة تحضير المتفجرات المعروفة حينها باسمها الحركي (أم العبد) وكيفية تحضير الأحزمة والعبوات، فهم عبد الواحد منهم المطلوب جيداً وطار عائداً إلى نابلس حيث استأجر شقة، واشترى المواد والأدوات اللازمة، وبدأ بتحضير المواد مستعيناً بأحد إخوانه، ثم بدأ البحث عن شاب لديه الاستعدادية للشهادة، وعمن يستطيع أن يوصله إلى عمق إحدى التجمعات الصهيونية في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨.

ومع ظهر يوم (١٩٩٥/٧/٢١) صعد شاب فلسطيني في مقتبل العمر، إلى إحدى الحافلات الإسرائيلية في (رمات جان) وبعد انطلاقتها بقليل من الوقت فجر نفسه فيها، فقتل خمسة وأصاب ثلاثة وثلاثين، وفي نفس الوقت كان عبد الواحد قد عكف على تحضير الحزام الثاني والبحث عن استشهادي جديد، أعد كل شيء كاملاً للتنفيذ، والحزام جاهز والاستشهادي جاهز ومن سيوصله للهدف جاهز، وكل ذلك جاهز مع بعضه البعض للانطلاق.

بعد أيام وبينما عبد الواحد يقف ليقوم باتصال هاتفي من إحدى الهواتف العمومية هاجمته قوات خاصة من قوات الاحتلال، حيث اعتقلته واختطفته إلى أحد مقرات التحقيق.

هناك على الفور بدأ التحقيق معه حول كل شيء عن العملية التي حصلت، وعن أي تحضيرات أخرى. ساعات بعد ساعات والأيام تلاحقها الليالي، والعذاب ينصب على رأسه صباً وهو ينكر أي علاقة له بالأمر حرصاً على مرور الوقت حتى يتمكن الاستشهادي الثاني من تنفيذ العملية.

قبيل موعد العملية للتنفيذ، اعترف للمحققين عن العملية التي تمت، فخرجوا سعداء بما حققوا من نصر ونجاح لمسئوليهم، ليخبروهم أنهم انتزعوا الاعتراف من مخطط العملية الاستشهادية.

غابوا قليلاً وإذا بالانفجار الثاني يأتي مدوياً، حيث صعد شاب إحدى الحافلات في القدس(رمات أشكول) وفجر نفسه فيها فقتل خمسة وأصاب مئة وثلاثة، وبينما يتفاخر المحققون بما حققوا من نجاح في انتزاع الاعتراف من عبد الواحد، فإذا بأجهزة الاتصال على أحزمتهم تدق، وإذا بالرسالة الإلكترونية تخبرهم عن عملية استشهادية جديدة بنفس مواصفات العملية السابقة، فخرجوا إلى عبد الواحد ، وقد انهالوا عليه ضرباً وركلاً وهو يضحك في أعماق قلبه وهم يصرخون: خدعتنا ضحكت علينا، أنت من يقف وراء ذلك!! وهو يبتسم ويهز رأسه إيجاباً.

مع هذه العمليات في عمق الكيان الصهيوني، وجد قادته أنفسهم في حرج كبير فهم بين نارين، نار هذه العمليات التي تضرب عمقهم وتزلزل أركانهم وتهز شعور كل واحد منهم بالأمن والاستقرار، وبين نار الضعف من اليمينيين المتطرفين لديهم والذين يرفضون تسليم مزيد من المناطق للسلطة، ولكنهم كانوا على قناعة تامة بأن الحل الوحيد لهذه العمليات هو الهروب من التجمعات السكنية الفلسطينية، وتسليمها للفلسطينيين الذين سيكونون الأقدر على وقفها فخرج قادة الكيان يعلنون صراحة أنهم سيواصلون العملية السلمية، كأن شيئاً لم يحدث، أثار ثائرة المتطرفين وأحزاب ومنظمات اليمين، فخرجت المظاهرات العارمة في القدس وتل أبيب ضد الحكومة وضد تسليم المناطق للسلطة وضد الرضوخ لما اسماه بالإرهاب الفلسطيني وبرز العديدون من الحاخامات اليهود ورجال الدين الذين حرموا تسليم الأراضي للفلسطينيين، والتخلي عنها للسلطة وبدأ الغليان يتأجج كل يوم والحكومة والأجهزة الأمنية تزداد قناعة أن خير شيء للتخلص من كرة الحجر هذه إلقاؤها في حجر سواهم ليتدبروا أمرها.

كنا نجلس في غرفة أمي نشاهد التلفاز ونرى ما يحدث من تطورات، إبراهيم كان يبتسم وهو يرقب الأخبار، مما أغاظ "محمود" فثار متسائلاً: ما الذي يدعوك للابتسام؟ هل يمكن أن أفهم سبب ذلك؟ ضحك إبراهيم قائلاً: أرى المأزق الذي أدخلنا فيها أعداءنا؟ فتساءل محمود: أي مأزق؟ نحن الآن في مأزق!! فضحك إبراهيم قائلاً: نحن الآن في مأزق؟ ما بالك يا رجل أترى حالة الانقسام الرهيبة التي وصل إليها الشارع الإسرائيلي، وحالة الغليان والتوتر التي تسود بينهم، حتى يكاد أحدهم يقتل الآخر، وكيف أن قادتهم ورغم العمليات يخرجون يصرخون أنهم سيواصلون العلمية السلمية؟ هل أنت تعتقد أنه لو لم تكن مثل هذه العمليات من المناطق التي لا تزال تحت سيطرة قواتهم، وهم غير قادرين على منعها، بينما المناطق التي خرجوا منها قد هدأت، ولم تعد تخرج منها عمليات كهذه، هل تعتقد أنهم كانوا سيتركونها؟

قال محمود: نعم، فهذا هو الاتفاق، ضحك حسن وقال: أنت واهم يا أخي، وأنت لا تعرف هؤلاء الناس، منذ متى يعطوننا حقوقنا طواعية؟ منذ متى اعترفوا بهذه الحقوق أصلاً؟ ومنذ متى التزموا بالاتفاقيات والعهود، وكأنك لم تسمع الآية ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم﴾[1] صرخ محمود قائلاً: أنتم تريدون أن تنسبوا كل شيء لكم، فأنتم سبب كل نجاح، هكذا تريدون تصوير الأمور ابتسم إبراهيم قائلاً: نحن نصف واقعاً يا محمود، الانتفاضة هي التي أجبرتهم على الاعتراف بنا وبحقوقنا، قبل الانتفاضة بأيام كان اسمنا سكان المناطق، وبعد استمرار شهرين صار اسمنا فلسطينيي المناطق، ثم صار اسمنا الفلسطينيين، ثم اضطروا للجلوس مع منظمة التحرير التي كانوا يعتبرونها منظمة إرهابية وتخريبية، وها هم قد خرجوا من القطاع، وأرى حالهم تحت ضربات المقاومة يعلنون أنهم سيخرجون من الضفة الغربية...

قاطع محمود قائلاً: ولكن ألا تدركون أن هذا من الممكن أن يقلب الأمور رأساً على عقب ويخرب العملية السلمية كلها؟؟ ضحك حسن قائلاً: يا ليتها تخرب وتذهب إلى الجحيم صرخ محمود: هذا ما تريدون أنتم تقامرون بمستقبل القضية وبالمصالح العليا للشعب الفلسطيني، فالانسحاب الإسرائيلي من الضفة الغربية وشيك، وإعلان الدولة الفلسطينية قريب وأنتم تنفذون هذه العمليات بهدف التخريب على ذلك.

---

[1] سورة البقرة آية (١٠٠)

أي التزامات ابتسم إبراهيم قائلاً: اسمع يا محمود نحن سبق وتناقشنا في هذا الأمر، فنحن نعتقد أن اتفاقية أوسلو هدف استراتيجي، وهي السلم لنزول الاحتلال عن الشجرة التي كان سيلقي بنفسه عنها، لو لم تصنعوا لهم هذا السلم، كان سيخرج هارباً من غزة والضفة دون واعترافات من...قاطعه محمود قائلاً: لقد قلت أن هذا مجرد تكتيك، وهو يخدم مرحلة نحن فيها الضعفاء حتى تتغير قواعد وموازين القوى...قاطع إبراهيم قائلاً: نحن نختلف معكم في هذا ونرى أنه خطأ، لكن نحن الآن ننطلق من نقطة أخرى غير تلك النقطة حول صوابية أو خطأ أوسلو، نحن الآن ننطلق من استمرار العمليات من المناطق التي لا تزال قوات الاحتلال تسيطر عليها، مع الهدوء النسبي في المناطق التي انسحبوا منها، وسلموها للسلطة هو خير وسيلة لتعديل انسحابهم من تلك المناطق، وعدم مماطلتهم في ذلك...قاطع محمود: يعني أنت تريد أن تنسب تحرير كل شبر من أرضنا لكم ولمقاومتكم، وليس لحنكة وخبرة المفاوض الفلسطيني...قاطعه حسن قائلاً: ما لحاجة المفاوض وحنكته، أصلاً كانوا سيهربون من غزة والضفة، ألم تسمع وتشاهد الأخبار، أم أنك في عالم آخر!! أثناء هذا الحديث كان خالد وماجد يجلسان معاً وعيونهما تحدق في المتحدثين وتجري من رؤية فم المتحدث لفم من يبدأ الحديث، وهما في غاية الدهشة، الأمر الذي أثار انتباه مريم فقالت...ماذا دهاكم يا خالد وماجد؟ فردوا بصوت واحد: آه ماذا؟ فقالت: ما بالكما مندهشان؟ وعيونكما تحدق في كل من يتحدث، قال خالد: الصحيح أننا لأول مرة نسمع نقاشاً سياسياً بمثل هذا الهدوء، والله إنكم في الأراضي المحتلة على قدر ممتاز من الوعي السياسي والاطلاع على مجريات الأمور.

أحد المتطرفين اليهود يكمن لرئيس الوزراء الإسرائيلي "اسحق رابين" ذي الماضي العسكري الحافل ومسدسه محشوّ بالرصاص، يريد قتل رابين عقاباً له على خيانته بتسليم الأراضي للفلسطينيين. يخرج رابين من ساحة احتفال ضخم رتب لإظهار التأييد والدعم الشعبي له في العملية السلمية، يحيط به حراسه، فينطلق إليه من بينهم المتطرف (ايجال عمير) ويشهر مسدسه ويطلق الرصاص عليه فيرديه قتيلاً.

كنا نهم بالانصراف من غرفة أمي والانتقال إلى غرفتنا، حيث أصبحت الساعة متأخرة، وفجأة قطعت البرامج التلفزيونية ثم بث خبر إطلاق النار على رابين، وأنه نقل إلى المستشفى، قمنا للجلوس لنتابع تطورات الخبر بترقب ولهفة، وبعد وقت أعلن عن موته، لم يكن بيننا واحد غير سعيد على مقتل رابين، أحد الجزارين الأفظاظ، الذين أجرموا بحق شعبنا على مدار السنيين، فليس هناك من ينسى تاريخه القريب حيث أمر بممارسة سياسة كسر العظام، ضد المواطنين الفلسطينيين إبان الانتفاضة، وليس هناك من ينسى دوره في احتلال القدس عام ١٩٦٧، وغير ذلك من الجرائم بحق شعبنا وأمتنا،

ولكن "محمود" كان في حالة من القلق على مستقبل العملية السلمية، حيث أن رابين بقوة شخصيته، وتاريخه الحافل في خدمة إسرائيل وصناعة استمراريتها كان الأقدر على السير بها في طريق العملية السلمية.

عملية اغتيال رابين قلبت نتائج استطلاع الرأي في الشارع الإسرائيلي، فقبل الاغتيال كانت تلك الاستطلاعات تشير إلى تقدم اليمين على اليسار في الانتخابات القادمة التي اقترب موعدها وبصورة تؤكد احتمالية فوز اليمين بالحكم بعد الاغتيال؛ ولأن القاتل كان محسوباً على اليمين المعارض لخط رابين وسياسته، انقلب الشارع الإسرائيلي، وتحولت استطلاعات الرأي لصالح اليسار بحيث أصبحت هذه الاستطلاعات تشير إلى فرص فوز "شمعون بيرس" خليفة رابين وحزبه في الانتخابات القادمة.

يحيى مختف في أحد البيوت، في مشروع بيت لاهيا السكني. المخابرات الإسرائيلية نجحت في تحديدَ هذا البيت، وأوصلت عن طريق أحد عملائها جهاز هاتف نقال لصاحب البيت فأصبح الجهاز تحت تصرف يحيى الذي استخدمه للاتصال بعائلته في الضفة الغربية. حدث عطل في الجهاز، فأخذه صاحبه للتصليح، ثم أعيد ليحيى ليتصل بوالده.

يوم الجمعة (١٩٩٦/١/٥) ومع أول كلمات يتفوه بها انفجر الجهاز وهو يضعه على أذنه، ففجر رأسه، وسجلت بذلك المخابرات الإسرائيلية نجاحاً باهراً في حربها ضد المقاومة، وبذلك سارع صاحب الدار ليتصل بالمجاهدين ليخبرهم بالمصيبة التي حدثت، فسارع عدد منهم من بينهم إبراهيم إلى البيت في بيت لاهيا ليعاينوا ما حدث، وترقرقت الدموع في العيون.

خلال ساعات كان الخبر قد وصل إلى كل بيت من بيوت الوطن، الذي يعشق يحيى من أعماق قلبه، فقد حلّ يحيى المهندس يحيى عياش في نفوس وقلوب المعذبين في فلسطين، والمحبين على امتداد العالمين العربي والإسلامي، وحرك مشاعر العزة والكرامة التي لم تتحرك منذ أمد بعيد، حين تمكن من دك معاقل العنهجية في عقر دارها، زارعاً الرعب والهلع في النفوس، مسجلاً أرقام معادلة جديدة في الصراع مع الاحتلال الغاشم. انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وخرجت الجماهير في كل الوطن إلى الشوارع تسأل وتحاول التأكد لا تكاد تصدق ما تسمع، فقد غدا يحيى أسطورة وتصرخ وتهتف وتهلل.

في اليوم التالي خرج قطاع غزة عن بكرة أبيه ليودع يحيى إلى مثواه الأخير، تحولت غزة إلى بحر متلاطم الأمواج من الجماهير، تودع الشهيد تهتف للشهداء بالفداء وبالروح وبالدم، وتصرخ الانتقام الانتقام..يا كتائب القسام.

عبد الرحيم ابن خالتي فتحية كان قد اتفق مع بعض إخوانه من شباب المسجد على تشكيل خلية عسكرية للبدء بمقاومة الاحتلال، إكمالاً لمشواره مع الشهيد "أبو رشدي"، وقد تأثر عبد الرحيم تأثراً بالغاً جراء اغتيال الشهيد الذي أصبح عند غالبية الشباب قدوة ومثالاً، فقرروا بدء العمل انتقاماً لدمه الطاهر.

خرجت سياراتهم إلى الطريق العام الواصل بين بيت لحم والخليل، حيث تكثر حركة السيارات العسكرية، وسيارات المستوطنين، ومقابل بلدة (بيت أمّر) وجدوا أمامهم سيارة بيضاء تحمل لوحة ترخيص تشير إلى أنها سيارة عسكرية لأحد الضباط، انطلقت السيارة وراءها مسرعة، وبدأت بتجاوزها، بينما فتح عليها عبد الرحيم نيران بندقيته الرشاشة من نوع كلاشنكوف، وأحد أصدقائه بدأ بإطلاق النار من مسدسه، وما إن تجاوزا السيارة حتى كانت قد انحرفت عن الطريق وارتطمت بجوانبه، حيث قتل فيها طبيب عسكري برتبة عقيد وجندي يرافقه، حينها شعر عبد الرحيم أنه قد أدى شيئاً من واجبه تجاه دم الشهيد.

في أحد البيوت القروية في بلدة (السطر الغرابي)، قرب مدينة خان يونس، جلس أربعة من المجاهدين من بينهم إبراهيم يخططون للرد القاتل الموجع للاحتلال على جريمته، في ليل اليوم التالي زحف عدد من المجاهدين ، يحملون حقائب على ظهورهم، ويجرون إلى جانبهم سلمين خشبيين طويلين حتى اقتربوا من الأسلاك الشائكة للجدار الفاصل بين قطاع غزة (شرقها) عام ١٩٤٨ كانوا في الظلمة لوقت طويل حتى تأكدوا من خلو المكان من الكمائن من قوات الاحتلال، ثم قام اثنان يجريان نحو الجدار يحملان السلمين، نصبا السلم الأول بصورة شبه عمودية وأسنده أحدهما، بينما الثاني قد بدأ بتسلقه وهو يمسك بيديه السلم الثاني المستند على الأرض، وحين ارتفع على السلم العمودي ، بدأ يرفع السلم الثاني، وبينما هو يحاول إلقاء طرفه إلى الجانب الآخر للحاجز الحدودي أطلت من بعيد أضواء سيارة جيب الدورية، فسحبه سريعاً، أخفيا السلمين بسرعة البرق، ومسحا آثارهما بوساطة غصن شجرة، ثم ارتميا وراء كثيب من الرمال في اللحظة الأخيرة قبل وصول ضوء الكشاف الذي تسلطه دورية المراقبة.

مرت الدورية وابتعدت فانطلق المجاهدون ينصبون السلم الأول وأحدهم يعلو عليه ويلقي بطرف السلم الثاني للجانب الآخر من الحاجز الحدودي، ثم يربط رأس السلمين ببعضهما حيث يجري ثلاثة من المجاهدين على ظهر كل واحد منهم حقيبة ثقيلة، صاعدين السلم الأول ليتركوا السلم الثاني للجانب الآخر من الحدود، وينطلقوا لتبلعهم الظلمة، ويسارع الباقون بسحب السلالم، وإخفاء آثار الانسحاب في المكان، كأن شيئاً لم يكن.

تقدم المجاهدون الثلاثة وحقائبهم على ظهورهم نحو الغرب، متوغلين في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ مبتعدين عن الشريط الحدودي، سيارة في انتظارهم، أقلتهم إلى إحدى البيارات الضخمة قرب مدينة أسدود، هناك حفروا ودفنوا الحقائب وعاد اثنان منهما إلى غزة وظل الثالث يلتف بقطعة كبيرة تحميه من المطر بين الأشجار، أشجار البرتقال الكثيفة التي انحنت عليه، تلفه بأغصانها وأوراقها، في حب وحنان لتحميه من عيون الأعداء، وظل في انتظار وصول الاستشهاديين الذين كانوا سيأتون في الفوج الثاني.

مرّ الوقت ثقيلاً ولم يأت أحد، تجاوز الموعد المحدد بكثير، ومر يوم إضافي ويوم آخر، وبات واضحاً أن مشكلة طرأت، وقرر حسان التصرف لإكمال المهمة باجتهاده الشخصي غادر المكان إلى رام الله، حيث اتصل ببعض معارفه باحثاً عن شباب لديهم الاستعداد للاستشهاد، وجد اثنين يتلهفان لذلك ثم توجه إلى (أبو ديس) للبحث عن مساعدين لجلب الحقائب التي تحمل الأحزمة، ولتوصيل الاستشهاديين إلى الأهداف.

عثر على اثنين معهما سيارتان انطلق مع أحدهما حيث أحضر الحقائب الثلاثة من البيارة قرب أسدود ونقلاهما إلى رام الله ثم إلى أبو ديس، مع ساعات الصباح الباكر، انطلقت من أبو ديس سيارتان، كل واحدة تحمل أحد الاستشهاديين، وقد وضع الحزام على وسطه وهو صائم واقسم ألا يذوق طعاماً أو شراباً من الأرض، وان إفطاره بإذن الله سيكون في جنات النعيم عند سيده المصطفى ﷺ.

واحدة انطلقت إلى قلب مدينة القدس الغربية حيث ترجل منها بخطى ثابتة نحو الحافلة رقم(١٨) التي تمتلئ بالركاب، صعد إليها وبعد أن انطلقت بعشرات الأمتار، ضغط على الزر الكهربائي للحزام، فدوى الانفجار عالياً، وتحولت الحافلة إلى كتلة من القطع الحديدية المشتعلة وتناثرت الجثث والأشلاء، حيث قتل العشرات، وسارعت سيارات الإسعاف وخبراء المتفجرات والشرطة ورجال الأمن إلى مكان الحادث.

وبينما كانوا في شغلهم جاءت الأخبار عن انفجار آخر في إحدى محطات انتظار الجنود عند مدخل مدينة عسقلان المحتلة، حيث قتل وأصيب العديدون ارتفع صوت الأذان لصلاة المغرب، فسارع حسان إلى الغرفة المجاورة ليوقظ "رائد" ليتناول طعامه فقد كان صائماً استند رائد جالساً في فراش نومه ينظر إلى حسان الذي بادره القول لقد أذن المغرب، فقم حتى تفطر، ابتسم رائد قائلاً: أنا لن أذوق طعامكم في هذه الأرض.

لقد رأيت في المنام أني أصعد إلى حافلة مليئة بالمحتلين وأفجر نفسي، وأقتل كل من فيها، ثم رأيت نفسي أصعد في عمود من النور إلى السماء، عاود حسان القول: الطعام جاهز فهيا نتناول طعامنا فانتهره رائد قائلاً: قلت لك إنني لن أضع في فمي شيئاً من هذه الأرض، ثم قام فتوضأ ثم صليا المغرب.

في ساعات الصباح الباكر انطلق رائد وقد وضع على وسطه الحزام الناسف. بسيارة كريم التي أوصلت أخاه الأسبوع الفائت إلى قلب القدس، وصلت إلى نفس المكان، ترجل من السيارة وبخطوات ثابتة تقدم نحو الحافلة رقم (١٨) استقلها، وبعد أن انطلقت بعشرات الأمتار فجر نفسه فيها فقتل جميع ركابها دون استثناء. ثلاثة وعشرون شخصاً، وأصيب العشرات ممن كانوا بالشارع، وارتفعت روح رائد إلى ربها، وقد تحقق له ما أراده.

وبعد أيام فجر مجاهد من حركة الجهاد الإسلامي نفسه في وسط شارع ديزينكوف في تل أبيب فقتل ثلاثة عشر شخصاً من المغتصبين. جن جنون حكام الكيان الصهيوني وساد الرعب في القلوب، وتقلص عدد المتواجدين في الشوارع والمؤسسات والمطاعم والمقاهي وخلت الحافلات من الركاب، ودق بيده على الطاولة مطالباً السلطة بأن تقوم بواجبها والتزاماتها لوقف ما أسماه (بالإرهاب) من مناطق سيطرتها، فبدأت قوات السلطة في حملة اعتقالات واسعة للناشطيين الإسلاميين في مناطقها، حيث اعتقلت المئات وأودعتهم غياهب السجون، وأخضعت العشرات منهم إلى عمليات تحقيق عنيفة ومرعبة.

جاء أخي ماجد إلى الدار في غير وقت عودته من الدوام في العمل مع ساعات الظهر سائلاً عن إبراهيم الذي لم يكن في البيت، فهمس ماجد في أذني أن هناك قراراً باعتقال إبراهيم، وضروري أن يختفي عن الأنظار، وخرج هو ليعود لعمله، وخرجت أبحث عن إبراهيم لأخبره بالأمر وجدته عند أحد الأصدقاء، فأخبرته بالأمر، وعلى الفور بدأت الترتيبات لاختفائه عند أحد الأصدقاء غير المعروفين، فأوصلته لبيت ذلك الصديق، وأخذت سيارته وعدت بها إلى البيت حيث أبلغت مريم وأمي بأنه مطلوب، وأنه اختفى لدى أحد الأصدقاء، خشية أن تعتقله أجهزة أمن السلطة، حتى تهدأ الأمور.

في المساء اجتمعنا في غرفة أمي، حيث دار الحديث كالعادة في آخر موضوعات الساعة، العمليات الأخيرة والاعتقالات الواسعة، وما يتردد عن أساليب التحقيق العنيفة ضد بعض المعتقلين.

حسن كان في لحظات غضبه التي لم أره فيها من قبل، واضطرت أمي أكثر من مرة أن تطلب منه أن يخفض صوته لئلا يُسمع في الخارج فيعتقل هو الآخر، كان يصرخ باتجاه محمود كيف يعتقل هؤلاء الشرفاء؟ ويوضعون في السجون! وهم من حملوا على أكتافهم عبء مقاومة الاحتلال خلال السنوات الأخيرة وأجبروه على الرحيل.

فيضحك محمود قائلاً: هذا ما تتصوره أنت وجماعتك هذا هو المهم، إنهم يريدون تخريب العملية السلمية، ويقامرون بالمصالح الوطنية العليا للشعب الفلسطيني ولا بد من وضع حد لذلك، فيصرخ حسن: عن أي مصالح تتحدث يا رجل، مصالح الشعب الفلسطيني أن يعتقل الشرفاء ويذلوا في زنازين التحقيق، هل هذه المصالح للشعب الفلسطيني!! فيقاطعه محمود قائلاً: المصالح الوطنية العليا هي قيام دولتنا الفلسطينية المستقلة خلال السنوات القادمة، بعد أن نُجري مفاوضات الحل الدائم، فيصرخ حسن قائلاً: ومن الذي بدأ بالاعتداء؟ هل نحن من قمنا بالعمليات أولاً أم أن إسرائيل شريككم في السّلام هي التي اغتالت يحيى عياش؟ وماذا تريدون منا أن نفعل إزاء ذلك؟ هل نسكت لتتجرأ إسرائيل على اغتيال الآخرين، وماذا فعلتم حين اغتالوا يحيى رحمة الله عليه؟ ماذا فعلتم؟

فيجيب محمود: أنتم تعملون بعقل وحكمة، كان الواجب أن تعطوا الفرصة لعملية السلام، ولكنكم لم تعملوا كذلك، فقمتم عام ١٩٩٥...فصرخ حسن هذه العلميات حدثت في مناطق تحت سيطرة قوات الاحتلال ولم يتم تسليمها للسلطة فلماذا تربط؟ قاطعه محمود قائلاً: هذه العمليات ضغطت على حكومة إسرائيل فقررت اغتيال عياش، فصرخ حسن: آه يعني إذا انضغطت حكومة إسرائيل من المتطرفين عندها فيجب أن تنفس عن نفسها الضغط باغتيال رموز كفاح شعبنا، ونحن يجب علينا أن نتفرج على ذلك، ونقول دعونا نعطيهم فرصة، ولا نخرب عملية السلام الفارغ، وإذا ما قام الشرفاء بالانتقام لدم المهندس فيجب أن يعتقلوا ويضربوا في الزنازين ويتم.. قاطعه محمود: لم يتم ضرب أحد في الزنازين ولم...قاطعه حسن بل تم ويتم وتوجه بالسؤال إلى ماجد وخالد: أليس كذلك يا ماجد؟ أليس كذلك يا خالد؟ ألم يتم ضرب الناس وإذلالهم؟ فهز خالد وماجد رأسيهما إيجاباً، فقال محمود: هؤلاء لا يضربون لأنهم نفذوا عمليات ضد الاحتلال وإنما لأنهم يخططون لاغتيال قيادات السلطة، فصرخ حسن: هذا ليس صحيحاً هذا كذب ومحض افتراء، ويستحيل أن يكون أحد قد خطط لاغتيالات، وأنت رأيت بعينيك كيف استقبلنا رجال السلطة، وأفراد قوات الثورة التي جاءت من الخارج، أنت رأيت كيف احترمناهم وفتحنا لهم صدورنا وقلوبنا وكيف أننا..

قاطعه محمود ولكنكم الآن تتصرفون بصورة معاكسة؟ ألا ترى كيف أنكم فتحتم أبواب جهنم على إسرائيل، ثلاث عمليات ضخمة خلال ثمانية أيام، عشرات القتلى ومئات الجرحى، بماذا تفكرون إذاً؟! هذا عمل مجنون هذا... جنون.

تدخل مريم قائلة: كيف يمكن أن يعتقل أخاه ويسجنه ويعذبه؟ انتفض خالد وماجد وقالا: نحن لا علاقة لنا بالأمر، نحن مجرد جنود صغار ننفذ ما نؤمر به، ولا نفهم في السياسة ولا...قاطعه محمود قائلاً: عندما يريد الأخ أن يخرب على أهله ما يخططون له ويدمر مصالحهم، فيجب أن يحبسوه ويمنعوه من فعل ذلك، فصرخت مريم: يا رجل أليس عندك قلب؟ كيف يمكن أن تعتقل إخواك لأنهم يعملون ضد الاحتلال، وكيف يمكن أن تعتقل زوج أختك وابن عمك؟ ألهذه الدرجة وصلت بكم القسوة؟ الله أكبر!! فقال محمود: يا مريم هذا ليس لوقت طويل بعد أيام أو أشهر قليلة يتم إطلاق سراحهم، هذا فقط لامتصاص الضغط الذي يمارس علينا.

فصرخ حسن: إذاً لماذا التحقيق والتعذيب والبهدلة؟ فقال محمود: لقد قلت لك هذا لمن يثبت تورطه في تخطيط لأعمال ضد السلطة، صرخ حسن: هذا مجرد مبرر وهذا كذب واضح، ضحك محمود وقال: أنت لا تعرف شيئاً مما يجري يا حسن، جماعتك كانوا يريدون تدمير الدنيا، أنتم مجانين لا تعملون بعقل، فصرخ حسن: نحن نعمل بغير عقل!! سنرى يا محمود سنرى، ولن تطول الأمور حتى تتضح وتعرفوا أن اليهود خدعوكم وأوقعوكم في مكائدكم، هؤلاء قتلوا الأبرياء وحاربوا الله ورسوله، وليس لهم عهد ولا ذمة، أنت تتصور أنهم فيما تسميه مفاوضات الحل النهائي، سيتنازلون عن القدس أو عن المستوطنات أو يعودون إلى الخامس من حزيران، أو غير ذلك، هذا كله محاولة فقط لشق صفنا الفلسطيني وضرب بعضنا ببعض وتخريب المصلحة الوطنية العليا.

ضحك محمود قائلاً: ها أنت أصبحت فهمان في السياسة، وتتوقع ما سيحدث في المستقبل بعد سنوات، ابتسم حسن قائلاً: هذا ليس ما أتوقعه يا أخي، هذا ما أخبرنا الله به عنهم حين عرفنا عليهم وعلى نفوسهم وعلى طريقة تعاملهم، مع أن هؤلاء لا يعترفون بعهد ولا باتفاق ولا يمكن أن يتقدموا في الاتجاه الصحيح، إلا والجبل مرفوع فوق رؤوسهم كأنه ظلة فقط يشعرون بالخوف والرعب يمكن أن يتقدموا، ضحك محمود قائلاً: دائماً أنتم تخلطون فهمكم للدين بالسياسة ما علاقة ما ذكر في القرآن عن اليهود أيام موسى، وما يحدث الآن يا حسن؟ ابتسم حسن وقال: سبحان الله، ألا تعرف أن التاريخ يعيد نفسه، وأن اليهود هم اليهود، سترى يا محمود سترى، وسأذكرك إن بقينا من أهل الدنيا.

بعد أيام تم اعتقال حسن وبعد وقت سمح لنا بزيارته وعلمنا أنه لم يخضع للتحقيق أو للتعذيب، ولكنه أكد لنا أن هناك أشخاصاً تعرضوا للتعذيب الجنوني، وأن البعض منهم قد حدثت له أضرار جسدية من ذلك التعذيب، أمي لم تكن قادرة على احتمال اعتقال حسن لدى السلطة، فكانت أثناء دخولنا للزيارة وخروجنا منها لا توفر جهداً من كب الشتائم عليهم وعلى الحراس والضباط الذين يشرفون على السجن، ويدخلوننا ويخرجوننا وهم لا يردون، بل يتظاهرون بعدم سماع ذلك أو بالانشغال بأمور يفتعلون الانشغال بها، وأحياناً حين تكون الشتائم في الوجه يرد أحدهم بلطف: يا حجة ختم الله لك بالخير، نحن مأمورون وهذا باب رزقنا ورزق عيالنا، تتواصل الشتائم عليهم وعلى باب رزقهم.

في أحد الأيام همس ماجد في أذني أنهم طلبوا منه ومن خالد أن يبلغوا فوراً عن أية معلومات يحصلون عليها عن إبراهيم، وإنهم إن ثبت عدم تبليغهم أي معلومة، فسوف يعاقبون وأن من الضروري عدم إحراجهم مع مسئوليهم، ويجب ألا يخفوا أي معلومات عنه، وأننا يجب أن نجد طريقة مناسبة حين نأخذ مريم وإسراء وياسر لإبراهيم بين الحين والآخر، ورجاني ألا آخذهم إليه حين يكون هو وخالد في الدار، وإنما وقت وجودهم في العمل، وأن أوصي مريم وإسراء وياسر بعدم الحديث عن ذلك، وأن نتدبر سبباً آخر لخروجهم من البيت دوما.

موعد الانتخابات الإسرائيلية اقترب واستطلاعات الرأي بدأت تبين الزيادة الواضحة لصالح مرشح حزب الليكود "بنيامين نتنياهو" لرئاسة الوزراء على حساب مرشح حزب العمل "شمعون بيرس" وبات واضحاً أن من يراهنون على خيارات السلام أو أوسلو وما سيترتب عليه قد بدءوا يشعرون بالخطر الحقيقي من الانتخابات.

وقد اهتممنا في الدار بمراقبتها وانتظار نتائجها لأهميتها لنا جميعاً، محمود كان يريد فوز حزب العمل حيث أن هذا يضمن استمرار العملية السلمية، الأمر الذي سيمكن السلطة من تحقيق أهدافها، وكان في غاية التخوف من فوز "بنيامين نتنياهو" والليكود، حيث أن من الواضح أنهم سيعرقلون الأمور، نحن في الدار لم نكن ندري ما نريد بالضبط، ففي كلام محمود وتحليله شيء من الصواب، وأقل ما في الأمر أننا يجب أن نعرف نهاية هذا النفق الذي دخلت فيه قضيتنا الفلسطينية، ونرى مدى صحة وجهة النظر والموقف الذي أدى إلى أوسلو، وما أفرزت من مصالح ومعاملات وسياسات، ولكن كان هناك رغبة في رؤية مجرى الأمور عند فوز اليمين والليكود، لذا رأينا لم يكن حاسماً وواضحاً، لكننا انتظرنا وتابعنا الأخبار طيلة الليل، غلبنا النوم قبل معرفة النتائج، وفي الصباح علمنا بفوز نتنياهو والليكود اللعين.

ولدهشتنا ودهشة الجميع فإن نتنياهو زعيم المعارضة كان غير نتنياهو رئيس الحكومة، فيبدو أن المنصب والعلاقات الدولية والاتصالات الدبلوماسية لها تأثيرها الكبير على المواقف النظرية، ويبدو أن هذا الميدان من الاحتكاك بين المواقف الأيدلوجية، والضغوط السياسية والواقعية ينتج مواقف براجماتية.

لذا فقد تابعنا بعد وقت تطورات موقف الحكومة الإسرائيلية، بخصوص تسليم مدينة الخليل للسلطة الفلسطينية، فمن ناحية لم يتمكن نتنياهو من ضرب الاتفاقية السابقة مع السلطة بعرض الحائط، ولكنه وأمام الالتزامات السياسية والدبلوماسية، قد التزم به بصورة شكلية حيث تحول الاتفاق إلى اتفاقيات، واخترعت مصطلحات جديدة لتقسيم مدينة الخليل، أو السيطرة على مناطقها.

عبد الرحيم ابن خالتي فتحية، أنهى فترة سجنه المحدودة منذ وقت واشتغل في مجالات البناء، بعض الوقت ثم ذهب لدراسة التمريض.

أخي حسن ظل مسجوناً لدى السلطة في ظروف معقولة، وبعد فوز الليكود في الانتخابات بدأوا يسمحون له بالمبيت في البيت عند نهاية الأسبوع فيقضي يوم الجمعة عندنا في الدار، ولم يعد لنا حاجة بالذهاب لزيارته في سجنه. ومع صباح السبت يعود للسجن، وإذا حدث طارئ في البيت كانوا يسمحون له بالمجيء في غالب الحالات.إبراهيم ظل مختفياً طيلة الوقت، ولكن حركته إلى البيت كانت أكثر سهولة ويسراً حيث أن اهتمام أمن السلطة له تقلص كثيراً، لكنه ظل محافظاً على قدر من السرية، والتخفي في حركته، وفي الأماكن التي يختفي فيها ويلجأ إليها.

أمي تقوم بالضغط عليّ والإلحاح الشديد على ضرورة مراجعة طبيب أخصائي، حيث أنه بات من الواضح أن هناك مشكلة لديّ، أو لدى زوجتي في قضية الإنجاب، وحاولت تجاهل ذلك لبعض الوقت، ولكنها محقة، فبدأ هذا الأمر يأخذ جزءاً كبيراً من اهتمامنا.

بعد مرور وقت على صعود نتنياهو إلى سدة الحكم في إسرائيل، بدأت الأمور تتوتر بينه وبين السلطة. الحدث الأبرز في هذا المجال ارتبط بالأخبار عن نفق تقيمه الحكومة الإسرائيلية تحت المسجد الأقصى، وأنه يهدد الأقصى بالانهيار، مما أثار الشارع، الذي خرج غاضباً إلى الشوارع، وحدثت صدامات عنيفة بين رجال السلطة الفلسطينية وبين قوات الاحتلال الإسرائيلي في نقاط الاحتكاك. حيث تم العديد من عمليات تبادل إطلاق

النار، وقتل العديد من جنود الاحتلال والعديد من رجال الشرطة استشهدوا، أخي خالد شارك في الاشتباكات التي وقعت عند معبر ايرز الحدودي، حيث كان يداوم هناك، وأصيبت كتفه برصاصة، ووضعت يده وكتفه في (الجبص)، وأخذ إجازة مرضية، وما أدهشنا هو أنه استدعي خلال إجازته المرضية، فغاب لبضع ساعات، وحين عاد كان الغضب يتفجر من وجهه، حيث قدم للمحكمة العسكرية وحكم عليه بغرامة مقدارها (خمسمائة شيكل) لأنه أطلق النار عند حاجز إيرز دون إذن مسبق.

بدأت الأمور تزداد توتراً مع الحكومة الإسرائيلية، وبالمقابل بدأت العلاقات تتحسن مع السلطة تجاه المعارضة، حيث أطلق سراح العديدين من السجناء ومن بينهم أخي حسن الذي عاد لداره وزوجته وأولاده بعد قرابة عام.

الفصل التاسع والعشرون

حي الشجاعية بمدينة غزة. في دارٍ فيه، تجلس العائلة أبو نضال وأم نضال ونضال ومحمد واثنتان من البنات، محمد الذي يبلغ حوالي الخامسة والعشرين من عمره، يكثر من أكل الزيتون بصورة تلفت نظر أم نضال فتسأله: ما بالك يا محمد لا تأكل سوى الزيتون؟ ألا تحب الأصناف الأخرى يا ولدي؟ فيجيب محمد: لا يا أمي أحبها كلها، ولكني أحب الزيتون أكثر أليس هذا الزيتون من زيتونتنا التي استشهد تحتها عماد، ففاضت دمعة من عين أم نضال وقالت: رحمه الله، نعم يا ولدي فقال محمد: لذلك أحبها، أشعر أن هذا الزيتون ينبض بروح عماد، فأحبه حباً جماً لأنني أحب عماد.

بات واضحاً أن العملية السلمية بعد اعتلاء نتنياهو عرش الحكم في إسرائيل، قد غرقت في الوحل فلم تعد تتقدم، والوضع يسوء يوماً بعد يوم على المستوى السياسي، الأمر الذي جعل الكثير من المعارضين لعملية أوسلو يجدون في ذلك دليلاً واضحاً على صدق نظرتهم بأن هذه العملية محكوم عليها بالفشل، فها هي ماضية تنقض الاتفاقيات وتتنصل منها.

هذه المادة من الحوار ذكرها أخي حسن أكثر من مرة أثناء لقاءاتنا في الدار في غرفة أمي، محمود كان يرد عليه أنهم هم من تسببوا في ذلك، فلولا عملياتهم لما صعد نتنياهو للحكم، ولاستمرت العملية السلمية كما كان مخططاً لها، وكان الجميع متفقين أن العملية السلمية قد أصبحت مجمدة أو أنها قد انتهت.

عبد الرحيم ينطلق مع اثنين من المجاهدين بسيارتهم على الطريق العام، قرب بلدة بيت شيمش داخل الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨، والتي لا تبعد سوى كيلو مترات معدودة عن بلدة صوريف، وبيديهما بندقيتا كلاشينكوف مشحوتان بالرصاص، بانتظار مرور إحدى سيارات المستوطنين. يلاحظون إحدى السيارات حيث ترتطم السيارة بجانب الطريق وقد قتل الراكبان فيها. بعد أيام يجلس عبد الرحيم وإخوانه في مسجد البلدة بعد أن أدوا صلاة المغرب يتحدثون في شئون حياتهم ليقول عبد الرحيم: يا أخوة لقد تم إطلاق سراح الآلاف من السجناء الفلسطينيين من سجون الاحتلال، ولكن حتى الآن لم يتم إطلاق سراح إخواننا من السجناء المعارضين لأوسلو.

قال جميل: نعم لقد صدقت وهناك المئات من الأسرى ممن تسميهم سلطات الاحتلال أن على أيديهم دماء إسرائيليين لن يتم إطلاق سراحهم، يقول عبد الرحيم: لا بد أن

نفعل شيئاً من أجل تحرير هؤلاء الأسرى وتخليصهم من سجون الاحتلال الظالمة، فيجيب الآخرون: نعم ...نعم، يجب أن نفعل شيئاً جدياً.

تنطلق السيارة بثلاثة من المجاهدين على الطريق القريب من معسكر صرفند لجيش الاحتلال داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وقد تظاهروا بأنهم من المحتلين. أحد الجنود يقف في إحدى محطات الانتظار في تلك الساعة من وقت الغروب، وقد غادر قاعدته في طريقه للبيت ويشير بيده للسيارة للتوقف لتأخذه في طريقها، تتوقف سيارة المجاهدين قريباً من الجندي من ذلك، فيسحب أحد المجاهدين مسدسه ويطلق عليه ثلاث رصاصات فيرديه قتيلاً.

أنزل المجاهدون جثته في أحد حقول الزيتون القريبة من البلدة، وعادوا إلى عبد الرحيم الذي كان بانتظار عودتهم بأحد الجنود الأحياء لإخفائه ليبدأ التفاوض عليه لإطلاق سراح عدد من الأسرى، فأخبروه بما كان فخرج معهم حيث دفنوا جثته كيلا يتم العثور عليها، وقد تلزم في المستقبل كورقة ضغط إضافية للتفاوض على الأسرى، وبعد أيام أخرى خرج عبد الرحيم مع عدد من إخوانه المجاهدين إلى الطريق العام قرب بيت شيمش، أطلقوا النار على إحدى السيارات أثناء تجاوزها، فقتلوا ثلاثة من ركابها وعادوا إلى البلدة سالمين في نفس الوقت.

واصل رئيس حكومة الوزراء نتنياهو ممارسة سياسة العنجهية والعربدة، فصادرت حكومته أرض (أبو غنيم)في القدس، وبدأت بالعمل عليه لإنشاء حي سكني يهودي يفصل التجمعات والقرى العربية عن القدس، وثارت إثر ذلك ضجة إعلامية وسياسية كبيرة، وقد جلس عبد الرحيم وإخوانه يفكرون فيما يمكن فعله من أجل ذلك، وفي هذا الوقت كان الكثيرون من المجاهدين متأكدين من أن ساعة الجد لا بد آتية وأن وهم السلام مع اليهود سيزول قريباً وها هي البوادر قد أطلت فبدأوا يعدون العدة لذلك اليوم.

في أنحاء الضفة الغربية عكف أحد القياديين العسكريين على ترتيب إجراءات في قمة السرية في تنظيم خلايا جديدة وتدريبها، وجمع السلاح وتوزيعه عليها في مختلف المناطق بما في ذلك القدس.

وفي القطاع بدأ حسن بتوجيه من إبراهيم وإرشاد من أحد الخبراء في موضوع صناعة السلاح يستخدم أدواته وماكناته وورشته، في صناعة مكان القنابل اليدوية وتخزينها ومحاولة صناعة بنادق محلية رغم محدودية جودتها إلا أنها يمكن أن تكون خيراً من الحجارة والعبوات الكبريتية، كما حدث من قبل في مواجهة الاحتلال،

ومع التطورات التي حدثت حول قضية جبل (أبو غنيم) في القدس، اتصل القائد العسكري في الضفة في كتائب القسام بعبد الرحيم، حيث إن خليته كانت الخلية الجاهزة والفاعلة حتى تلك اللحظة لتنفيذ عملية فدائية كبيرة في عمق الكيان الصهيوني رداً على إجراءات الحكومة الإسرائيلية في جبل (أبو غنيم)، وقد زودهم بحقيبة جاهزة من المتفجرات حيث كانت الخطة أن يتم وضعها في أحد أماكن التجمعات للمحتلين، ومن ثم يتم تفجيرها بالتحكم عن بعد، وقد استلموا الحقيبة حيث حملها موسى ومجاهد آخر بسيارتهم وانطلقوا بها إلى تل أبيب، حيث اختار موسى أحد المقاهي التي تكتظ بالرواد.

بعد ظهر الجمعة كان الأصل أن يحمل المجاهد الآخر الحقيبة وينزل بها ليضعها تحت إحدى الطاولات بين الجمع، ويقوم وكأنه يريد إحضار شيء من داخل مطبخ المقهى ويخرج، حيث يتم تفجيرها عن بعد، ولكن السماء كانت على موعد لاستقبال "موسى عبد القادر أبو دية" فحمل الحقيبة ونزل بها، ودخل ساحة المقهى، وبدلاً من أن يضع الحقيبة ويخرج، حدث الانفجار فاستشهد هو وقتل ثلاثة وأصاب ما يزيد على الخمسين.

جن جنون حكومة الاحتلال وبدأت بالتهديد والوعيد، وقد تم تحديد هوية الشهيد موسى، فسارعت أجهزة أمن السلطة لاعتقال عبد الرحيم وجميل، حيث أخضعتهما للتحقيق في سجن الخليل، ثم أودعتهما في السجن.

خالتي فتحية كادت تجن على سجن فلذة كبدها عبد الرحيم، وما أن يدخل والده أو عمه الدار حتى تملأ الدنيا صراخاً بأن عليهما أن يفعلا شيئاً ليطلق سراحه فيعدانها خيراً ويخرجان ليعاودا الاتصال بمن يؤثر أو يتوسط دون جدوى، وتخرج لتزوره في سجنه بين الحين والآخر، وتأخذ معها إحدى بناتها، وقلبها يكاد يتفطر ألماً على رؤيته في السجن، وهو يضاحكها ويمازحها ويحاول التخفيف عنها وكأنه ليس هو المسجون. بعد حوالي ثمانية أشهر جاء سجانوه وأبلغوه هو وجميل أنهما سينقلان إلى سجن أريحا لمحاكمتهما هناك، حذراهما بأن في ذلك خطأ كبير، حيث أن قوات الاحتلال قد تخطفهما من أيدي الشرطة الفلسطينية، فتجاهل السجانون ذلك، وطالبا رؤية أحد المسئولين لتحذيره وتحميله المسئولية، فتمت مقابلة مسئول سجن الخليل الذي تجاهل الأمر، محاولاً طمأنتهما إلى أن شيئاً من ذلك لن يحدث.

قيدا وأخذا بالسيارة التي انطلقت بحراسة سيارة أخرى من الشرطة، وبعد ساعات من السفر وجدوا أنفسهم في كمين أعدته قوات الاحتلال التي أوقفت السيارة تحت تهديد السلاح وفتحت أبواب السيارة وهي تصوب السلاح نحوهما، وتناديهما باسميهما للنزول، حيث أخذا إلى سيارة جيش الاحتلال التي طارت بهما إلى مركز التحقيق في القدس.

بعد أشهر سمح لخالتي بزيارة ولدها في سجون الاحتلال، وهي ترتجف خوفاً وإشفاقاً على فلذة كبدها، وما إن رأته حتى أذرفت دموعها، وهو يحاول مضاحكتها والتخفيف عنها، ويحدثها بما كان، فما كان منها إلا أن صرخت والله لقد سلموك أنت وصاحبك لليهود وبدأت بالدعاء عليهم من أعماق قلبها، انتهت الزيارة وأخرجت خالتي من السجون، وعادت للبيت تحدث أهل بيتها بما كان، وتقسم لهم أنه قد تم تسليم عبد الرحيم لقوات الاحتلال تسليماً وتسب وتشتم، وهي لا تزال حتى اليوم ممنوعة من زيارته، ولا تزال مقتنعة من أعماق قلبها أنه قد تم تسليمه للأعداء تسليماً بأيدي أبناء شعبه.

في البيت عندنا كان من الطبيعي أن نتطرق في أحاديثنا لما حصل، لابن خالتي عبد الرحيم، وقد كان غضب أمي كبيراً على ما حدث لابن أختها. محمود حاول تبرير الأمور بأن ذلك كان من غير قصد، وأن قوات الاحتلال فعلت ذلك كعملية قرصنة، واختطفت عبد الرحيم ورفيقه اختطافاً، وأن من المستحيل أن يكون قد سلّم تسليماً.

حسن وجد الفرصة مناسبة للهجوم على محمود، بدأ يشكك في ذلك متسائلاً: كيف يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً؟ ولماذا لم يتم محاسبة هؤلاء الأشخاص المهملين إذا كان هذا إهمالاً؟!! وكيف عرف اليهود بأمر خروج المسجونين؟ وعرفوا أسماءهما!! ونادوهما بهما!! ولماذا يصف محمود ذلك مستحيلاً؟ ألم يتم اعتقالهما أصلاً لمدة تزيد عن ثمانية أشهر؟!! ألم يتم اعتقال المئات من شباب المقاومة ووضعهم في السجون؟-ألم يعذب الناس في التحقيق وفي الزنازين؟ ألم ألم؟ ومحمود ظل صامتاً حتى سكت حسن وحده، ثم قال: أنت تحاول الاصطياد في الماء العكر وتحاول أن تتلاعب بعواطف أمي لأن ابن أختها هو المعتقل، ومن العيب عليك أن تفعل ذلك، ضحك حسن وقال: من العيب عليّ أن أفعل ذلك، ألم أسجن أنا شخصياً سبعة أشهر عند السلطة؟ ألم يأتوا لاعتقال إبراهيم وأجبروه على الاختفاء عدة أشهر، أنا أريد التلاعب بعواطف أمي.

حدة التوتر كانت تزداد بين السلطة وأجهزتها من جهة، وبين القوى والجماعات المعارضة. وقد وصل ذلك التوتر، إحدى درجاته القصوى بعد حادثة اغتيال المجاهد "محيي الدين الشريف" في رام الله، حيث اتهمت حماس أجهزة السلطة بالتواطؤ مع المخابرات الإسرائيلية لتصفيته واتهمت السلطة حماس بتصفيته على خلفية خلافات داخلية.

قمة التوتر كانت بعد خروج أحد الشبان من سجون الاحتلال بعد فترة اعتقال، وهو يحمل خطة للعمل على فرض إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين الذين لا زالوا محتجزين في سجون الاحتلال. الخطة كانت تتلخص في تنفيذ عدة عمليات استشهادية، وربطها بقضية المعتقلين ثم التجهيز لعمليات أخرى، والمطالبة بإطلاق سراح الأسرى والتهديد بسلسلة عمليات كبيرة، فإن لم يتم إطلاق سراحهم نفذت العمليات.

فور تحرره اتصل بعدد من المجاهدين وبدأوا يجهزون لعدد من العلميات، أولها كانت عملية مزدوجة في سوق (محني يهودا) في القدس حيث فجر استشهاديان نفسيهما في السوق، فأحدثا قتلاً ودماراً وإصابات كبيرة جداً، ونزل البيان يطالب بإطلاق سراح الأسرى وإلا نفذت المزيد من العمليات. ثم نفذت عملية أخرى أدت إلى قتل وإصابات ودمار.

جن جنون حكومة نتنياهو، وبدأت تهدد وتتوعد، وبدأ الضغط يزداد على السلطة خاصة من الأمريكان، مما زاد التوتر بين السلطة والمعارضة، وقد قامت السلطة بحملة اعتقالات جديدة في صفوف المعارضة خاصة حماس، وأودعت السجناء في سجونها، الشيخ جمال والشيخ عبد الرحمن سجنا في سجن بيتونيا، الذي بني حديثاً، برفقة العشرات من الأسرى.

الحوارات زادت حدتها عندنا في الدار بين محمود من جانب وحسن وإبراهيم من جانب آخر وبدأت تتطور أحياناً إلى اتهامات، وكادت تصل إلى تدافع بالأيدي خاصة بين محمود وحسن وكانت تنفض الجلسة على خلاف وتوتر وشبه قطيعة.

بعد أيام اعتقل حسن مرة أخرى، وتمكن إبراهيم من الاختفاء، بعد أن تمكن من الإفلات من الاعتقالات في اللحظة الأخيرة.

سقطت حكومة الليكود برئاسة بنيامين نتنياهو بتأثير المتطرفين فيها من الأحزاب الدينية المتطرفة على خلفية عدم موافقته على خطواته تجاه السلطة والسلام والانسحاب الشكلي من الخليل، وبدأت الاستعدادات للانتخابات الجديدة في إسرائيل والتي فاز فيها مرشح حزب العمل (ايهود باراك).

فوز باراك شكل فاتحة أمل لدى السلطة، ومؤيدي السلام في شعبنا، حيث أنه سيتقدم بالعملية السلمية دون شك، ومع بدء الانفراج في العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية، ازدادت حدة التوتر بين السلطة وقوى المعارضة، وزادت السلطة من إجراءاتها الضاغطة على قوى المعارضة، خشية أن تخرب فرصة التقدم في العملية السلمية.

وقد وصلت معلومات لأجهزة أمن السلطة عن مكان اختفاء إبراهيم فذهبت قوات كبيرة وحاصرت المكان، وهددت وتوعدت إذا لم يسلم نفسه، ففعل وأخذ إلى السجن، وحزن أمي أصبح أحزاناً على ابن أختها، وعلى ابنها، وعلى زوج ابنتها، أضف إلى ذلك آثار حزن زوجة حسن، وحزن مريم، وأولاد حسن ومريم، وباختصار تحولت الدار مرة أخرى إلى مقبرة من الصمت والبكاء والأحزان.

بدأت الأخبار تتوارد بحسن نوايا رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد (ايهود باراك) والذهاب إلى مفاوضات الحل النهائي مع الفلسطينيين، الأمر الذي رحبت به السلطة، ودفع الأمريكان لتحقيقه، وبدأت الأحاديث عن الآفاق الكبيرة لقرب الحل، ولقرب تحقيق الأحلام الفلسطينية بقيام الدولة وعاصمتها القدس الشريف، وانتهاء الاحتلال بالانسحاب الإسرائيلي إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧، وبالفعل فقد بدأت المفاوضات في (كامب ديفيد) بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي وبرعاية الرئيس الأمريكي "بيل كلينتون".

تابعنا الأخبار عن المفاوضات بكل جدية واهتمام وعدنا نجلس لدى أمي لنحضر الأخبار على التلفاز. رغم غياب حسن وإبراهيم لوجودهما في السجن، وبغيابهما غاب الصوت المعارض، والرأي المعارضة للتفاوض والسلام مع إسرائيل.

حزن أمي وتأثرها على سجن حسن وإبراهيم لم يكن خافياً وقد حاول محمود مراراً أن يخفف عنها، وأن يواسيها وحتى أن يؤملها بأن انتهاء المفاوضات الجيد في كامب ديفيد، والبدء بتطبيق ما سيتم الاتفاق عليه، سيؤدي إلى إطلاق سراح حسن وإبراهيم، وحتى إن إسرائيل ستطلق سراح السجناء المعتقلين في سجونها، فهذه إحدى القضايا التي أثارها المفاوضون الفلسطينيون ولم يعد لإسرائيل أي مبرر لاحتجاز الأسرى بعد توقيع اتفاقية الحل الدائم والنهائي، وحينها سيتم إطلاق سراح عبد الرحيم كذلك.

بعد أيام تفجرت المفاوضات، حيث لم يتم التوصل إلى اتفاق، فإسرائيل لم تكن مستعدة للحوار أو تقديم أي حلول معقولة في القضايا المعلقة الكبيرة مثل قضية القدس واللاجئين ، وحدود الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، والتجمعات الاستيطانية.

وقد تسربت أخبار عن ضغوط رهيبة مورست على الرئيس الفلسطيني "ياسر عرفات" حتى من الرئيس الأمريكي "بيل كلينتون" للتنازل في هذه القضايا أمام التصلب

الإسرائيلي فكان جوابه الرفض القاطع. دعا المفاوضون إلى ديارهم، ودخلت المنطقة إلى طريق مسدود، وكان واضحاً أنها تنتظر عود الثقاب أو الشرارة التي تشعلها.

جاءت الشرارة من خلال زيارة رئيس حزب الليكود الجديد "أرئيل شارون" الذي أصبح زعيم المعارضة في دولة الاحتلال، حيث دخل باحة المسجد الأقصى يحرسه المئات من جنود وشرطة الاحتلال وبذلك أطلقت الشرارة التي أشعلت المنطقة، فهبت الجماهير الغاضبة الثائرة في وجهه وضد زيارته وتدنيسه للمسجد الأقصى المبارك، خرجت الجماهير بصدورها العارية في غزة والضفة والقدس إلى حواجز جيش الاحتلال لتلتحم في مواجهات عنيفة بالحجارة والزجاجات الفارغة، وبدأت تتكرر صور الانتفاضة الأولى، وبدا واضحاً أن ردة فعل جيش الاحتلال عنيفة وغير منطقية، خاصة في أجواء حكومة يصفها الكثيرون بأنها حكومة سلام ومفاوضات، ولكن باراك السياسي لم يختلف مطلقاً عن باراك العسكري، بل ازداد حدة وقوة في معركة السياسة وهو يعتقد أن الجانب الفلسطيني قد دفع بالجماهير إلى الشارع ليشكل عليه ضغطاً سياسياً وإعلامياً ليجبره على التنازل عن مواقفه التي عرضها في مؤتمر كامب ديفيد فصدرت الأوامر لجيش الاحتلال للتعامل مع الجماهير المنتفضة بمنتهى القسوة، ودون أي رحمة أو أي رأفة، وبدأ الفتيان المتظاهرون يجتمعون عند الحواجز ونقاط الاحتكاك.عشرات الشهداء ومئات الجرحى والجماهير تزداد حماسة والتهاباً واندفاعاً كعادتها كلما زادت تضحياتها، فيزداد عدد الشهداء والجرحى.

بعض رجال الشرطة الفلسطينية أو أفراد الأجهزة الأمنية لم يتمكنوا من ضبط أعصابهم، وهم يرون أبناءهم وإخوانهم تحصدهم رشاشات جنود الاحتلال، أو يتسلى على جماجمهم قناصو الاحتلال، فثارت حمية البعض، وبدأوا يردون، فحدثت حالات قتل وإصابات في جيش الاحتلال، وبات واضحاً أن الأمور تندفع إلى عنق الزجاجة إلى غير رجعة وان ما يحدث ليس مجرد لعبة لمكاسرة الأيدي بين القيادتين الفلسطينية والإسرائيلية، إنها ليست محاولة من الجانب الفلسطيني لتحسين الموقع التفاوضي، كما صرح بعض المفاوضين، الأمور أصبحت أكبر من أن تضبط، وأفلتت من أيدي من أرادوها مجرد ورقة لتعديل الوضع التفاوضي.

تجاوز عدد الشهداء الفلسطينيين عدة مئات، وجنود الاحتلال بناءً على توجيه قيادتهم لا يرقبون في جماهير شعبنا إلاً ولا ذمة، ويُعملون فيها القتل والذعر.

في إحدى غرف سجن غزة المركزية يلتف خمسة عشرة سجيناً حول التلفاز ويشاهدون نشرة الأخبار المسائية وهي تتحدث عن الأحداث والمواجهات وسقوط عشرات الشهداء ومئات الجرحى.

في هذا اليوم ستعرض نقاط الاحتكاك، وما كان عليها من مواجهات وصدامات وشهداء وجرحى عند بوابة صلاح الدين في مدينة رفح، ومواجهات وصدامات وشهداء وجرحى عند حاجز التفاح غربي مدينة خان يونس، وكذلك الحال عند مستوطنة (كفار داروم) قرب بلدة دير البلح. والوضع أصعب بعشرات المرات عند مفرق الشهداء بالقرب من مستوطنة(نتساريم) شهداء وجرحى عند معبر ايرز الحدودي وشرقي الشجاعية، وصورة شبيهة في نقاط الاحتكاك في الضفة الغربية، كمدينة القدس وحولها في أطراف مدينة رام الله وعند قبر يوسف في نابلس وحول جنين ومخيمها.

صمت مطبق يسود الغرفة أثناء نشرة الأخبار، وما إن انتهت حتى بدأت التعبيرات عن الغضب تصدر عن أولئك الشبان في تلك الغرفة، وغيرها من غرف السجن، هذا يصرخ مكبراً: الله أكبر ماذا يحدث يا ناس؟ والثاني يضرب السرير بقدمه صارخاً: إلى متى يظل هذا الحال؟ والثالث يضع رأسه بين يديه يعصرها دون أن ينبس ببنت شفة، والرابع يضرب رأسه بكف يده ، وهكذا من التعبيرات الغاضبة أو غير الرزينة.

إبراهيم يجلس على حافة السرير وقدماه تتدليان على الأرض، وقد أسند ذراعيه على ركبتيه وأسند رأسه على كفيه، والتزم الصمت، أحد الشبان توجه إليه بالقول: ما رأيك يا إبراهيم؟ نظر إليه إبراهيم قائلاً: هذا هو حالنا، أرواح ودماء أبناء شعبنا صارت حقلاً لتجارب أوسلو، فإن تنجح بها ونعمت، وإن لم تنجح فما المانع أن نبدأ من الصفر، هذا هو الحل، كل تضحيات الانتفاضة الأولى ذهبت هدراً، والآن وصلت الأمور مع السياسيين والمفاوضين، إلى طرق مسدودة، فما المانع من أن تبدأ التجربة من جديد!!

مئات بل آلاف الشهداء سيسقطون، وعشرات آلاف الجرحى، وستجد من يأتي ليطرح مرة أخرى الذهاب إلى أوسلو جديد، أو سمه ما شئت أن تسميه، وهكذا بعد كل جولة من جهاد وكفاح شعبنا يأتي السياسيون ليقطفوا الثمرة؛ لأنهم يسارعون في قطاف الثمرة قبل أوانها فإنهم يعاقبون بحرمانها، فلا الثمرة تبقى على الشجرة حتى تثمر، ولا ينتفع بها حين قطافها فهي لم تنضج بعد. هكذا كان الحل مع انتفاضة شعبنا الأولى، ولأن علينا أن نبدأ من جديد ليأتينا من يتوهم أن الثمرة قد نضجت وآن أوانها، فيدمر كل ما ضحى شعبنا من أجله.

تساءل الشاب هذا يعني أنك تعتقد أن الأمور تتواصل على هذا الحال لفترة طويلة، ابتسم إبراهيم قائلاً: نعم، ستتواصل وستطول، ألا ترون أن المنطقة تدخل في حالة من التعقيد والتلغيم الذاتي، فكل شيء محشو بالمتفجرات، وكل شيء يرتبط بالشيء الآخر وكل انفجار يجر انفجارات متتالية، ليس لدى الاحتلال أي شخص مستعد أو قادر على التجاوب مع الاحتلال للتنازل عن مطالب شعبنا وأمتنا، لا في موضوع القدس، ولا حدود ١٩٦٧، ولا اللاجئين ولا المستوطنات، ولا المياه، ولن تجد في الشعب الفلسطيني من يستطيع أن يتقدم خطوة للأمام ما دامت هذه الأمور لم تحل، ومن يتجرأ أو يفعل ذلك فسوف يجد ألف ألف ممن يصرخون في وجهه، ويتهمونه بالخيانة.

إذاً فالأمور في حالة من التعقيد وسيظل جرح الشاب نازفاً وسيظل هؤلاء الفتيان يقذفون بأنفسهم للموت، أمام بنادق ودبابات الاحتلال، دون مقابل هذا حرام ولا يجوز ويجب أن يمنعوا من ذلك، يجب أن يمتلك أحد الجرأة والشجاعة، ليقف ويهتف بهم كفى هذا يذهب هدراً، ضحك إبراهيم وقال: لا يا أخي فإن هذا لا يذهب هدراً، هؤلاء الفتيان يفوزون عند الله بالشهادة؛ لأن نواياهم خالصة صادقة، وهذه ضريبة يجب أن يأخذ حصته من دمنا، والأمور دونما شك ستتطور، ستجد غداً أن الجماهير ازدادت غضباً، والأمور سترفع بالرغم عنها من يحمل الراية ويشهر السيف في وجه الجلاد، وسيدفع العدو ثمن هذا الدم الذي سفحه من دمه ومن راحته ومن أمنه، ومن استقراره ومن اقتصاده ومن ماء عيونه. تساءل الشاب: وإلى متى سيظلون يحتجزوننا في السجون، وقد سقط الوهم بالسلام مع الاحتلال البغيض؟ ضحك إبراهيم وقال: لن يطول أسابيع معدودة، أسابيع معدودة فقط.

استمرت فعاليات الانتفاضة وتصاعدت وازدادت حدة، جمعت قوات الاحتلال إمكاناتها وبكافة أساليبها وبات واضحاً أن وحدات من القناصين من قوات الاحتلال يعتلي أبراج المراقبة عند نقاط التفتيش أو الحواجز أو المستوطنات، وتتسلى على رؤوس المتظاهرين، وقد عرضت أجهزة التلفزة تقارير عن ذلك، حيث راقب أحد الجنود المتظاهرين بمنظار كبير، يحدد أحد المتظاهرين ويبدأ بوصفه للقناص المتمدد إلى جواره، وراء بندقية القنص، ذلك المتظاهر الذي يلبس القميص الأصفر، ذو الشعر الطويل، بيده حجارة، ها هو يلقي حجراً، هل تراه؟ فيجيب القناص: نعم نعم أنا أشخصه، فيقول الأول: أنزله عن الطريق، فيطلق ذلك الجندي رصاصة، ويتدافع الشبان من حوله ليحملوه تحت وابل من الرصاص، وذلك الجندي يصفه لصاحبه فقد أصاب نقطة أخرى

مما يؤكد أنه قناص ماهر وعلى درجة عالية من الكفاءة والخبرة.

أمام تلك الشجاعة والإجرام بدأ عدد أكبر من أعضاء قوات الأمن والشرطة الفلسطينية يردون بإطلاق النار التي توجه ضدهم وضد الناس ومن حولهم، فبدأت عمليات قنص واضحة تستهدف حاملي السلاح حتى من رجال الشرطة، ثم بدأت عمليات قصف البعض لنقاط تجمع الشرطة ولبعض مواقعهم.

حكومة الاحتلال وأجهزتها وإعلامها بدأت تتهم السلطة بأنها تفتح المجال للسجناء في سجونها للخروج من السجون لتخطيط عمليات ضدها، وبات واضحاً أنها بذلك تمهد البدء بالعمل ضد السجناء لدى السلطة، أولى تلك المحاولات كانت باستهداف سجن (صنين) في نابلس، حيث تم قصف أحد الأقسام بطائرات (F16) التي استهدفته بصواريخها ذات النصف طن من المتفجرات فدمرته كاملاً.

المستهدف "محمود أبو هنود" كان في طرف القسم وقدر الله له النجاة، ولكن عدداً كبيراً من رجال الشرطة حراس السجن قتلوا وأصيب الكثيرون بذلك، وجدت السلطة نفسها بين نارين، نار استمرار احتجاز هؤلاء السجناء، التزاماً باتفاقيتها مع الجانب الإسرائيلي، أو إطلاق سراحهم، والظهور أمام الأمريكان الذين يسارعون للضغط والتهديد إزاء كل شيء من ذلك.

في سجن بيتونيا يحتجز عشرات الأسرى، في غرف أحد الأقسام في إحدى الغرف مع المحتجزين الشيخ جمال والشيخ عبد الرحمن، صرخ أحد الشبان هذه مروحيات الأباتشي تحلق ها هي ألا ترونها، ويشير بيده من النافذة، يصرخ شاب آخر: يبدو أنها تريد قصفنا، ويسود جو من الفوضى والصخب في الغرفة، وفي الغرف الأخرى الشيخ جمال ينادي على الشبان لتوفير الهدوء، وضبط النفس، وينادي على الحارس الذي يأتي بعد وقت يمشي متكاسلاً متثاقلاً، كما هي عادة الحراس إلى مكان غير محدد، خشية أن يتم قصف غرفهم، فيرد الشرطي أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فليس لديه إذن لفعل هذا الأمر. يطلب منه الشيخ جمال استدعاء المسئول عن الضابط المناوب، فيبدأ بالتعذر والتثاؤب، ويصرخ عليه الشيخ جمال من وراء قضبان الباب صرخة أيقظته من سكره وتكاسله، قلت لك استدع لنا الضابط ألا تفهم ما أقوله، قد يتم قصف المكان، فيسارع الشرطي وهو يقول: حاضر حاضر، يذهب إلى التلفون في طرف الممر ويرفعه ويتصل بضابطه الذي يأتي متسائلاً: عما حدث؟ يصف له الشيخ جمال ما يحدث، يحاول الضابط طمأنته أن شيئاً لن يحدث، فها نحن إلى جواركم، يوضح له الشيخ أن طائرات الأباتشي تقصف الغرف،

لكل غرفة صاروخ محدد وموجه، فيعاود الضابط التهدئة والتطمين، يصرخ عليه الشيخ نحن لن نظل هنا في هذه الغرفة، ولا بأي حال من الأحوال.

يجيب الضابط: ماذا يمكنني أن أفعل؟ يجيب الشيخ: أخرجنا من هنا لمكاتبكم وغرفكم، فيجيب الضابط: لا أستطيع فليس لدي الأوامر، يصرخ الشيخ: اتصل بقائدك، أنت تتحمل مسؤولية ما قد يحدث لنا.

يذهب للاتصال والشبان يراقبون المروحيات التي تحلق حول المبنى باستمرار يصرخ جمال منادياً على الضابط طالباً معرفة ما حدث وما هو الرد، فيأتيه أن الرد على طلبكم الرفض، يصرخ الشيخ الرفض، ويشير للشبان قائلاً: اخلعوا الأبواب، يتقدم عدد من الشبان يحملون السرير الحديدي، ويرطمونه بالباب مرة ومرة ومرات، حتى انفلت الباب من مكانه وهكذا كان في الغرف الثانية، خرج الجميع إلى الممر أمام الغرف، وإذا بالقوات المدججة بالعصي والغاز والتي تحمل الدروع وتلبس كامل عدتها، تأتي من بعيد وعلى رأسها قائد الموقع، وبدأ الأسرى بالصراخ والتهليل والتكبير، وصرخ أحد الشبان: ألا تخجلون على أنفسكم، نحن بين صواريخ الاحتلال وبين بنادقكم وهراواتكم، اخجلوا على أنفسكم.

صرخ قائد الموقع على جنوده بالتوقف والتراجع وبدأ يفاوض الشيخ جمال الذي أوضح له الموقف، فسمح لهم بالتواجد في الممر والساحات، وإن لزم بالتوجه والتواجد في غرف ومكاتب الشرطة.

تلاحقت الأحداث والتطورات بصورة سريعة حيث أنه أمام بشاعة الممارسات والقمع من آلة الحرب لجيش الاحتلال بدأ الكثيرون يفكرون في أعمال انتفاضة تلحق بالاحتلال ومواطنيه الخسائر، فحدثت عدة محاولات لعمليات استشهادية، داخل حدود الكيان الصهيوني أي الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨، بعض هذه المحاولات حققت نجاحاً نسبياً بقتل البعض ولكنها في غالبها كانت ضعيفة، وتسببت بإصابات ولكنها بدأت تشيع أجواء من الخوف لدى المعتقلين وبشرت بالآتيات من بعدها، في مرات عديدة تمكن بعض الشبان من التسلل إلى داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ببنادقهم الرشاشة حيث يبدأ بإطلاق النار على المتواجدين، في السوق في الشارع أو المحطة، فيقتل البعض ويصيب الكثيرين، ثم تتكاثر حوله قوات شرطة وأمن العدو وتقتله أو تعتقله.وفي كل يوم تخرج الجماهير الحاشدة في تشييع جثامين الشهداء وهي تزأر غضباً وتنادي بالثأر والانتقام، وأن يدفع العدو ثمن جرائمه.

قوات الاحتلال مستخدمة المروحيات والطائرات أكثرت من استهداف مواقع قوات الأمن والشرطة التابعة للسلطة، بحيث تحلق حولها في البداية، فيتم إخلاؤها فتقوم بقصفها وتدميرها وكأنها تريد أن توصل رسالة للسلطة بأنه سيتم تدميرها إذا استمرت الأمور على ما هي عليه.

شعرت السلطة بالخطر الذي سيلحق بها إن قصفت طائرات الاحتلال أحد السجون، التي يتواجد فيها معتقلون سياسيون من المعارضة فبدأت بالإفراج عن البعض، حيث أطلق سراح أخي حسن، وتم نقل الآخرين إلى مبانٍ عامة مدنية غير معروفة حيث احتجزوا فيها مثلما حدث مع إبراهيم.

سقطت حكومة باراك وجرت انتخابات جديدة في إسرائيل، وصعد لسدة رئاسة الحكومة فيها "أرئيل شارون" الجزار المعروف، وبات واضحاً أن الأمور تتجه للتصعيد والتعقيد.

الفصل الثلاثون

في الشهر الأول لانتفاضة الأقصى التي انفجرت إثر زيارة شارون للمسجد الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر من العام ألفين أطلقت قوات الاحتلال على المتظاهرين الفلسطينيين في غزة والضفة قرابة مليون رصاصة، وفقاً للإحصائيات التي نشرها صحفيون إسرائيليون.

قادة حكومة الاحتلال سواء "أيهود باراك" أو "أرئيل شارون" الذي جاء بعده أعطوا الضوء الأخضر لقادتهم العسكريين لقمع الانتفاضة وكسرها، وإخماد جذورها، وهؤلاء أعطوا الأمر لجنودهم لحصد المتظاهرين، وشعبنا لم يبخل ولم يتأخر ولم يتراجع، وتدافع الشباب لصدام قوات الاحتلال، وحمل أرواحهم على أكفهم دون تفكير أو تردد.

أمام أفواج القمع والقتل والإرهاب المنظم لدولة الاحتلال وجيشها المجرم، ثارت حماسة الكثيرين من الأحرار من أبناء الشعب الفلسطيني على اختلاف معتقداتهم الأيدلوجية وأفكارهم السياسية وانتماءاتهم التنظيمية، فحملوا السلاح وقرروا الذود عن أرواح أبناء شعبهم في وجه إجرام دولة العصابات التي لطالما تشدقت بالشعارات من الديمقراطية وحقوق الإنسان. من فتح وحماس والجهاد والجبهات، جمع الجميع الهم الواحد، وظلم المحتل المجرم، ليرفعوا البندقية ويبدأوا في تجريع القاتل شيئاً من مرارة الكأس الذي أذاقه شعبنا في قطاع غزة وفي رام الله وفي نابلس، وكل مدن وقرى الوطن.

بدأت تتجمع خلايا فدائية من الشبان، وتعمل لاقتناص جنود الاحتلال ومستوطنيه وإيقاع الخسائر لدى الاحتلال في الأرواح، قوى الرفض لعملية أوسلو كانت لا تزال تعاني من الضربات التي وجهتها لها السلطة، قبيل تفجير الانتفاضة، فلم يكن بإمكانها العمل القوي من البداية، فبدأت العمل بصورة ضعيفة، ولكنها قابلة للتطور.

أما حركة فتح التي انتشر أفرادها في أجهزة السلطة، فقد امتلكت الشــباب والسلاح والقدرة، وكان ينقصها القرار، وأخذ الإصرار على عاتقهم، فانطلقوا في طريق الكفاح المسلح ضد الاحتلال الغاصب المجرم من جديد.

"مهند أبو حلاوة" قام بقتل حارسين لفرع البنك الوطني في شرقي القدس، يوم الثلاثين من أكتوبر وأعلن مسئولية كتائب شهداء الأقصى عن العملية، وبذلك أعلن الاسم الذي تبنته مجموعات حركة فتح التي بدأت العمل المسلح، حيث عملت كلها تقريباً تحت اسم كتائب شهداء الأقصى حسين عبيات فرضته قدراته وإقدامه ليصبح قائد الكتائب في منطقة بيت لحم وبيت جالا، وبدأ هو والعشرات من المقاتلين والمقاومين معه يطيرون النوم من عيون جنود الاحتلال ومستوطنيه في المنطقة، وفي مستوطنة (جيلو) على أطراف القدس، حيث تم اغتياله في التاسع من نوفمبر من العام ألفين، وفي غزة تشكلت المجموعات الأولى من كتائب شهداء الأقصى، وبدأت بتنفيذ عملياتها ضد قوات الاحتلال ومستوطنيه، الجماهير الحاشدة التي كانت تخرج للشوارع في العديد من المناطق خاصة في تشييع جثامين الشهداء، بدأت تهتف بحدة ضد رموز المرحلة السابقة التي انتهت بالتعاون مع إسرائيل والأمريكان، وانهالت هذه الجماهير مراراً على المراكز التي يحتجز فيها السجناء من قوات المعارضة مطالبة بإطلاق سراحهم وأحياناً هزت هذه الجماهير الجدران وأسقطتها وفتحت السجون وحررت من فيها.

أطلق سراح إبراهيم وإخوانه، والمئات من المجاهدين في غزة والضفة، الذين بدأوا على الفور يستعدون لأخذ دورهم في حماية الشعب الذي يتعرض لحرب قرصنة، شنها عليه جيش الاحتلال.

أحد هؤلاء المجاهدين حين أبلغه حراسه أنه سيتم إطلاق سراحه، لم ينفعل ولم يسارع في تجهيز نفسه للمغادرة بل ظل جالساً لا يحرك ساكناً، فاستغربوا ذلك منه وسألوه عن السبب فقال: إنه لا يريد المغادرة، ويمكنهم إبقاؤه فترة أخرى، حملوه ووضعوا القيود بيديه ورجليه ووضعوه في السيارة التي انطلقت حتى مكان سكناه، فكوا قيوده ودفعوه لخارج السيارة.

احتفلنا بعودة إبراهيم من سجنه وتعلقت إسراء وياسر بعنقه وهو يقبلهما ويلاعبهما وهما سعيدان بعودته، واهتم عدد كبير من أصحابه والجيران في البيت لاستقباله والتهنئة على سلامته، فانتهز الفرصة وبدأ يتحدث أمام الجميع عن أكذوبة السلام، التي سوقت على شعبنا والتي هدرت جهده وجهاده وتضحياته على مدار سنوات الانتفاضة الأولى، وها هو شريك سلام الأمس يذبح ليل نهار، ولا يراعي فينا رحمة ولا رأفة. وعاد وأكد أن فكرة السلام مع المحتلين هي أكذوبة يتم تسويقها على شعبنا، وسيتم تسويقها بين الحين والآخر لخداع شعبنا عن طريق حريته وكرامته طريق المقاومة في لبنان حين أجبرت الاحتلال على الهروب من الجنوب اللبناني تحت وطأة ضرباتها.

لقد كان الاحتلال جاهزاً للهروب من غزة، وجاهزاً للهروب من الضفة عام ١٩٩٣، يوم أعمته المقاومة بضرباتها النوعية، وصرخ حينها الكثيرون من قادته أنهم سيفعلون ذلك، فجئنا نحن الفلسطينيين ووضعنا لعدونا السلم لينزل عن شجرة جرائمه، وليس فقط أننا خلصناه من ورطته وإنما تورطنا نحن في اتفاقيات، اعترفنا فيها بحقه على ثلاثة أرباع أرضنا وتورطنا في اتفاقيات التنسيق والتعاون الأمني، فضربت المقاومة، واعتقل الشرفاء، وزجوا في السجون ومورس ضدهم القهر والتعذيب، ببساطة تحولنا إلى حماة لأمن الاحتلال، وماذا قبضنا ثمن ذلك كله؟ رفضه الاعتراف بحقوقنا.

وحين تمسكنا نحن بها فتح علينا وعلى شعبنا جحيم آلة حربه فها هو يحصد يوميا العشرات من الشهداء، ويجرح ويصيب المئات، وها هي مروحياته الأمريكية تصب صواريخها على شرفاء شعبنا من كافة الفصائل، ممن رفضت عليهم نفوسهم الحرة الأبية الرضى والتسليم والانحناء أمام عربدة المحتلين.

هذه الأرض أيها الأخوة أرض مقدسة طاهرة مباركة قال الله فيها ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾[1] فهذه الأرض أرض الإسراء والمعراج أرض مباركة، وهي أرض رباط وجهاد إلى يوم الدين، ولن يستطيع أحد أن يوقف ذلك حتى تتحقق آمالنا بعون الله.

الجماهير العربية والإسلامية تفاعلت مع الواقع في فلسطين، وخرجت إلى الشوارع في عواصم أقطارها من الرباط إلى صنعاء إلى جاكرتا، الملايين خرجت للشوارع تهتف تأييداً للانتفاضة في فلسطين، وضد جرائم الاحتلال ومجازره وصوتها يهدر: خيبر خيبر يا يهود...جيش محمد سوف يعود، وهي تصرخ: الانتقام الانتقام...يا كتائب القسام.

شاب في مقتبل العمر ينزل من السيارة على شاطئ تل أبيب، يتقدم بخطى ثابتة، وترتسم على شفتيه بسمة واثقة نحو منطقة الملاهي على الشاطئ، في مطلع يونيو، ليجد جمعاً كبيراً من الشبان والشابات يكتظون أمام أحد الملاهي، فينسل بينهم بثقة وهدوء، ويضغط على الزر الكهربائي بيده، فيدوي انفجار يصم الآذان ويعلو الصراخ والعويل، وتسارع سيارات الإسعاف ورجال الأمن والشرطة وخبراء المتفجرات، يُقتل العشرات ويصاب آخرون.

---

[1] سورة الإسراء آية (١)

كنا نجلس نحن في غرفة أمي ونهم بالخروج إلى غرفتنا حين قطعت البرامج العادية في التلفاز وبدأ يبث بثاً حياً من المكان، وبدأت تأتي التصريحات المنددة والمستنكرة والمُدينة والشاجبة لهذه العملية الإرهابية في كافة الجهات. نظرت إلى إبراهيم وكأني أقول له: ما رأيك أنت في هذا ففهم قصدي وقال: ألا ترون هذا العالم الظالم، شعبنا يُذبح على مدار ثمانية أشهر متصلة، وجيش الاحتلال يصب على رؤوسنا جهنم أسلحته، ويستخدم ضدنا ترسانة أسلحته المتطورة، طائراته ودباباته وكل أسلحته، والعالم في حالة من الصم والبكم، وعند أي عملية من طرفنا الطرف المظلوم المغلوب المقهور، الذي يطالب بحقه في الحد الأدنى من الحياة الحرة الكريمة تتعالى الأصوات حتى من أبناء أمتنا، وحتى من بعض أبناء شعبنا، تندد وتستنكر، لكن كل هذا لا قيمة له، فهذه الملايين من الرباط حتى جاكارتا كانت منذ أيام تهدد في الشوارع مطالبة بهذا ألم يسمعها العالم؟ وهي تهتف الانتقام الانتقام يا كتائب القسام، فأي انتقام غير هذا أرادت جماهير أمتنا، وإذا كانت جماهير أمتنا تريد هذا، وهو حقنا في أن ندافع عن أنفسنا فما الضير في ذلك؟

في شهر يوليو حاولت قوات الاحتلال بمروحياتها وطائراتها ودباباتها وصواريخها الموجهة وقواتها الخاصة، وأساليبها الخبيثة باستخدام عملائها، القيام بخمس وتسعين عملية اغتيال في الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد نجحت في حوالي ثمانين منها، حيث حصدت أرواح العشرات من ناشطي وكوادر الفصائل الفلسطينية المعروفة، قذائف صاروخية تخترق نوافذ ومكاتب مركز الدراسات الإسلامية في نابلس، التي تقع في بناية كلها شقق سكنية، فتقتل جمال سليم، وجمال منصور، وأربعة آخرين من العاملين في المركز، وتخرج الجماهير في نابلس وفي كل مدن وقرى ومخيمات الوطن تهتف مطالبة بالرد الرادع للاحتلال عن جرائمه، مئات الآلاف تصرخ بأعلى صوتها الانتقام الانتقام يا كتائب القسام، أصوات هادرة تطالب بوضع حد لجرائم الاحتلال الذي بدأ يمارس سياسة واضحة أسماها قادته سراً بسياسة اصطياد الناشطين، بحيث يسمح للقوات المحتلة من خلالها باقتناص أي ناشط فلسطيني من أي الفصائل، يندرج اسمه في لائحة طويلة من المستهدفين، ومن يرد اسمه في أي من التحقيقات التي تجريها مخابرات الاحتلال أو يرد اسمه في أي تقرير يرفعه أحد العملاء.

صحفية شابة فلسطينية تنطلق إلى مدينة القدس تبحث عن هدف مناسب لعملية فدائية كبيرة، تجد أحد المطاعم المكتظة، في اليوم التالي وهي تحمل عبوة ناسفة أخفيت في إحدى الأدوات الموسيقية، ومن خلفها يسير أحد الشبان خالي اليدين كيلا تشك فيه قوات الأمن المنتشرة في كل مكان تحسباً من عمليات فدائية.

حين تصل بالقرب من المطعم، تخفف سرعتها وهو يزيد سرعته، يتناول منها العبوة ويدخل المطعم (سبارو) بعد دقائق معدودة من دخوله يفجر العبوة الناسفة فيدوي الانفجار عالياً وتتكاثر جثث القتلى من أبواب المطعم، ويرتفع الصراخ والعويل تسارع سيارات الإسعاف ورجال الأمن وخبراء المتفجرات، حيث قتل ما يزيد على خمسة عشر وأصيب العشرات.

إبراهيم وحسن ومعهما شاب ثالث عدنان، يعملون في ورشة الخراطة والبرادة التي يمتلكها حسن في منطقة عسقولة بغزة بهدوء، وفقاً لتوجيهات الشاب في إعداد هيكل قذيفة هاون، وإعداد مدفعها القاذف بعدما يحشونها بالمواد المتفجرة، وبالمواد الدافعة، ويضعونها في صندوق السيارة وينطلقون نحو الجنوب، حتى أطراف المنطقة السكنية، وينصبون المدفع ويلقون القذيفة فيه وهم يرددون بسم الله، الله أكبر، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، ويبتعدون وهم يلقون بأنفسهم أرضاً، اهتزّ المدفع مع صوت الانفجار، واندفعت القذيفة للسماء، ثم سقطت في مستوطنة نتساريم القريبة. تعانق المجاهدون الثلاثة، وهم يهنئون أنفسهم على النجاح، ثم طاروا عائدين إلى الورشة، حيث عكفوا على إعداد العشرات من القذائف ومن المدافع البسيطة الصنع بعد أن أعدوا المدفع الأول وخمسة قذائف حملها إبراهيم بسيارته، وطار بها نحو الشمال، هناك في مخيم جباليا طرق باب إحدى الدور، فخرج له أحد الشبان، استقل السيارة معه، حيث أخذه إلى أطراف المناطق السكنية شمالاً، نصبا المدفع وأطلقا القذيفة الأولى على مستوطنة (نتسانيت) ثم استقلا السيارة عائدين، حيث أنزل إبراهيم الشاب والمدفع والقذائف الأربعة الأخرى، وعاد مسرعاً إلى الورشة، حيث حمل المدفع الجديد الذي تم انجازه وخمس قذائف ووضعها في السيارة وانطلق إلى الجنوب، طرق باب إحدى الدور في مخيم خان يونس، خرج معه أحد الشبان إلى أطراف المخيم، نصب المدفع، ضربا القذيفة الأولى، ثم عادا حيث نزل الشاب، وقد أخذ المدفع والقذائف الأخرى.

علا تهديد ووعيد قيادة الاحتلال على إطلاق قذائف الهاون على مستوطناتهم وارتعدت فرائص البعض ممن تصدروا الحياة السياسية في الضفة وغزة، وعلت أصوات بعض المتعقلين، تطالب بالتوقف عن هذه الألعاب التي لا تجدي نفعاً وقد تجلب الضرر.

كان إبراهيم وحسن يعكفون على تجهيز المزيد منها، وهم يسمعون الأخبار وتلك النداءات وهم يبتسمون، ويقول إبراهيم: عجباً لهؤلاء القوم ماذا يريدون؟ يريدون أن تقتلنا قوات الاحتلال ولا نفعل شيئاً سوى العويل، ورفع الرايات البيضاء واستجداء الرحمة من الجزار الذي لا يعرف الرحمة.

اعملا أيها الحبيبان اعملا، فهذا جهاد جهاد... نصر أو استشهاد، يجب أن نصنع السلاح على بساطته، ويجب أن نسعى لتطويره، في كل يوم لنزيد قدرته التدميرية، ونزيد مداه ونضرب به العدو الذي يمتلك كل تلك القدرات العسكرية، وعلى رغم بساطة سلاحنا، وقلة حيلتنا فسنخلق بعون الله معادلة جديدة في الصراع، سنخلق توازناً في علمية الرعب والردع يقصفوننا فنقصفهم، ورضي الله عن عمر بن الخطاب إذ قال: والله لو لم أجد إلا الذر لحاربتهم به، ونحن والحمد لله لدينا الكثير مما هو أفضل من الذر، ويجب أن نحاربهم بكل ما نملك، ويجب أن نسعى لتطوير تلك القدرات دوماً، فنحن في بداية الطريق، لتلك المعركة التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي ورد في الصحيحين: ﴿**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله**﴾ هذا يوم آت وهو قريب إن شاء الله.

أبو علي مصطفى السكرتير العام للجبهة الشعبية، ينزل من سيارته ويصعد درجات السلم إلى مكتبه في تلك البناية في مدينة رام الله، بعد دقائق من جلوسه على كرسي مكتبه، تقترب طائرة الأباتشي وتصوب نيرانها نحو المبنى، وتقصف المكتب، وترتفع صيحات احتجاج خجول على استحياء كيف تستهدف قوات الاحتلال شخصية سياسية وقائداً فلسطيني والعالم المتحضر يغمض عينيه ويصم أذنيه.

بعد أسابيع شابان يقضيان أسبوعاً في فندق حياة في القدس، حيث يقيم أحياناً الوزير "رحبعام زئيفي" اليهودي المتطرف الذي يدعو لترحيل الفلسطينيين، والذي كان جنرالاً في جيش الاحتلال، وشغل منصب رئيس الحكومة لمكافحة ما أسموه الإرهاب الفلسطيني، في الموعد المحدد لخروجه من غرفته، بعيد الساعة السابعة بقليل يقابله أحد الشبان يناديه باسمه فيلتفت إليه لتلتقي العيون للحظة، وتنطلق من مسدس ذلك الشاب رصاصات تردي ذلك المجرم قتيلاً وينطلق الشابان إلى سيارة في مرآب الفندق حيث ينطلقان بها ليغادروا المكان، وخلال دقائق تقلب الدنيا في الفندق وحوله، رأساً على عقب، حكومة الاحتلال تتهدد وتتوعد، فتعلو الأصوات في الجانب الفلسطيني لوقف المقاومة، لوقف العمليات الاستشهادية، ووقف إطلاق قذائف الهاون. يبتسم إبراهيم وهو يسمع تلك الأصوات والنداءات قائلاً: هذا لن يطول...هذا لن يطول فالاحتلال لن يسمح لنا بذلك، سيواصل هجومه وليس أمامنا إلا خيار الركوع والتنازل عن كامل حقوقنا حينها قد يتوقف العدوان.

فحاكمنا وجلادنا ذات الاحتلال، ولأننا لا يمكن أن نقبل الركوع، والتنازل عن كامل حقوقنا، ولأن عدونا لا يمكن أن يقبلنا إلا إذا فعلنا ذلك، فإن هذا لن يطول سيعاود عدونا الضغط علينا للتنازل وبالطبع فلن نتنازل فسيعاود ممارسة القتل، والعدوان ظناً منه أننا سنتنازل لذا يجب أن نواصل، الإعداد والاستعداد هيا يا حسن هيا.

ينطلق إبراهيم وحسن والشاب الثالث عدنان بالسيارة إلى خان يونس هناك يلتقون بأحد المجاهدين ويذهبون معه إلى ورشة للخراطة والبرادة في شارع جلال حيث يعكفون على إعداد القذائف والمدافع، وهم يوضحون لصاحب الورشة والمجاهد الآخر طريقة العمل، ثم ينتقلون إلى ورشة أخرى يدربون صاحبها، ثم إلى رابع وخامس.

شاب من كتائب شهداء الأقصى ينزل من إحدى السيارات، وسط تل أبيب وبيده حقيبة، يتقدم بخطى ثابتة، نحو إحدى صالات الأفراح حيث تمتلئ بالمحتلين يفتح الحقيبة ويخرج منها بندقية كلاشينكوف وعدة خزنات من الرصاص، وعدة قنابل يدوية، يقترب أكثر ويبدأ بإطلاق النار وإلقاء القنابل، ثم إطلاق المزيد من النار، حتى تأتي قوات كبيرة من جيش الاحتلال، وتشتبك معه وترتفع روحه إلى السماوات العلا، بعد أن قتل وجرح العشرات منهم.

طائرات جيش الاحتلال المتطورة تقصف المجاهدين والناشطين، والشبان الفلسطينيين على امتداد الوطن، وآلة حرب الاحتلال تحصد الأرواح دون اعتبار، وجنوده يعربدون من وراء الدبابات الثقيلة والمروحيات والأسلحة الحديثة والجرافات الضخمة تلتهم كل ما تجده في طريقها من بيوت وورشات ومزارع، ومجاهدو وفدائيو الشعب الفلسطيني يعكفون على تحضير المتفجرات من المواد الأولية من الأسمدة وبعض المواد، يصنعون منها الأحزمة ويضعونها على أحزمتهم وخواصرهم، وينطلقون إلى عمق العدو الغاشم، ليذيقوه الكأس الذي يشربون لشعبنا ليل نهار، تكاثفت العمليات وسط المدن الكبرى في القدس، في تل أبيب، في حيفا، في نتانيا، في أسدود، وساد الرعب والهلع على قلوب المحتلين، الشوارع خالية إلا من عجوز أو شاب يحث الخطى ليقضي غرضه سريعاً، المقاهي خالية تماماً، المطاعم لا يقترب منها أحد، المواصلات العامة والحافلات فارغة، قليلاً ما يصعد إليها شخص واحد أو شخصان مع السائق.

في وسط تل أبيب والقدس الغربية بدأت تجد أكياس الرمل قد رصت أمام الأبواب والمحلات التجارية على ارتفاع يزيد عن المتر ونصف، مثل المواقع العسكرية والثكنات.

آلاف الجنود في كل مكان، والجنود ورجال الشرطة أكثر بعشرات الأضعاف من المدنيين وكل يوم أو عدة أيام توضع الحواجز والمتاريس، حيث يبدأون بفحص السيارات ومن تحمل، فقد وصلهم خبر عن تحذيرات من عمليات في الطريق، فتصطف السيارات في طوابير لا نهاية لها، وتتعطل الحياة على أبواب المحلات، ومئات المحلات تجد يافطة معلقة تعلن أنه معروض للبيع أو أنه مغلق حتى إشعار آخر، فقد انهارت الحياة الاقتصادية.

كذلك وطائرات الأباتشي تغتال شخصاً جديداً ثم تغتال شخصاً جديداً، وتخرج الجماهير عشرات الآلاف تجري نحو الهدف الذي تم قصفه، لتحاول إنقاذ المصابين إن بقي فيهم حياة، وهي تصرخ هاتفة مطالبة بالرد وبتأديب الاحتلال الغاشم.

إبراهيم وحسن وعدنان يجلسون وأمامهم مخططات لصواريخ مداها أطول في قذائف الهاون يسأل إبراهيم عدنان هل بإمكانه من الناحية الفنية في ورشته تنفيذ المخططات يدققها مرة ثانية وثالثة ثم يهز رأسه بالموافقة، فيقفزون إلى العمل ثم يحملون ما أعدوا في السيارة، وينطلقون إلى بلدة بيت حانون، حيث ينصبون الصواريخ ويشعلون الفتيل أسفله ويبتعدون قليلاً وهم يدعون الله التوفيق، وبعد ثوانٍ فينطلق مزمجراً ويجتاز الحدود، يتعانق المجاهدون الثلاثة ويعودون مسرعين لتحضير وصناعة المزيد ولتعليم الآخرين في المناطق الأخرى.

وتبدأ صواريخ القسام وغيرها بالانطلاق بالعشرات رداً على هذه الجريمة أو تلك، تعلو بعض الأصوات مرتعدة من ردة فعل الاحتلال الذي بدأ يهدد ويتوعد، يبتسم إبراهيم قائلاً: وماذا يمكنهم أن يفعلوا أكثر مما فعلوا، الآن الاغتيالات والاجتياحات والقصف والقتل والدمار، عليهم الآن أن يبنوا من جديد، ليجدوا ما يهدمونه، مرة أخرى يقول عدنان: ألا ترى أنهم يراهنون على أن الناس تعبوا وأن الشعب يريد أن يرتاح، فقد أرهقه الثمن الباهظ الذي دفعه، يبتسم إبراهيم وهو يقول: من الذي تعب؟ ومن الذي أرهق؟ أنت أم أنا، أمهاتنا ونساؤنا الذين يدفعون الثمن من أرواح أبنائهم ومن بيوتهم ومن أغلى ما يملكون، لم ينطق أحدهم بكلمة تدل على التعب ألم تر في كل مرة أن أم الشهيد تهتف أنها مستعدة للتضحية بإخوته الآخرين في سبيل القدس والأقصى.

وأما من يصرحون أن شعبنا تعب فهم حفنة من أصحاب المصالح السياسية أو الاقتصادية، حفنة قليلة، أما الشعب الصابر فهو مستعد للتضحية بكل غالٍ وثمين من أجل عزته وكرامته ومقدساته.

شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره يلبس زياً عسكرياً مرقطاً، ويضع على رأسه قبعة خضراء مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، كتائب الشهيد عز الدين القسام يحمل بندقيته، ويعلق على وسطه عدداً من القنابل اليدوية، فينزل من السيارة، ويدفع باب دار "أبو نضال" في الشجاعية، داخلاً لوسط الدار، فتقفز أم نضال قائلة: ولدي الحبيب محمد ما هذا يا ولدي؟ يبتسم الفتى قائلاً: سأذهب في عملية استشهادية يا أماه، تصمت الأم للحظات، فيقول محمد هل تذكرين يا أماه هذه الزيتونة؟ ويشير إلى الزيتونة التي استشهد تحتها عماد قبل سنوات هل تذكرينها يا أماه؟ هل تذكرين عماد؟ وهل تذكرين كم أحببنا ثمرها لأنه امتزج بروح عماد؟ هل تذكرين كيف ربيتمونا على حب فلسطين والقدس والجهاد والتضحية؟ الآن جاء الموعد يا أماه، فلقد رأيت نفسي أقتحم عليهم موقعهم، أقتلهم كالنعاج ثم استشهد، ورأيتني بين يدي رسول الله ﷺ في جنات النعيم، وهو يهتف بي مرحى بك يا محمد مرحى بك.

ترقرق الدمع في عيني الأم، ومدت يدها إلى طرف منديلها تمسح دمعها قبل أن ينحدر على وجنتيها، وهي تقول: وفقك الله يا ولدي، وفقك الله وسدد مراميك، ثم احتضنته تقبله وتقبل يديه ورأسه وبندقيته، وهي توصيه إذا اقتحمت فلا تتردد ولا تلتفت للوراء يا ولدي ولا يأخذك بهم رأفة في دين الله يا حبيبي، وإلى اللقاء في جنة الخلد عند الحبيب المصطفى ﷺإلى اللقاء يا فلذة كبدي ومهجة فؤادي إلى اللقاء، يقبل محمد رأسها ثم ينحني يقبل يدها، وينطلق وهو يقول ابقي الهاتف النقال (البلفون) مفتوحاً إلى جوارك فسأودعك الوداع الأخير من هناك وينطلق وتجلس أم نضال على سجادة صلاتها، تدعو الله من أعماق قلبها لولدها بالتوفيق والقبول.

يجتاز محمد الأسلاك الشائكة حول مستوطنة عتصيون، ويزحف متقدماً نحو المعهد الديني العسكري فيها يفتح جهاز اتصاله ويضغط على أحد أزراره، فتلتقف أم نضال الجهاز من جوارها، قائلة إنها هنا يا مهجة الفؤاد، فيأتيها صوته هادئاً واثقاً، أنا هنا يا أماه، لقد وصلت هدفي يا غالية، وداعاً يا أماه وإلى اللقاء في جنات النعيم، وداعاً يا حبيبتي، سأبقي الجهاز مفتوحاً لتسمعي صوت المعركة، يضع الجهاز على حزامه مفتوحاً، ويتقدم مقتحماً المبنى، وهو يصرخ الله أكبر خرجت خيبر، ويلقي بقنابله واحدة تلو الأخرى، ثم يقتحم الباب للقاعة الرئيسية وهو يطلق الرصاص، وأم نضال تتمتم وهي

تسمع الصوت: اللهم سدد رميه ارمِ فأنت الرامي وأن رميك لا يخيب يا رب العالمين، ويبدأ تبادل إطلاق النار مع القوات التي هرعت للمكان ويسقط محمد وهو يردد أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله فتصدع زغرودة أم محمد وهي تقول الحمد لله الذي شرفني باستشهاده، وأسأل الله أن يجمعني به في مستقر رحمته.

يجتمع الناس وتسألها إحدى جاراتها، ودعته وأنت تعرفين أنه ذاهب للموت، فتقول والله إنه لأحب إلي من الدنيا وما فيها، ولكنه يهون في سبيل الله، وفي سبيل القدس والأقصى والله أني مستعدة أن أضحي بنضال وحسام ورواد في سبيل الله، ومن أجل عزة شعبنا وكرامة أمتنا، وإني لأطمع أن يمن الله علينا برحمته، فيجمعنا جميعاً في مقعد صدقٍ عنده في حضرة الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

دق جرس هاتفي النقال، فرفعته إلى أذني فإذا بصوت إبراهيم يأتي من الطرف الآخر: هلو أحمد السلام عليكم، هتفت بلهفة إبراهيم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أين أنت يا رجل منذ وقت لم أرك، مشتاق إليك ولذلك اتصلت بك، كيف حالك وكيف حال الأهل عندك؟ أبلغ الجميع سلاماتي، ولا يفوتك أن تقبل إسراء وياسر عني. سألت: ألن تأتي لرؤيتهم؟ منذ وقت لم يروك، فرد لا أدري سأحاول ولكنك تعرف كم أنا منشغل، سألت ما هي أخبارك يا إبراهيم؟ ضحك وقال: أتعلم يا أحمد لقد رأيت الليلة رؤيا كفلق الفجر، رأيتني أقرأ أحاديث لرسول الله ﷺ منها عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ﴿ **لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود** ﴾.

ومنها عن عبد الله بن حوالة قال رسول الله ﷺ ﴿ **ستجندون أجناداً، جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن، قال عبد الله فقمت وقلت مرني يا رسول الله، فقال عليك بالشام فمن أبي فليلحق بيمنه وليستق من غوره، فإن الله عز وجل قد تكفل لي بالشام وأهله** ﴾ ومنها ﴿ **لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، قالوا يا رسول الله وأين هم؟ قال ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس** ﴾.

وعن عبد الله بن حوالة أنه قال ﷺ **يا رسول الله اكتب لي بلداً أكون فيه، فلو علمت أنك تبقى لم اختر شيئاً على قربك، قال عليك بالشام ثلاثاً، فلما رأى النبي ﷺ كراهيته للشام قال هل تدري ما يقول الله ﷻ يقول يا شام يا شام، يدي عليك يا شام، أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي أنت نعمتي، وسوط عذابي أنت الأندر وإليك المحشر، ورأيت ليلة أسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قالوا: نحمل عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام، وبينما أنا نائم رأيت كتاباً اختلس من تحت وسادتي، فظننت أن الله تخلى عن أهل الأرض، فاتبعت بصري فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام فمن أبى أن يلحق بالشام فليلحق بيمنه، وليستق من غوره فإن الله قد تكفل بالشام وأهله** ﷺ.

ثم رأيتني يا أحمد صائماً ورأيت رسول الله ﷺ يقول لي إفطارك عندنا اليوم يا إبراهيم، فأنا في انتظارك، صرخت هل معنى ذلك...قاطعني لا تصرخ يا أحمد لا تصرخ، أنا آخذ أقصى احتياطاتي، لكن هذه دعوة لا ترد، مع السلامة يا أحمد، وأغلق الجهاز.

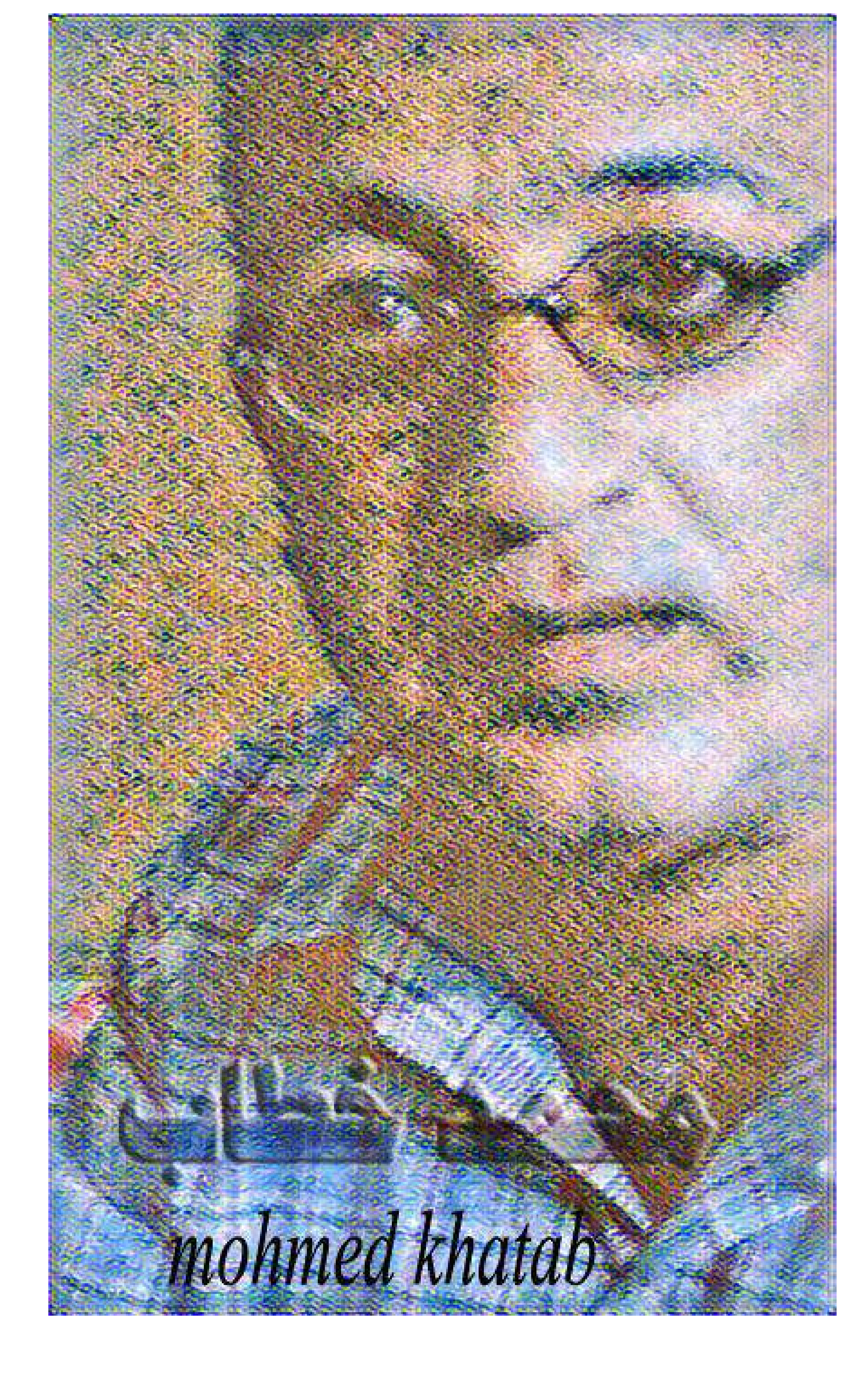
تسمرت مكاني لوهلة وترقرق الدمع في عيني، فقد تأكدت أنها كلمات الوداع ثم انطلقت أصعد السلالم إلى الطابق الثاني، فإذا بمريم تنظر إلي وهي تبتسم قلت هل تحدث معك، ابتسمت وقالت: نعم، ولكن في الرؤيا في المنام لقد ودعني يا أحمد وداعاً لن أنساه ما حييت، وأوصاني على إسراء وياسر.

كانت تبتسم والدمع يترقرق من عيني أنا وانحدرت الدموع على وجنتي ساخنة وهي تبتسم وتقول: تبكي أيها الأبله ماذا دهاك...؟!!جاء صوت الانفجار عالياً حين قصفت طائرة الأباتشي السيارة التي كان إبراهيم يستقلها، شعرت أن قلبي قد توقف عن النبض فقمت جارياً.

آلاف اندفعوا نحو السيارة التي قصفت وسمعت البعض يرددون أن هذا إبراهيم الصالح، جمعت أشلاء إبراهيم وحملتها على إحدى الحمالات واندفعت الجماهير كبحر هائج حول جثمان الشهيد نحو الدار، عند باب الدار، وقفت مريم وهي تلف منديلها حول رأسها لتغطي شعرها والبسمة لا تغادر شفتيها وزغرودتها تعلو على صوت الحشد الهادر، إلى يمينها ياسر وإلى يسارها إسراء ورأس أمي يطل من ورائها وهي تمسح دمعتها بطرف منديلها.

وصلت الباب في نفس اللحظة التي خرج فيها محمود من الدار، حملت ياسر على كتفي وحمل محمود إسراء على كتفيه ومددت يدي لمريم ومد محمود يده فإذا بها تناول كل واحد منا بندقية كلاشينكوف، تناولنا البندقيتين، ورفعناهما فوق الرؤوس وانطلقنا والجماهير من ورائنا تهدد خيبر خيبر يا يهود... جيش محمد سوف يعود، بسم الله أكبر... بسم الله قد حانت خيبر بالروح بالدم نفديك يا شهيد...بالروح بالدم نفديك يا فلسطين...عالقدس رايحيين... شهداء بالملايين، ومن شوارع جانبية خرج الآلاف من الملثمين من كتائب الشهيد عز الدين القسام بلباسهم المعروف يصطفون في صفوف لا نهاية لها، يرفعون الرايات الخضراء، ومن كتائب شهداء الأقصى بلباسهم المعروف يصطفون في صفوف لا نهاية لها ويرفعون الريات الصفراء ومن كتائب سرايا القدس يرفعون الرايات السوداء، وغيرهم يحملون أسلحتهم، يلوحون بها في الهواء، أسلحة من أنواع شتى في وداع الشهيد كنت أهز بندقيتي وأمسك ياسر باليد الأخرى وهو على كتفي، وصور ومواقف كلمات إبراهيم لا تفارق ذهني خاصة تلك الكلمات الأخيرة التي حدثني بها.

انتهى في ديسمبر ٢٠٠٤ سجن بئر السبع، ايشل فلسطين،
انتهت هذه الرواية في زنازين سجن بئر السبع واكتملت بفصلها الثلاثين ولكن لا زالت مأساة كاتبها ورفاقه مستمرة في أقبية سجون الاحتلال.


mohmed khatab

